أندرياس جروبر يثبت مجددًا أنه عملاق في عالم الإثارة- Crime Fiction Lover

آخر موعد للقتل

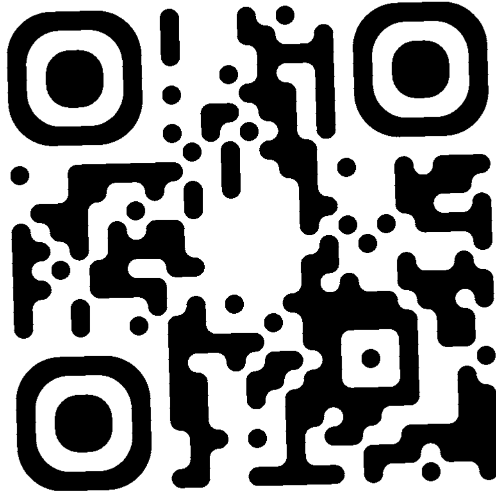
TODESFRIST

أندرياس جروبر



ترجمتها عن الألمانية: ياسمين يحيى

مكتبة



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

آخر موعد للقتل



الكتاب: آخر موعد للقتل

تأليف: أندرياس جروبر

ترجمها عن الألمانية: ياسمين يحيى

تحرير: يحيى محمد عبد الغفور

التدقيق اللغوي: د. حمودة المصري

تصميم غلاف: عبد الرحمن خلف

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

رقـم الإيـداع: 29047/ 2024

الترقيم الدولي: 978-977-9613-92-5

Email: bayt.alkotob.publishing@gmail.com

Website: www.thebookhome.com

Mobile: +20 1098620135

facebook: baytalkotob.publishing

Instagram: bayt.alkotob.publishing

آخر موعد للقتل

أندرياس جروبر

رواية

ترجمة

ياسمين يحيى

مؤلم! والآن بالمقص

يُقطع الإبهام ويُقص يُقص!

بالمقص الحاد الكبير

يزداد كونراد في العويل

من كتاب: بيتر ذو الرأس الأشعث

هاينرش هوفمان

إلى

هايدماري، وفيرونيكا، وجينتر

شكرًا جزيلًا لكم يا أحبّائي

مقدمة

هبط المصعد متجهًا نحو القبو، يصاحبه صوت طنين منتظم، ثم انفتح الباب، فغمر ضوء النيون الشاحب مقصورته، وسارت كارمن عبر جراج السيارات بالقبو المهجور، كم كانت تكره الخرسانة الرمادية والإضاءة العقيمة هنا بالأسفل! ففي يوم الإثنين من كل أسبوع في الخامسة صباحًا عندما تنتهي نوبة عملها الليلية، تجد الطابق السفلي الثاني يسوده صمت مطبق، والسيارات كأنها أشخاص تجلس القرفصاء، فتبدو ككائنات متربصة في ظلال الأعمدة، ولا يبرز في الضوء منها سوى مقدماتها، لا يوجد إنسان واحد في أي مكان. في بعض الأحيان كان المرضى العقليون يتسكعون في قبو معهد علم الأمراض بجامعة فيينا، فتتساءل هي عن احتمالية سطوهم على امرأة تبلغ من العمر سبعة وأربعين عامًا، فهل زادت فرصتها في العيش بسلام بمفردها، أم انخفضت مع تقدمها في السن؟

اقشعر بدن كارمن في أثناء تقدمها نحو سيارتها في زي التمريض الأبيض، كان ذلك بساحة انتظار سيارات U2-P58، إنه الرقم نفسه منذ ثلاث سنوات، فهي ساحات انتظار للسيدات فقط، وقد ظلت الإضاءة الوامضة في تلك الزاوية معطلة تمامًا، كما حجب كيس القمامة الخاص بعمال الطلاء والتجديدات الكاميرا مرة أخرى، كان من المفترض إنهاء العمل في عيد الميلاد الماضي.. والآن نحن نقترب من نهاية شهر مارس، فهل نفد الدعم المالي للمستشفى؟

بلغت كارمن سيارتها الفولكس فاجن جولف، وضغطت على المفتاح، فومضت إضاءة السيارة باللون الأصفر مرتين، في تلك اللحظة رمقت ظلًّا لجسد طويل من زاوية عينها، ثم خرج الرجل بسرعة من خلف العمود، وقبل أن تتمكن من الالتفات أو حتى رفع ذراعها، شعرت بلسعة خفيفة في مؤخرة رقبتها.

وعندما فتحت كارمن عينيها، وجدت نفسها محاطة بظلام قاتم، لم تكن في غرفة نومها، أو حتى في شقتها، فقد كانت تفتقد دقات الساعة، ورائحة الشراشف النظيفة، والضوء الأحمر الوامض من مسجل الفيديو، وبدلًا من ذلك فاحت منها رائحة الرطوبة والخشب والإسمنت.

موقع بناء؟

عرفت بصورة غريزية أنها لم تكن مستلقية، بل قائمة منتصبة.. فمن أين عرفت؟ ليس لديها أي فكرة، ربما لأن الدمعة انحدرت على خدها نحو الأسفل، وعندما أرادت أن تمسحها عن وجهها بتلقائية، وجدت ذراعيها قد علقا بلا حراك وبثقل شديد، وفي الحال سيطر عليها الرعب.

ما الذي حدث معي؟

أرادت أن تتحرك، أن تدير رأسها جانبًا، لكنها كانت متصلبة تمامًا، وشعرت بخدر في ساقيها، لم تستطع حتى تحريك إصبع قدمها الكبير، وكأنها لم تعد تملك أي أطراف.

- مرحبًا؟

رددت الجدران صدى صوتها، فبدا وكأنه صدى القبور، ورغم ذلك بدت نغمة الصوت مكتومة بشكل غريب، طغى عليها شعور باندفاع دمها، مثلما حدث معها وهي تقضي إجازتها على الشاطئ في كرواتيا وهي فتاة صغيرة، عندما وضعت صَدَفة على أذنها للاستماع إلى الأمواج.

أغلقت عينيها.. ما تلك الرائحة الغريبة! كان هناك أثر لرائحة بخور وسط الرائحة الصخرية والترابية العفنة، جنون!

تحسست شفتيها بلسانها؛ **حبيبات ترابية،** ثم ابتلعت، يا له من طعم حامض! فجأة أرادت أن تتقيأ، فغصت وبصقت العصارة الصفراوية المُرة، التي صارت تسيل على ذقنها، فماذا حدث للتو؟

لم تستطع البصق بشكل صحيح، كما عجزت عن لف رأسها أو خفضها، فقد كان هناك إطار حاد وصلب يحيط بوجهها، كما أنها وجدت صعوبة في التنفس، وكأنّ هناك مشدًّا حديديًّا ضيقًا يقيد صدرها.

- مرحبًا؟

اللعنة! نأمل أن يكون هذا مجرد كابوس، فكم مرة ركضت إلى أَسِرَّة أطفالها ليلًا لتهدئتهم عندما يصرخون؟

عد إلى نومك يا صغيري، إنه مجرد حلم سيئ! ماما هنا، أما الآن فهي تعيش وحيدة في شقتها.

لكن ما حدث الآن حقيقة.

فقد كان الطعم في فمها وإحساس الغصة في حلقها حقيقيين للغاية، والصداع النابض يدق في الجزء العلوي من جمجمتها من الداخل بشكل واضح جدًّا، كما كان يزداد سوءًا كلما حاولت التحرك أكثر.

فما هو اليوم؟

أرادت تدليك صدغيها، فتلك الحركة تساعدها في معظم الأحيان على التفكير. لماذا لا تستطيع تحريك يديها؟ فأصابعها خدرة جدًّا، وكأن شخصًا ما قد قطع أعصابها كلها.

اهدئي! ما هو آخر شيء تتذكرينه؟ وفجأة أدركت؛ الجراح بالقبو! الرجل خلف العمود! الوخزة برقبتها! ثم تلاشت ذاكرتها، ومع تسارع دقات قلبها أدركت كارمن أنها لم تعد تقول مرحبًا فحسب، بل أخذت تطلب المساعدة:

«ساعدوني!». وقد فعلت بصوت يزداد ارتفاعًا حتى انقطعت أنفاسها ولم تستطع التنفس إلا بشكل متسارع بسبب الضغط على صدرها.

وأخيرًا سمعها أحد.

وفي مكان بالجوار مباشرة ظهر بصيص ضوء من تحت أحد الأبواب، ومع ذلك كان الضوء ضعيفًا جدًّا، لدرجة أنها لم تتمكن من رؤية شيء بالمكان، اقترب وقع خطوات من الباب، ببطء ولا مبالاة، بدا وكأن هناك شخصًا يهبط من على الدرج.

أخذت كارمن تعد بشكل غريزي ست عشرة خطوة، إذًا فهذا المكان يقع على بعد طابق واحد للأسفل.

لكن أسفل ماذا؟

صرخت مجددًا: «ساعدوني!»

وهنا رن صوت المفتاح المعدني وهو يدور بالقفل، واهتز جنزير، هل كان طلب المساعدة في هذا الوقت بالذات فكرة جيدة؟ كان عليها الانتظار حتى يتلاشى أثر الشلل، فقد كان بوسعها حينئذ تفتيشَ الغرفة مسبقًا بحثًا عن طريق للهروب أو على الأقل عن سلاح، وأخذ قلب كارمن يخفق، فمن المؤكد أن الحثالة الذي حقنها هو القادم!

فُتح الباب المعدني العملاق، وتراقص شعاع الضوء في الغرفة، فأصابها بالعمى للحظة. كان الرجل يرتدي مصباحًا في رأسه، فأغمضت كارمن عينيها وفتحتها، لكنها لم ترَ سوى جسده النحيل بداية من الخصر حتى الأسفل، كان يرتدي سروالًا رماديًّا وحذاء عمل، فهل هو رجل حتى؟

قالت لاهثة: «من أنت؟»

لكنها فكرت في اللحظة نفسها: «يا له من سؤال غبي!» فالحثالة لن يعطيها أي إجابة. مشى نحوها، فخشخش الحطام والحصى تحت نعل حذائه. ولا إراديًّا أخذت كارمن تفكر في رائحة موقع البناء، هل هي داخل

سرداب تحت الإنشاء، أم لا تزال في جراج السيارات أسفل مبنى معهد علم الأمراض؟ لا، بالتأكيد هي ليست في المستشفى، فهي لم تلحظ قطّ رائحة البخور هناك.

- ماذا تريد مني؟

لم يعطها أي إجابة هذه المرة أيضًا، من المؤكد أنها ستكتشف ذلك في أقرب وقت ممكن، فبطبيعة الحال لن يستطيع الاحتفاظ بها هنا إلى الأبد، فقريبًا ستتمكن من تحريك ذراعيها وقدميها مجددًا، وعندها فليرحمه الله منها، فمهما كانت نيته.. لن يصل إلى هدفه أبدًا، فقد أغضبتها جدًّا فكرة أنه جبان تغلب عليها بحقنها من وراء ظهرها، لدرجة أنها أرادت أن تضربه على رأسه بأول شيء تستطيع التقاطه بأصابعها.

وهنا فتح الرجل فمه، فبدا صوته مشوهًا، كأنه يعاني من خلل في الحنجرة أو قطع في القصبة الهوائية، قال: «لقد حقنتك بمخدر..».

يا فتى.. ليس لديك أي فكرة عما سأفعله بك في اللحظة التي تدير فيها ظهرك لي، لقد اخترت الشخص الخطأ!

وأردف هو: «.. ومرخيات عضلات».

وامتنع عن تقديم مزيد من التفسيرات، فهي لم تكن ضرورية؛ لأنه يعلم أنها ممرضة من هيئة ملابسها، وقد أظهرت بطاقة هويتها المعلقة على بلوزتها أنها موظفة في قسم أمراض النساء.

- ومع ذلك لم أستخدم مسكنًا.

بدا صوته خاليًا من المشاعر، كأنه يشعر بالملل من التوضيح.

أعماها مصباح الرأس مرة أخرى، لكن تلك المرة لمدة أطول. من الواضح أنه ظل يراقب ردود فعلها.

ومن بين عشرات الأسئلة التي دارت في ذهنها في وقت واحد، كان هناك سؤال شغلها أكثر من غيره: لماذا أخفى وجهه عنها؟ هل تعرفه؟ ربما لم يكن ينوي قتلها. كان التفكير يريحها، ولكن هناك شأن معه يتعلق بها، مهما كان الأمر، فإنها ستغتنم الفرصة الأولى لقتله قبل أن يتمكن من إيذائها، لكن هل بوسعها فعل ذلك حتى؟ لم تشك في ذلك للحظة، فإذا كانت تساعد كبير الأطباء في التشريح وتضع المشرط في عظْمة صدر رجل ميت، ثم تسحبه إلى السرة، أو تدق مسمارًا أو قلمًا رصاصًا باردًا في كُلية فلان أو رئته... فما الفرق؟ إذا جثا أمامها متأوّهًا، فلن تشعر ولو للحظة بأي تأنيب ضمير.

لقد اخترت الشخص الخطأ! فالشقراء الشابة من مكتب السكرتارية ربما كانت اختيارًا أفضل.

- هل تسمعينني؟

بدا الصوت الأجوف متعاليًا؛ مما زاد من حدة غضب كارمن، لكنها لم ترد. بالطبع سمعته، لقد سمعت كل كلمة لعينة. عادةً ما يُستخدم المخدر ومرخيات العضلات والمسكنات قبل العمليات الجراحية لجعل المرضى يفقدون الوعي ويصيرون غير قادرين على الحركة ولا يُحسون بالألم، وعادة ما تضاف جرعة إضافية من المسكنات.. لكن هذا الحثالة أعرض عن إضافتها كما يزعم. وبصرف النظر عن الصداع النصفي الهائج، فهي لم تشعر بأي ألم، فما الذي ينوي فعله بها بحق الجحيم؟

اقترب خطوة وكأنه قد خمن سؤالها، فأعماها الضوء الحاد، وقال: «يموت ضحايا الحروق عادةً بسبب فشل التنفس الخلوي[1] بمجرد تدمير أكثر من

(1) هو الطريقة التي يحصل بها الكائن الحي على الطاقة من الغذاء باستخدام الأوكسجين (أو في بعض الحالات دون الحاجة إليه)، هذه العملية أساسية لجميع الكائنات الحية المعتمدة على الأوكسجين للحصول على الطاقة اللازمة للحفاظ على حياتها.

ثلثي خلايا الجلد، ولمنع حدوث الشيء نفسه لك، لففت يديك وقدميك بأكياس القمامة، أنت ترتدين معطفًا واقيًا من المطر وسروالًا بحريًّا قديمًا».

توقفت كل الأفكار في رأس كارمن، وفجأة استحوذ الغريب على انتباهها كله.

- ربما لا تسمح الملابس بنفاذ الهواء، لكنها على الأقل طاردة للماء، وسيمنع ذلك حدوث أي حروق كيميائية للجلد بسبب الإسمنت.

توقف هنيهة وأردف: «على الأقل في المناطق المهمة».

علامَ يتحدث ذلك الرجل بحق الجحيم؟ حاولت كارمن تحريك أصابعها، أو الالتفات برأسها، أو رفعها، لكنها باءت بالفشل.

- وبلا شك سيطرأ عليك بمرور الوقت شعور صريح بالحكة، عندما يتكدس العرق مكونًا فطريات وطفيليات، أتمنى أن يكون لديك جهاز مناعة جيد وألا تكوني بحاجة إلى أدوية منتظمة؛ لأنك لن تحصلي عليها هنا بالأسفل، لم تعد لديك حرية الوصول إلى عروقك.

كانت كارمن تتناول أقراص ضغط الدم كل يوم، لا شيء بخلاف ذلك، فابتلعت الطعم المُر شاعرة بصدرها يضيق بشكل متزايد، وتحشرج صوتها: «ماذا...؟»

بدا صوته خاليًا من المشاعر: «هل أثرت اهتمامك أخيرًا؟»

لم ترد عليه، فذلك كله بلا معنى، فهو لم يترك لها وقتًا لكي تفكر بوضوح.

- أخشى ألا تموتي بسبب الفشل الكلوي.

ولماذا تموت بتسمم كلوي؟ كانت المصطلحات التي لا يستخدمها سوى الأطباء والممرضات جارية على لسان الرجل، فهل يعرفها من معهد علم الأمراض أو أي معهد آخر؟ فهناك دائمًا نقاط اتصال مع الأقسام الأخرى، ربما يكون واحدًا من عشرة آلاف موظف تقريبًا في مستشفى فيينا العام، وقد مر بطريقها هناك.

كم مضى من الوقت منذ أن حقنها بالمخدر؟ ثماني ساعات؟ بالتأكيد بدأ من في المستشفى يبحثون عنها بالفعل.

قال: «كما ترين..»، ثم قطع خطوة أخرى تجاهها وخفض رأسه، فسقط الضوء على الأرض: «هذان الخرطومان وظيفتهما منع تراكم مخلفاتك، سأحضر لك شيئًا لتأكلي وتشربي كل يومين».

وثب قلبها، أرادت أن تخفض رأسها، لكنها لم تتمكن من ذلك، رأت بطرف عينيها أنبوبًا بلاستيكيًّا رفيعًا ينزلق من بين أصابعه، ويسقط طرفه في دلو معدني.

قال: «لكن بالنسبة للألم، فأنا لا أستطيع إزالته»، ثم تنفس بعمق، فلاحظت كارمن الإثارة في صوته الممسوخ، وكأنه ينتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، وأردف: «أنا لا أعرف متى سيبدأ تلاحم العظام، ولكن أعتقد أن مفاصلك ستبدأ بالتصلب قريبًا، سيتضخم عمودك الفقري، وسوف تنمو أظافرك مرة أخرى، لكنك لن تدركي أي شيء حينها»، بدا الصوت وكأنه يبتسم: «فرهاب الأماكن المغلقة والضغط النفسي سوف يدفعانك إلى الجنون قبل ذلك الحين».

لم تتفوه بكلمة واحدة، وقد انمحت فكرة قتله من عقلها، إنه خطير ومجنون. وببطء تسلل الذعر بداخلها، وظنت أن الأمر برمته ربما يكون مجرد كابوس، لكنه من نوع الكوابيس السيئة التي تجعلك تحمد الله بمجرد الاستيقاظ على أنه ليس حقيقة.

صرخت: «أريد ماء!».. كان فمها جافًّا للغاية.

فأجاب: «غدًا».

- ماذا ستفعل بي؟

وقف أمامها مباشرة وتفرس في ملامح وجهها، ففاحت رائحة أنفاسه: «ألم تستوعبي ذلك بعد؟»

تراجع بضع خطوات، ووصل بيده إلى الأعلى، لم تر الشيء الذي أنزله، لكنها سمعت قعقعة سلاسل فقط، يبدو أنه كان يسحب بَكرة.

- لن يجف المعجون الإسمنتي إلا بعد ثماني ساعات، بعدها سألفّ تلك الكتلة بهذه البكرة.

ترك السلسلة ووقف خلف كارمن، فسقط الضوء المنبعث من مصباح الرأس على مرآة تتدلى من طرف السلسلة، وانعكس شعاع الضوء متراقصًا على الجدران؛ طوب أحمر، ولا يوجد طلاء، كان القبو فارغًا ولم يمتد خلفها كثيرًا، يشبه قبو نبيذ صغيرًا، ظنت كارمن أنها تستطيع تمييز وجود خطافات معلقة في السقف الحجري.

- آمل ألا تصابي بنوبة هلع عند رؤية منظرك، تذكري دائمًا: قفصك الصدري يضيق، ولا يمكنك التنفس إلا بشكل متسارع! كلما كان رد فعلك أكثر هدوءًا، كان ذلك أفضل لك، وبمجرد أن يحدث لك فرط تنفس، ستختنقين.

استدارت المرآة حتى تتمكن من رؤية وجهها للحظة.

وقد رأت وجهها فقط!

خوف وهلع وجنون، جميعها اندفعت داخلها في الوقت نفسه، وأخذت تبكي: «لا! لا، من فضلك لا... يا إلهي، لا...!».

تتابعت أفكارها، فجأة صار لكل شيء معنى؛ تفسيراته عن الجلد، والكُلى، والعمود الفقري، ورهاب الأماكن المغلقة، والقسطرة الوريدية، في الواقع لم يعد لديها أي حرية للوصول إلى أوردتها.

ففي المرآة المتدلية أمامها رأت عمودًا خرسانيًّا يبلغ ارتفاعه مترين وعرضه حوالي قدمين في بطانة خشبية مستهلكة، فقط وجهها -بداية من الجبهة إلى الذقن- هو الذي يبرز من السطح الرمادي.. بجانب أنبوبين عند مستوى الخصر.

صرخت: «لا! لا من فضلك لا!»

بدأت تبكي، وتشنجت عضلاتها تلقائيًّا، كأن بوسعها تفجير الخرسانة، ولكن كلما حاولت التحرك أكثر، حصلت على كمية أقل من الهواء، فهي تعجز عن رفع قفصها الصدري.

أرجوكم، فليساعدني أحد!

لا بد أن يأتي شخص ما ويحطم الكتلة الخرسانية بمطرقة قبل أن تفقد عقلها كليًّا.

صاحت بأقصى قوتها: «النجدة!»، ثم لهثت لالتقاط أنفاسها، وتوسلت قائلة: «من فضلك حررني، أرجوك!».

لن تؤذيه، لقد وعدتْه بأنه إذا حررها من الخرسانة الآن، فلن توجه إليه أي اتهامات، ستسامحه وستنسى كل شيء.

- أرجوك!

تقدم إلى الأمام مرة أخرى، فلاحظت هي من خلال مصباح الرأس كيف هز رأسه بشكل غير محسوس.

قال: «لقد حقنتك بمضاد حيوي واسع المجال تحسبًا لأي شيء، وسأمدك أيضًا بأقراص فيتامين بشكل عرضي، لكنك ستظلين مصابة بالكساح»، ثم سلط الضوء على وجهها وقال: «وستبدأ عيناك تعاني من رهاب الضوء».

في البداية لم تفهم ما كان يقصده؛ حيث كانت تسمع فقط شهقاتها، ووجهها المذهول لا يزال متمثلًا في ذهنها، لكنه كرر كلامه.

نقص فيتامين وتحسس ضوئي؟ ولن تظهر هذه التأثيرات إلا بعد أسابيع، فإلى متى سيبقيها محاصرة بهذه الكتلة؟

انهمرت الدموع على وجهها، وشعرت بمذاقها المالح على شفتيها: «متى ستسمح لي بالخروج من هنا؟»

هز رأسه: «سأراقب لأرى كيف ستظلين على قيد الحياة خلال الأشهر القليلة المقبلة».

أشهر؟ ستين أو تسعين يومًا، ربما نصف عام! كانت كالمشلولين، ومع ذلك علِقت بعض التفاصيل الصغيرة في ذهنها.

فهو لم يضع احتمالية لنجاتها خلال الأشهر القليلة المقبلة، ولكن كيف. كيف؟

في حالة من الخوف والجنون!

- رجاء لا! يجب ألا تفعل ذلك!

أمال رأسه: «يا إلهي! لقد فعلت ذلك بالفعل».

- ولماذا أنا بالذات؟

- ربما عليك اكتشاف ذلك بنفسك.

- لماذا بحق السماء؟

فجأة تغير صوته، أصبح أكثر إشراقًا، كأنه فتاة تقرأ أسجوعة أطفال بالحضانة.

لا، لا يمكن أن يكون كل ذلك حقيقيًّا، أغمضت كارمن عينيها، وصلت للرب بقلبها ليجعلها تستيقظ أخيرًا، توسلت بقوة أكبر حتى لا تضطر إلى سماع صوت هذا الرجل بعد الآن.

من فضلك يا ربي الحبيب، اجعل هذه الكتلة تسقط وتتحطم! ردني لأستيقظ في سريري وأعود إلى العمل في اليوم التالي، رجاء!

لكن الرب لم يسمع لها.. وبدلًا من ذلك أحست بالرجل وكيف ابتعد عنها، وأغلق الباب المعدني، ثم سحب السلسلة من المقبض، وصعد الدرج، في حين رافقته أسجوعة الأطفال خطوة بخطوة...

هل أراد فيليب الجلوس
إلى المائدة اليوم بهدوء؟
وبلهجة غاية في الجد
تحدث الأب إلى الابن
وأما فيليب فلم يسمع
ما حدثه به الأب
وظل يهتز ويعبث،
ظل يتخبط ويتمايل،
على الكرسي ذهابًا وإيابًا
فيليب، أنا أستنكر ذلك للغاية!
وفجأة عرفت من الذي اختطفها.

الفصل الأول

بعد مرور شهرين

من الأحد 22 مايو إلى الإثنين 23 مايو

«العالم في الواقع
مكان محفوف بالمخاطر
فهناك كثير من الأشياء السيئة
التي قد تصيبك في الخارج
وهي تنجح في ذلك في كثير من الأحيان أيضًا»

آنا سالتر[1].

(1) عالمة نفس أمريكية، وخبيرة معترف بها دوليًا في مجال التحرش الجنسي، وكاتبة روايات بوليسية.

1

اعتدلت كرستين وكوني وفيونا في السرير في الوقت نفسه، فطارت الوسائد والدمى جانبًا.

صرخت كرستين بحماس: «ماذا سترويين لنا من حكاياتك غدًا يا خالتي بينه؟».

كانت زابينه تكره لقب «الخالة»؛ لأنه يعطي انطباعًا بأنها كبيرة في السن، وهذا ما لم يكن حقيقة، والشكر للرب، لأن عمرها ستة وعشرون عامًا.

أجابت: «غدًا ليس لدي نوبة عمل ليلية؛ لذا سأظل في البيت لأستريح منكن أيتها الشقيات».

صاح الثلاث في صوت واحد: «إذًا بعد غد!».

بدت بنات أختها، اللاتي هن في عمر الرابعة والخامسة والسابعة، بشعرهن الأشقر القصير وكأنهن ثلاثة أنابيب أرغن، بل كن مُلحّات في طلباتهن بحق.

- وبعد غد، يا خالتي بينه، ماذا ستحكين لنا؟

توجهت زابينه إلى النافذة. كان الأفق ملطخًا بالفعل بالشفق الأزرق الممتزج بالبرتقالي. ستبدأ خدمتها بعد قليل. أضيئت كاتدرائية السيدة العذراء في ميونخ، وكانت قبتا البرجين القويين تعلوان فوق أسطح المنازل على مسافة بعيدة، وفجأة اجتاح معدتها شعور مؤلم، وكأن جزءًا منها يموت. ابتلعت زابينه المذاق المر، لا تعرف لماذا؟ لكن منظر الكنيسة ذكّرها بالموت، وسرعان ما أغلقت ستارة سبونج بوب الصفراء.

- في المرة القادمة سنتلقى طلبًا من الفاتيكان.

صاحت فيونا الكبرى فيهن: «من البابا؟ لكن لماذا؟».

لم تكن زابينه تعرف ما الذي يحدث معها، حاولت أن تسلي نفسها: «سيحل عيد الخمسين قريبًا، والبابا يسافر كثيرًا، ويحتاج إلى فريقنا لتأدية مهمة أمنية صعبة للغاية».

- إلى أين سنذهب؟

رفعت زابينه حاجبيها وقالت: «نذهب؟! سوف نطير! وبأسرع طائرات الهليكوبتر لدينا، فقد طُوِّرت حديثًا في مختبرنا السري».

- شيء مثير للإعجاب! ولماذا يطلب البابا منا ذلك؟

لكزت فيونا أختها الجالسة بجانبها بمرفقها: «لأن لدينا أفضل المعدات!».

وأكدت زابينه: «بالضبط، أجهزة المراقبة الليلية، والسترات المضادة للرصاص، والأجهزة اللاسلكية الدقيقة».

صرخت فيونا: «رائع!»، واتسعت عينا كرستين، في حين ظل فم كوني مفتوحًا.

دق الباب، وقد كانت أخت زابينه تسترق النظر من خارج غرفة الأطفال: «حان وقت النوم، قلن لزابينه: طابت ليلتك!».

صرخت كوني الصغرى بحماس: «بعد غد سنكون في خدمة السابا[1]!».

هزت زابينه رأسها دون أن تظهر ذلك وهمست: هوششش، إنها مهمة سرية، لا تخبرن أمّكن بكلمة واحدة، وإلا عرضناها للخطر».

هتفت الفتيات: «أووه، يا للعجب!»

عانقت زابينه بنات أختها وطبعت قبلة على خد كل منهن، ثم أطفأت الضوء، بعدها تركت الباب مفتوحًا وذهبت إلى أختها في الردهة.

هزت مونيكا رأسها باستياء مصطنع: «ما هذه القصص التي ترويها لهن دائمًا؟».

(1) لا تستطيع نطق لفظة "البابا".

- إنهن يعشقن مثل هذه القصص.

زفرت مونيكا: «أعلم ذلك، يمكننا تطعيم القصص بحكايات الجنيات والأقزام والأميرات، لكن لا تبالغي!».

رغم أن أخت زابينه، التي تكبرها بثلاث سنوات، وقفت متكئة بشكل مائل على إطار الباب، كانت لا تزال أطول منها بمقدار نصف رأس، من الصعب تصديق أنهما أختان، فطول زابينه كان مترًا وستين سنتيمترًا فقط، لكن -لحسن الحظ- أنعم الرب عليها بجسم رشيق ونحيف، وقد أطلقت على ذلك اسم «تدارك العدالة»، توقفت أختها عن تلقي تعليمها في مجال المبيعات، وصارت الآن توزع سماعات الرأس الصوتية لزوار متحف المدينة بدوام جزئي، في حين ارتادت زابينه المدرسة الثانوية الرياضية، ولم تتوقف عن التدريب حتى يومنا هذا، هناك الركض والبيلاتس وركوب الدراجات الجبلية. وقد تهكم عليها بعض زملائها عندما حاولت أن تعوض أمر قِصَر قامتها، لكنها لم تعرهم أي اهتمام! كان عليها أن تحافظ على لياقتها في وظيفتها.

مسّدت مونيكا على شعر زابينه البني الداكن، وتركت خصلة ملونة تنساب على أصابعها: «تلك الخصلة الفضية تليق بك».

- أعلم ذلك، شكرًا لك! إنها من المغرب، من مهمتنا الأخيرة مع الفريق الأمني. كرستين تريد واحدة أيضًا.

عندما وقعت عيون مونيكا على سلسلة القلب الذهبية المعلقة في رقبة زابينه، تحولت إلى الجدية: «يا إلهي!»

إنها هدية من أبيها، ظلت زابينه ترتديها منذ انفصال والديها قبل عشر سنوات. وعندما عادت هي ووالدتها من كولونيا واتجهتا نحو ميونخ، علمت بسلوك أختها، فمنذ طلاق الوالدين ومونيكا تتعامل بشكل سلبي مع والدها، بل محت كل ما يذكرها به من حياتها، إنها ببساطة لا تريد أن تفهم أن زابينه لا تزال مرتبطة بوالدها، الأمر بسيط جدًّا: فلا يمكن أن نحمل

أيًّا منهما ذنب الانفصال وحده، وعلى مونيكا خصوصًا أن تفهم هذا الأمر بشكل أفضل.

سألت زابينه: «هل حصلت على نفقتك لهذا الشهر؟»

انسلت يد مونيكا من شعرها: «إنه متأخر عن الدفع منذ ثلاثة أشهر».

سبّت زابينه: «يا لهذا الهراء!»

فقد كان طليق شقيقتها رجلًا حقيرًا.

ابتسمت مونيكا وأشارت إلى باب غرفة الأطفال المفتوح: «اهدئي! سيردد هؤلاء الأشقياء ما تقولين أيضًا».

ابتسمت زابينه: «آه...»، ثم تحولت إلى الجدية مرة أخرى: «هل عليّ التدخل؟».

- لا، سيدفع جابرييل.

أومأت زابينه برأسها، ثم أخرجت سلاحها الحكومي من الخزانة ودسته في حافظته، ودت لو لقنت جابرييل درسًا، فأختها تكدح من أجل العيش وهي أم عازبة مسؤولة عن ثلاث فتيات.. تعمل بدوام جزئي في المتحف، وشقة تبلغ مساحتها خمسين مترًا مربعًا، تنام فيها على أريكة بغرفة المعيشة، في حين تتقاسم الفتيات غرفة النوم، ذلك كله ولم يَرد لها السيد المحامي سنتًا واحدًا.

دست زابينه محفظتها في جيب سترتها وربطت حذاءها: «إذا احتجت مساعدة، اتصلي بي، فأنا في نوبة عمل ليلية ويمكن الوصول إليّ في القسم».

وضعت شارة الضابط على حزام خصرها، وأغلقت سترتها، فأخفت بها سلاح الخدمة والخزينة الاحتياطية المعلقين في حزام البنطال.

عانقتها مونيكا واحتضنتها لفترة أطول من المعتاد: «أعلم ذلك يا صغيرتي، أشكرك! فلولاك لأصبت بالجنون».

- سيكون كل شيء على ما يرام، ستأتي أمي لزيارتك غدًا وستعتني بالفتيات، أليس كذلك؟

أومأت مونيكا برأسها: بالمناسبة، كيف حال أمي؟ هل ذهبتِ معها ليلة الجمعة إلى هذه الدورة الغريبة مرة أخرى؟

لم تكن حصة البيلاتس مضحكة، إنه المحاضر فقط، فهو كشجرة فاصولياء بعمر الخمسين. ثم شعرت زابينه بهذا الشعور الغريب في بطنها مرة أخرى: «اضطررت لعدم الحضور، فقد كنت مشغولة جدًّا، ولم أشعر أنني بخير».

رفعت مونيكا حاجبيها: «يا إلهي! وكيف كان رد فعل التنين العجوز؟ هل ذهب بمفرده؟».

- تعرفين أمك، على الأغلب لم تفعل، لقد أخبرتها عبر البريد الصوتي أنني سأتناول قرصًا من دواء باركيميد، وسأزحف إلى السرير، ولم أسمع عنها شيئًا منذ ذلك الحين».

- وهي لم تتصل بك حتى؟ سلوك غير عادي من أمّ.

كم كان ذلك حقيقيًّا! فقد عانت زابينه من شعور الذنب لعدة أيام؛ لأنها شاهدت حلقتين من برنامج «حيل السحرة العظماء» على الأريكة وهي في بيجامتها ونامت بدلًا من الذهاب إلى درس الجمباز، ومن ناحية أخرى رأت أن والدتها امرأة مستقلة وليس عليها الاعتناء بها.

- عندما تأتي غدًا قبّليها من أجلي، سنواصل تمارين البيلاتس يوم الجمعة.

- حسنًا، سأفعل ذلك.. والآن انطلقي!

صفعتها مونيكا على مؤخرتها وقالت: «ألقِي القبض على الأشرار... وضعيهم في قبضة الشرطة!».

ثم ابتسمت مونيكا ابتسامة شقية، وجعلت أصابعها تبدو كمخالب.

هبطت زابينه بالمصعد، وغادرت المبنى السكني الذي تعيش فيه أختها. وفي المساء لم تكن المنطقة المحيطة بمحطة السكة الحديد الشرقية مثيرة جدًّا، وكانت قد صفّت سيارتها على الجانب الآخر من الشارع تحت الضوء الخافت، وبينما هي على وشك فتح باب السيارة، اندفع نحوها رجل من وسط ظلال الأشجار.

- سنجابة!

رفعت زابينه يدها عن سلاح الخدمة الخاص بها: «أبي؟».

ماذا يفعل في ميونخ؟ بدا والدها مروعًا؛ فلحيته القصيرة أعتمت وجهه، وبدت عيناه غارقتين في تجاويف عميقة، وكأنه لم ينم منذ أيام.

- لقد ذهبت إلى شقتك، لكنني لم أجدك هناك، وفي القسم أخبروني أن نوبتك ستبدأ بعد قليل، فاعتقدت أنك تجلسين مع مونيكا.

نظرت زابينه إلى الساعة، لقد تخطت الثامنة بقليل، وعليها أن تذهب إلى مكتبها: «لماذا لم تنتظر في مكتبي؟».

جرت الدموع على خديه.

- يا أبي، ماذا حدث بحق السماء؟

ضمها بين ذراعيه واحتضنها بقوة: «أنا آسف أيتها السنجابة!».

منذ عامها الثالث وهو يطلق عليها اسم «السنجابة»؛ بسبب شعرها البني بالكامل، وعينيها البنيتين الواسعتين، وقد كان ذلك الاسم محرجًا لها في فترة مراهقتها، واليوم -بصفتها امرأة بالغة- صار يحرجها أكثر.

ثم تكلم بصوت متحشرج: «الخصلة الفضية تلائمك جدًّا». وبعدها عادت الدموع تنهمر على وجهه.

قالت له: «أشكرك»، ثم ربتت على كتفه وقالت: «اهدأ، ما الشيء السيئ جدًّا الذي يمكن أن يكون قد حدث لدرجة تدفعك لـ...؟».

- لقد اختطفت والدتك منذ يومين.

تملصت من بين ذراعيه وقالت: «ماذا؟ كيف علمت بذلك؟».

مسّد على لحيته بيد مرتعشة، لم يعد ذا صلة بنشاطات الرجل الستينيّ وحيويته، ذلك الذي لا يزال يعبث بالقطارات القديمة في أوقات فراغه، بل بدا أكبر من سنه بكثير.

اختطاف؟ مَن الذي قد يختطف أمي بحق الجحيم؟

لقد وجدت الأمر عجيبًا، فقبل يومين أرادت الذهاب إلى صف البيلاتس مع والدتها، وحدثتها عبر البريد الصوتي الخاص بها، وفجأة تجد أباها الذي يعيش في كولونيا على بُعد خمسمائة كيلومتر يقف أمامها.

أخرجت زابينه هاتف عملها من جيبها واتصلت برقم والدتها، فسمعت البريد الصوتي، فاختارت الرقم التالي، وعلى الخط الأرضي فُعِّل البريد الصوتي بعد نغمة الرنين الثامنة.

- منذ متى وأنت تعلم بشأن اختطاف أمي؟

- لقد اتصل بي قبل ثمانٍ وأربعين ساعة.

اتصل؟ نظرت إلى والدها غير مصدقة: «هل اتصل بك الخاطف؟» ثم نحّت الهاتف بعيدًا: «هل أبلغت الشرطة الجنائية في كولونيا؟»

- لم أخبر أحدًا بأي شيء.

وفي زلة لسان قالت: «هل أنت مجنون؟»

عليها ألا تفقد أعصابها الآن، فقد تعلمت من خلال عملها في المباحث الجنائية أن الشهود يخطئون في سرد أبسط الوقائع بمجرد أن ينفتح عليهم سيل الأسئلة، ومع ذلك يجب عليها أن تتمالك نفسها حتى لا تسأل بوحشية.

- اركب بالسيارة الآن وأخبرني بكل شيء تباعًا، سنذهب إلى مكتبي.

- لا! لقد قال إنه سيقتلها إذا اتصلت بالشرطة.

قتل؟ نظرت زابينه حولها بالشارع، فمرت بضع سيارات بالقرب منهما، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من المشاة على الرصيف، فخفضت صوتها: «هل تظن أنه يراقبنا؟».

- لا أعرف... ربما لم يعد يراقبنا.

لم يعد!

- أبي، من فضلك! اركب السيارة الآن، ستخبرني بكل شيء ونحن في طريقنا إلى القسم.

ركب السيارة على مضض، وبينما هي تتحرك بالسيارة انطلق التسجيل، وخرج من مكبرات الصوت صوت رنان يسرد، كان كتابًا صوتيًّا لدافيد سافير، وهو كتاب يسوع يحبني.. فأوقفت زابينه تشغيل المسجل.

كانا يمران من شارع روزنهايمر باتجاه نهر إيزار، عندما نظرت لفترة وجيزة إلى والدها وقالت: «اربط حزام الأمان من فضلك».

وبأصابع مرتجفة سحب الحزام من بكرته: «لقد اتصل بي الرجل في المنزل منذ يومين، وقد شوه نبرة صوته بطريقة ما، وقال: «سيد نيميتس، إذا عرفت سبب اختطاف زوجتك السابقة خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، فستبقى على قيد الحياة، وإن لم تفعل، فستموت».

- أكانت تلك كلماته؟

لا بد أن هناك سوء فَهم.

أومأ الأب: «الدليل الوحيد الذي وجدته كان علبة أمام باب شقتي، وبداخلها محبرة سوداء صغيرة».

- لم تلمسها، أليس كذلك؟

- بالطبع فتحتها، ووجدت حبرًا أسودَ بداخلها.

- كان عليك عدم لمس أي شيء، والاتصال بي على الفور، عندها كُنّا سنبدأ عملية بحث واسعة النطاق.

كنا.. كنا.. كنا...

- لقد قال إنه سيقتلها!

- ربما يكون كل ذلك غير حقيقي، وهناك شخص ما...

قاطعها: «زابينه! لقد سمعت صوتها بالهاتف، كانت تتوسل ليساعدها أحد، ثم بعدها سحبها بعيدًا».

انقبض قلب زابينه، فالأمر لا يبدو جيدًا، لم تطلب أمها المساعدة من والدها قط.

- حاول أن تتذكر بالضبط موعد انتهاء الثماني والأربعين ساعة؟

فأجاب بهدوء: «لقد انتهت المهلة بالفعل».

رأته زابينه وهو يبحث عن الساعة الرقمية على لوحة القيادة، وقال: «لقد اتصل بي مرة أخرى منذ خمسين دقيقة تقريبًا، وسألني السؤال نفسه مرة أخرى، ثم قال إن الموعد النهائي قد انتهى، ثم أنهى المكالمة».

مرت زابينه بسيارتها عبر جسر لودفيج أعلى نهر إيزار، ورغم أن حركة المرور مساء الأحد لم تكن متوقفة كالمعتاد، أثارت غضبها السيارات التي لا تزال تتحرك ببطء، فالتقطت جهاز الاتصال اللاسلكي واتصلت بالقسم الملحقة به، فأجاب كولونوفيتش، مدير النوبة الليلية بالخدمة الجنائية الدائمة، بصوت رنان.

قاطعته: «مرحبًا فالتر، زابينه نيميتس تتحدث.. اختطفت امرأة منذ ما يقرب من تسع وأربعين ساعة، إنها حنا نيميتس البالغة من العمر ستة وخمسين عامًا، عاشت في كولونيا قبل آخر عشر سنوات من حياتها، ومنذ ذلك الحين تعيش في شارع فينتسارار شتراسه، بحي شفابينج- غرب، وهي مديرة مدرسة ابتدائية سابقة، والآن متقاعدة. علينا أن نبحث عنها على الفور».

وللحظة ظل الرجل على الطرف الآخر صامتًا، يبدو أنه كان يدون البيانات، ثم تنحنح وقال: «بينه، هل تتحدثين عن والدتك؟».

- أجل، وأنا في طريقي إلى القسم.

تنحنح مرة أخرى، وكأنه يصوغ أمرًا في ذهنه: «لا أريد أن أقلقك، لكن هناك بلاغ وصل إلينا منذ بضع دقائق، لقد عثر قسيس الكاتدرائية ومساعده على جثة امرأة مسنة في صحن الكنيسة».

ضغط والدها بيديه على فمه، وقد سالت الدموع على وجهه مرة أخرى: «يا إلهي، لا!».

كانت الكاتدرائية الأسقفية علامة بارزة في ميونخ، وقد وقع كل من مديرية الأمن وقسم الشرطة ومكتب زابينه في شارع إتشتراسه، على بُعد دقائق قليلة من كاتدرائية السيدة العذراء سيرًا على الأقدام، وقد عرفت طريقًا مختصرًا هناك، فضغطت بغتة على الفرامل وقادت سيارتها عبر الميدان إلى الشارع الجانبي التالي باتجاه البلدة القديمة. صرت إطارات السيارات وتعالت أبواق السيارات خلفها. تشبث والدها بالمقبض، وظهرت أبراج الكاتدرائية المضيئة بقبابها الضخمة وهي تطل من بين أسطح المنازل.

وأضاف كولونوفيتش بسرعة: «نحن لا نعرف من هي بعد».

لكن زابينه شعرت بذلك.

2

يظل الإنسان ينعم بالشباب، ما دام استمتاعه بمستقبله يعادل استمتاعه بماضيه.. تنطبق تلك المقولة على والد زابينه أكثر من أي شخص آخر تعرفه، وقد لمحت آلام الأيام القليلة الماضية في عينيه المنتفختين، لقد انفصل والداها بعد نزاع ساخن على المال وحق الحضانة، ومنذ ذلك الحين وزابينه تظن أن والدها تجاوز الانفصال بالفعل، ونسي زوجته السابقة، لكنها أدركت في تلك الدقائق أنه يفتقدها بشكل مفرط.

صفّت زابينه السيارة في الصف الثاني عند بداية منطقة المشاة، ووضعت الغطاء البلاستيكي الأخضر[1] مع بطاقة هوية الخدمة الجنائية الدائمة على تابلوه السيارة.

وقالت وهي تترجل من السيارة: «انتظر هنا».

ناداها: «هل يسمح لك بالدخول إلى هناك يا سنجابة؟».

- أبي، أنا معاونة مباحث جنائية.

وصلت لرتبتها وهي في السادسة والعشرين من العمر، وبذلك صارت أصغر معاون في الخدمة الجنائية في ميونخ. وبصفتها حلقة وصل مع المباحث الجنائية، غالبًا ما أُطلق عليهم «مطافئ الشرطة»، فدائمًا قبل أن يصل أحد ضباط المباحث إلى مسرح الجريمة، تكون هي قد تحفظت على آثار الجريمة وحددت سبب الوفاة واستجوبت الشهود.

ركضت عبر الساحة إلى البوابة الرئيسة بكنيسة السيدة العذراء، كانت الواجهة المبنية من الطوب الأحمر مضاءة بالمصابيح الأمامية، وتتوهج بظل

---

(1) غطاء بلاستيكي لحماية الوثائق المهمة مثل: **بطاقات هوية الخدمة الجنائية**، أو المستندات الرسمية.

برتقالي قاتم، وبدا البرجان الضخمان قويين للغاية لدرجة أن زابينه لم تتمكن حتى من رؤية عقارب الساعتين في الساحة أمام البوابة الرئيسة، علاوة على ذلك، توهجت القبتان بلون أزرق غريب مائل للاخضرار في الشفق.

لم يكن هناك سوى حفنة من الشباب في الساحة، وعدد قليل من موسيقيي الشوارع يعزفون تحت المصباح، كانوا يتحلقون حول لوحة إعلانية كبيرة تعلن عن قداس بابوي في كنيسة الكاتدرائية قبل أسبوع من عيد الخمسين؛ لذا فإن «السابا» -كما تطلق عليه كوني- جاء بالفعل إلى بافاريا، وفكرت زابينه في قصة المهمة الأمنية التي تريد أن تحكيها لبنات أختها في المرة القادمة.

ركضت زابينه بجوار سيارة الشرطة التي توقفت وسط الساحة، ثم دفعت البوابة الثقيلة بمرفقها حتى لا تمحو أي آثار، لم يضطر زملاؤها إلى فتحه باستخدام فاتحة أقفال، فقد كُسر القفل بإزميل كبير، وكانت هناك شظايا على الأرض، كما لا يمكن التغاضي عن الآثار المنتشرة على الإطار الخشبي، والتي يبلغ عمقها حوالي ثلاثة سنتيمترات، نأمل ألا تكون المرأة الميتة هي الأم... فالفكرة غير واقعية على الإطلاق، وفكرة وجود علاقة بين تلك الوفاة واختطاف والدتها احتمالية منخفضة للغاية، ببساطة لا يقتضي الأمر تحقق ذلك، ولكن لأنه ليس من المفترض تحقق ذلك، شعرت بهذا اليقين بعمق.

كان الصحن الرئيس خاليًا من الناس ومظلمًا، والثريات تحوم فوق المقاعد كأنها أجرام سماوية داكنة، وهناك فقط بضع شموع مشتعلة، نفذ ضوء الشفق من الشوارع عبر النوافذ الصغيرة المشقوقة والملونة، وفاحت رائحة البخور والشمع وخشب المقاعد القديمة، وما أثار خجل زابينه هو اضطرارها إلى الاعتراف بأنها لم تدخل الكنيسة منذ ثلاث سنوات، وحتى وجودها الآن كان فقط للاحتفاظ بآثار الجريمة والأضرار المادية.

بالنظر إلى الأعمدة البيضاء العديدة بدا الجزء الداخلي من الكاتدرائية كأنه متاهة شاهقة الارتفاع، سارت زابينه في صحن الكنيسة الواسع نحو المذبح، فتردد صدى خطواتها عبر الأرضية الرخامية، كيف يمكنها الوصول إلى زملائها بين المصليات الكنسيّة العديدة، وشرفة الجوقة وخزانة الكنيسة وسردابها؟ ثم برق وميض خلفها، فطافت حول نفسها. وأعلى منحنى البوابة الرئيسة يقع الرواق الغربي مثل شرفة واسعة، وفوقه أنابيب الأرغن الفضية الشاهقة، ومصباح يدوي آخر يومض. وقف زملاؤها حول الأرغن، وكانت زابينه تبحث عن الدرج المؤدي إلى الرواق.

كان زيمون وفالنر في الخدمة، وبمنأى عن الجميع قليلًا وقفا ينتظران قسيسًا في ردائه الأسود ورجلًا عجوزًا أصلعَ يرتدي سترة وسروالًا رماديًّا به انثناءات. وبحماس عصر العجوز، الذي لا بد أنه خادم الكنيسة، يديه المصابتين بالنقرس، ورغم عدم وجود أي شخص آخر هنا بالأعلى، طُوِّق المكان. أضاء المنصة اثنان من الكشافات، وأسفل أنابيب الأرغن عند زاوية محدبة استقرت مقاعد الجوقة على درجات سلم، وهناك بسط فالنر محتويات حقيبته. ففي تلك الأيام، عندما بدأت زابينه العمل في الخدمة الجنائية الدائمة، كان هو من مخضرمي الشرطة الجنائية في ميونخ، وقد وضع قائمة الفحص[1] على كرسي. من خلال عدد العلامات على القائمة، استطاعت زابينه معرفة أنه قد بدأ العمل لتوه، وكعادته كان يمشط شعره الرمادي على رأسه بشكل أفقي ليخفي صلعه، إنه إهدار محبب للجهد، ففي غضون سنوات قليلة سيصبح شعره رقيقًا مثل ورقة حريرية، وبعد ذلك ستبدو سخيفة، لكنه بلا شك كان رجلًا رائعًا وزميلًا لطيفًا.

---

(1) **أداة تنظيمية** تستخدم في العمل الجنائي لضمان أن جميع الخطوات والإجراءات قد تم اتخاذها أثناء التحقيق.

نظر فالنر للأعلى للحظة وقال: «مرحبًا بينه»، ثم خط بقلم ذي مسحوق أبيض على ظهر الكراسي، ذلك كله بلا جدوى، سيجد العشرات من بصمات الأصابع المختلفة وضعفها من عدد الشظايا.

زيمون -أصغرهم- نظر أيضًا للأعلى هنيهة وقال: «هل كولونوفيتش هو من أرسلك إلى هنا؟».

لم تجب، كان زيمون في منتصف الثلاثينيات من عمره، وقد عمل في الخدمة الجنائية الدائمة لمدة عشر سنوات تقريبًا، وظل شريكًا لفالنر طوال الفترة التي تستطيع تذكرها، كما أنه الوحيد من بين زملائها الذي يبدو أنيقًا بحق، فقديمًا اعتادا الذهاب في أغلب الأحيان إلى الحانة الأيرلندية في ميدان بيتهوفن بعد انقضاء العمل، كما ذهب إلى شقتها مرتين بعد ذلك، وكانت تعلم أن هذا ليس حبًّا حقيقيًّا، لكنها سمحت لنفسها بالخضوع لتحرشاته اللفظية، ورغم ذلك تزوج فجأة من أخرى، بالطبع انفصلت عنه، فهي لم تعرف قطّ ما الذي يدور في رأسه.. ولم تسأل.

انحنى زيمون على الجثة الملقاة تحت وحدة تحكم الأرغن، الساقان فقط هما البارزتان، وكانت المرأة ترتدي تنورة كريمية اللون، لكنها لم ترتدِ حذاءً أو جوارب، كما أن قدميها العاريتين مقيدتان بالسلاسل في الأرجل المعدنية لوحدة تحكم الأرغن.

سألت زابينه: «ما اسم القتيل؟».

أوقف زيمون مسجل الصوت: «لم تكن تملك أي بطاقة هوية، كل ما نعرفه حتى الآن هو أنها ليست ضمن العاملين بالكنيسة».

- هل عليّ ارتداء قميصٍ واقٍ؟

- ليس ضروريًّا!

ثم نظر زيمون للأعلى لحظة وقال: «ولكن عندما تقتربين، احذري من أن تخطو قدماك في الحبر».

حبر! عندها فقط رأت البقع السوداء على الأرض، وفكرت في المحبرة التي ذكرها والدها، فضاق صدرها، وشعرت فجأة بأن قلبها سينفجر، فنعقت: «ماذا حدث؟». مكتبة سُر مَن قرأ

همهم الحارس خلفها: «كنت فقط أنظف المقاعد في الجناح الجانبي، وفجأة سمعت عزفًا على الأرغن، فأحضرت القسيس، وعندما ركضنا إلى الطابق العلوي توقف العزف، لم يكن هناك أحد، كانت فقط المرأة الميتة».

اقتربت زابينه. دليل الأرغن الوحشي يشبه قمرة القيادة، لوحات المفاتيح على أربعة مستويات متتالية، بالإضافة إلى جزأين جانبيين نصف دائريين بهما العديد من الأزرار والمفاتيح، أما المقعد فقد دُفِع جانبًا، واستلقت الجثة على ظهرها، وقد قيدت الأيدي أيضًا بالسلاسل في أرجل الأرغن، كانت المرأة الميتة ترتدي بلوزة أرجوانية حديثة، وقد تعرفت زابينه على قطعة الملابس هذي، فركعت لإلقاء نظرة على وجه المرأة.

- نظرة واحدة تكفي لنرى أن هذه ليست جريمة قتل عادية.

توقف فالنر هنيهة وقال: «إنها أقرب للإعدام، الذي ...».

لم تعد زابينه تسمع أي شيء آخر، حدقت في عيني والدتها المفتوحتين على اتساعهما من الرعب، كان وجهها شاحبًا كأنها شبح، ومن فمها يبرز خرطوم بسمك الإبهام، عُلق في نهايته قُمع، بالإضافة إلى علبة سوداء بجانبها، إنها والدتها ترقد جثة هامدة هنا على الأرض الباردة، وأحاط البرد القارس بزابينه، لا يمكن السماح بذلك! كيف يمكن لأمها أن تكون هنا مستلقية على الأرض؟ ومن الغريب أن فكرة واحدة فقط مرت في رأسها: كرستين وكوني وفيونا! ترى كيف تخبرهن أن جدتهن تستلقي هنا وأن زيمون يلتقط صورًا لوجهها؟

لم تستطع زابينه رفع عينيها عن وجه والدتها، وشعرت بالدوار. صار برد الكاتدرائية ورائحة الشمع والبخور يدوران حولها في حلقات أسرع من أي وقت مضى. استندت بيدها على الأرض، أرادت من أمها أن تتحرك، أن تغلق جفنيها، وتعود تفتحهما، ثم تجلس وتقف!

ولا إراديًّا حبست زابينه أنفاسها، لم تستطع التنفس، لقد اختنقت، وشعرت بمذاق حمض المعدة في فمها، والدموع المالحة على شفتيها.

فجأة وقف القسيس بجانبها ووضع يده على كتفها: «ماذا بك؟ هل تعرفين هذه المرأة؟».

اقترب فالنر وزيمون.

- بينه!

حدقتا والدتها صافيتان جدًّا وليس بهما أي غباش، هناك خطأ ما في الوجه، شيء مختلف وغير مألوف، لكن ذلك لم يخطر بذهنها، كل ما تعرفه هو أنه كان أمامها ثمانٍ وأربعون ساعة للعثور عليها على قيد الحياة. أراد شخص ما أن يسحبها بعيدًا عن والدتها، لكنها صرخت فجأة: «لا، لا، لا!...».

3

جلست زابينه في مكتبها ليلًا ومعها فنجان ساخن من القهوة، لا شيء يستطيع تهيئتها لتقبل فكرة العثور على والدتها بهذه الطريقة؛ لا الوقت الذي قضته في أكاديمية الشرطة، ولا مهامها في الخدمة الجنائية الدائمة، ورغم ذلك -أو ربما بسببه- تساءلت عن احتمالية عثور زملائها على القاتل يومًا ما، وربما لن تُحل جريمة قتل والدتها أبدًا.

في تلك اللحظة شغلت نفسها بأشياء ليست ذات صلة بالموضوع على الإطلاق، لكنها أرادت تشتيت انتباهها، وهكذا دارت أفكارها مثل هامستر في عجلته، وفكرت بلا مبالاة في فتح الوصية والاستعداد للجنازة، هل يفترض أن تُدفن الأم في كولونيا أم ميونخ؟ فقد نشأت زابينه وشقيقتها في مزرعة جدتها في بافاريا، وانتقلتا إلى كولونيا فقط بسبب عمل والدها مرممًا لقطارات السكك الحديدية القديمة. في البداية عملت والدتها في التدريس، ثم صارت مديرة فيما بعد، لكنها ظلت دائمًا بافارية من أعماق قلبها... حتى وفاتها. تجمعت الدموع في عيني زابينه.

سوف تنهار مونيكا عندما تعلم بوفاة والدتها، كيف يا ترى سيخبرون كرستين وكوني وفيونا أن جدتهن لن تأتي لزيارتهن بعد الآن؟ لم يكن هناك أي معنى لإخفاء الأمور فترة أطول، فاتصلت برقم مونيكا، وعرفت من صوتها أنها لم تنم بعد، وعندها أخبرت زابينه أختها بما حدث.

صرخت مونيكا بشكل هستيري تقريبًا: «قُتلت!».

- نعم. هل آتي إليك؟

انفجرت مونيكا في البكاء: «لا... بالتأكيد أمامك الكثير لتفعليه».

- الأهم من ذلك كله أنني بحاجة إلى الاطمئنان على والدي.

- أهو هنا؟

روت زابينه القصة بكاملها، وكانت تكره فكرة أنها رسول الأخبار السيئة. قالت أخيرًا قبل إغلاق الخط: «حاولي أن تنامي جيدًا».

ظلت لفترة طويلة تحدق في سماعة الهاتف، وكان والدها يجلس في غرفة الانتظار في نهاية الممر، فبعد انهيارها اصطحبها فالنر بسيارة الخدمة إلى القسم، وعرض عليها مهدئًا، لكنها لم تتناوله. وفي تلك الأثناء أحضر أحد ضباط الدورية والدها إلى مديرية الأمن، كانت زابينه تعلم أن خبر وفاة زوجته السابقة أثر عليه بشدة مثلها، لكن ذلك لم يعد يهمها الآن، ما زالت غير قادرة على تصديق أنه لم يقل أي شيء عن عملية الاختطاف لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، قالت له: «كان عليك أن تكلمني!»، ثم تركته وحده عمدًا يحترق ببطء في غرفة الانتظار؛ لأنها لم تعرف كيف ستكون ردة فعلها عندما تراه، على أي حال فقد شعرت بالرغبة في ضربه... لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة.

وقفت ونظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، إنها (11:05 مساءً) وسيذاع خبر جريمة قتل الكاتدرائية عبر الراديو في الصباح على أقرب تقدير، كما أنه لن يُقرأ إلا في النسخة المسائية من الصحيفة.

فاحت رائحة القهوة المنعشة في غرفة الانتظار، لكن والدها لم يلمس الفنجان، وبجواره بعض المناديل الورقية في سلة المهملات، كان يجلس على المقعد الخشبي محدقًا في الحائط بعينين حمراوين، بينما ظلت أصابعه تطرق على ذراع المقعد، وعندما لاحظ وجود زابينه، قفز من مكانه.

- هل ما قاله لي زملاؤك صحيح؟

أومأت زابينه برأسها.

- يا إلهي، أيتها السنجابة الصغيرة!

ثم احتضن زابينه وهو يبكي، و.. في اللحظة التالية اختفى غضبها وكراهيتها له، وأضاف هو منتحبًا: «أنا حزين للغاية! زملاؤك يريدون استجوابي».

تحررت من حضنه وقالت: «أبي! هذا ليس استجوابًا.. سيأخذون أقوالك فقط».

- وماذا عساي أن أقول؟

هل يمكن تصديق ذلك؟ يا له من سؤال غبي! لم تكن تعلم أن والدها وصل إلى هذه الدرجة من الارتباك، وقالت: «قل الحقيقة بالطبع».

زفر قائلًا: «الحقيقة؟ أعلم كيف تسير الأمور في هذه المواقف.. فبمجرد أن أذكر معرفتي باختطاف والدتك منذ يومين، سيسجنونني بتهمة الاشتراك في القتل؛ لأنني لم أحاول فعل أي شيء، كما أن خوضنا حرب الوردتين[1] لمدة عامين وبقاءنا على خلاف منذ ذلك الحين ليس سرًّا، لن أستطيع الخروج من هذا.

تسلل ذعر هادئ بداخلها وقالت: «أبي! عليك أن تقول الحقيقة، لا تخفي أي شيء، فسيكتشفون ذلك على أي حال»، ثم واصلت: «لديك إثبات على تغيبك وقت حدوث الجريمة هذا المساء، أليس كذلك؟».

هز كتفيه: «لقد توجهت إلى ميونخ هذا الصباح على أمل أن يتصل بي الرجل مرة أخرى، لكنه لم يتصل طوال اليوم حتى المساء، وقد وجدت أن شقة والدتك قد اقتحمت».

أمسكت زابينه بذراع والدها: «هل ذهبت إلى هناك؟ أنت لم تلمس أي شيء!».

لوح بيده في الهواء وقال: «أنا... لا أعرف».

---

(1) حرب الوردتين هي نزاع نشب بين عائلتين إنجليزيتين من النبلاء، ويستخدم المصطلح للتعبير عن الصراعات بين الزوجين عند الانفصال.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب ودخل فالنر: «السيد نيميتس؟».

أخذ والد زابينه نفسًا عميقًا وانتصب واقفًا، وكأنه يحاول الحفاظ على رباطة جأشه.

وأوضح فالنر: «علينا أن نأخذ بصمات أصابعك؛ مجرد إجراء قياسي، ثم لدينا بعض الأسئلة الأخرى».

لاحظت زابينه كيف تصلب والدها وصارت نظراته باردة.

وبينما كان والدها يُستجوب، ذهبت زابينه إلى مكتب المشرف، كان كولونوفيتش في أواخر الأربعينيات من عمره، عملاقًا بأكتاف عريضة وشعر بلون الخردل وشارب، وبسبب التجاعيد والهالات السوداء تحت عينيه بدا أكبر من عمره، ففي بعض الأيام -بما فيها ذلك اليوم- كان يذكرها بزيوس أبي الآلهة بقامته وصوته الرنان. نظر إلى كومة من الصور من خلال نظارة القراءة، وسيجاره يحترق في منفضة السجائر. كان زيمون يجلس بجانبه على المكتب، ويناقش معه القضية، وعندما تنحنحت زابينه وقف كولونوفيتش وسار نحوها، وضم يديها بمخالبه: «بينه، أنا آسف لذلك، إذا رغبت فسيأخذك أحد زملائنا إلى المنزل، سأعطيك إجازة خاصة لمدة يومين».

- أشكرك، لكن عليّ أن أشغل نفسي الآن، وإلا فسأصاب بالجنون.

أومأ كولونوفيتش برأسه: «حسنًا، لكن الليلة هادئة».

ثم ألقى نظرة خاطفة على زميله: «وزيمون سوف يعاين شقة والدتك بعد ذلك».

- بينه، كيف عرفت أن والدتك قد اختطفت؟

كان هذا هو السؤال الحاسم الذي على الأرجح شغل الجميع في هذه اللحظة، وتمنت بإلحاح ألا يخفي والدها أي شيء أو يحاول تجميل أي شيء في أثناء الإدلاء بشهادته: «والدي هو من أخبرني بذلك».

من الواضح أن كولونوفيتش لم يعد يرغب في مضايقتها أكثر، فتمتم: «حسنا، سنعرف المزيد عما قريب».

قالت بسرعة: «سأرافق زيمون إلى الشقة».

- لا، سوف ينجز ذلك بمفرده.

فعارضته قائلة: «من شأن ذلك أن يصرف انتباهي».

- بينه، قلت لا.. والآن اخرجي!

انتظرت زابينه أمام سيارة زيمون عاقدة ذراعيها، فقبل الساعة الواحدة صباحًا بقليل كانت درجة الحرارة خمس درجات. وضع زيمون الحقائب بجانب السيارة، ومرر يده على شعره الأشقر القصير، وقال: «كان واضح جدًّا أنك ستظهرين هنا فجأة».

- المنزل مفتوح، لكن باب شقة أمي يحتوي على قفل أمان.

عرفت زابينه من والدها أن الباب قد تحطم، ورغم ذلك خشخشت بميدالية المفاتيح وقالت: «عليك أن تدق جرس حارس العقار، لكنك لن تتمكن من ذلك في هذه الساعة أبدًا».

أومأ: «ليس لديّ مانع، اركبي! لكن لا تتفوهي بكلمة للمدير».

يمكنه الاطمئنان إلى أنها لن تفشي السر.

بعد عشرين دقيقة وصلا إلى شارع فينتسارار شتراسه في شفابنج فيست، أوقف زيمون سيارته أمام المنزل المكون من أربعة طوابق مبنية بالطوب الأصفر المزخرف بالجص. تسلل ضوء القمر من بين أوراق الأشجار الوارفة، وألقى السياج الحديدي بظلاله القصيرة على الرصيف، وبينما كانت هي وزيمون يحملان حقيبتان ثقيلتان -كل منهما حمل واحدة-، انقبض صدر زابينه.

فتحا البوابة الحديدية وسارا إلى البوابة الأمامية، كان كل شيء أشبه بمهمة عادية في مسرح الجريمة، لكنها ما زالت تشعر وكأنها ذاهبة في زيارة لوالدتها، بدا الطريق مألوفًا جدًّا؛ صناديق القمامة في الكوة، والدراجة الصدئة تحت

الإفريز، ولوحات الأسماء الموجودة على جهاز الاتصال الداخلي، اندفعت زابينه نحو البوابة التي فُتحت بدفعة منها.

تبعها زيمون عبر الدرج إلى الطابق الأخير، كانت رائحة زيت القلي الراكدة عالقة في الهواء، وتسلل صوت تلفاز خافت من إحدى الشقق، صباح الغد سيتعين على زيمون استجواب السكان، ومعظمهم يعرفون زابينه معرفة شخصية.

كانت شقة الأم هي الشقة الوحيدة في الطابق العلوي، أما باقي السقف الجملوني فلم يكن مبنيًّا. وفي الصيف كانت الملابس تعلق على حبال الغسيل أغلب الوقت، وبسبب كثرة الأسقف المائلة فإن معظم الخزانات ووحدات الأدراج والأرفف في شقة الأم قد صنعت خصوصًا، ودفعت تكاليفها من خلال نفقة الأب بعد الطلاق.

لا تفكري في والديك! فهذه الليلة سيكون هذا المكان مسرح جريمة مثل أي مسرح آخر.

سأل زيمون: «هل كل شيء على ما يرام؟»

- أجل.

لم تدرك زابينه بعدُ بصورة حقيقية أن والدتها لم تعد على قيد الحياة، من المؤكد أن هذه المشاعر ستأتي في صورة متكتلة لاحقًا، لكن في هذه اللحظة على الأقل أرادت الانغماس في التحريات وكأنها في غيبوبة.

سألت: «ما الذي تمكنت من ضبطه بالأرغن؟».

قال زيمون الذي يلهث بجانبها في أثناء صعود الدرج: «لا توجد بصمات أصابع على الدلو أو الخرطوم أو القمع أو السلاسل، أنا متأكد من أن القاتل لم يترك أي شيء خلفه على الأرغن أو البوابة المكسورة أيضًا».

- ربما على الجسم.

- بينه، أنت تعلمين كم تكلفنا عملية التبخر الحراري[1]، كما أننا حتى الآن لم نعثر على أي علامات على الجلد.
- لكن يمكننا أن نحاول.

اقترح زيمون: «تحدثي إلى الطبيب الشرعي، فالجثمان في طريقه إلى فحص الشرعي، والدكتور هيرنشال لديه نوبة ليلية».

يا إلهي! فهذا البخيل العجوز لن يجري أبدًا عملية تبخر، حتى وإن كانت والدته هي المسجّاة على طاولة التشريح، فلطالما أخر عمله عدة أيام، فقد ظل زملاؤها في فريق التحقيق الجنائي منتظرين لأسبوع نتائج تشريح جثث ثلاثة عمال تشيكيين ضيوف احترقوا حتى الموت في صندوق شاحنة على الطريق السريع، لم يكن لدى زابينه سوى فرصة واحدة: كان عليها التحدث إلى المدعي العام، لكن الوثائق الأولية في القضية لن تصل إلى مكتب المدعي العام حتى صباح هذا اليوم على أقرب تقدير، لكن أيًّا كان المسؤول، فستلتصق به كالغِراء.

نظرت إلى زيمون: «هل تعرف ما المقطوعة التي كانت تعزف على الأرغن؟ وهل بدا العزف احترافيًّا أم عزف مبتدئين؟»

حدَجها زيمون بنظرة حادة: «هل تريدين إعادة استجواب الشهود؟ بينه، سنجد ما من شأنه مساعدتنا».

فكرت زابينه: مكالمة هاتفية من الخاطف، نبرة صوته المشوهة، ولعبة الألغاز والمحبرة التي تركها هدية لوالدي، الذي بدوره لمسها بيديه.. يا لحماقته!

وصلا إلى الباب.

قالت زابينه مستدلّة: «إطار الباب مكسور».

---

(1) يمكن أن يُستخدم كأداة للكشف عن السوائل المتبخرة من مسرح الجريمة، مثل الدماء أو المواد الكيميائية التي يمكن أن تتبخر بعد فترة من الزمن نتيجة للحرارة.

كان القفل مثنيًّا، بالإضافة إلى وجود آثار أزميل حديدي في الخشب بنفس عرض الأثر الموجود على بوابة الكاتدرائية، ومعلق بالمقبض كيس بلاستيكي في داخله مجلات، من المؤكد أن المقتحم قد عانى لإعادة دفع الباب مرة أخرى ووصله بالقفل، لدرجة أنه لم ينفتح من تلقاء نفسه، ويبدو أن مندوب توصيل الصحف لم يلاحظ أي شيء، ومن الواضح أن والدها أغلقه بالمثل بعد زيارته.

سأل زيمون: «لماذا لديّ انطباع بأنك تعرفين ذلك من قبل؟» ثم أسند المتر الخشبي إلى جوار الباب، وبدأ بتصوير علامات الاقتحام، ثم رفع بصمات الأصابع على المقبض، بعدها ارتديا الأكياس في أحذيتهما والقفازات المطاطية ودخلا الشقة، كانت رائحتها مثل الشاي، ضجت المدفأة في غرفة الانتظار، وأشعلت زابينه الضوء، لقد توقعت رؤية مزهريات ساقطة أرضًا، أو أثاثًا مزحزحًا، أو خزائن مفتوحة، أو حتى ملابس متناثرة على الأرض، لكنها لم تر أي شيء من هذا القبيل. بدت الغرفة كعادتها دائمًا؛ أحذية الأم على الرف، وستراتها الجديدة معلقة على الشماعات، فقط حقيبة يدها هي التي كانت مفقودة؛ حيث كانت توضع عادة بجوار المرآة. لا توجد آثار معارك! مجرد خطوط سوداء على الجدار الأبيض، كأنها خُطت بقلم فحمي.

تأمل زيمون: «إذا اختطفت والدتك من هنا، إذًا فالقاتل كان ينتظرها داخل الشقة بالفعل».

تبنت زابينه الرأي نفسه أيضًا، وإلا لكان كسْر قفل الباب قد نبه والدتها، لكن لماذا لم تلاحظ الباب المكسور؟ اتجهت زابينه إلى غرفة المعيشة، وهنا أيضًا بدا كل شيء كما هو دائمًا، لم تكن هناك سوى رسالة واحدة على البريد الصوتي، فتحتها زابينه وسمعت صوتها وهي تلغي حصة البيلاتس يوم الجمعة، وفجأة عاد تأنيب الضمير يثيرها مرة أخرى.. هاتان الحلقتان من برنامج السحرة اللعين! لو ذهبت إلى والدتها بدلًا من ذلك، لربما استطاعت

منع الاختطاف، على الأقل كانت ستكتشف علامات الاقتحام عاجلًا، وكان من الممكن أن تبدأ الشرطة في التحقيق، بالتأكيد كانت ستتصل بوالدها وتكتشف أمر المتصل الغامض والمحبرة.. لو، لو ، لو... اللعنة على هذا الهراء!

أخرجها صوت زيمون من غمرة أفكارها: «لم أكن أعلم أنك تمارسين رياضة البيلاتس».

وهل خطبت أنت؟ لم أكن أعرف أيضًا!

بطريقة ما لم يكن لديها أي حظ مع الرجال، فحبها الأول -إريك- كان يعمل في فيسبادن، ولم يطلب زيمون أي شيء جدي منها.

ردت عليه أخيرًا: «نعم، منذ ثلاثة أشهر».

ضغطت على زر إعادة الاتصال، فأظهرت الشاشة رقم هاتفها، وفي اللحظة نفسها اهتز هاتفها في جيب سترتها، فأنهت المكالمة. لو أن الخاطف قد أجرى مكالمة هاتفية من هذا الجهاز، لكان مجرد مبتدئ.

سمعت كيف يعبث زيمون بالخزائن والأدراج في المطبخ، ففكرة اقتحامه خصوصية والدتها جعلت معدتها تنقبض، لكن هذه هي وظيفته، وزيمون يعرف ما عليه فعله، على الأقل مهنيًّا.

قال زيمون من المطبخ: «إذا كان قد انتظر والدتك هنا، فربما كان عليه قضاء الوقت في فعل شيء».

فحصت زابينه التلفاز وجهاز الاستقبال الخاص به، ورفعت بصمات الأصابع من على جهاز التحكم، مؤخرًا صارت قناة ARTE هي المفضلة لدى الأم، فقد كانت تستمتع بمشاهدة الأفلام الكلاسيكية والعروض الفنية للمخرجين الفرنسيين والإيطاليين، وفي أثناء فترة عملها مديرة لإحدى المدارس الابتدائية، راحت تعذب تلاميذها الصغار بقراءة نصوص ماري فون إبنر-إيشنباخ، والأساطير اليونانية القديمة، لقد بدا الأمر مبالغًا

فيه تمامًا، لكن هذا ما كانت عليه، وبالمثل أيضًا جربت أمها ذلك معها ومع مونيكا، لكن النتيجة جاءت بأن لا زابينه ولا حتى أختها رغبتا في قراءة الكتب، ربما استمعت زابينه على الأقل إلى الكتب الصوتية لدافيد سافير وتومي ياود في أثناء قيادة السيارة، وهذا ليس هو الأدب العالمي الرفيع بالضبط، لكن ذلك أثار حماسها؛ حيث صار لديها ما يكفي من الإثارة والتشويق في أثناء مدة العمل. فلتحقيق التوازن كانت بحاجة إلى شيء فكاهي؛ إذ لم تكن ترغب في أن ينتهي بها الحال بخيبة أمل مثل زملائها زيمون وفالنر وكولونوفيتش.

وبأي حال فهي لم تنوِ الاستمرار مع مجموعة المتهكمين هذه إلى الأبد؛ لأنها أرادت ذات يوم الانتقال إلى مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية في فيسبادن، ولم يكن حظها عاثرًا، فعلى الأقل تحصل النساء على نسبة الثلث في مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية، وبالفعل كتبت ثلاثة طلبات للتدريب على تحليل الملفات، قوبلت جميعها دون تعليق.

هتفت زابينه باتجاه المطبخ: «لا أعتقد أن الرجل قد شاهد التلفاز».

فبنظرة سريعة على الأريكة تأكد لها أن الوسائد كانت منفوشة بالطريقة التي طالما اعتادت عليها والدتها الصارمة، وبجوار التلفاز رأت بعض الكتب الصوتية التي استعارتها زابينه من والدتها قبل بضعة أسابيع؛ كي تستطيع الاستماع إلى شيء آخر بخلاف الأساطير اليونانية القديمة. حدقت في صناديق الأقراص المضغوطة كالمغشي عليه، هذه هيرا ليند وأفرايم كيشون. أحاط بها شعور غريب عندما فكرت في أن والدتها لن تسمع أبدًا أيًّا من هذه الأقراص المدمجة.

وفي الخزانة الموجودة أسفل التلفاز احتفظت والدتها بالساعات والخواتم والقلائد في صندوق المجوهرات. فتحت زابينه الصندوق، ومن النظرة الأولى لم يبدُ أن هناك أي شيء مفقود، وبالخلف في الخزانة وجدت حزمة

ملفوفة بورق الهدايا، فأخرجتها زابينه، ووجدت أنه كتاب مصور سميك، بتغليف أزرق، وعقدة صفراء، بالإضافة إلى بطاقة معلقة عليها، أخرجته زابينه إلى النور، وقرأت: **إلى صغيرتي- مع أطيب التمنيات.. ماما**. أصابها المنظر بشعور مؤلم، فقد كانت والدتها تتمتع ببُعد نظر، فالبطاقة مؤرخة قبل أكثر من أسبوعين من تاريخها، بيوم الخميس 9 يونيو؛ عيد ميلاد زابينه، فقبل الاحتفال بعيد الميلاد ستسير بجنازتها.

- هل كانت والدتك تشرب قهوتها بدون إضافات؟

دفعت زابينه الهدية إلى الخلف، وأغلقت الخزانة. لقد قال **كانت تشرب، بصيغة الماضي**، وشعرت بالدموع في أطراف عينيها، فنظرت إلى السقف: «الشاي فقط، وفي الغالب نوع توييننجز، لماذا؟».

- يوجد هنا نصف كوب يمتلئ بالقهوة السادة».

دخلت زابينه المطبخ، وكان ضوء اللمبة الحمراء الصغيرة مضاءً بآلة القهوة، التي كانت الأم تستخدمها فقط عندما تأتي هي ومونيكا لزيارتها، بل هناك كوب به ملعقة على لوح المطبخ ووعاء السكر بجانبه.

وقال زيمون مستدلًا: «لقد صنع القهوة، وفي أثناء شربها فاجأه قدوم والدتك».

سكب القهوة ووضع الكوب في كيس بلاستيكي: «قد يساعدنا فحص مختبر الحمض النووي أكثر».

تخيلت زابينه كيف قضى الرجل الوقت في انتظار والدتها، ورغم أنها حاولت إثناء الفكرة، تمثلت لها الصور في عين عقلها، لا بد أنه سمع خطواتها على الدرج وركض نحو الباب، ومن المحتمل أن تكون قد لاحظت علامات الاقتحام، لكن إما أن هذا النذل قد هددها بمسدس وسحبها إلى داخل الشقة، أو أنه أعجزها بمخدر أو ضربة على رأسها.

- بينه، يجب أن تلقي نظرة على هذا.

كانت حقيبة اليد السوداء للأم ملقاة على الأرض، وبأسفل الحقيبة علامات بيضاء بلون الجدار، تلك العلامات هي نفسها لون الردهة! يبدو أن الأم قد دُفعت نحو الحائط في أثناء التنازع.

وكانت محتويات الحقيبة مبعثرة على وحدة الأدراج، ففحص زيمون بقلمه المضيء كلًّا من علبة السجائر، والولاعة، والمحفظة، وحافظة بطاقة الهوية، ومظلل العيون، وأحمر الشفاه، ونسخة مهترئة من رواية تسفايج للشطرنج التي طُويت العديد من صفحاتها.

وأوضح: «هناك ما يقرب من مائتي يورو في المحفظة.. قاتلنا لا يحتاج المال».

والأقراط والقلائد اللؤلؤية بالمثل أيضًا. ولا إراديًّا فكرت زابينه في التأمينات على حياة والدتها، وكل هذه الأمور البيروقراطية. يا إلهي، انظري! دفع زيمون علبة العلكة جانبًا، وعندما رأت زابينه الواقي الذكري المغلف بورق الألومنيوم، اجتاحت رأسها موجة حارة، هل لهم الحق في انتهاك خصوصية والدتها؟

سأل زيمون: «هل هناك شيء مفقود؟».

أجابت زابينه: «الهاتف ودفتر العناوين».

اللذان استخدمهما في الاتصال بوالدها.

وفجأة فهمت سبب اختيار القاتل لوالدها، واندفعت من مكانها بالمطبخ إلى غرفة النوم، كان زجاج النافذة مفتوحًا، وقد فُرشت ملاءات السرير حديثًا، ورغم ذلك فاحت رائحة عطر الأم بالمكان. وعلى خزانة الأدراج بجوار مرآة التسريحة استندت الصور داخل أطرها لزابينه ومونيكا وبناتها الثلاث، وبسبب إلحاح زابينه وضعت بجوارهم أيضًا صورة أخرى لوالدها؛ التقطت في إجازتهما الأخيرة معًا في بحر الشمال، وهو ببشرته السمراء يرتدي قبعة شمسية ويرسم ابتسامة مشرقة، في حين تجلس زابينه

على كتفيه العريضين وبيدها البوظة، وترتدي قبعة سوداء تنزلق فوق عينيها، لقد ظلت هذه صورتها المفضلة حتى الآن، وكانت شظايا الزجاج متناثرة على السجادة. لقد كسر شخص ما الإطار حول الصورة.

4

انتفضت هيلين بيرجر واعتدلت في سريرها، أخذت دقات قلبها تتسارع، وبالخارج التمعت خيوط فضية في الأفق، أين هو المنبه اللعين؟ تحسست بيدها سطح طاولة السرير الجانبية، فاصطدمت بكومة أوراق مخطوط غير محزومة، فانزلقت على الأرض المغطاة بالسجاد، إنه مخطوط كتاب واقعي عن اضطراب الشخصية الفصامية، وقد عملت على تصحيحه هذا المساء، بل على مدار أسبوعين بينما ينام فرانك بجانبها، من المؤكد أن كومة الأوراق قد سقطت أرضًا... وحفيفها لم يوقظ فرانك.. كالعادة! كان يشخر بهدوء بجانبها. وأخيرًا وجدت المنبه وضغطت على الزر، إنها 04:58 صباحًا، الوقت باكر جدًّا على حضور بائع الصحف، كما أن نباح داستي بدا مختلفًا عن المعتاد.

رفعت هيلين ساقيها عن السرير وتنصتت. حمل نباح داستي نبرة تهديدية، فهو في العادة لا يخرج أبدًا من الباب المخصص له في الليل، ولكن ها هو الآن قد اضطر إلى الجلوس على أطراف البيت والنباح على شيء ما بالشارع أو بالمزرعة، على الأقل هذا ما بدا عليه الأمر عند النظر من النافذة المفتوحة، إضافة إلى أن القمر لم يكن مكتملًا.

انسلت داخل روبها القصير، وخرجت من غرفة النوم، فمرت السحب فوق المنزل، وللحظة تسلل ضوء القمر عبر الجزء المفتوح من النافذة المائلة، فأضاء الممر والسلم المؤدي إلى الطابق السفلي، نزلت هيلين على أطراف أصابعها إلى الطابق السفلي، وقد بدا لها الأمر سخيفًا بطريقة ما، فما الذي يضطرها إلى التسلل هكذا وهي داخل منزلها؟ ففرانك نائم نومة أهل الكهف، في حين جلس داستي في الخارج وهو ينبح حتى كادت روحه تفارق جسده.

وعند باب الفناء أزاحت الستارة جانبًا، فرأت ملامح الكلب الصغير من سلالة جاك راسل بجوار صندوق البريد، كان ذيله يتأرجح لأعلى ولأسفل بقلق وهو ينبح في الشارع الفارغ المؤدي إلى وسط المدينة.

فتحت هيلين باب الفناء وخطت حافية القدمين، كانت رائحة السماد العضوي عالقة في الهواء، فالليلة الماضية خصب الفلاحون الحقول المقابلة للبيت، سوف ينبت الشعير بشكل جنوني هذا العام.. وستحل معه حساسيتها. وقفت هيلين على بلاط الفناء البارد ونظرت حولها، لا شيء.

كانت خيوط الصباح الفضية تمتد فوق سلسلة الجبال وتغمر المناطق المحيطة بضوء الشفق، انزلقت داخل حذائها الرياضي الذي استقر تحت طاولة الفناء، وركضت عبر المرج، ثم جلست القرفصاء على العشب بجوار داستي.

همست وهي تداعب فراءه: «اهدأ يا فتى».

صمت كلب جاك راسل الأبيض ذو البقع السوداء حول عينيه، لكنّ أذنيه كانتا لا تزالان متحفزتين، وظل يحدق كالمنوَّم مغناطيسيًّا في الطريق المؤدية إلى القرية، وكأن هناك خطرًا رهيبًا يتربص في الظلام.

همست هيلين: «ماذا رأيت؟ قطة؟ أم ابن عرس؟».

هل كان داستي مروضًا بشكل جيد إذا حدث وشرد؟ نظرت إلى صندوق البريد، لم تجد الصحيفة قد وضعت داخل الصندوق بعد؛ لذا لا بد أن هناك شيئًا آخر أثار غضبه.

لم يحط بالبيت أي سياج، فلم يكن ذلك ضروريًّا في مدينة جريسكيرشن. ورثت هيلين الفيلا عن والديها، وكان والدها عمدة، لقد نشأت هنا وعرفت كل عشبة وكل حصاة. تقع جريسكيرشن على بُعد حوالي سبعة كيلومترات جنوب غرب فيينا، وهو مكان مثالي لوظيفة هيلين، فهي لم ترغب في العمل كمعالجة نفسية في أي مكان آخر. بعد وفاة والديها أجرت إصلاحات في

الفيلا، وحولت بيت الضيافة -الذي كان بحجم جناح لطيف- إلى عيادة، فالهدوء الريفي في هذا المكان له تأثير مهدئ على عملائها الذين لا يعرفون سوى مؤسسات المدينة كئيبة الألوان، وأمام الفيلا هناك حقول شاسعة من الشعير، وفي بعض الأحيان -مثل هذا الصباح- تهب رائحة توابل حارة، أحبّت هيلين تلك الرائحة، وهو ما لا يمكن زعمه عن فرانك، كان مدعيًا عامًّا يعيش في فيينا، ولم ينتقل إلى هذا المنزل إلا منذ عامين على مضض، لقد كان متفهمًا فيما مضى، لكن ذلك قد تغير بمرور الوقت.

نهضت هيلين وقالت: «تعال معي!».

لكن داستي لم يتحرك.

- سأطعمك.

كانت تلك الطريقة تنجح دائمًا، لكنه ركض حول ساقيها كأنه جرو صغير، ولم يتأنَّ إلا عندما جلجل صوت دراجة بخارية في نهاية الشارع، وبعد أقل من دقيقة ضغط موصل الجرائد بقوة على المكابح بجوار صندوق بريد هيلين، فنظر داستي إلى الدراجة لكنه لم يصدر صوتًا.. رفع الصبي خوذته ونظر إلى الشمس المشرقة.

- صباح الخير يا دكتورة.

- «أليكس، لا تناديني بمثل هذه الألقاب، من فضلك قل هيلين فقط».

ابتسم وهو يعطيها الجريدة: «حسنًا يا سيدة بيرجر».

تنهدت هيلين التي رغم دراستها لعلم النفس، لم تعطِ قيمة لهذا اللقب، لم يطلق عليها أحد لقب (دكتورة) في جريسكيرشن، لكن فرانك كان عكسها تمامًا، فالسيد المدعي العام رفيع المستوى كان يكبرها بأربعة عشر عامًا، وهو متكبر على كل من حوله، إنها سمة لم تستطع حتى الآن صرفه عنها، فحتى علم النفس يتجاوز في بعض الأحيان أقصى قدراته!

مد أليكس يده إلى جيب سترته وألقى لداستي بسكويت للكلاب، فاختطفه بسرعة.

- تبدين جميلة يا سيدتي.

- شكرًا أليكس، ولكن هذا ليس صحيحًا.

لا بد أنها تبدو مثيرة للسخرية وهي تقف في هذا التوقيت الباكر من الصباح، مرتدية حذاءً رياضيًّا وروبًا قصيرًا.

لكنه عارضها: «بلى! فالشعر القصير يليق بك جدًّا».

- شكرًا! لديك قوة ملاحظة.

كان فرانك يغازلها سابقًا بشكل ساحر هكذا، لكن تسريحة الشعر الجديدة لم تلفت انتباهه، شعرها الأسود القصير يتلاءم مع النمش وبشرتها الداكنة بشكل أفضل.. وببلوغ السادسة والثلاثين لا يزال بإمكانها أن تبدو مثيرة بقصة شعر صبيانية.

غمز لها أليكس وحرك دواسة الوقود: «أراك لاحقًا يا عزيزتي!».

رفعت هيلين يدها بابتسامة: «أراك لاحقًا».

كانت الدراجة البخارية القديمة تدور ببطء في منعرج، وللحظة تسلطت أضواء الكشافات على المرج، فوجدت علبة مفتوحة بحجم اليد تلتمع على العشب أسفل صندوق البريد، ثم عاد المرج للظل مرة أخرى، وقد خلفت الدراجة سحابة من الدخان الفاسد خلفها.

التقطت هيلين العلبة، كان الغطاء مفتوحًا، ولم يكن بداخلها سوى قطعة حمراء من القماش، ولا شيء آخر، وعاد داستي لقلقه عندما أغلقت الغطاء، كان اسم المتسلّم مكتوبًا على العلبة بأحرف عريضة بخط اليد: السيدة/ د. هيلين بيرجر.

5

عادت زابينه نيميتس إلى القسم مع زميلها، وبينما كان زيمون يكتب تقريره عن فحص الشقة، استدعى كولونوفيتش زابينه إلى مكتبه، كان عقب السيجار ملقى في منفضة السجائر، والنافذة مفتوحة؛ مما أدى إلى اهتزاز الستائر ذات الشرائط الأفقية بفعل الرياح، هناك خيط مشرق في الأفق يغمر الأسطح بلون برتقالي رقيق.

صاح بها: «لقد رأيتك وأنت تخرجين من سيارة زيمون.. فيم تفكرين؟».

ظلت لمدة خمس دقائق تستمع لخطابه التوبيخي وهي تحدق في النافذة، لقد صارت هناك أفكار جديدة تمامًا تتداعى بداخلها عند رؤية قبتَيْ كاتدرائية ميونخ الآن، لم يعد القداس يخطر ببالها، بل صورة والدتها المتوفاة وهي مقيدة بالسلاسل في أرغن الكاتدرائية، وأنبوب بلاستيكي يتدلى من فمها.

قاطعت رئيسها: «ربما كان القاتل ينتظرها في الشقة.. أين أبي؟».

مسّد كولونوفيتش على شاربه الذي هو بلون الخردل، فأنبأتها نظراته المستسلمة بأنه ارتضى بعنادها.

- ما زال في التحقيق.

نظرت زابينه إلى الساعة: «لمدة سبع ساعات؟ سوف آخذه إلى فندق».

تنحنح كولونوفيتش: «بينه...».

شعرت بالغثيان، كانت تعرف تلك النغمة.

- نحن لم ننتهِ منه بعد.. لكن اجلسي أولًا.

ظلت واقفة، فأعتى قوة في الأرض لن تستطيع حملها على الجلوس بخضوع الآن.

- نعلم أنه ظل على خلاف مع والدتك لسنوات عديدة حتى الآن، وفجأة يظهر هنا في ميونخ، ويزور طليقته، ويزعم أنه وجد علامات اقتحام على باب شقتها، ثم بعد وقت قصير من وقوع جريمة القتل يقصدك؛ ليخبرك أنها قد اختطفت.

بلعت زابينه ريقها. مديرها محق، فكلامه لا يبدو موثوقًا: «لم يقل أي شيء آخر؟».

هز كولونوفيتش رأسه: «كلما تحرينا أكثر عنه وعن مبرراته، وقع أكثر في شرَك التناقضات، لماذا قاد سيارته من كولونيا إلى هنا؟ ولماذا نحو أمك؟ أين إثبات تغيبه عن مكان الجريمة خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية؟

رددت زابينه: «إثبات تغيب؟».

كانت تعرف ماذا يعني ذلك، فأبوها غارق في هذه الورطة حتى أذنيه: «أريد التحدث معه».

نهض كولونوفيتش: «لن يحدث ذلك، فأنت غير مكلفة بالقضية»، ثم أضاف: «وبالنظر إلى علاقتك العائلية مع الضحية ومع المشتبه به المبدئي، فالأمر أفضل هكذا».

- يمكنني مساعدة فالنر وزيمون في التحقيق.

تنهد كولونوفيتش: «سأسلم القضية إلى فريق من خبراء جرائم القتل خلال الساعات القليلة القادمة».

احتجت زابينه: «ليس بعد!».

تُستدعَى الشرطة الجنائية بعد انتهاء تحقيقات الخدمة الجنائية الدائمة[1]، وذلك على أقرب تقدير بعد اثنتي عشرة ساعة.

قال كولونوفيتش: «كلما أسرعنا، كان ذلك أفضل، كما أن فالنر يعد حاليًّا التقرير لتقديمه إلى المدعي العام».

---

(1) هي خدمة "على مدار الساعة" تابعة للشرطة الجنائية الألمانية.

هل يعقل ذلك؟ كورت زابينه قبضة يدها بشدة بشكل لا إرادي، فعائلة إحدى زميلاتهم تتورط لتوها في قضية قتل، ويمكن للخدمة الجنائية الدائمة أن تتشبث بإطالة مدة التحقيق هذه المرة قبل أن تنزع يدها من الأمر، كانت تعرف زملاءها من فريق جرائم القتل، فهم ليسوا شديدي الحساسية عندما يتعلق الأمر بالاستجوابات.

من الواضح أن تفكير كولونوفيتش مختلف بهذا الصدد، فضلًا عن أنه بدا وكأنه خمن ما تفكر به؛ لأن تعابير وجهه اتشحت بالندم: «أنا آسف يا بينه، لكن وقوع جريمة قتل في كاتدرائية ميونخ أمر مختلف عن أي جريمة قتل في مبنى سكني متهدم، كما أن الخبر قد وصل إلى الصحافة، وستقدم تقريرًا عنه في الطبعة الصباحية».

في هذه اللحظة كان كل شيء يسير على نحو خاطئ، لقد تصورت بالفعل شكل العنوان الصارخ، وألحت في طلبها: «يجب أن أتحدث مع والدي!».

وهنا جاء صوت قرع الباب، ومد فالنر رأسه نحو المكتب، فسأله كولونوفيتش: «ثم؟»، كأنه ينتظر معلومات محددة.

لم يقل فالنر شيئًا، وبطرف عينيها لاحظت زابينه كيف يختلس النظر من خلال حافة نظارته ذات الإطار القرني ويشير بحركة قصيرة تجاه زابينه.

- هل كل شيء على ما يرام.
- تقنية الأدلة الجنائية فحصت بصمات الأصابع في الشقة.

جف حلق زابينه، كانت تعلم ما سيحدث بعد ذلك، ولم يكن بوسعها فعل أي شيء حيال ذلك.

قال فالنر: «لقد كان في الشقة».

عندها نهض كولونوفيتش وقال: «لا يبدو ذلك جيدًا، خذوه إلى فريق جرائم القتل بالأعلى، سأتحدث مع المدعي العام».

أحضر فالنر والد زابينه إلى زملائه بالشرطة الجنائية في ميونخ، كانوا في المبنى نفسه، لكنهم في الطابق العلوي، والآن سيتحول أخذ الأقوال إلى تحقيق، وكانت زابينه متأكدة من أن المختصين سيكتشفون قريبًا أن والدها يعلم بحادثة الاختطاف قبل وقوع الجريمة بمدة طويلة.

ضربت بنصيحة مديرها، بالحصول على إجازة خاصة لمدة يومين، عرض الحائط، وبدلًا من ذلك عادت إلى مكتبها وظلت تحدق بالتناوب في الساعة المعلقة على الحائط، وفي الشاشة وفي برجي الكاتدرائية. وبجوار لوحة المفاتيح كانت هناك علبة مفتوحة تمتلئ بالعلكة على شكل دببة، في العادة كانت زابينه تجتاح هذه الأشياء مثل المكنسة الكهربائية، لكنها شعرت وكأن معدتها على وشك الانقلاب في أي لحظة.

وبينما كان ضوء الشمس المشرقة ينعكس على الألواح الخشبية الخضراء لأغطية الأسطح ذات الشكل الجرسي، كانت زابينه تسقي النباتات المتسلقة على حافة النافذة، وببطء زحفت الظلال فوق أسطح المنازل، وبالبطء نفسه مر الوقت، فقد أرسلت بريدًا إلكترونيًّا إلى إريك دورفر عبر بريد الويب من حسابها الخاص قبل عشرين دقيقة، فصديقها القديم بالمدرسة الثانوية الرياضية في كولونيا يعمل في المقر الرئيس بمكتب الشرطة الجنائية الاتحادية في فيسبادن، فعندما بلغت السادسة عشرة ارتبطت بإريك، لقد أحبت تذكر ذلك الوقت وكانت معدتها ترتبك ونبضات قلبها تتسارع شوقًا إثر ذلك، حتى عندما عادت زابينه لتعيش في ميونخ مرة أخرى، ظلا على اتصال ببعضهما، لكن بعد تخرجه من المدرسة الثانوية انضم إريك إلى الجيش الألماني وغاب عن الأنظار، ومؤخرًا اصطدمت به على الفيسبوك، وعندما شاهدت أحدث صوره، عادت تشعر بوخز في بطنها، حتى إنهما عملا معًا ذات مرة بسبب عملية مطاردة.

لقد حقق إريك ما حرمت منه زابينه، فقد قدم طلبًا ببساطة ولم يقابل بالرفض، لم تتمتع زابينه بالحماية اللازمة لتُسجل في مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية، فلم تكن تعرف أحدًا في فيسبادن، بالإضافة لكونها امرأة، وهكذا تدور الطواحين ببطء جسيم، لكن شغفها الكبير كان يتمثل في إنشاء ملفات شخصية لمرتكبي الجرائم، وستظل تتقدم لشغل منصب في مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية كل عام حتى تكبر وتشيب.. لقد أقسمت على ذلك.

كانت الجملة المقتضبة التي كتبتها في خانة الموضوع برسالتها لإريك هي: **بحاجة إلى مساعدة من المهندس المعماري**. ومنذ أرسلتها وهي تحدث حساب الويب الخاص بها كل دقيقة، وقد وصل إليها الرد من فيسبادن قبل السادسة بقليل.

كلمة المرور: Er.Do. الشرطة الجنائية الاتحادية

رقم التعريف: 82691

رمز الاستعلام: II/ 514-761C

ملاحظة: لا ترهقي المهندس المعماري!

ابتسمت زابينه بلطف، فقد استخدمت كلمة المهندس المعماري ثلاث مرات فقط حتى الآن: مرة واحدة بنجاح، ومرتين عبثًا.

نحت فنجان القهوة والإبريق جانبًا، وفتحت شبكة الشرطة الداخلية، ثم نقرت على أيقونة غير واضحة، ورحب بها البرنامج بكلمات: أهلًا بمعاونة المباحث الجنائية زابينه نيميتس، وبجانبه استقر الشعار الأزرق للهرم، وبالأسفل كُتب: إجراء بحث في جميع قواعد البيانات على مستوى أوروبا وجميع أنظمة قواعد البيانات على المستوى المحلي. دايدالوس[1] باختصار.

لقد كان ذلك هو المهندس المعماري.

---

(1) يُعدّ دايدالوس رمزًا للابتكار والهندسة المعمارية المبدعة في الأساطير، يُظهر قدرة الإنسان على استخدام العقل والمهارات لتجاوز التحديات.

وليس من قبيل الصدفة أن يسمى البرنامج على اسم باني المتاهة في الأساطير اليونانية، فبدقة أكثر يسيطر دايدالوس على هذا الهيكل الهائل من المعلومات، فالبحث الشبكي لجميع قواعد البيانات المتصلة عن أنماط أو فئات محددة أو حتى مجرد شظايا معلومات يقدم أكثر من مجرد استعلام تقليدي، وكان دايدالوس نظامًا جديدًا تمامًا سهَّل على مكتب الشرطة الجنائية عملها، هذا هو مكمن المشكلة، كان دايدالوس متاحًا فقط لموظفي مكتب الشرطة الجنائية، ولكن باستخدام كلمة المرور الصحيحة ورقم التعريف الصحيح، ورمز استعلام متسلسل، ستجد نفسك داخل النظام، ومع إجراء آلاف الاستعلامات اليومية، فلن يبالي أحد بها إذا كانت المحققة زابينه نيميتس تعمل في الخدمة الجنائية بميونخ أم لا.

ظهرت الصفحة التي تحتوي على بيانات الدخول، أدخلت زابينه بيانات الهوية وكانت مقيدة بالنظام، والآن ماذا؟ فوالدها ليس قاتلًا، هذا أمر مؤكد، لكن الخناق يضيق عليه أكثر كل ساعة؛ فهو لم يقدم إثباتًا على تغيبه عن مكان الجريمة، وقد كذب في أثناء الإدلاء بأقواله بدافع الخوف، وهو دافع معقول لنكون حياديين، لكن الأسوأ هو أن بصمات أصابعه وجدت في مكان الاختطاف.

لم يكن لدى زابينه سوى دليلين على الجاني الحقيقي، فقد ترك زجاجة صغيرة من الحبر الأسود داخل علبة ووضعها على عتبة باب والدها، ثم كلمه بصوت مشوه، وقال جملتين بسيطتين فقط: **سيد نيميتس، إذا عرفت سبب اختطاف زوجتك السابقة خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، فسوف تظل على قيد الحياة، وإن لم تفعل، فستموت.**

كان الاستعلام بمساعدة دايدالوس هو السبيل الوحيد للتوصل بسرعة إلى نتيجة من شأنها تبرئة والدها، وكان عليها البحث عن عمليات اختطاف أخرى موازية، لا علاقة لوالدها بها.

الوجهة: ألمانيا.

المدة: آخر ثلاث سنوات.

الجريمة: عمليات الخطف التي تنتهي بالقتل خلال ثمانٍ وأربعين ساعة.

معلومات خاصة: اتصال هاتفي، عدم طلب فدية، لعبة ألغاز، هدية من الخاطف كمؤشر على طريقة الموت المحتملة.

حام إصبعها فوق مفتاح الإدخال، ففي كل مرة بدأت فيها استعلامًا على الكمبيوتر المركزي لمكتب التحقيقات الاتحادي، كانت تشعر بقشعريرة تسري في جسدها، لم يكن دايدالوس هو المهندس المعماري الأسطوري فحسب، بل كان أيضًا والد إيكاروس، الذي اقترب كثيرًا من الشمس واحترق وسقط في البحر.

نأمل ألا تحرق إصبعها ذات يوم، **لا ترهقي المهندس المعماري**.. هذه ليست نصيحة، بل تحذيرًا! فقد يؤدي هذا إلى تدمير فرصها في العمل بمكتب الشرطة الجنائية، كما سيفعل الشيء نفسه بحياتها المهنية في شرطة ميونخ.

هذا فقط لتبرئة والدي، والعثور على قاتل أمي.

وللحظة صارت الفكرة واضحة جدًّا أمام عينيها، لدرجة أنه لم يعد هناك أي شك بأنها ستكون شغلها الشاغل خلال الأيام والأسابيع القليلة القادمة.

وفجأة انفتح باب مكتبها بقوة، فاصطدم بالحائط، ورفرفت الملصقات المعلقة على شاشتها بسبب التيار الهوائي المتردد جراء ذلك.

تقدم كولونوفيتش من مكتبها: «فيم تعملين الآن؟».

ضغطت بسرعة على زر الإدخال... **الاستعلام قيد التنفيذ!** وبنقرة على الفأرة صغرت البرنامج وأعادته إلى الشريط السفلي من الشاشة، في اللحظة التالية كان كولونوفيتش واقفًا أمام شاشتها.

- كنت أتفحص نظام قيادة العمليات؛ لمعرفة إذا ما كان هناك أي عمل أمامنا، ولكن لا يوجد شيء مهم بهذا الشأن.

وضع كولونوفيتش النسخة الصباحية من صحيفة Süddeutsche Zeitung على طاولتها، وكان العنوان الرئيس **جريمة قتل في الكاتدرائية**، وأسفله صورة لكنيسة السيدة العذراء ليلًا، من الواضح أنها لقطة أرشيفية؛ لأن البدر يلمع اليوم بضوئه الأبيض بين قبتي البرج.

قال: «أنا آسف، فهناك شخص ثرثر بما حدث، على الأرجح أراد خادم الكنيسة كسب بضعة يوروهات».

الرجل ذو الصلعة الدهنية، والمخالب النقرسية، أرادت زابينه أن تتقيأ: «لا أريد أن أقرأ هذا».

التقط كولونوفيتش الصحيفة مرة أخرى: «لعلمك فقط، لم يُذكر اسم والدتك بعد، ولا توجد صور لها حتى الوقت الحالي»، ثم تنهد: «اذهبي إلى المنزل أو على الأقل إلى أختك، فلا يوجد شيء يمكنك فعله هنا».

استرقت زابينه النظر إلى الشاشة، كان رمز الهرم الأزرق يومض في شريط الصورة السفلي.

- ستأخذ مونيكا الفتيات إلى المدرسة وروضة الأطفال خلال ساعة، سأزورها قبل أن تذهب إلى العمل.
- كما تريدين.

نظر كولونوفيتش إلى الساعة المعلقة على الحائط، كانت قد تخطت السادسة بقليل.

- المدعي العام فورمان يفرز حاليًّا الوقائع المتوافرة من القضية حتى الآن.
- أريد التحدث معه.

ابتسم كولونوفيتش بلطف، فأدركت زابينه تعبيرات الوجه المتساهلة هذه، التي تحط من قدرها كأنها طفلة.

- هذا غير ممكن، وهو يناقش القضية مع العمدة حاليًّا.

قالت في زلة لسان: «في هذا الوقت؟».

- لقد أخبرتك بالفعل أن القضية حساسة، وقد صار رئيس الأساقفة على علم بذلك، فجمع عمدة المدينة والمدعي العام، وستستمر الجلسة الطارئة حتى الثامنة، ثم سنعرف المزيد.

تصرفات غير منطقية كرقص القردة! لكن لا بد من حدوث كل شيء على هذا النحو، في القريب العاجل سيقيم البابا قداسًا في كاتدرائية ميونخ، وكان الجدال حول الانفصال عن الكنيسة في أوجه؛ بسبب حوادث الاعتداء التي تتم على الأطفال داخل الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة في بافاريا، وعندما تروج الصحافة لمثل هذه العناوين، عندها سيصاب مُمثلو الكنيسة والسياسيون بالذعر.

وهكذا أصبح والدها دمية متحركة وقعت في مكيدة تضغط فيها الكنيسة والسياسيون المتطلعون من أجل تنفيذ اعتقال سريع.

بعدما تلقت زابينه تفاصيل سرقة سيارة في وسط المدينة، اتصلت بشقيقتها، ثم التقيا لفترة وجيزة في شقة مونيكا وأخبرتها زابينه بما تعرفه، لم تغفُ أختها للحظة في تلك الليلة، لكنها استوعبت تفاصيل جريمة القتل بشكل أفضل مما توقعت، وبعد ذلك توجهت زابينه نحو مقصف القسم، لكنها أحضرت وعاء من القهوة قوية المفعول وبدت ممتلئة بالحيوية، لدرجة أنها كانت تسير في الردهة مثل ذئب متأهب، وواصلت تسجيل الدخول إلى دايدالوس باستخدام رمز إريك بين الحين والآخر، لكن شريط الاستعلام صار يركض ويركض دون أن يتجاوز ٪٩٩، ربما تعطل ذلك البرنامج اللعين.

عندما أعادت تحديث إشعارات الشاشة، كتب جهاز الكمبيوتر رسالة مقتضبة: **لقد تم حظر الدخول**، ثم لم تتمكن بعدها من الدخول إلى البرنامج بكلمة مرور إريك أو رقم هويته، ارتفعت الحرارة من عمودها الفقري إلى رأسها، وتعرقت راحتا يديها، اللعنة على هذا القرف!

ضغطت على زر الاتصال السريع بمكتب إريك في فيسبادن، ورأت على الشاشة أن المكالمة قد حُوِّلت، فتحدث صوت أنثوي من مركز التحكم، قالت زابينه إنها تريد التحدث إلى إريك دورفر المرشح لشغل منصب مفتش بالشرطة الجنائية. صمتت السيدة لفترة، ثم سمعت صوت فرقعة على الخط، ثم صافرة: «للأسف، الزميل لم يعد في الخدمة لباقي اليوم، ما الأمر؟ أيمكنني مساعدتك؟».

ليس في الخدمة؟ في الثامنة صباحًا.

أغلقت زابينه الخط وهي تقول: «شكرًا لك!».

ومن خلال الضوء الأحمر على شاشة هاتفها، رأت أن هناك مكالمة من كولونوفيتش على رقمها الخاص، مكالمة خارجية.. في اللحظة التالية انطفأ الضوء، وقبل أن يمسك بسماعة الهاتف مرة أخرى، كانت زابينه قد اقتحمت مكتبه، ويبدو أنه ليس بحالة جيدة، فرابطة عنقه غير محكمة، وشعره الذي هو بلون الخردل يتدلى على وجهه ويتصبب منه العرق، ثبَّت ذراعيه القويين على المكتب وأرخى ذقنه عليهما، وكانت أكمام قميصه مطوية.

سألته: «هل من جديد بخصوص المدعي العام؟».

زفر بقوة وقال: «لا يمكنك تخيل حجم السرعة التي يعملون بها بالأعلى».

فكرت زابينه في زيارة البابا الوشيكة، وقالت: «إنهم مضغوطون».

قال كولونوفيتش: «إن تعبير (مضغوطين بشدة) يعد رحيمًا إذا قورن بما يحدث».

- يوجد حاليًّا خمسة من المشتبه بهم، ووالدك هو واحد منهم، كما استُدعيت شرطة كولونيا، لقد صدّق القاضي للتو على إذن تفتيش شقة والدك.

رقصت الأفكار في عقل زابينه كالدراويش الهمجيين، سيعثر الزملاء على المحبرة الصغيرة التي تحمل بصمات أبي!

فاندفعت قائلة: «يجب أن أتحدث مع زملائي من فريق جرائم القتل في ميونخ».

انتفخت وجنتا كولونوفيتش مجددًا، ثم نظر إلى زابينه وقال: «لا تكذبي عليّ! أعرف ذلك بنظرة واحدة من عينيك، هل يخفي والدك شيئًا ما؟».

إذا كان بإمكانها أن تثق بأحد، سيكون زملاءها، لقد شكلوا معًا فريقًا جيدًا. أومأت زابينه برأسها.

مرر يده على وجهه وقال: «لا ينقصنا إلا هذا أيضًا! شرطة ميونخ لم تعد تتولى التحقيق، وبسبب تلك الظروف الخاصة، تواصل المدعي العام مع المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية، وأسند إليهم القضية».

اسودت الدنيا في عين زابينه، كانت تعرف أساليب زملائها في المكتب الإقليمي، فحتى ضباط فرقة جرائم القتل كانوا شديدي الحساسية تجاههم، فبعد تفتيش الشقة سيُكره هؤلاء الرجال والدها على الاعتراف قبل أن ينبس بحرف.

6

هدأ داستي ولم يعد ينبح حتى الصباح، ومع ذلك لم تتمكن هيلين من العودة لنومها، دخلت الفناء مرهقة وهي تحمل صينية، ثم جلست على كرسي الحديقة، وبدأت الأخبار تُبث لتوها على الراديو؛ ازدحام المرور المعتاد على الخط الجنوبي الشرقي نحو فيينا، يا إلهي! لقد كانت سعيدة لأنها غير مضطرة للعمل في المدينة، فهي تدير عيادتها في جريسكيرشن بدلًا من ذلك، وسيصل أول عميل لديها -أم وابنها- في الساعة العاشرة من صباح اليوم.

وقف الحَمام على سلك خط الكهرباء، وظل يهدل بصورة تنافسية، وعبر الحقول تسلل رنين ساعة برج الكنيسة بالبلدة، واهتزت ماكينة تهذيب الحشائش في مكان ما، ثم مر جرار أمام الفيلا، فقد وعدتهم الأرصاد بيوم ربيعي دافئ، وبناء على ذلك ارتدت بلوزة خفيفة وسروالًا قصيرًا من الجينز ممزقًا من الأطراف مع حزام جلدي عريض.

وضعت هيلين هاتفها ونظارتها الشمسية على طاولة الحديقة، وسكبت القهوة من الإبريق في كوبها البلاستيكي، هكذا تجد مذاقها أفضل، لقد أعدت الإفطار لها ولفرانك مع عصير البرتقال وبيض العيون المقلي، واللحم المقدد، والميوسلي، والخبز الأسمر.

ففرانك يرغب في تناول وجبة إفطار دسمة صباح يوم الإثنين من كل أسبوع؛ لأنه يذهب بسيارته إلى المكتب في وقت متأخر عن المعتاد، وفي اللحظة التالية ظهر هو أيضًا بالفناء.

قال باقتضاب وهو يطبع قبلة على خدها: «صباح الخير حبيبتي»، ثم أكمل: «عليّ الاعتياد أولًا على تسريحة شعرك الجديدة، تبدو صبغة الشعر جيدة، لكنه صار أقصر قليلًا، أليس كذلك؟».

فرانك النمطي! عن أي صبغة شعر يتحدث، لقد كان أسودَ تمامًا كما كان من قبل، كما أنه يسمي قص عشرين سنتيمترًا بأن شعرها صار أقصر قليلًا! ربما أراد فقط مضايقتها.

- أنا أمزح فقط.

ابتسمت بلطف: «أعلم أيها الوغد».

التمعت سوالفه الشيباء المرقطة في ضوء الشمس، كانت رائحته تشبه عطر ما بعد الحلاقة من نوع Ocean von Wilkinson، لقد بدأ تقدمه في العمر يظهر ببطء.

ورغم بلوغه الخمسين، بدا هذا اللعين بحالة ممتازة، فاليوم أيضًا بدا مهندمًا، فقد ارتدى بنطالًا من الكتان وقميصًا من نوع بولو وسترة وحذاءً إيطاليًّا، وكانت نظارته الشمسية العاكسة معلقة في طوق قميصه، كما لبس في يده ساعة أوميجا الجديدة الأوتوماتيكية، تلك التي تنفتح تلقائيًّا من خلال حركة المفصل، ورغم أن الاحتفال الكبير بعيد ميلاده كان من المفترض أن يقام بعد ثلاثة أيام، أهدته هي الساعة بالفعل خلال عطلة نهاية الأسبوع.

نظرت هيلين إلى قميصه البولو الأبيض الناصع، عادة ما كان يرتدي قمصانًا مصنوعة خصوصًا ومطرزًا عليها الأحرف الأولى من اسمه.

- ألن تذهب إلى المحكمة اليوم؟

- بلى، ولكن لفترة قصيرة فقط، لا توجد مواعيد مهمة، هناك فقط بعض الروتين المكتبي المزعج.

أخذ رشفة من القهوة وهو يقف، ثم مد لها ملفًّا على الطاولة: «هذه قائمة المدعوين، بعضهم لن يحضر، وبعضهم قد اعتذر عن الحضور... ليس لدي وقت، هل يمكنك الاعتناء بها من فضلك؟».

احتجت قائلة: «أنا أيضًا لدي نشاطي المهني.. بالإضافة إلى أنه عيد ميلادك أنت».

- يا إلهي، هيا! فليس لديك سوى بضعة عملاء.

كتمت السبة بداخلها وفتحت الملف، فوجدت قلما جافًّا عالقًا في منتصفه. يا إلهي، قد يستغرق هذا بعض الوقت، هناك ستون ضيفًا، من ضمنهم خمسة عشر اسمًا مرسومًا خلفها علامات استفهام بخط اليد، كانت هيلين تعرف القضاة واختصاصيِّي علم الأمراض والزملاء في قسم فرانك بأسمائهم فقط.

- كان بإمكانك على الأقل تدوين أرقام الهواتف.

- يمكنك العثور عليها بسهولة في دليل الهاتف.

وضع فرانك الكوب على الطاولة، وأخرج مفاتيح السيارة من جيب بنطاله، ثم انحنى وطبع قبلة على جبينها.

سألته: «ألن تتناول الإفطار معي؟».

نظر إلى لحم الخنزير المقدد والبيض المقلي: «ليس لدي وقت، أراك لاحقًا، سأكون في المنزل الساعة الخامسة بعد العصر تقريبًا».

لفت انتباهها توتره هذا الصباح، فعادة ما يظهر عليه الهدوء بعد عطلة نهاية الأسبوع، لكن هذه المرة كان هناك شيء يثقل كاهله ولا يريد التحدث عنه، وقد دخل الحمام بهاتفه، وهو أمر لم يفعله قط، يبدو أنه كان ينتظر مكالمة مهمة، ومن المؤكد أن لا علاقة لها بالحفل المنتظر؛ لأنه لم يبذل أدنى مجهود بهذا الخصوص حتى الآن.

سألته: «هل أبلغت المصور؟».

- أوووه، اللعنة!

نمطي! شعرت هيلين بغصة في حلقها: «لا يزال علينا التشاور بشأن ترتيبات جلوس الضيوف، وإذا ما كان علينا بناء سرادق لتضع الفرقة معداتها به في حالة هطول الأمطار».

هز فرانك رأسه: «لن تمطر!».

- متى نوفر خدمة الحفل؟

لقد كان بالفعل في طريقه نحو مرأب السيارة: «تولي الأمر يا حبيبتي!».

هتفت من خلفه: «لن أشغل بالي بذلك! فأنا لست مدبرة منزلك في النهاية، تستطيع فعل شيء ما أيضًا».

- ماذا دهاك؟ هل أتى موعد دورتك الشهرية؟

أصدرت سيارته الرياضية الحمراء صوت صرير، ثم انفتح الباب وألقى بنفسه في المقعد.

نظرت هيلين إلى الخبز والبيض ولحم الخنزير المقدد والميوسلي.

لا تنفعلي!

بماذا تنصح عملاءها دائمًا؟ عدّ إلى عشرة، وخذ نفسًا عميقًا، ثم اترك الغضب الأوّلي يزول، وعندها فقط تفتح فمك.. بدأت بالعد، وعندما وصلت إلى الرقم ثلاثة، لم يبق في المرأب سوى سيارتها التويوتا الزرقاء الصغيرة، كان الحصى مرشوشًا في الممر، وقد قاد فرانك سيارته اللامبورجيني عبر الممر، ثم أسرع بها نحو المخرج متجاوزًا صندوق البريد وانعطف نحو الشارع.

وبدلًا من التلويح لها، أسرع بالسيارة، لقد ابتعد!

شتمته: «يا له من مغفل!».

إنه حفل عيد ميلاده هو بأي حال، ومن المفترض أن يقام يوم الأربعاء في بيتها.. نمطي! كان على الضيوف ترتيب مواعيدهم وفق هواه مرة أخرى، لقد وعدها سالفًا بأنه سيعتني بكل شيء وسيساعدها في يوم الاحتفال، وقد تحمست لذلك! فهي تستطيع تنظيم الحفل والتعامل مع الناس بشكل رائع، أما هو فلم يكن من نوع الأشخاص الحساسة، كان يستجوب المجرمين فقط، وعلى العكس كانت وظيفتها هي التحدث إلى الناس، ورغم أنهما تزوجا منذ مدة قصيرة، تأزم الوضع بينهما مرارًا، فقد بدا فرانك في البداية مهتمًّا للغاية،

ولكن تبين أنه رجل مفعم بالحيوية لكنه يولي اهتمامًا أقل فأقل لاحتياجات هيلين.

لقد أكدت صديقاتها أن فرانك رجل نبيل بحق، وهو المكمل الشكلي المثالي لها، لكن لم تكن أي منهن تعرف ما هو عليه حقًّا، فإحدى أعظم مهاراته هي توكيلها بفعل كل شيء في الثانية الأخيرة.

حسنًا! تنفسي! لا يمكنك تغييره على أي حال.

أطلقت صافرة بصوت مرتفع: «داستي! تناول إفطارك! هناك لحم خنزير مقدد وبيض!».

عادةً ما يأتي كلب جاك راسل راكضًا بمجرد أن تطلق صفيرًا له، لكن هذه المرة لم يظهر له أي أثر، تناولت ملعقة من الميوسلي وهي تلقي نظرة على قائمة الضيوف.. بمن عليها الاتصال؟ زايسنر المحامي، ود. هنريك من المحكمة، وثلاثة من زملاء فرانك في العمل، واثنين من أساتذة الجامعة الذين تربطهم به علاقة قوية، وصديق المدرسة القديم و... التقطت هيلين أنفاسها.

بِن كولر.

كانت هناك علامة تأكيد بعد اسمه، وهذا يعني أنه سيأتي مساء الأربعاء؛ لذا فهي تتوقع موجة متباينة من المشاعر في هذا الاحتفال، ترى كيف عليها مواجهته؟ والأهم.. كيف سيتصرف هو؟ فقد التقيا آخر مرة منذ ثلاث سنوات بأي حال، وظل بينهما كثير من الأشياء التي لم يعبرا عنها، في ذلك الوقت كانت لا تزال تعمل محللة ملفات لدى الشرطة، لكن ذلك كله قد انتهى بضجة كبرى قبل ثلاث سنوات، مثلما انتهت علاقتها مع بن، يا إلهي بن.. وتجمعت الدموع في عينيها عندما أتتها ذكرى ابنه.

لقد التقت بـ بن عندما انتقل من العمليات الخاصة بوحدة فيجا، وهي القيادة العامة لشرطة فيينا، إلى الشرطة الجنائية، إنها الخطوة الأكثر منطقية التي يمكن أن يخطوها أب أعزب، ربما أصبح حاليًّا كبير المفتشين في قسم جرائم القتل، من الواضح أنه يعمل مع فرانك بصفته المدعي العام، لكن هل يتذكر فرانك أن هيلين كانت حبيبة بن من قبل؟ بالتأكيد! لم ينسَ فرانك قطّ أي شيء، وخاصةً شيئًا من هذا القبيل، وبالتأكيد يعلم أيضًا أن ابن بن قد توفي قبل ثلاث سنوات، وهو سبب آخر لانهيار علاقتهما في ذلك الوقت. لقد أثر موت فلوريان على هيلين التأثير نفسه على بن، إن لم يكن أكثر، لقد أحبت فلو حد العبادة؛ ربما لأنها كانت عاقرًا.

رن هاتفها، فجفلت. المتصل غير معروف. أخرجها الهاتف من غمرة أفكارها:

- من؟

كل ما سمعته هو أنفاس ثقيلة.

قالت: «مرحبا؟ أهذا أنت يا فرانك؟».

وبأنفاس هادئة كرر المتصل: «فرانك؟ هل هذا هو زوجك؟».

بدا صوته مشوهًا إلكترونيًّا.

تسارعت نبضات قلب هيلين، ولم ترد.

فتساءل الرجل: «هل أنت بمفردك يا دكتورة؟ هل ذهب فرانك؟».

سألت محاولة إضفاء بعض الثقة على صوتها: «من المتحدث؟».

- إذا عرفت الشخص الذي اختطفته ولماذا فعلت به ذلك، فسيظل هذا الشخص على قيد الحياة، وإن لم تفعلي، فسيموت... أمامك ثمانٍ وأربعون ساعة.

قالت: «عفوًا؟»، فبالتأكيد أخطأت في السمع.

كل ما يمكن سماعه على الجانب الآخر من الخط هو صوت الأنفاس، تركت هيلين التهديد يأخذ أثره بنفسها للحظة، لم تكن تعرف حتى الآن هل هناك شخص ما يلقي عليها نكتة سيئة أم أنها تتعامل مع رجل مجنون.

وتابع الرجل: «ولأثبت أنني جاد، تركت لك هدية».

كررت: «هدية؟»، ثم جالت بعينيها بشكل تلقائي عبر الطاولة، وتوقفت عند العلبة الفارغة ذات قطعة القماش الحمراء، تلك التي وجدتها بجوار صندوق البريد هذا الصباح.

سألته: «ما اسمك؟».

- هذا لا يهم.

زعمت هيلين: «ورغم ذلك فأنا ما زلت أعرف الكثير عنك».

فضحك وقال: «مثل ماذا يا دكتورة؟».

- أنا أعرف توقيعك.

- إذًا فقد وجدت العلبة.

ظنت هيلين أنها سمعته يبتسم، لكنها لم تعرف ماذا يقصد بـ «الهدية»؛ لأن العلبة كانت فارغة.

- ماذا الذي تعتقدين أنك تعرفينه عني أيضًا؟

بدا السؤال استفزازيًّا، فقد أراد أن يختبرها، في أي موقف آخر كانت ستنهي المكالمة ببساطة، لكنها أرادت معرفة إذا ما كان ادعاؤه باختطاف شخص ما صحيحًا، فسحبت هيلين نفسًا عميقًا وحاولت الحفاظ على نبرة صوتها الهادئة: «الكتابة تتجه نحو اليمين.. أنت أعسر».

توقف عن الضحك.

وخطر ببالها اقتباس لبن كولر كان يحب استخدامه: «**كلما زاد عدد الآثار الزائفة التي يتركها الجاني وراءه؛ ليتجنب افتضاح أمره، زاد عدد الأدلة التي يقدمها على نفسه**».

بالإضافة إلى ذلك فدراساتها لعلم النفس، وأربعة عشر عامًا من العمل بالعيادات النفسية وعملها كمحللة، أكسبتها القدرة على تحليل أي سلوك غير عادي تلقائيًّا.. وكانت الخواطر الأولية العفوية عادةً ما تكون الأفضل.

تابعت: «ونظرًا لعدم وجود عنوان على الورقة، فأظن أنك أتيت إلى هنا شخصيًّا لإحضار هديتك، وربما الليلة في الساعة الخامسة صباحًا تقريبًا، لقد طاردك كلبي بعيدًا، وإلا لكنت وضعت العلبة أمام الباب.. ولم تدفعها في صندوق الصحف، ومن المؤكد أن داستي سحب العلبة من الصندوق بمخلبه».

ظل الرجل صامتًا.

- أنت تخفي صوتك، لكنني سأعرفك بصوتك الحقيقي، كما أنك تحجب رقم هاتفك حتى لا أتمكن من تزويد الشرطة بأي أدلة، وربما التقينا من قبل، هل أنت أحد عملائي؟

كان لا يزال صامتًا.

أخذت ترجو الرب أن يكون هذا المهرج على وشك الكشف عن شخصيته؛ لأنها لا ينقصها وجود شخص مجنون يتجول في ممتلكاتها ليلًا، فضلًا عن وجود مطارد أو عميل مضطرب.

- أنا...

قطعت حديثها عندما رأت داستي بطرف عينيها وهو يثب من خلال الشجيرات المنخفضة التي تفصل ممتلكاتها عن الحقول المجاورة، ثم هرع نحوها مباشرة واستلقى على بطنه تحت طاولة الحديقة، وعندما سمعته يمضغ شيئًا، نظرت تحت الطاولة ولم تصدق عينيها.

كان هناك شيء ما داخل فم داستي يعضه، وفجأة خطر لها أن هذا الرجل المجنون ربما رغب في تسميم كلبها، فأبعدت الهاتف، وأمسكت داستي من طوقه، ثم وضعت يدها في فمه لتنتزع هذا الشيء منه.

وفجأة شعرت بأنها في مصيبة.

كان هذا الشيء طويلًا وناعمًا ودافئًا، إنه إصبع إنسان! لقد كان مبتورًا بشكل مباشر عند المفصل بعد عظام مشط اليد، ولم يكن بترًا مطهرًا؛ إذ بدا الجلد والأنسجة مهترئة، كما لو أن الأمر قد استغرق عدة محاولات باستخدام مقص حديقة ثلْم لفصل الطرف عن اليد.

ألقت هيلين الإصبع بذعر على طبق فارغ، لكي لا يتمكن داستي من مضغه أكثر، ثم مسحت يدها في بنطالها الجينز وأغلقت عينيها، ما زالت مصدومة.. لا، لا يمكن أن يكون ذلك كله حقيقة! كان قلبها ينبض بقوة، وشعرت بغصة كبيرة في حلقها، فقبضت على كوب عصير البرتقال وشربته دفعة واحدة، لكن الغصة لا تزال على حالها.

كان إصبع امرأة، والآن عرفت أيضًا لماذا كانت العلبة ذات القماش الأحمر فارغة، اشتم داستي رائحة الدم وأخرج الإصبع من العلبة ذات الورق المقوى.

فجأة بدأ داستي يختنق، يا إلهي ماذا حدث الآن؟ بدأ الكلب يصدر أصوات حشرجة وسعال، وخفق صدره، وبدا صوت حلقه المبحوح وكأن معدته على وشك الانقلاب.

هتفت: «داستي!»، ثم ركعت بجانبه ومسدت على بطنه، وفي اللحظة التالية كان قد تقيأ، رن صوت دحرجة خاتم عبر بلاط الفناء، ورغم شمس الربيع الدافئة، سرت بجسدها القشعريرة. أدارت هيلين قطعة المجوهرات المغطاة بالبلغم بين يديها، فتوهج حجر الياقوت بخفوت في الضوء.

أخذت تتضرع وترجو الرب، لا بد أن هذه مزحة مرعبة، سيحتفل فرانك بعيد ميلاده الخمسين بعد غد، وقد دعا حوالي ستين ضيفًا إلى الحفل، ربما اتفق البعض على السخرية منها، لكن لماذا هي وليس فرانك؟ ولماذا اليوم؟ أم أن فرانك كان وراء ذلك؟ مطلقًا! فهو لم يمزح معها مطلقًا

طوال عامين من زواجهما، كما أنها لا تعتقد أنه بهذا السوء؛ لذلك كان هناك استنتاج واحد فقط: وهو أن الشخص الذي يتواصل معها الآن على الهاتف هو رجل مجنون.

عاد داستي بخير مرة أخرى، وهو الآن يتقلب بسعادة على ظهره، فأحكمت هيلين قبضتها على أمل دحر الشد العضلي الناتج عن الضغط والتوتر العصبي الذي راح يسيطر عليها أكثر ثانية بعد أخرى، لكنها لم تفلح، كانت تعلم أن الرجل يريد أن يدفعها إلى الجنون.

وبأصابع مرتعشة أمسكت سماعة الهاتف: «ماذا ...».

سألها: «لماذا ذهبت؟».

- لأن كلبي تقيأ! هل تريد سماع التفاصيل؟

تحول خوفها إلى غضب.

قال: «من الآن فصاعدًا ستنفذين ما أقوله لك فقط! ولا تفكري للحظة في إخبار زوجك أو الشرطة الجنائية عن مكالمتنا»، ثم هددها: «وإلا فلن أقطع الأصابع التسع المتبقية فحسب، بل سأقطع كل أطراف الشخص ببطء وأتركه ينزف حتى الموت، هل فهمت؟».

ظلت هيلين صامتة.

- لقد سألتك عن شيء!

- نعم.

شعرت باضطراب في معدتها، وابتلعت مذاق فمها الحامض وقالت: «كيف حال المرأة؟».

كرر: «المرأة؟ حسنًا ملاحظة جيدة، باستثناء النزيف تقصدين؟ إنها تصمد بشجاعة».

- هل تحتاج إلى رعاية طبية؟

- أعتقد ذلك، لكنها بخير.

- أريد أن أتحدث معها.

- غدًا عندما تستعيد وعيها.

ربما لم يكن معها في تلك اللحظة، وربما كان يحتجزها في زنزانة بمكان ما، مقيدة ومكممة الفم.

- لماذا أنا؟ ولماذا اليوم بالتحديد؟

لم يعد هناك أي فائدة من إضفاء نبرة ثقة على صوتها، فقد علم أنه كسر مقاومتها.

فردد: «لماذا؟ هذا ما عليك اكتشافه يا هيلين.. أمامك ما يقرب من ثمانٍ وأربعين ساعة».

وجدت نفسها تحدق إلى الخاتم الياقوت الملطخ بالمخاط، كان داستي يدفعه بمخالبه على الأرضية، وقد حدّثها شعور غريزي بأنها رأت هذا الخاتم من قبل.

- ملاحظة أخرى، لأن مهلتك المحددة حتى الموعد النهائي قد بدأت بالفعل، أنت تعرفين هذا الشخص، لكنه يعرفك أفضل مما تظنين».

انقطع الاتصال.

7

قبل خمسة أشهر

جلسة المحادثة التمهيدية.

نظرت د. روزه هارمان من نافذة عيادتها، فرأت الثلوج تتساقط على أسطح منازل فيينا، وصمت العالم بهدوء أمام ذلك، كانت عشية عيد الميلاد بيضاء هذا العام، وهو أمر نادر بما يكفي.

شغَّلت مسجل الصوت: «الثلاثاء 28 من ديسمبر، اللقاء الأول مع كارل بوني، الساعة توشك أن تدق الثالثة عصرًا، أتوقع قدومه في أية لحظة، وأتمنى أن يخيب ظني به».

أنزلت جهاز التسجيل، فمنذ أن عرفت أنها حامل وهي تشعر باستمرار بهذا البرد القارص والوخز في ساقيها، هذا هو طفلها الأول.. وهي في الأربعين من العمر! لو أن أمها هنا، لضربت رأسها بيديها، لكنها لن تعرف أبدًا، فقد مرت سنوات على آخر اتصال بينهما، حتى إنها لم ترد على بطاقة عيد الميلاد التي لا غنى عنها هذا العام، فلتذهب إلى الجحيم، فـ روزه لديها مشكلات أخرى.

تراكمت تلال الثلوج بجوار ساحة انتظار السيارات أمام عيادتها، لقد نظف المنطقة أحد الجيران بمنزل عائلي مجاور باستخدام جرافة الثلج هذا الصباح، لكن بعض الثلوج تساقطت مرة أخرى بحلول منتصف النهار، والتمعت أضواء عيد الميلاد من نوافذ المنازل المجاورة.

عدلت روزه سترتها، كان كارل هو آخر عميل في هذا اليوم، فبعد الجلسة ستستبدل بالتنورة والبلوزة الحريرية الأنيقة الجديدة نعالًا صوفية منزلية دافئة على شكل (ويني ذا بو) وسترتدي منامتها المريحة بلون الفانيليا المعلقة على

المدفئة في شقتها، بالإضافة إلى شرب كوب ساخن من الحليب مع العسل وبعض البسكويت، ويصير هذا هو الختام المثالي لفترة ما بعد الظهيرة. لم يسبق لأحد أن رآها بهذه الحالة من قبل، وهكذا يجب أن تظل، فالمعالجة النفسية الفذة الأنيقة والبليغة ستبدو سخيفة وهي ترتدي (ويني ذا بو)، لكنها في صميم شخصيتها لم تختلف عن النساء الأخريات.. حتى لو اعتقد العديد من عملائها أنها فريدة من نوعها.

مرت بساحة انتظار السيارات شاحنة صغيرة بيضاء متهالكة تحمل شعار ورشة إصلاح السيارات، وقد نُقش على الناحية الجانبية منها عبارة «روبين وأولاده»، كانت نوافذ السيارة مغطاة بالجليد من الخارج ومغبرة من الداخل، لم تظهر سوى مساحة صغيرة خالية من الجليد، وقد تمكنت روزه من خلالها من رؤية السائق، الذي أوقف سيارته بالقرب من حاوية النفايات الورقية، التي تراكمت فوقها كومة من الثلج، ثم نزل شاب طويل القامة من السيارة.

اقشعرت روزه من منظره، فهذا الرجل المجنون لم يكن يرتدي سوى بنطال من الجينز وقميص وسترة فقط، وقد اجتذبت الرياح ملابسه وعبثت بشعره، لم يغلق السيارة. نظر حوله ثم اتجه نحو مدخل عيادتها، وعلى حد علم روزه، فقد وجهت إليه اتهامات بحيازة الكوكايين ومطاردة النساء والسلوك العدواني تجاههن، يا لها من صيغة رنانة! في الواقع لقد ضرب امرأتين حتى أُدخلتا المستشفى، فحُكم عليه بحكم مشروط[1] بالسجن لمدة ثلاث سنوات، إلا أن القاضية فرضت عليه «العلاج بدلًا من العقاب». عرفت روزه القاضية، كانت بيترا لوجريتي واحدة من أفضل صديقاتها، وفي الواقع أرادت روزه أن تخفف من ضغط العمل بسبب حملها، بالإضافة إلى صعوبة العمل دائمًا مع العملاء الذين لم يخضعوا طوعًا للعلاج النفسي، لكن بيترا لوجريتي أقنعتها بإعداد تقرير للمحكمة.

---

(1) هذا يعني أن الشخص المدان لا يتعين عليه قضاء عقوبة السجن طالما كان أداؤه جيدًا خلال ما يسمى بفترة الاختبار، وتستمر فترة الاختبار ما بين سنتين وخمس سنوات.

في اللحظة التالية دق الباب، ففتحت روزه، كانت الباحة الأمامية محمية من الرياح بنافذتين مغلقتين، ومع ذلك هبت الرياح الثلجية عبر دواسة الأرجل، وقف زائرها عند الباب محدقًا في اللافتة وكأنه يحاول حفظها:

العلاج بالمعنى والتحليل النفسي[1]

على طريقة فيكتور إي. فرانكل

عيادة العلاج النفسي

د. روزه هارمان

طبيبة حاصلة على شهادة مزاولة المهنة

17 .شارع باخ

وفي الأسفل كُتب رقم هاتفها وعنوان البريد الإلكتروني.

سأل الشاب دون أن يرفع بصره: «هل تسكنين هنا.. إنه منزل ذو طابق واحد فقط..». اجتاز روزه ببصره متلصّصًا على غرفة الانتظار، ثم أردف: «لكنه مريح».

أفلتت لهجة ألمانية شرقية من لهجته الفيينية، وكأنه لا يستطيع أن يقرر إذا ما كانَ سيتحدث بالألمانية الفصحى أم بلهجة فيينية، لقد ذكرت بيترا ذلك عندما هاتفتها.

وأوضحت روزه: «هذا مكتبي فقط.. ألا ترغب في الدخول؟».

رفع رأسه فبعثرت الرياح شعره الأشقر الذي يكاد يكون ذهبيًّا، وكان حاجباه بالكاد مرئيين بسبب لونهما الفاتح؛ مما أضفى تأثيرًا أقوى على عينيه الزرقاوين، وتلك الرموش الطويلة بشكل لا يصدق... يا لها من نظرة!

---

(1) في أواخر عشرينيات القرن العشرين أسس نهجًا مستقلاً يركز بشكل خاص على *البعد الروحي* للناس، وينظر إلى سعيهم الوجودي للحصول على *معنى للحياة* باعتباره القوة التحفيزية الأساسية لهم.

دخل دون أن ينطق حرفًا، وعلق سترته على شماعة الملابس، ثم مرر يديه في شعره المبتل، كان كثيفًا وملتفًّا ببعضه، يبدو أن نظراته الفضولية تريد استيعاب كل شيء دفعة واحدة.

كان بعض العملاء يتفاعلون باضطراب مع الأبواب المغلقة؛ ولذلك تركت روزه الباب الأيمن لمكتبها مفتوحًا بشكل جزئي؛ حتى يتمكن زوارها من رؤية المكتب، أما الباب الأيسر فيؤدي إلى غرفة العلاج، كانت رائحة عيد الميلاد عالقة في الهواء، وتقدمت روزه في مشيتها، لكن كارل بوني لم يتبعها، لقد وقف مترددًا على عتبة الباب.

قالت روزه: «يمكنك الدخول بحذائك».

ابتسم بخجل كما لو أنها خمنت أفكاره، ثم تبعها.

كانت الغرفة ذات النافذتين الكبيرتين مغمورة بالضوء، وعلى المدفأة استقرت أوعية من الأعشاب التي تفوح منها رائحة اليوسفي وإبر الصنوبر.

أشارت روزه إلى مكان الجلوس: «اجلس حيثما شئت».

كان الملف يستقر على هذا الجانب من الطاولة الزجاجية، حيث تضع كرسيها أيضًا. في المقابل استقرت رُكنة مريحة عليها وسائد مقعد، جميع العملاء الذين جاءوا إليها لأول مرة جلسوا عليها تلقائيًّا. وجهت روزه الملف بذكاء إلى الجهة المقابلة التي أرادتها، وهي جهة كارل، ومن هناك تمتعا بإطلالة رائعة على الحديقة بأشجارها المغضنة وشجيراتها المغطاة بالثلوج، كما رأوا المنبه الرقمي الصغير يعرض الوقت ويشير في اتجاههم لإعطائهم فكرة عن المدة التي ستستغرقها الجلسة، بخلاف ذلك لم يكن هناك سوى علبة مناديل ورقية على الطاولة -تحسبًا لأي ظرف- بجوار مسجل الصوت مباشرة.

جلست روزه على كرسيها وملأت كأسين كانا موجودين بالفعل على الطاولة من إبريق الماء، ثم وضعت ساقًا فوق الأخرى.

جلس كارل مسترخيًا على الأريكة، وأخذت نظراته تجول في أرجاء الغرفة، حتى ثبتت عند رف كتب لا يحتوي إلا على كتب تخصصية، باستثناء بعض روايات السبعينيات.

أزاحت روزه شعرها الكستنائي الأحمر خلف أذنها؛ حيث أخذ يتساقط مرارًا على وجهها من جانب واحد وقالت: «هل يزعجك تسجيل محادثاتنا؟».

كان يحدق إليها وكأنه يفتش في اللون الأخضر الداكن لعينيها: «ولماذا؟».

قالت: «لقد ثبتت ضرورة تسجيل المحادثات»، ثم تمهلت وأردفت: «عندما أستمع إلى الأشرطة لاحقًا، تراودني أحيانًا ومضات من الإلهام يمكن أن تساعدني».

ظلت نظراته مرتابة: «من الذي سيحصل على الشرائط لسماعها؟».

- لا أحد، ولا حتى المحكمة، أنا خاضعة للالتزام بالسرية، وبصفتك عميلًا ستبقى مجهول الهوية.

أخذ يتدبر كلامها.

لن تذكر أمامه السبب الحقيقي لتسجيل الجلسات في الوقت الحالي: كانت الحالة تحديًا مثيرًا للاهتمام، وأرادت توثيق النتائج بنفسها، ربما ستكتب مقالًا عنها لاحقًا.

سأل: «هل سأحصل على نسخ من هذا؟».

- في حالة رغبتك في ذلك.

- ليس ضروريًا.

ثم لوح بيده بلا اكتراث وقال: «ليس لدي مانع».

شغلت روزه الجهاز واتكأت بظهرها على الكرسي: «حسنًا».

شغلت الشريط لمدة خمسين دقيقة وبدأت: «صف لي شعورك وأنت تقود السيارة إلى هنا؟».

لم يفكر طويلًا وقال مبتسمًا: «جيد... سعدت جدًّا بهذا اللقاء».

- فعلًا؟

علمت أنه يكذب، فقد كانت الابتسامة على شفتيه فقط، وليس بعينيه، هناك علامة لا لبس فيها بعضلات الوجه، فإذا ظلت المنطقة المحيطة بالعينين خالية من المشاعر، فإن التعبيرات اللطيفة عادة ما تكون مصطنعة، لكنّ حديثًا قصيرًا بينهما لن يضر.

- كيف تقضي عشية عيد الميلاد؟

- وحيدًا.

ثم أضاف بسرعة: «أفضّل أن أبقى وحدي».

- هل تشعر أنك بخير في هذه اللحظة؟

ابتسم للحظة كأنه يغازلها: «بالتأكيد».

لكن روزه لم تُجارِهِ وقالت: «كيف تعرف أنك تشعر بعدم الارتياح؟».

نظر إلى السقف للحظة: «أبدأ في قضم أظافري».

لم تنظر روزه إلى يديه، لقد لاحظت من قبل بالفعل أن أظافره مقضومة، وقد التصق الدم الجاف ببطانة ظفر الإبهام، حيث بدا الجلد مفقودًا، من الواضح أنه راح يعضه في أثناء قيادة السيارة.

كان بعض العملاء يحاولون إخفاء أظافرهم عن طريق قبض أيديهم بمجرد أن تسألهم روزه عن ذلك، وكثير من الناس يشعرون بالإحراج، لكن كارل لم يكن كذلك، فقد ارتخت يده بهدوء على الرُّكبة.

- ما المواقف التي ما زلت تقضم أظافرك عند التعرض لها.

- عندما أفكر، أو أشعر بالاضطراب، أو عندما أعجز عن اتخاذ قرار.. في أغلب الأحيان.

إجابة صادقة.

التقطت روزه الملف: «جيد.. جلسة الحديث التمهيدية هذه مجانية، ولن نُحصِّل أي رسوم من المحكمة، وستستمر حوالي خمسين دقيقة، فإذا كنت توافق على ذلك، أود أن أبدأ ببعض الأسئلة العامة».

أومأ لها.

قالت روزه مستدلة: «لديك لهجة شرق ألمانيا.. هل أنت من ولاية ساكسونيا أو براندنبورج؟».

- لقد ولدت في فيينا، فوالدتي من هنا، لكن أبي جاء من دريسدن، في عام 1981، رحل عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية خلال جولة موسيقية؛ إذ كان عازف بيانو، وتحتم علينا أن نظل متنقلين كثيرًا، وهكذا عشنا لفترة في فيينا، وكولونيا، ولايبتسيج بعد سقوط الجدار، ثم عدنا لاحقًا إلى دريسدن.

- شيء مثير للاهتمام.

لقد مر على روزه بضعة عملاء من أبناء الموسيقيين، لكن لم يكن من بينهم قطّ ابن لعازف بيانو.

- والآن.. هل عدت للعيش في فيينا مجددًا؟

- عدنا بعد وفاة أبي.

ثم أضاف بسرعة: «لكن أمي تعيش في شقة خاصة».

وبصبر قدّم خلال الربع ساعة التالية إجابات مختصرة عن جميع أسئلتها، وقد دونتها في ملفها، بدأ كارل في العمل بمهنة ميكانيكي في ورشة روبن لتصليح السيارات في الضواحي الشمالية لفيينا من السادسة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر، وهو مكان -على حد تعبيره- مثير للشكوك إلى حد ما، فقد عرض روبن الأكبر سيارات مستعملة للبيع، كما أقدم على خداع العملاء المتشددين.

كان كارل هو الابن الأوحد، ولم يحظ بطفولة سعيدة، كما عاش بمفرده في فيينا، لقد خاصم والدته، وتوفي والده بسبب أزمة قلبية، وقد كان هو الشخصية المحورية في حياته؛ حيث أحبه كارل بشدة. وُلد كارل في السادس من نوفمبر، كما ولدت هي أيضًا، وهو برج العقرب بالمثل، لكنه في الثالثة والعشرين من عمره فقط، وبناء عليه كان أصغر منها كثيرًا، فمن الناحية النظرية هو في مقام ابنها، لكنها لم تستطع إلا أن تفكر في أن بعض العقارب لديها ذَنَب سام قاتل للبشر. وبشكل غريزي وضعت يدها على بطنها، لكن لم يظهر شيء بعد، كان حملها في أسبوعه الرابع فقط، فهل هو صبي؟ وكيف ستكون ردة فعل أبيه؟ على أي حال، كان عليها أن تخبره بذلك عما قريب.

والآن ركزي مع عميلك!

شاهدت كارل وهو يتحدث، إن العيون المقدرة والسلوك الواثق والابتسامة الخبيثة أثبتت أنه يتمتع بشخصية لها حضور طاغ يمكنه أن يفتن بها الآخرين بسهولة، وكم يصعب جدًّا تحطيم حاجز الحماية الخاص بهذا النوع من الشخصيات والتوغل إلى جوهر المشكلة.

سألته روزه: «كيف تصف علاقتك بوالديك في ثلاث صفات؟».

تدبر: «أحببت والدي.. لقد كان شخصًا ذكيًّا، لكنه صارم ومتسلط وسريع الغضب».

من المثير للاهتمام أنه أحال السؤال على الفور إلى والده، لكنه إلى الآن كان يصف الشخص وليس علاقته به، كما لاحظت مشاعره المتناقضة، لقد أحب شخصًا صارمًا وسريع الغضب، لكن ذلك لم يكن أمرًا خارقًا للعادة.

- وبالنسبة لوالدتك؟

هز كتفيه: «إنها امرأة بسيطة، تعمل ممرضة، مرة هنا ومرة هناك، ولكنها ليس لديها سلوك والدي».

وبعد بضعة أسئلة حول أقاربه الآخرين وتعليمه واهتماماته، انتهت السيرة المرضية للحالة في الوقت الحالي، فأغلقت روزه الملف، وقالت: «هل لديك أسئلة؟».

انتقل كارل إلى حافة الرُّكنة: «ما مؤهلاتك التعليمية؟».

ابتسمت بلطف، فارتبك وقال: «لماذا تبتسمين؟».

- لأن معظم العملاء يبدؤون في المراوغة حول الموضوع لفترة من الوقت، وبعد ذلك يسألون مباشرة.. فاعتقدت أن تصرفك يبدو جيدًا.

ضاقت عيناه: «وما الجيد في ذلك؟».

- حسنًا، أنت تبدو لي شخصًا يتجه مباشرة نحو الهدف، ولا يتورط في التفاهات، ولا يريد إضاعة الوقت أو العواطف.

سجلت إيماءته التي بدت بالكاد محسوسة.

- أظن أنك تريد أن تجد إجابة عن كل ما يَمَسّك، الاستفسار عن كل شيء، ومعرفة الملابسات.. هذا أساس جيد لمحادثة مفتوحة، فالعلاج النفسي يدور في المقام الأول حول العلاقات.. والثقة.

هذه المرة أومأ برأسه بوضوح، فسحبت حافظة أوراق بسيطة بصمام من الملف وسلمتها لكارل.

- هنا ستجد سيرة ذاتية قصيرة عني.

ألقى نظرة خاطفة على الكتيب.

- درست الطب، وخلال دراستي أكملت الدورة التمهيدية لأصبح معالجة نفسية في جامعة فيينا، استغرق ذلك عامين، واستغرقت الدراسة المتخصصة لاحقًا أربع سنوات أخرى.

- منذ متى كان ذلك؟

فكرت للحظة وقالت: «اثني عشر عامًا».

لاحظت كيف بدأت التروس تعمل في دماغه، وورد إلى ذهنها سؤاله التالي، فقالت: «أنا في الأربعين من عمري الآن..».

كان يحدق بصورة سافرة في ساقيها النحيلتين.

- كان تدريبي التخصصي هو العلاج بالمعنى وفقًا لفيكتور إي فرانكل.

- لقد رأيت ذلك وأنا بالخارج.

وأضافت بسرعة: «وليس لهذا علاقة بأمراض الكلام.. فبعض العملاء يخلطون بينهما، فهذا العلاج يدور حول إيجاد المعنى وتحليل الوجود».

تشكلت التجاعيد على جبهته، فابتسمت روزه: «لا يتعلق الأمر بوجودك المالي أو حسابك المصرفي، بل يتعلق بإيجاد معنى لحياتك، وكيف يمكنك التصالح مع نفسك ومشاعرك».

شعرت بسؤال يحترق على طرف لسانه، فقالت: «نعم؟».

- سيدتي ألا تستخدمين التحليل النفسي.. مثل فرويد وما شابه؟

التحليل النفسي عند فرويد؟ لقد علمت من بيترا لوجريتي أن كارل جلس بالفعل مع ثلاثة معالجين، وقد قطعوا جميعًا جلسة العلاج بعد أربع ساعات، وسلموا الحالة بعد مناقشة مع المشرف الخاص بكل منهم، لم تعرف روزه السبب، لكن بناءً على رد فعل كارل، فهم محللون عفا عليهم الزمن، كما تحب روزه أن تطلق عليهم.

أجابت ببطء: «لا، أنا لا أعمل بطريقة الطب النفسي التحليلي.. انظر، هذا الاتجاه عويص جدًّا في تأويلي، وأنا لا أسير وفق هذه الطريقة، فطريقتي تعتمد على الحديث المباشر في المقام الأول، وإذا قررتَ متابعة العلاج معي، فسنتحدث كثيرًا عن مشاعرك، وربما نستخدم سبورة متحركة أو نكتب رسائل إلى والدتك ووالدك وغيرهم من الأشخاص، ثم لن نرسلها أبدًا.

أخذت قسطًا من الراحة، واستوعب كارل كل شيء باهتمام حتى الآن، أو هكذا بدا على الأقل، وتابعت: «لكن التطبيق الأكثر أهمية لا يحدث في هذه الغرفة في أثناء اجتماعاتنا، بل في الخارج... في مكان عملك، وفي منزلك، وفي تعاملاتك مع المحيطين بك».

تمتم: «بالتأكيد طبعًا»، وكأنه سمع ذلك كله مائة مرة من قبل، وأردف: «لكن هل لديك أي فكرة كيف تسير الطرق الأخرى؟».

ابتسمت روزه، وقد كانت طريقته المباشرة في طرح الأسئلة منعشة.

- هناك اثنتان وعشرون طريقة معترف بها في النمسا؛ مما يعني أن صندوق التأمين الصحي يدعمهم جميعًا، ونعم أنا أعرف كيف تسير معظمها.

رفع حاجبيه.

- حسنًا، يجب على المعالجين النفسيين الخضوع لدورات تدريبية متقدمة كل عام، فأحيانًا أخضع نفسي لتدريب من تدريباتي النظامية الإضافية، وبذلك نستطيع -على سبيل المثال- تحليل علاقاتك بالأصدقاء والزملاء وأفراد العائلة عن طريق عرض وجهات النظر فيهم أو ملاحقتهم على لوح العلاقات[1].

- كيف تعرفين أن الأمر يسير بنجاح؟

يا له من مازح! ابتسمت وقالت: «في أثناء التدريب المهني المصاحب للعمل يتحتم علينا أن نتلقى نحن جلسات العلاج كأننا عملاء، والحد الأدنى مائتان وخمسون ساعة من الوعي الذاتي».

تكورت وجنتاه من الهواء المحبوس بفمه، ثم أطلق زفرة، ربما لم يخبره أي من المحللين النفسيين بذلك، لكن روزه لم تكن لديها مشكلة في التحدث عن الأمر علانية، لقد أكملت ما لا يقل عن ثلاثمائة وخمس عشرة ساعة.

---

(1) تتكون من لوح خشبي توضع عليه أشكال ورموز صغيرة تمثل أنظمة أو عمليات مختلفة، وقد طورها كورت لودفيج وأولريش فيلكن من بين آخرين.

- هل لديك أي أسئلة أخرى؟ إن لم يكن لديك، فأنا أود مناقشة الجوانب التنظيمية.

غاص مرة أخرى للخلف متكئًا على مسند الظهر.

- على عكس سائر الأطباء، فإن المعالجين النفسيين لديهم التزام أكثر صرامة بالسرية بموجب القانون، فقد يُسمح للأطباء بتبادل الحديث مع زملائهم حول مرضاهم، أما لدينا فالسرية أكثر صرامة؛ حيث لا يُسمح لنا بمناقشة محتوى العلاج مع الأطباء أو السلطات أو الأقارب إلا إذا وافق العميل، لكن في حالة تعريض حياتك أو حياة شخص آخر للخطر، يُلغى واجب الحفاظ على السرية.

أومأ كارل.

- إذا أتيت إلى الجلسة في حالة سكر أو تحت تأثير المخدرات، فسأضطر إلى إلغائها.

لقد استوعب ذلك أيضًا.

تابعت: «أوصي بالبدء أسبوعيًّا، وبالنسبة لجلستنا الرابعة فيرجى أخذ تأكيد الفحص الطبي الذي أجراه طبيب الأسرة الخاص بك إذا كنت تتلقى علاجًا نفسيًّا، نقدم هذا إلى المحكمة مع تقرير الحالة والتشخيص الأوّلي من أجل طلب السداد الكامل لتكاليف الساعات الإضافية».

كان هذا هو الإجراء المتبع عندما تكون المحكمة هي العميل.

تجاهل كارل النموذج: «لماذا نحتاج إلى هذه الورقة إذا كان عليّ إجراء العلاج في كل الأحوال؟».

- أريد فقط التأكد من أنك بصحة جيدة جسديًّا.

- هل من المخطط أيضًا إجراء اختبار البول؟

- هل تتعاطى المخدرات حاليًّا؟

- لا.

- إذًا فليس لديك ما تخشاه.

طوى الاستمارة ووضعها في جيب قميصه دون أن يقرأها، ثم انزلق مجددًا إلى حافة الأريكة، لكنه اقترب منها هذه المرة، كانت رائحة زيت السيارات عالقة في الهواء، من المحتمل أنه جاء مباشرة من ورشة تصليح السيارات، وبإيماءة لا شعورية واضحة رفع أكمام قميصه، وللحظة رأت روزه ندوب حروق قبيحة في الجزء الداخلي من ذراعيه.

- لقد سمعت أن الأطباء والمعالجين يتقاضون رسومًا مقابل جلسة متفق عليها حتى لو أُلغيت قبل أربع وعشرين ساعة.

- هذا صحيح.

لا عجب من اطلاع كارل على تلك المعلومات بصورة جيدة، فبقضاء أربع ساعات مع معالجيه الثلاثة، صار لديه خبرة واسعة النطاق، ولكن من ناحية أخرى لم يكن الأمر يهمه؛ لأن المحكمة هي من ستغطي التكاليف على أي حال.

تلعثم قائلًا: «ولكن إذا تعرضت.. لحادث سيارة وأنا في طريقي لرؤيتك أو اكتشفت أن والدتي في المستشفى ويجب أن أزورها، فعندها...».

ترك كارل الجملة دون أن يتمها، أراد أن يختبرها كما فعل من قبل عندما أراد أن يعرف ما هو التدريب الذي يؤهلها لأن تصبح معالجة.

أجابت روزه: «أولًا وقبل كل شيء، أتمنى ألا يصيبك أي مكروه ووالدتك بالمثل.. لكن في مثل هذه الحالات بالطبع لا أتقاضى أي شيء، وسنعيد جدولة الجلسة في موعد آخر».

نظر إليها بمفاجأة: «حقًّا؟ لقد ذهبت إلى معالج نفسي من قبل».

واحد فقط؟

- أعرف ذلك.

تابع: «وقال إن العلاج بمثابة عقد نوقعه، وأن عليّ محاولة تخفيف حدة الشروط العامة للعقد عن طريق السؤال».

يا إلهي! إلى من أسندت المحكمة تلك المهمة؟ ربما عمل الزميل معالجًا لفترة طويلة جدًّا لدرجة أنه لم يعد يرى موكليه بشرًا.

- يمكنني طمأنتك، فلن يحدث لك ذلك معي، وبلا شك إذا اتصلت لإعادة جدولة موعد بسبب عدم قدرتك مثلًا، ثم سمعت في خلفية المكالمة صوت تدفق المياه والصراخ من المسبح.. عندئذ سأمررها لك مرة واحدة، ولكن في المرة التالية سأصدر فاتورة إلى المحكمة ومرفق معها بيان بمقتضى ذلك.

ابتسم كارل.

- حصلت في النهاية على إذن سماح، فإذا لم تفِ بالتزامك، سأعد ذلك بمثابة إنهاء للعلاج وسيتعين عليّ إبلاغ المحكمة... لكن ذلك ابتداء من المرة التالية، اتفاق عادل، أليس كذلك؟

- حسنًا.

التقط كوب الماء وأخذ رشفة، في تلك اللحظة زال التوتر الذي أثقل كاهله، ربما كان هذا السؤال بمثابة اختبار شخصي له، فقد كان صلب الموضوع هو (هل سيتمكن من الوثوق بمعالجته أم لا)، ويبدو أن ما يهتم به حقًّا هو أن يكون هو ومشاكله أهم عندها من التسعين يورو.

التقطت خيط الموضوع مرة أخرى: «هناك شيء آخر مهم.. إذا تأخرت، فلن أعوضك عن الوقت المنقضي».

للحظة مطّ ذقنه إلى الأمام باستفزاز وقال: «ولِمَ لا؟!».

- سيكون هناك عميل آخر ينتظر.

يبدو أنه غير راضٍ عن الإجابة.

فنصحته روزه: «حاول لمرة واحدة أن تفكر في الأمور من منظور مختلف، فإذا وصل العميل الذي يسبقك متأخرًا، فعليك التأكد من أننا سنبدأ في الوقت المحدد، وسيضيع وقته هو».

قال: «واضح».

لأول مرة تظهر ابتسامة ودية على وجهه، ربما كانت مصطنعة، لكنها أرادت أن تؤمن بصدقه. كما أرادت أن تمنحه شعورًا بأنه مثل أي عميل يأتي بإرادة محضة، واتفقا على موعد للجلسة الأولى، وكانت تلك نهاية المحادثة التمهيدية، راح كارل يفرغ كوب الماء، في حين انحنت روزه إلى الأمام لإيقاف مسجل الصوت، وفي الوقت نفسه تساءلت عن سبب قطع زملائها للعلاج معه، وكم من الوقت ستحتاج لمعرفة السبب.

8

بحلول العاشرة صباحًا تكون زابينه قد قضت أربع عشرة ساعة في الخدمة، أحضر فالنر لفائف القرفة من المخبز، فأكلت زابينه قطعة واحدة فقط ووجدتها ثقيلة على معدتها، وكذلك وجدت القهوة التي صارت باردة حاليًّا داخل الإبريق الخاص بها، لقد أضناها الجلوس غير المُجدي في غضون استجواب والدها بالمكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية بولاية بافاريا، فهناك ما يقرب من 1500 زميل يعملون بالمكتب الإقليمي في ميونخ ونورمبرج، كما أن المقر الرئيس في شارع ميلينجر شتراسه ليس بعيدًا عن مكتبها، لكن حضورها هناك سيكون عبثيًّا، حتى إنها لن تستطيع تجاوز الحارس.

- هل هناك أي وسيلة يمكنني من خلالها المشاركة في التحقيق؟

رفع كولونوفيتش بصره بعيون منهكة، وحاجباه الكثّان بلون الخردل يلتصقان ببعضها: «مع المكتب الإقليمي؟ هل تمزحين؟».

وقفت زابينه في مكتبه وشعرت كأنها كلب بودل سُكب عليه الماء، كانت نظراته تقول لها: **أنت مجرد ترس صغير في عجلة الخدمة الجنائية الدائمة، هل أتممت لتوك ستة وعشرين عامًا فقط وترغبين في دعم ضباط المباحث الجنائية؟**

قالت: «لا يوجد ملف إلكتروني لهذه القضية».

رن هاتف كولونوفيتش، لكنه حول المكالمة إلى خط آخر وقال: «أعلم ذلك».

عادة ما تسجل كل قضية بجميع أجزاء ملفها في نظام كمبيوتر الشرطة، ويمكن لأي ضابط الاطلاع عليها، ولا يسمح إلا للموظف المختص بإضافة البيانات، لكن الأمر لا يسير على المنوال نفسه مع هذه القضية.

طوى كولونوفيتش يديه القويتين وقال: «صُنفت جريمة قتل والدتك على أنها جريمة في غاية السرية، لقد سحبوا إجراءات القضية من نظام الكمبيوتر وفتحوها دون اتصال بالشبكة».

- وما السبب؟ أنا ...

رمقها أبو الآلهة زيوس بنظرة جادة: «زابينه! يجري الضباط حاليًّا استجوابات لخمسة من المشتبه بهم الآخرين، ولكن هناك زملاء من كولونيا أجروا تفتيشًا لشقة والدك هذا الصباح، وقد عثروا على علبة من الحبر عليها بصمات أصابعه، هذه هي آخر المعلومات التي وصلت إليّ، وقد يكون السائل الذي ضبط هناك مطابقًا لذلك الموجود في مسرح الجريمة».

إنه مطابق بالطبع!

كان والدها بحاجة إلى محامٍ في أسرع وقت ممكن، يمكنها الاتصال بخدمة محامي الطوارئ، ولكن من يدري متى سيرسلون واحدًا، لم يكن بوسعها إلا أن تفكر في جابرييل، زوج أختها الأسبق لقد تأخر هذا الكاذب ابن الحرام لمدة ثلاثة أشهر عن سداد نفقة المعيشة الخاصة بكرستين وكوني وفيونا، ولهذا السبب أرادت كسر رقبته، لكنه لم يكن محامي دفاع سيئًا.

تمتم كولونوفيتش: «هناك شيء آخر، سيأتي إلينا زميل من مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية في فيسبادن».

- بسبب قضية مقتل والدتي؟

هز كتفيه: «ليس لدي أي فكرة، سيأتي على متن طائرة لوفتهانزا القادمة من فرانكفورت، سيُقِلّه زيمون من المطار الآن».

- ألا يملك سيارة؟

- لقد سعدت بالعمل معه مرتين حتى الآن، وعلى حد علمي هو لا يملك رخصة قيادة، لكن في كل الأحوال علينا أن نقود سيارته عبر

ميونخ.. هكذا هم ذوو الزي الرسمي من مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية، كلهم من الكسولين ومدعي الأهمية.

جفلت زابينه، فلم تسمع رئيسها يتحدث عن زميل له بتلك الطريقة من قبل، هل يشك بأنها تقدمت بطلب للتدريب في فيسبادن ثلاث مرات من قبل؟

- ما اسم هذا الرجل؟

- مارتن س. شنايدر.

كررت زابينه: «مارتن شنايدر؟ لم أسمع به من قبل».

قال مصححًا: «مارتن س. شنايدر، إن أصله من روتردام، وهو ثعلب عجوز لا يفوته شيء، له أنف كأنف الجمل، يستطيع به أن يشم رائحة بركة الماء على بعد عشرين كيلومترًا».

إذًا يبدو أنه غير كسول، إذا كان الرجل هنا بالفعل بسبب مقتل والدتها، فيجب عليها التحدث إليه.

وفي طريقها إلى مكتبها اتصلت مجددًا بإريك، لكنها لم تستطع الوصول إليه لا في مكتبه في فيسبادن ولا عبر هاتفه الشخصي، الأمر كله معقد! تركت زابينه رسالة أخرى على بريده الصوتي.

وعلى مكتبها كتبت رمز طلبها إلى دايدالوس، لكن الوصول كان لا يزال محظورًا، فدفعت لوحة المفاتيح جانبًا وغاصت مرة أخرى في كرسيها، ثم فتحت جهات الاتصال على هاتفها بتجهم، ونقرت على رقم الدكتور جابرييل تسيرني، لقد أطلق عليه البعض اسم د. جاتسي، تورية غبية عن طريق ضم الحروف الأولى من اسمه؛ لأنه تميز بنظراته الباردة المتصلبة الشهيرة، التي يرسمها على وجهه بمجرد دخوله قاعة المحكمة، وقد عرفت أختها مونيكا تلك الصورة النافذة جيدًا.. نظرت زابينه إلى الاسم لفترة طويلة، هل يفترض أن تتصل به؟ لم يخطر ببالها أي بدائل أفضل.

اتصلت برقم مكتب جابرييل، فحولت سكرتيرته المكالمة إليه، أجاب زوج أختها السابق، كما هو الحال دائمًا، بصوت من أنفه متصنعًا الأدب... وبرجفة ودودة للغاية لدرجة أنها بدت مزعجة: «مرحبًا يا ملاكي.. يا حبيبة قلبي، كيف يمكنني مساعدتك؟».

- جابرييل، توقف عن هذا الهراء، أريدك أن تمثل شخصًا مشتبهًا به في جريمة قتل.

وقع طلبها على هذا الوغد كالصاعقة، وصرخ: «هذا رائع برأيي! في البداية تُلقين القبض على الرجال، ثم توكلينني عنهم لإخراجهم من السجن».

- «أمي...».

وشعرت بالدموع في أطراف عينيها: «لقد عثرنا على أمي مقتولة، وهم يستجوبون أبي الآن».

في اللحظة التالية بدا صوته طبيعيًّا وقال: «أنا آسف لحدوث ذلك يا بينه، أليست هذه جريمة الكاتدرائية؟ كيف يمكنني مساعدتك؟».

ربما لم يكن حقيرًا إلى هذا الحد، ومن ناحية أخرى فهو يتحدث عن أصهاره السابقين على الأقل، فربما تتوقع القليل من الاحترام.

- أطفالك لا يعرفون الخبر بعد، ستخبرهم مونيكا لاحقًا، أما في الوقت الراهن فأبي يحتاج إلى مساعدتك، وقد فتشوا بالفعل شقته في كولونيا، ويجري زملاؤنا بالمكتب الإقليمي للولاية حاليًّا استجوابًا له في مايلينجر شتراسه.

سأل جابرييل: «هل هو في ميونخ؟».

- نعم، ولكن عليه أن يوضح لك السبب بنفسه، من فضلك اعتنِ به... فهو ليس القاتل.

أغلق جابرييل الخط وهو يقول: «أرى ذلك».

حدقت في الحائط، لكن صوت زيمون القادم من الممر قطع حبل أفكارها.

كان يسب: «هذا الأحمق الهزء! لقد عاملني مثل صبي مأموريات».

فدلفت إلى الممر، كان زيمون وفالنر يقفان عند باب المقصف، أشعل زيمون سيجارة واستنشقها بشراهة، نادرًا ما رأته يدخن.

سألت زابينه: «هل تتحدث عن شنايدر؟».

تذمر زيمون: «عن مارتن س. شنايدر! كان عليّ أن أحمل حقيبته الضخمة، فلربما سافر بهذه الكتلة الصخرية! وفي الطريق إلى المكتب جلس في الخلف وتصفح أوراقه، وكم كنت غبيًّا جدًّا! ذلك عندما سألته -من باب التهذيب فقط- إذا كان قد أتى إلى ميونخ من قبل؛ لأنه رد وقال: «هل تحاول إجباري على التحدث؟». كان زيمون يقلد نبرة صوته بلكنة هولندية.

ضحك فالنر: «أنا أعرفه، لقد أحضرته ذات مرة إلى مسرح الجريمة بنفسي، وكان عليّ أن أقدم له إبريقًا من شاي الفانيليا، ويمكن للجميع تخمين السبب». ثم أشار بيده كأنه يدخن الماريجوانا، وأردف: «كما سُمح لي أن أصطحبه بالسيارة إلى المطاعم ومتاجر الكتب، لا يعرف الشكر، ولديه روح ضبع جارح، فقط انتظر حتى يظهر لك أصابعه الثلاث».

أصابع ثلاث؟ كان هناك ضجيج هادر قادم من الطابق العلوي، كأن هناك شخصًا ما يدفع الطاولات عبر أرضية الباركيه، فنظرت زابينه للأعلى، وتحرك المصباح ذهابًا وإيابًا: «من أي قسم هو؟».

تقلص وجه فالنر: «إنه محلل ملفات، لا أعرف أكثر من ذلك».

شعرت زابينه بارتفاع في ضغط الدم: «أين هو الآن؟».

تردد صوت هدير ممل من خلال السقف، فأشار زيمون إلى الأعلى وقال: «ماذا تظنون؟ يؤثث مكتبًا في غرفة الاجتماعات؟».

- عندنا؟ لأي سبب؟

- ليس لديّ فكرة، ولن أفرض على هذا الرجل أي محادثة بعد الآن، صدقيني.

سحق زيمون السيجارة في منفضة السجائر وقال: «اكتشفي ذلك بنفسك، لقد قال إنه يريد التحدث إليك»، ثم نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط وأردف: «في غضون أربع دقائق بالضبط».

في الطابق العلوي كانت أشجار اليُكَّة التي ترتفع حتى السقف بغرفة الاجتماعات تستقر بالخارج في الردهة، طرقت زابينه الباب ودخلت، وفي اللحظة التالية ارتجفت مرة أخرى، كانت رائحة شاي الفانيليا تفوح بقوة، وفي الوقت نفسه بدت رائحتها كأعواد البخور، لكن هناك رائحة أخرى حلوة في الغرفة لا تستطيع تمييزها؛ لأن رائحة شاي الفانيليا تطغى عليها.

أعاد شنايدر تصميم الغرفة بالكامل، فقد كانت الكراسي مكدسة عند عمود بإحدى الزوايا، وشكلت الطاولات مكتبًا كبيرًا على شكل حرف U، جلس شنايدر على كرسي جلدي وأمامه ثلاثة أجهزة كمبيوتر محمولة، والأسلاك المتشابكة تمتد على الأرضية الباركيه، وقد استقرت على الطاولة عدة ملفات مفتوحة، ومسجل صوت وحقيبة جلدية مفتوحة بها صف من الإبر الطويلة الحادة.

سألت زابينه: «هل أخرجت أصص النباتات؟».

- أشياء كهذه لا تحدث من تلقاء نفسها.

كان صوته يتمتع بلكنة هولندية لا لبس فيها، مع حرف اللام الانسيابي، ثم ضغط على جبهته: «إنها تسرق الهواء الذي أتنفسه.. وأنا أحتاج الأكسجين لأفكر».

ذكّرتها نغمة صوته برودي كاريل، لكن مظهره لم يعطها الانطباع نفسه.

وقف الرجل، فبدا نحيلًا، يرتدي بدلة سوداء، وطوله على الأرجح 180 سم، كما أن ذراعيه طويلان للغاية، وقدرت أنه في منتصف الأربعينيات من عمره، تبدأ سوالفه النحيلة من الأذن وتمتد في خط رفيع حتى الذقن، وكانت لحيته السوداء تتناقض بشكل حاد مع رأسه الأصلع المصقول ووجهه الأبيض الذي لم ير الشمس منذ سنوات، فأمرها: «اجلسي».

كان الكرسي في منتصف الغرفة في مواجهة الحائط، فجلست زابينه، وحدقت في الحائط الفارغ الأبيض كأنها في حالة استجواب، كان شنايدر قد أزاح اللوحة المائية الكبيرة المؤطرة التي رسمتها زوجة كولونوفيتش ثم وضعها خلف الدولاب، ربما كانت الألوان تعيق تفكيره أيضًا!

تقدم نحوها بحركات متصلبة، وقد بدا العرق على جبهته الشمعية غير صحي، هل يعاني من الحمى؟

سألته زابينه: «هل تشعر أنك لست على ما يرام؟».

- كيف سيكون شعورك إذا اضطررت إلى الإسراع نحو مطار فرانكفورت والساعة بالكاد تخطت السادسة صباحًا؟

السادسة صباحًا! فكرت في استعلامها عبر دايدالوس.. **إنها مجرد صدفة! لا تصابي بجنون العظمة الآن!**

أخذ شنايدر يجول حولها بخطوات بطيئة وهو يتفحصها، وبدا لها بأنفه المعقوف المدبب وعينيه الصغيرتين اللتين لا يفوتهما شيء، كالنسر الذي ينقض على فريسته، وظل نعل حذائه المعدني يطقطق على الأرضية الخشبية، من المؤكد أن كل من بالطابق السفلي يمكنهم سماع تلك الخطوات، ربما كان يتعمد بذلك تشتيت أفكار الآخرين، وربما ضربة وقائية.

قالت: «سمعت أنك محلل».

نظر إليها بابتسامة صفراء جعلت القشعريرة تدب في جسدها.

- هذا ليس مسلسل CSI ميامي، أنا لست محللًا، بل محللًا لقضايا الشرطة، ومتخصصًا في عمليات الاختطاف، وعالمًا نفسيًّا جنائيًّا في الطب الشرعي، هل انتهى وقت الأسئلة الآن؟ هل يمكنني أيضًا طرح بعض الأسئلة عليك؟».

ولم ينتظر إجابتها، وقال: «احكي لي عن والدتك، من برأيك يمكن أن يكون القاتل؟».

ابتلعت زابينه ريقها، لقد ماتت والدتها منذ خمس عشرة ساعة فقط، ولم يقل حتى أنا آسف لذلك أو تعازيّ الحارة.. سدد لها فقط نظرة النسر الثابتة.

- كانت أمي...

قاطعها بأن أمسك بثلاث من أصابعه ومدها أمام وجهها، فلاحظت وجود نقطة سوداء دائرية في ثنية كف يده بين السبابة والإبهام، إنه وشم أو وحمة واضحة، ثم قال: «أريدك أن تلخصي الأساسيات، تخبرينني بأهم الأشياء في ثلاث جمل لا أكثر، هل يمكنك ذلك؟».

حقير!

- نشأت أنا وأختي في ميونخ، ولكن بسبب وظيفة والدي انتقلنا إلى كولونيا، كان يعمل سائق قطار، وقد اهتم بترميم القطارات القديمة في كولونيا، كان هذا هو حلمه الكبير، وهناك درَّست أمي في المدرسة الابتدائية لمدة اثني عشر عامًا، وأصبحت فيها بعد مديرة للمدرسة، وبعد طلاق والدينا قبل عشر سنوات عدنا إلى ميونخ، وتلا ذلك حرب الوردتين التي استمرت لمدة عامين، وهذا ليس سرًّا، كان أبي يحصل على دخل جيد، لكن الأمر لا يتعلق بالمال فحسب، بل كان يتعلق أيضًا بالحضانة، كنت في السادسة عشرة من عمري في ذلك الوقت، ولكن والدي لم...».

قاطعها: «المهم!».

ماذا أراد أن يسمع؟

- بلغت أمي سن المعاش منذ عامين، وعاشت بمفردها، لم تكن مديونة لأحد، ولديها الكثير من الهوايات، وقد امتلكت ملابس جديدة لا حصر لها، كانت نحيفة ورياضية وتستمتع بمشاهدة الأوبريتات والمسرحيات، وقد اعتدت على مرافقتها مرة واحدة في الأسبوع إلى دروس البيلاتس، اسمعني، والدي سوف...».

اقترب منها بسرعة وقال: «لا، بل أنت من ستستمعين إليّ! يجري المكتب الإقليمي استجوابًا لوالدك وعدد قليل من المشتبه بهم الآخرين، لكن اهتمامي بهم يكاد يكون بقدر اهتمامي بفقمة في حديقة حيوان ميونخ سمحت لغازات بطنها بالطفو فوق الماء.. أنا مهتم بوالدتك الآن، حسنًا؟ متى تقام حصة البيلاتس؟».

- مساء الجمعة.

- في هذا الأسبوع أيضًا؟

أومأت برأسها وقالت: «لكنني لم أذهب».

حينها مدّ ثلاث أصابع من يده الأخرى، وهنا أيضًا وجدت هناك نقطة سوداء في نفس المكان، ربما كانت وشمًا متطابقًا، ولكن ماذا من المفترض أن يعني وشم النقطة؟

حثها: «استمري!».

- لقد قرأت لـهيسه وبُل، والملاحم القديمة، واستمعت إلى الموسيقى الكلاسيكية، لكنها لم تستمع قط إلى الكتب الصوتية التي كنت أحضرها لها، كانت تحب الذهاب إلى الأوبرا، وشراء الفواكه والخضراوات من الهنود، وأحبت الطبخ، لم تمتلك أي حيوانات أليفة، وكانت تعتني بحفيداتها الثلاث بمحبة.

حدجها شنايدر بنظرة مفاجئة.

فأوضحت زابينه بسرعة قبل أن يتمكن من الإدلاء بتعليق غبي: «أختي مطلقة».

قال شنايدر: «نظراتك إليّ لفتت انتباهي لذلك.. هل تشعرين بالذنب لعدم مقابلة والدتك ليلة الاختطاف؟».

تقلصت معدتها، كيف علم بأمر الاختطاف؟

لف سيجارة تشبه لفافة الماريجوانا بطريقة توحي بأنه يتعبد.

- هل سأزعجك إذا دخنت؟

بعد الإدلاء بهذا التصريح، أشعل اللفافة بعود ثقاب وقال: «قلنا إذًا (الشعور بالذنب)؟»

- ممكن.

لكنها في تلك اللحظة لم تكن تشعر بأي تأنيب ضمير، بل شعرت فقط بالغضب من هذا المتذاكي الشاعر بأهميته، ذلك الذي يشبه الحجر في إحساسه ومراعاته للغير، ومن ناحية أخرى بدا بتصلب الجزء العلوي من جسده وحركة خصره النحيل وكأنه من المثليين، لم تكن ضد المثليين جنسيًّا، لكن كان بداخلها شيء ضد المدخنين.

نفث شنايدر سحابة الدخان الرمادية نحو السقف، ولاحظت زابينه موضع الجهاز الدائري الأبيض في السقف.. لكنه كان قد أوقف كاشف الدخان، وكانت الأسلاك المفكوكة معزولة والجهاز ملقى على حافة النافذة، والآن استطاعت التعرف على الرائحة الحلوة، ماريجوانا! لقد كان في الواقع يدخن الماريجوانا، ربما كان من المفترض أن يغطي شاي الفانيليا على الرائحة.

سألت بسخرية: «ألا يشوش الدخان تفكيرك؟».

فتجمدت ملامحه وقال: «لا تحاولي أبدًا أن تمزحي معي فيما بعد!».

انفتح الباب، ودس زيمون رأسه بشعره الأشقر القصير الذي يتدلى في كل الاتجاهات، وفي اللحظة التالية كشر وجهه، ثم نظر إلى السقف، ربما كان

يبحث أيضًا عن كاشف الدخان في هذه الغرفة التي تحولت إلى وكر لتدخين المخدرات.

- هل أردتما التحدث معي؟

دمدم شنايدر بنبرة متعالية: «ومن الذي يرغب في التحدث إليك بحق الجحيم؟ أحضر لي وعاء آخر من شاي الفانيليا الطازج وجميع المستندات المتعلقة بقضية حنا نيميتس؛ بصمات الأصابع، وصور مسرح الجريمة، وإفادات الشهود، وما إلى ذلك».

اتكأ زيمون على إطار الباب بتكاسل: «من الصعب حدوث ذلك، فالأمر بيد المكتب الإقليمي الجنائي لولاية بافاريا»، ثم رفع كتفيه وقال: «ليس لدي أي فكرة عمن يعمل على هذه القضية هناك».

رغم الوضع المتوتر، اضطرت زابينه إلى الابتسام. وكما هو معروف، إذا صرخت في الغابة، ستسمع صدى صوتك[1]، فمن الذي يجب أن يعامل باستخفاف؟!

أخذ شنايدر نفسًا من سيجارته: «هؤلاء الحمقى من المكتب الإقليمي للولاية بالكاد وصلوا إلى مسرح الجريمة، أليس كذلك؟ لذا مشط شعرك وأنت في طريقك إلى المكتب أيها الصبي الأشقر، وأحضر لي جميع المستندات الموجودة في هذه القضية حتى الآن».

جفلت زابينه، لم يسبق لأحد بأن نادى زيمون بلفظة «صبي».

صر على أسنانه واختفى دون تعليق، وكان شنايدر يعلم جيدًا أنهم مجبرون على التعاون معه في هذا المكتب، إذا كان جميع المحللين في مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية بفيسبادن على هذا النحو، فستمتنع زابينه بكل سرور عن التقديم هناك مرة أخرى، فهي بهذا الحال تفضل مواصلة العمل في الخدمة الجنائية الدائمة مع زيمون وفالنر.

---

(1) سيعاملك الناس بالطريقة نفسها التي تعاملهم بها.

قالت زابينه: «من الواضح أنك لا تعمل مع الزملاء من المكتب الإقليمي بالولاية.. فلماذا أنت هنا؟».

نظر شنايدر إلى ساعته، وهي ساعة رفيعة ماركة سواتش ذات ميناء مخطط باللون الأحمر والأبيض والأزرق، وهي ألوان العلم الهولندي: «لقد انتهت جملك الثلاث، ويبدو أنك لن تضيفي لي المزيد، لكن فقط أجيبي عن سؤالين آخرين: أين يقع أقرب فرع من متجر هايتال لبيع الكتب؟».

- معذرة، ماذا؟

هز رأسه: «هل أنت ضعيفة السمع؟ أنا حقًّا أتساءل كيف وصلتِ إلى هذه الرتبة؟!».

كانت زابينه تغلي من الغضب، لم تمت والدتها فحسب، بل عاملها هذا اللعين المتغطرس كطفلة شقية، ما شأنه بهايتال؟ كان لسلسلة المكتبات ستة فروع في ميونخ، وهناك واحد منها في مكان قريب.. لقد اشترت زابينه كتبها الصوتية من هناك.. أمام مكتب الطبيب الشرعي والحانة الأيرلندية.

- إذًا أين أقرب فرع؟

قالت: «ليس لدي فكرة».

تذمر قائلًا: «ألا تقرئين كثيرًا؟ إذًا سأسألك السؤال الأخير: هل كنت على اتصال بالخاطف؟».

- كيف عرفت أن والدتي قد اختطفت؟

- كيف عرفت؟

اقترب وجلس على الطاولة المقابلة لها وثبت عينيه في عينيها: «لأنني رأيت طلبك لديدالوس في السادسة صباح اليوم».

ابتلعت زابينه ريقها.

وقف شنايدر وقال: «وكان هذا هو استفسارك الأخير، ومن بعده تم حظر عنوان IP الخاص بك ورمز الوصول الخاص بإريك دورفر في شبكة فيسبادن لحين إشعار آخر».

9

بعد الساعة الحادية عشرة بقليل وصلت جلسة العلاج النفسي لنهايتها، فوقفت هيلين عند مدخل دار الضيافة السابق وانتظرت حتى ركب عميلها البالغ من العمر تسع سنوات السيارة مع والدته.

أغلقت عينيها للحظة، فدفأت شمس الظهيرة اللطيفة وجهها، وهبت الريح عبر شعرها، ثم انبعثت رائحة حارة من الميدان، لم تستطع إلا أن تفكر في الخاتم الياقوت طوال الجلسة، ولم تتمكن من إخراج صورة الإصبع المقطوع من رأسها.

كانت دار الضيافة السابقة مفتوحة أغلب الوقت، لكن هيلين أغلقت باب العيادة، وكإجراء احترازي أغلقت قبل الجلسة البوابة الرئيسة للفيلا، تلك التي اتصلت بالعيادة من خلال حديقة شتوية. وبالطبع كان داستي ينزلق ذهابًا وإيابًا من خلال الباب الصغير المخصص له، وهو ما لم ترغب في منعه من القيام به.

دخلت مكتبها، وأخرجت الخاتم الياقوت من جيب بنطالها الجينز، ورمت جسدها على الكرسي الدوار، كانت قد نظفت الخاتم بسائل التنظيف، وصار الآن يتألق في أشعة شمس الظهيرة المتدفقة عبر النافذة، إذا كان الحجر حقيقيًّا، فقد تقدر قيمته بنحو أربعمائة إلى خمسمائة يورو، أدارت الخاتم بين أصابعها مرارًا، ونظرت إلى النقش الموجود داخله: من أجل آنا – من فرانك.

من هي آنا؟ ومن هو فرانك بحق الجحيم؟ فهي لا تعرف أي شخص يحمل اسم فرانك بخلاف زوجها، لكن ذلك غير وارد على الأرجح، لقد كان فرانك متزوجًا من قبل بالفعل، لكنها كانت بيترا لوجريتي، القاضية بجنح الأحداث، وقد كانت بعمر هيلين تقريبًا.

ربما كان الخاتم أيضًا مزيفًا؟ نوع من التلاعب؟ آنا وفرانك.. كانت العلبة ذات القماش الأحمر تستقر على رف الكتب في غرفة المعيشة بين روايات باولو كويلو التي لم تقرأها هيلين بعد، فإن استدعت الشرطة، يمكن أن ينسى الطب الشرعي فحص العلبة، فالشيء الوحيد المتبقي عليها حتى الآن هو لعاب داستي وبصمات أصابعها، كان الطرف المقطوع ملفوفًا بورق شفاف ومحفوظًا في الثلاجة، فلا يوجد جراح في العالم يستطيع تخييط هذا الجرح.

ظلت هيلين تحاول العثور على إجابة في مدة لا تتجاوز الساعة؛ لأن بعدها سيأتي العميل التالي ويقرع جرس الباب، وقبل ذلك كان عليها أن تعيد دراسة الحالة لمدة عشر دقائق على الأقل، حدقت في الملفات الموجودة في الخزانة، وكانت تخاف بالفعل لأن عقلها كان يفكر باستمرار.

من هي آنا؟

أنت تعرفين هذا الشخص، لكنه يعرفك أفضل مما تظنين.. هكذا قال المجنون، كان الوقت ينفد منها، **لا تفكري في العميل القادم! ركزي على آنا...**

بالطبع! هبت هيلين من كرسيها، فقد كانت إحدى عميلاتها تدعى آنا، فذهبت إلى الخزانة الجدارية الكبيرة حيث احتفظت بالملفات التي تحتوي على الحالات كلها، ثم سحبت الملف الذي يحمل علامة L-M من الرف، وتصفحت بسرعة أوراقه الصفراء.

آنا لينر!

كانت العميلة بائعة في صيدلية في فيينا، وقد زارتها الأسبوع الماضي يوم الجمعة 20 مايو، تبلغ آنا خمسة وأربعين عامًا من العمر تقريبًا، خجولة ومنطوية، وترتدي نظارات ذات إطار قرني، لكنها رغم ذلك كله تبدو جميلة إلى حد ما، لكنها لم تهتم كثيرًا بمظهرها الخارجي، ستبدو في نظر فرانك فأرة رمادية بصورة نموذجية، إضافة إلى أنها لم تكن قادرة على العمل منذ أشهر

بسبب إصابتها بسرطان الأمعاء، وبسبب العلاج الكيميائي ارتدت شعرًا مستعارًا، لكنه لم يكن يناسبها.

تخصصت هيلين في الأصل في حالات الاعتداء التي تخص الأطفال واليافعين، لكنها استقبلت أيضًا بالغين يعانون من مشاكل أقل خطورة، وقد جاءت آنا إلى عيادتها لأنها لم تتمكن من إقامة علاقة طبيعية مع الرجال، فقد كانت تتعرض للاستغلال باستمرار، ويرجع ذلك إلى انجذابها إلى الرجال الأكبر سنًّا والمتزوجين.. عقدة إلكترا -النظير الأنثوي لعقدة أوديب- التي نشأت في طفولة آنا، فلم يكن لديها صديقات، وصارت هيلين هي أول شخص يتمكن من التحدث معها حول هذه المشكلة.

تصفحت رسائلها، والآن تذكرت.. بدأت آنا ترتدي الخاتم خلال الشهرين أو الثلاثة أشهر الماضية، وليس قبل تلك المدة، ربما كانت هدية من أحد المعجبين الحاليين.

فرانك!

لكن آنا لم تكن تذكر أسماء معارفها الذكور قط، ولكن أطلقت عليهم دائمًا ألقابًا مثل: «رب الأسرة»، أو «أمين المكتبة»، أو «تاجر السيارات»، ولم يكن «المدعي العام» من بين الألقاب، فلا بد أن أحد المذكورين كان يدعى **فرانك**.

فكرت هيلين في الإصبع المقطوع والألم الرهيب الذي عانت منه آنا، فلماذا بالأخص تلك المرأة المسكينة التي تعاني من مرض عضال؟ ظنت أنها تعرف الجواب، فآنا كانت ساذجة وذات روح مشبعة بالإنسانية، وقد تسحرها الكلمات بسهولة، فتكسر إرادتها.. وتختطفها.

فمنذ جلستها الأولى، وهيلين تشعر بالمسؤولية تجاهها، وبقدر أكثر قليلًا من المعتاد بالنسبة لكونها معالجة نفسية، ولكن ربما كان كل ذلك مجرد سوء فهم؟ لقد تصفحت بسرعة البيانات الرئيسة وعثرت أخيرًا على عنوان آنا

ورقم هاتفها، فاتصلت أولًا بالخط الأرضي، وبعد الرنة العاشرة أغلقت الخط ثم طلبت رقم هاتف آنا، الذي كتبته أيضًا، وبعد نغمة الرنين الثانية، تم تفعيل البريد الصوتي للهاتف، فقفزت هيلين عندما سمعت صوت المختطِف المشوه إلكترونيًّا:

«للأسف لا أستطيع الحضور في الوقت الحالي...».

ثم انقطع الاتصال.

شعرت هيلين بالحرارة تسري في جسدها، فهذا الوحش هو الذي يتحدث عبر البريد الصوتي، وفكرت في تحذيره، لكنه سيلحق الأذى بآنا إذا أخبرت أحدًا أو أبلغت المحققين.

وكيف سيكتشف ذلك؟ هل يراقبها؟ هل يتجسس على هاتفها؟ هل يتنصت على منزلها؟ سيطرت عليها الأفكار المذعورة ولم تعد قادرة على التنفس، لكن عليها فعل شيء!

فهذا الوحش قد بيت النية على تقطيع جثة آنا إربًا، وقد تيقنت هيلين من أنه لن يترك الأمر عند هذا الحد، فالشخص الذي تجاوز فكرة تعذيب إنسان لمرة واحدة، لن يتراجع أبدًا عن تكرار الأمر، عليه أن يكمل عمله الفني.. حتى تموت آنا، لقد كان مجرد شعور غريزي لا يمكن تحديده، لكن إذا صدق حدسها، فستقدر على إنقاذ آنا فقط إذا شاركت هذا الرجل المجنون لعبته. لكسب الوقت، عليها أن تكشف المزيد حوله، وتستنتج ما يعرفه، كما أن عليها أيضًا محاولة إبلاغ الشرطة سرًّا، رغم أن الإقدام على ذلك سيعرض حياة آنا للخطر وربما تفقد الاتصال بخاطفها، لم يكن الأمر بهذه السهولة؛ لأن هناك أيضًا مشكلتها الشخصية مع الشرطة، التي كانت كحجر يجثم على صدرها.

ربما اختارها المجنون لهذا السبب؛ لأنها توقفت عن العمل بالطب النفسي الشرعي لدى الشرطة قبل ثلاث سنوات، لكنها ضربت بالوظيفة عرض الحائط بسبب قضية فينكلر، لقد دمرت هذه القضية كل شيء، حتى علاقتها

بـ بن كولر، ومنذ ذلك الحين توقفت عن تأدية أي عمل يخص الشرطة الجنائية، وركزت على عيادتها فقط؛ حيث تستطيع الاعتماد على واجب السرية العلاجية دون أن تحول الصحافة والمحكمة ومكتب المدعي العام حياتها إلى جحيم.

هل يجب عليها الاتصال بزملاء بن في الشرطة الجنائية، هؤلاء الذين خذلوها بشكل مخجل؟ فقد ظلت دائمًا بالنسبة لهم مصدرًا لإثارة حفيظتهم، «المجنونة» التي يمكنهم إلقاء اللوم عليها في كل ما تفسده الشرطة الجنائية ويتستر عليه مكتب المدعي العام، لم يكن ليحدث هذا كله لو أنها بدت أكثر حزمًا في إخضاع كريستوف فينكلر لاختبار كشف الكذب لمعرفة إذا ما كان يكذب، أو إذا حثت المحققين على تفتيش منزل فينكلر، عندها لكان الأطفال الخمسة لا يزالون على قيد الحياة حتى اليوم، هؤلاء الذين دفن كريستوف فينكلر أشلاءهم في ثلاثين مكانًا مختلفًا في غابات فيينا، ومن بينهم ابن بِن.

أرخت هيلين ذراعها وأغلقت هاتفها، فلن يتمكن بن من التواصل معها، لن يتبادل معها جملتين حتى.

سبت: «تبًّا!»، وسرعان ما أعادت ملف آنا إلى المجلد ووضعته على الرف، احتفظت بتقارير الخبير الفني الخاصة بالمحكمة في الخزانة المقفلة المجاورة لها، كان ملف فينكلر غير مكتمل فقط لأنه تعرض للمصادرة بشكل جزئي.

غادرت هيلين المكتب وسارت عبر الحديقة الشتوية نحو غرفة المعيشة إلى حيث تضع الخاتم الياقوت في العلبة على رف الكتب، سيصل عميلها التالي في غضون خمس عشرة دقيقة، فماذا عليها أن تفعل حتى ذلك الحين؟ ورغم ذلك لم يمنعها خاطف آنا من الاتصال بزوجها والدردشة معه في أمور تافهة.

طلبت فرانك على هاتفه، لكنها وجدته مغلقًا، وفي المرة التالية حاولت الاتصال برقم مكتبه في مبنى مكتب المدعي العام، فتحولت مكالمته إلى السكرتيرة، فغالبًا ما كان يحدث وتجده داخل اجتماع مهم، لكن السيدة أوضحت لها أن فرانك لن يأتي إلى المكتب اليوم، ولكنه موجود في نادي الجولف.

حدقت هيلين في الهاتف كالمصابة بالشلل.

في نادي الجولف؟

تذكرت رحيل فرانك المحموم هذا الصباح وملابسه غير الرسمية وقميص البولو والنظارات الشمسية المعلقة برقبة القميص، لماذا كذب عليها؟ اتصلت برقم نادي الجولف في ماريا إنتسرسدورف، وهي منطقة راقية ليست بعيدة عن جريسكيرشن، ففرانك عضو بالنادي منذ عشر سنوات، ويلعب بانتظام مع القاضي هنريش والمحامي زايسنر، لكن السيدة بالاستقبال أوضحت أن د. فرانك بيرجر لم يأت إلى النادي اليوم.

انهارت هيلين على الأريكة وحدقت في الرف نحو العلبة التي تحتوي على خاتم آنا، لماذا كذب فرانك عليها وعلى سكرتيرته؟ وبمن من المفترض أن تثق إن لم يكن به؟

ثم رن هاتفها، وظهر رقم فرانك على الشاشة.

سألها باختصار: «هل اتصلت؟».

سألته عن حال المكتب وهي تشعر بالغثيان، فقال: «الأمور تسير على ما يرام وهناك الكثير لفعله، هل حدث شيء؟».

أيها النذل الكذاب!

أخبرته أنها كانت تتصفح قائمة المدعوين لحفل عيد ميلاده، وقد اصطدمت بالكثير من الأسماء المألوفة.

- ... كنت أتساءل هل تعرف اسم آنا لينر؟

ربما أخبره أحد زملائه بشأن اختطافها، وربما كان لدى الشرطة بالفعل ملف عنها.

خرجت إجابته كطلقة مسدس: «لا!». لم يفكر ولو لثانية واحدة.

- إنها إحدى عميلاتي، واعتقدت ربما...

قاطعها: تقولين عميلة لديك؟

لم تعد قادرة على التنفس، وفجأة جف حلقها: «هل تعرفها؟».

كرر مجددًا: «لا، هل هناك شيء آخر؟».

- لا، شكرًا.

- أراك لاحقًا.

تقولين عميلة لديك؟

لماذا تفاجأ إلى هذا الحد؟ تجمعت الدموع في عينيها.

من أجل آنا - من فرانك.

يعرف فرانك شيئًا عن الاختطاف!

وربما كان متورطًا أيضًا.

10

انتهت خدمة زابينه بعد الظهر، في العادة كانت تقود سيارتها نحو المنزل لتنام بضع ساعات، لكنها كانت ممتلئة بالنشاط، لدرجة أنها لم تتمكن حتى من إغلاق عين واحدة؛ لذا توجهت لزيارة أختها التي كانت قد عادت للتو من عملها بالمتحف إلى المنزل، وعادت الدموع مرة أخرى، وبعد محادثة قصيرة رجعت زابينه إلى منزلها، وغيرت ملابسها، ثم سارت عبر البلدة القديمة في ميونخ حتى شارع نوسباوم شتراسه عند مدخل مكتب الطب الشرعي. ورغم شمس الربيع، تملكت زابينه البرودة الشديدة.

في الجهة المقابلة لها بميدان بيتهوفن تقع الحانة الأيرلندية، حيث كانت حتى قبل بضعة أشهر تتناول القهوة والبيرة مع زيمون بعد العمل قبل أن يعودا بالسيارة إلى المنزل، ولكن بعد زواج زيمون صار كل شيء ماضيًا وانتهى، وفي بعض الأحيان كانت تجلس هناك وحدها.

بردت أصابعها عندما وقع بصرها على مبنى معهد الطب الشرعي الجديد المربع والمكون من أربعة طوابق، فجثة والدتها تكمن هناك في مكان ما، ولم يكن لديها إذن بدخول المبنى، لو كانت الشرطة الجنائية بميونخ مسؤولة عن مقتل والدتها، لربما استطاعت في تلك الحالة الحصول على نسخة من تقرير تشريح الجثة من زملائها، لكن ذلك بدا مستحيلًا في أثناء تحقيق المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية، خاصة إذا كان المسؤولون قد سحبوا حالة القضية من نظام الكمبيوتر، ومع ذلك أرادت أن تحاول.

دخلت زابينه، فوجدت رائحة العقم والموت تفوح بالمكان، اتجهت نحو الحارس الذي كان يجلس خلف نافذة من الزجاج المصنفر، ومن خلال الممر الزجاجي شاهدت طوابق المستشفى المجاورة بوسط المدينة، سارت هناك

سيارة إسعاف تومض بأضواء الطوارئ وتتجه نحو المنحدر، وأمام قاعة المدخل أخذت الممرضات يدفعن المرضى على الكراسي المتحركة.

- كيف يمكنني مساعدتك؟

كان الرجل السمين، الذي أطلق شعره ولحيته خلف النافذة، يرتدي قميصًا أزرقَ داكنًا وربطة عنق نقشة بيزلي ملطخة بالشوكولاتة، ووجدت لوحًا مفتوحًا من الشوكولاتة بجانبه.

أشاح ببصره عن كتابه، ونظر بسرعة إلى وجهها، وسرعان ما انزلقت نظراته لتستقر بلا خجل على ثدييها. لطالما كرهت هذا النوع من الرجال.

لقد علمت من زيمون أن جثة والدتها قد أُحيلت إلى قسم الطب الشرعي في الساعة الواحدة من ليلة أمس تقريبًا، وقد كان البخيل العجوز د. هيرنشال في مهمة ليلية، وهو عادة ما يترك كل شخص ميت هناك لمدة أربع وعشرين ساعة من حيث المبدأ، ولكن إذا فرض المدعي العام ورئيس الأساقفة ورئيس البلدية والمكتب الإقليمي ضغوطات كبيرة لحل القضية سريعًا، فربما يضطر الطبيب الشرعي إلى تشريح الجثة بداية من الساعات الأولى من الصباح، لكن الرجل الذي يرتدي ربطة عنق نقشة بيزلي، الذي لا يزال يحدق في ثدييها، لن يخبرها بالتأكيد إلى أي مدى وصل د. هيرنشال، ناهيك عن تسليم نتائج تشريح الجثة.

- مرحبًا!

انحنت زابينه تجاه الزجاج المصنفر، ودفعت بطاقة العمل نحو النافذة المفتوحة، فرفع الرجل عينيه، فقالت: «أريد إحضار نتائج التشريح المعلقة الخاصة بالعمال التشيكيين الثلاثة الذين احترقوا في الشاحنة على الطريق السريع».

نحى الحارس كتابه جانبًا، وقد كانت صورة دستويفسكي على ظهر الكتاب، من يتوقع ذلك؟

ألقى هذا الدستويفسكي نظرة على الشاشة وقال: «لم ننته بعد».. ثم نظر إليها مرة أخرى.

بالطبع لم ينتهوا، وزملاؤها ينتظرون التقرير منذ أسبوع.

تظاهرت زابينه بالسخط: «ماذا؟ أنا هنا للمرة الثانية للسبب نفسه! الجثث في التشريح منذ أسبوع وننتظر معرفة سبب الوفاة، فلا نحن استطعنا إصدار شهادة وفاة ولا استطعنا إصدار شهادة لإطلاق سراح الجثث».

لم يتفاعل معها دستويفسكي.

دقت زابينه على النافذة وقالت: «ومتى برأيك نستطيع إرسال الجثث إلى جمهورية التشيك؟ هل في عيد الميلاد القادم؟!».

هز الرجل كتفيه، فاهتز معه لُغده وقال: «اسمعيني، هذه ليست مسؤوليتي».

نبحت زابينه بصوتها من نافذة اللوح الزجاجي: «لقد تعهد دكتور هيرنشال بإنهاء التقارير هذه الليلة!».

فألقى الرجل نظرة أخرى على الشاشة: «آسف، هناك أعمال أخرى تأتي أولًا».

انحنت زابينه إلى الأمام، لكنها لم تتمكن من اغتنام نظرة بالشاشة: «أليست هذه هي المرأة المقتولة بالكاتدرائية؟».

لم يقل شيئًا.

كشرت زابينه وجهها: «لا أستطيع أن أصدق ذلك! إنها هنا منذ اثنتي عشرة ساعة على الأكثر، وعادةً ما يطلب هيرنشال من طلاب الدراسات العليا إنجاز الأعمال الأولية».

تمتم الحارس: «ليس هذه المرة، فعلينا أن نسرع، فالطبيب يعمل على ذلك بمفرده منذ الساعات الأولى من الصباح؛ لذا سيتعين على التشيكيين أن ينتظروا».

حدق في ثدييها مرة أخرى.

ففرقعت زابينه أصابعها وقالت: «اسمع يا دستويفسكي! سأذهب إليه وأسأله متى يمكننا الحصول على التقرير.. إنه بالغرفة U3، أليس كذلك؟».

وفجأة نهض عن كرسيه: «إنه في U7.. ولا، لن أسمح لك بالدخول! سأتصل به ليأتي هو إليك».

- إذًا أسرع.

التقط الهاتف، وخلال المحادثة اتجهت زابينه نحو المصاعد، ووضعت يديها في جيب سترتها، فشعرت بحافظة كاميرتها الرقمية في الناحية اليسرى، وعندما رأت المصعد يهبط، اختفت من خلال الباب المقاوم للحريق نحو الدرج، وفي الطابق السفلي تمكنت من الوصول إلى ممر طويل، ركضت بسرعة عبر الأبواب. U4،U5،U6،U7.

توقفت أمام الغرفة، كانت المصاعد خلف المنعطف التالي، وعلى سبيل الحيطة طرقت الباب، فلم يتحرك شيء؛ لذا تسللت من الباب إلى داخل الغرفة، فرحبت بها قاعة بيضاء مكسوة بالقرميد، كما علقت رائحة بسيطة لمواد التنظيف والكحول والتعفن في الهواء، فشعرت بالإعياء على الفور، وفي منتصف الغرفة استقر ساتر يحجب الرؤية، لكن ضوء النيون تسلل من خلال الستارة. كانت تعرف ما وراءه، فمشهد والدتها في الكاتدرائية كان كافيًا بالنسبة لها، فأعتى قوة في الأرض لن تستطيع حملها على إلقاء نظرة خلف الستار الآن، ثم سمعت طنين الشاشة على المكتب الملاصق للحائط.

وعلى سبيل الاحتياط تركت الباب مفتوحًا حتى تتمكن من سماع صوت المصعد إذا رغب الطبيب الشرعي في العودة إلى الطابق السفلي، بحثت بيأس في الطاولة عن مذكرات أو ملاحظات لهيرنشال، وبجوار لوحة المفاتيح والطابعة لم يكن ثمة مسجل صوت أو دفتر أوراق أو حتى ورقة ملاحظات، فهزت الفأرة لتختفي شاشة التوقف، لا توجد كلمة مرور! هل هيرنشال بخيل في هذا الأمر أيضًا؟

مذكرة إجراء التشريح الطبي للجثة، وجدت ذلك في شريط القوائم، وأدناه اسم القتيلة: حنا نيميتس. امتلأ النص ببعض الصيغ النصية، وبحثت هي على عجل عن سبب الوفاة، وأخيرًا وجدت البيانات المرجوة.

غرق.

وبارتباك تحققت من الاسم مرة أخرى، لكنه كان تقرير تشريح جثة والدتها، أغرقت؟ مقيدة بأرجل الأرغن في الكاتدرائية؟

لم يكن لدى زابينه الوقت الكافي لقراءة كل شيء، فسيظهر هيرنشال هنا في الثواني القليلة القادمة وهو يغلي من الغضب؛ لذا أخرجت الكاميرا من الحافظة والتقطت صورة للشاشة، أرادت أن تمرر الشريط للأسفل لتنتقل إلى الصفحة التالية، لكن كل ما استطاعت رؤيته على شاشة الكاميرا هو انعكاس الفلاش، اللعنة على هذي الحماقة! إنها تستطيع التقاط صور لوثائق ورقية، وليس شاشة كمبيوتر، وعندما فشلت المحاولتان التاليتان، تريثت قليلًا وتنصتت، ليس ثمة ضجيج للمصعد! لقد وصلت إلى هذا المدى من التقدم، ولا ترغب في العودة الآن محملة بالفشل، ووقعت عيناها على الطابعة، وبالطبع بحثت عن رمز الطابعة على الشاشة ونقرت عليه بالفأرة، مرت الثواني، ولم يحدث شيء، وأخيرًا عملت طابعة الليزر ذات الصوت الطنان وسحبت الورقة الأولى، وعلى حافة الشاشة تمكنت من قراءة أن الصفحة الأولى قد طبعت من أصل 12 صفحة، تبعت الورقة الأولى ورقتان أخريان، صرت الأسطوانة بصوت عال، فركضت زابينه نحو الباب، وأخرجت رأسها إلى الردهة وتنصتت لبعض الوقت، اهتز المصعد هابطًا

اللعنة.

ركضت إلى القاعة مجددًا، وأخرجت كومة الورق من الطابعة، ثم ركضت عائدة إلى الباب، فسمعت وراءها الورقة الأخيرة وهي تخرج من الطابعة.

لا تهتمي!

وبينما هي تقف في الردهة بعد أن أغلقت الباب خلفها، انفتح المصعد، وفي اللحظة التالية انعطف هيرنشال عند الزاوية، فركضت هي نحو سلم الحريق، ثم سمعت صوتًا مألوفًا بلكنة هولندية: «وقتي محدود يا دكتور، لخّص النتائج التي توصلت إليها حتى الآن في ثلاث جمل بسيطة».

اندفعت الحرارة في رأس زابينه، مارتن شنايدر هنا؟ كان نعله المعدني يجلجل على البلاط، ولم تكن في حاجة إلى الالتفات لتعرف أنهما كانا قاب قوسين أو أدنى منها، وفي اللحظة التالية اختفت في الدرج وركضت إلى الطابق التالي.

وعند المدخل تجنبت المرور على مكتب استقبال الحارس؛ لذا أسرعت عبر الممر الزجاجي نحو العيادة، ونجحت في الخروج إلى الشارع عبر المخرج الرئيس، عندها فقط لاحظت أنها عصرت الأوراق في يدها من فرط الضغط، فمسدت على الأوراق، وطوتها، ووضعتها في سترتها، ثم سارت عبر شارع نوسباوم شتراسه، الآن يمكنها تجرع القهوة القوية.

كانت الحانة الأيرلندية في ميدان بيتهوفن نصفها مكتظ بالناس، فجلست على طاولة بأحد الأركان ونظرت من النافذة، هناك الكثير من الوجوه السعيدة، وفجأة حبست أنفاسها.

لا! بالكاد استطاعت أن تصدق من كان يتجول في شارع نوسباوم شتراسه.. زيمون! وبجانبه شقراء طويلة بسيقان كاللقلق وشال، كانا يدفعان معًا عربة أطفال مزدوجة، وفكرت هي تنظر إليهم شامتة: **إذًا اضطررت إلى الزواج!** حتى اختفيا في زقاق جانبي، ومع ذلك أزعجها سلوك زيمون. لا، دعك من الرجل! من الأفضل لك التركيز على القضية!

وضعت إحدى عشرة ورقة من تقرير التشريح على الطاولة أمامها، وقد كان البرنامج يطبع فقط الأجزاء النصية المكتملة، لكن هيرنشال على عكس طبيعته بدا دؤوبًا.

علق أنبوب بالقصبة الهوائية لوالدتها، بالإضافة إلى طرف خرطوم طوله ثمانون سنتيمترًا يستخدم في المستشفيات للتنفس الاصطناعي، كما أن حالة التيبّس الموتي هي المتسببة في كون مفصل الفك مفتوحًا على نطاق واسع بشكل غير طبيعي، وبخلاف ذلك لم يكن هناك أي شيء غريب داخل تجويف الفم، إلا أن والدتها لم تختنق، بل غرقت بسبب لترين من حبر الكتابة الأسود الذي يستخدم للأقلام الحبر، وهو الحبر نفسه الموجود على أرضية الكنيسة وفي الدلو بجانب الجثة.

غرقت!

والآن عرفت زابينه أخيرًا ما الذي شوشها عند النظر في وجه والدتها، فقد أُغلقت فتحتا الأنف بغراء قوي؛ مما جعل الأنف يبدو مدببًا، وحُدد وقت الوفاة بأنها كانت بالساعة 7:30 مساءً، فبينما كانت زابينه تحكي لبنات أختها قصة ما قبل النوم، وبينما هي تنظر إلى أبراج الكاتدرائية المضيئة من خلال نافذة غرفة النوم عند الغسق، كانت والدتها تصارع من أجل البقاء.

لو أنني ذهبت لممارسة الجمباز مع والدتي مساء الجمعة! أو لو أبلغني والدي على الأقل بعد اتصال الخاطف.. لبدا كل شيء مختلفًا الآن، ربما استطاعوا إنقاذ الأم من هذه المحنة، والآن عجزت زابينه عن معرفة من يجب عليها أن تكره أكثر: والدها أم نفسها.

مسحت دمعاتها وواصلت القراءة، لقد أصيبت الأم بالشلل من خلال وخزها في رقبتها بإبر تحتوي على سم عصبي عالي التركيز وسريع المفعول، ولا تزال تفاصيل علم السموم الشرعي معلقة، وبالمثل أجرينا تحليلًا للحمض النووي لآثار مختلطة؛ لمعرفة إذا ما كان عرق أمها أو لعابها أو دمها أو بولها قد اختلط مع شخص آخر، وستكون نتيجة مسحة الغشاء المخاطي للفم والغشاء المخاطي المهبلي متاحة خلال أسبوع على أقرب تقدير.

لم يجد هيرنشال أي آثار لقذف سائل منوي أو بقايا جلد غريبة تحت الأظافر، لكنه وجد سجحات على معصميها وكاحليها حدثت منذ ثمانٍ وأربعين ساعة على الأقل، وهي ناجمة عن الأغلال، بخلاف ذلك لا توجد ثنيات أو علامات للخنق، البول والبراز كانا طبيعيين وقت الوفاة، وأخيرًا بدت محتويات معدتها مثيرة للاهتمام: فخلال يومي احتجازها شربت والدتها الماء فقط وأكلت قطعتين من البرتزل المملح.

انتهى التقرير، وراحت زابينه تستعرض المعلومات مجددًا، لم يخرج شيء من عقلها، لماذا بريتزل مالح؟ وعندما فكرت في البريتزل رن شيء ما في ذاكرتها، لكنها لم تستطع معرفة كنهه.

ارتشفت قهوتها وهي تنظر من النافذة، في تلك اللحظة كان مارتن شنايدر يغادر مبنى الطب الشرعي، ربما احتاج هيرنشال إلى أكثر من ثلاث جمل مقتضبة ودقيقة لتلخيص نتائج الصفة التشريحية. ودون أن يقلب بصره باحثًا عن سيارة، عبر شنايدر الشارع واتجه مباشرة إلى المكتبة المقابلة، لقد افتتح هايتال فرعًا جديدًا هنا منذ سنوات، عبارة عن طابقين مع كافتيريا، بالضبط عند التقاطع بين شارع جوته شتراسه وليزينج شتراسه، مكان يناسب متجرًا لبيع الكتب. اختفى شنايدر من خلال الباب الدوار. **ربما لا تقرئين كثيرًا**، تهكمت زابينه على لهجته في عقلها.

جمعت أوراق تقرير الصفة التشريحية، ووضعته في حقيبتها، ثم دفعت الحساب وغادرت الحانة. فسواء أراد ذلك أم لا.. ستجبر شنايدر على التحدث في متجر الكتب.

كان مارتن شنايدر يجلس في الطابق العلوي بالكافتيريا المجاورة لقسم كتب الأطفال، وخلفه تظهر الأرفف التي تضم الكتب المصورة، وفي زاوية القراءة جلس عدد قليل فقط من الزوار. كان شنايدر قد أحضر من الآلة كوبًا من الشاي الأسود، ثم جلس على أريكة حمراء مريحة، وساقاه متقاطعتان، وظل يقرأ سيرة ذاتية كبيرة الحجم لفيرجينيا وولف، أليس لديه شيء أفضل ليفعله؟

سألت زابينه: «هل هي مثيرة؟».

رفع بصره وقال: «كيف يمكن وصفها..». لم يبد بصحة جيدة، فقد كان العرق راكدًا في جبهته، وأردف: «انتحرت فرجينيا وولف، ألقت بنفسها في النهر بعد أن وضعت في معطفها حجرًا ثقيلًا، وسيلة أخرى للغرق».

الغرق! لماذا قال ذلك؟ لم تدعه زابينه يلاحظ شيئًا: «هل لي بالجلوس؟».

وضع فاصل الكتب المرجعي في الكتاب وأغلقه: «لسوء الحظ لا أستطيع منع ذلك، هذا مكان عام».

لقد كان ساحرًا مثل الكوبرا التي تبخ سمومها قبل أن تتناول وجبة الإفطار. جلست زابينه على الكرسي، وقد دخلت في الموضوع مباشرة: «كيف علمت باستعلامي عبر دايدالوس؟».

ابتسم شنايدر ابتسامة صفراء: «أعمل في قواعد البيانات، إنها وظيفتي لمعرفة المزيد عن مثل هذه الأشياء، فلو لم أعرف، إذًا فأنا ضعيف في هذا الشأن»، ثم فرك صدغه بيد واحدة.

فكرت زابينه في صديقها، كان عليها تسوية الأمر: «يدرس إريك دورفر في الشرطة الجنائية الاتحادية للعلوم التطبيقية[1] منذ عامين، لقد ضغطتُ عليه ليسمح لي بإجراء ذلك الاستعلام، فأنا وحدي المذنبة».

توقف شنايدر عن فرك صدغه ورفع حاجبه: «ينبغي على المرشح لمنصب معاون مباحث جنائية ألا يسمح لأي شخص بالضغط عليه لفعل أي شيء».

- إذا أردت توقيع محاكمة تأديبية، فألصقها بي أنا.

وضع الكتاب جانبًا: «أنت آنسة صغيرة وقوية، كيف سيكون رد فعل رئيسك، كلوفيتز هذا...».

قاطعته مصححة: «كولونوفيتش».

---

(1) معهد تعليمي في فيسبادن، بعد إتمام الدورة التدريبية فيه يحصل المتدرب على وظيفة معاون مباحث جنائية تحت التدريب لثلاث سنوات.

- ...إذا اكتشف أنك تجرين تحقيقات من وراء ظهره؟
- ماذا ترى؟ لم يعهد إليّ مطلقًا بهذه القضية وحذرني من التورط في أي تحقيقات جارية لمكتب الشرطة الجنائية ببفاريا.

عبس شنايدر: «هممم، ولهذا السبب تتسللين إلى مكتب الطبيب الشرعي وتطبعين تقرير الصفة التشريحية الخاص بوالدتك سرًّا؟».

احمر وجه زابينه، وشعرت بخدرٍ في فروة رأسها، وعاد شنايدر لفرك صدغه مرة أخرى: «لقد رأيتك وأنت تنسلين عبر مخرج الحريق، فبغض النظر عن طولك الذي يبلغ مترًا وستين سنتيمترًا، لا يمكن إغفال خصلة الشعر الرمادية الفضية هذه».

- متر وثلاثة وستون سنتيمترًا!
- بالكعب العالي.
- ربما لديك إجابة عن كل شيء.
- لا، لكنني أستطيع تقدير ذلك بدقة.

مد شنايدر يده في جيب سترته وناولها قطعة من الورق: «لقد نسيت هذه».

شعر بالتأكيد بأنه رائع في دوره، لكنه لم يخض أكثر في هذا الموضوع: «لماذا يكون لديك اتصال مع مرشح لمنصب معاون مباحث جنائية في فيسبادن؟».

وضعت زابينه الورقة في جيبها دون أن تقرأها: «نحن نعرف بعضنا من المدرسة الثانوية الرياضية في كولونيا».

ابتسم شنايدر: «حب قديم؟».

- كلانا أراد الانضمام إلى مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي، لقد نجح الأمر معه، لكنني تعرضت للرفض ثلاث مرات.

أومأ شنايدر: «أفترض أن صديقك يشعر بالذنب ويشعر أنه مدين لك».

محتمل.. لم تنظر إلى الأمر بهذه الطريقة من قبل.

- ما الذي يذهلك في مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي؟

ثم هز كتفيه: «إنه اتحاد مثل أي اتحاد آخر، لكنه أكثر مللًا».

ربما كان من الخطأ أن تحكي لرجل ساخر مثله، لكنها أخيرًا فعلت: «طولي متر وستون سنتيمترًا، وبعض الزملاء يسخرون مني لهذا السبب، يعتقدون أنني لست جيدة في أي شيء. لكن ...».

قاطعها: «وأنت تظنين أن بانضمامك لمكتب الشرطة الجنائية الاتحادي ستغيرين الأمر؟ ستظلين على ارتفاع متر وستين سنتيمترًا، وستتعرضين للسخرية، ربما أكثر من هنا».

تعلق التوضيح بالمكان وكأنه تهديد.

- لم أحصل على التدريبات والدورات التدريبية والندوات المتخصصة لكي أكون مؤهلة لإثبات عملية سرقة حقيبة يد في منطقة المشاة في ميونخ.

- وماذا تريدين بدلًا من ذلك؟

ثم رفع صوته: «التعفن خلف مكتب بالإدارة المركزية؟».

- أريد الالتحاق بالخدمة الفعلية.

هتف: «وما هي إذًا بحق السماء؟ تحريات سرية بخصوص الجرائم العنيفة والخطيرة ضمن قيادة العمليات الخاصة؟ فضح أمر عصابات التهريب وتجارة الأسلحة والذخائر المنظمة دوليًّا؟».

- لا!

خفضت صوتها لأن صبيًّا في العاشرة من عمره تقريبًا ذا شعر أشعث ويرتدي نظارات كبيرة تقدم من ماكينة القهوة، وبيأس أدخل عملة معدنية في الفتحة، لكنها استمرت في السقوط، أكملت هي: «علم النفس الشرعي».

رفع شنايدر حاجبه الأيمن: «يا إلهي! لا عجب من تعرضك للرفض ثلاث مرات يا كلاريس ستارلينج[1]، فالقسم لا يقبل الأشخاص بشكل عشوائي».

- شكرًا على سعة الاطلاع الرائعة.

يا متذاكي!

في تلك الأثناء بدت خططها غير صالحة بأي حال، فبعد وفاة والدتها لن تقدر على ترك أختها وأطفالها الثلاثة بمفردهم في ميونخ.

حاول الصبي وضع العملة في الآلة مجددًا، وأخيرًا التفت إليه شنايدر منزعجًا: «يا فتى، هل يمكنني أن أنصحك بشيء؟».

ابتسم الصبي بخجل: «أجل، تفضل».

فأشار شنايدر إلى الجانب الآخر من المكان: «إذا حاولت استخدام الآلة الأخرى هناك، فلن تزعجنا».

ما هذا يا رجل! شنايدر رجل أحمق ليس إلا! نهضت زابينه وأخذت العملة المعدنية وألقتها بحركة مبهجة، فدخلت هذه المرة: «هل تريد بعض الكاكاو؟».

أومأ الصبي، فضغطت زابينه على الزر، وعندها سقط كوب، وبينما كان الصبي يبتعد ومعه المشروب الساخن، جلست هي مرة أخرى: «الصغير لم يبلغ حتى العاشرة من عمره».

قال شنايدر مزمجرًا: «على هاري بوتر أن يتعلم كيف يشرب بنفسه، لن تتمكني من مساعدة الجميع في هذا العالم، وإذا كان الأمر كذلك، فعليك أن تحاولي مع الكاريتاس[2] وليس الشرطة الجنائية الاتحادية، ربما ستكونين أفضل حالًا هناك».

---

(1) **كلاريس إم. ستارلينج** هي شخصية خيالية وبطلة روايات ***صمت الحملان***(1988) ***وهانيبال***(1999) للكاتب توماس هاريس.

(2) مؤسسة مسيحية للعمل الخيري.

فزفرت: «شكرًا على هذه النصيحة القيمة».

وقف شنايدر وقال: «بكل سرور.. إنها نصيحة مجانية».

ثم تأبط الكتاب وغادر الطابق.

فتبعته زابينه: «ما الذي تخطط لفعله بعد ذلك؟ إخراج أصص النباتات الموجودة في طابق مكاتب خدمتنا ووضعها في الشارع؟».

أشار شنايدر بإصبعه إليها. «لقد أخبرتك من قبل ألا تحاولي المزاح معي!».

اتجها إلى المخرج، فأشارت زابينه إلى المجلد الموجود تحت ذراع شنايدر: «ألن تدفع ثمن الكتاب؟».

- ولماذا؟ إنه يخصني.

ثم اتجها إلى الخارج.

كانت زابينه قد شاهدته وهو يغادر مكتب الطب الشرعي ويدخل المكتبة، لكنها لم تلاحظ هذا المجلد السميك.

سأل شنايدر: «إلى أين ستذهبين؟».

- إلى المنزل، أحاول النوم.

- افعلي ذلك، أنت فتاة جميلة، وهذه العيون البنية اللوزية الواسعة نادرة، لكن النظرة الحزينة والجادة دائمًا لا تناسبك.

سألت: «وكيف هو شعوري برأيك؟».

- أعلم أنه موقف صعب، خاض والداك حرب ورود بشعة، والآن يحدث لك ذلك! خذي قسطًا من الراحة، سأذهب إلى المكتب الإقليمي وأتحدث مع والدك.

- ليس هو الفاعل.

أمال شنايدر رأسه: «لقد روى للمحققين قصة مثيرة للقلق حول مكالمة هاتفية من الخاطف، ولغز الهاتف وزجاجة الحبر التي من المفترض أنه تلقاها، لكنهم لا يصدقوا أي كلمة مما يقول، فعلى العكس من ذلك، إنه أحد المشتبه بهم الرئيسيين».

ورغم وقوفهم في شمس الظهيرة، غامت عيون زابينه للحظة.

11

بعد جلستين مكثفتين من العلاج النفسي، وجدت هيلين أخيرًا الوقت، ودخلت غرفة المكتب الخاصة بفرانك، فطوال فترة ما بعد الظهيرة وهي لا تستطيع منع نفسها من التفكير في النقش الموجود على خاتم آنا لينر، حتى في أثناء حديثها، من أجل آنا- من فرانك، ما علاقة زوجها بهذا الأمر؟

اجتاحها شعور غريب عندما أطلقت العنان لنظراتها لتجول بين مكتب فرانك، وخزانة الأدراج، والدواليب الزجاجية، وخزانات الكتب، ورف المدفأة المفتوحة. كانت موسوعة بروكهاوس المكونة من ثلاثين مجلدًا، ذات الجلد الأسود والكعب الذهبي، موضوعة بشكل ظاهر عند مستوى العين فوق رف مقسم بطول الغرفة كلها، ومن بين ذلك كله تتربع كؤوس فرانك للجولف على العرش، مع بومة رخامية ثقيلة تنظر إلى هيلين بازدراء، لم تكن هنا لتحمل صينية القهوة إلى المطبخ أو تنفض الغبار عن الرفوف -على ذلك اللعين فعل ذلك بنفسه- لكنها هنا لتتطفل على أوراقه الخاصة.

سارت عبر الأرضية الباركيه الجديدة وفتحت النافذة. لقد دخن فرانك السيجار مرة أخرى في عطلة نهاية الأسبوع، ونسي الانتهاء منه. ستائر مسدلة، وفتحات تهوية مغلقة، هناك رائحة عفن عالقة في الغرفة. فرانك النمطي عندما انتقل للعيش معها، أعطته أجمل غرفة في المنزل، وبدوره ترك الغرفة لتصير بهذا المنظر السيئ.

أشعلت هيلين مصباح المكتب، وعليه تكدست أكوام من الملفات المجمعة معًا بخيوط سميكة؛ وثائق من علم الأمراض، وبروتوكولات استجواب الشهود، وتقارير الأدلة الجنائية، والمواد اللازمة لمحاضرات فرانك في كلية الحقوق.

تنهدت: «يا إلهي!».

فحتى الأرضية امتلأت بأكوام من المجلدات والمستندات غير المحكمة، وألقي معها أيضًا عصائر عضوية بنكهة الليمون، منذ متى وفرانك يشرب هذه الأشياء؟ لقد انتهت مدة الصلاحية منذ شهور، ولا بد من رمي الزجاجات في سلة المهملات في أسرع وقت ممكن، كما وجدت رابطات العنق والسترات معلقة على ظهور الكراسي، ورماد السيجار متناثرًا في أكثر من ثلاث منافض سجائر، كيف ستعثر على أي شيء في هذا المكان؟!

جلست على المكتب ووضعت يدها على المقبض النحاسي للدرج، فعلى مدار عامين من زواجهما ظلت تحترم دائمًا خصوصية فرانك ولم تكذب عليه قط، هل عليها أن تفقد الثقة التي وضعتها به فجأة؟ ربما كان لديه سبب منطقي يبرر كذبه عليها هذا الصباح؟ لكن هناك صوت آخر أقل سذاجة بداخلها رد عليها: وربما لا أيتها الغبية، ربما كان يعرف أسرارًا عنها، فهيلين الآن متأكدة تمامًا من شيء واحد: هو أن فرانك كان يعرف شيئًا عن عميلتها آنا لينر، لقد أنكر معرفته بها بسرعة شديدة، حاولت هيلين فتح الدرج، لكن الخشب كان عالقًا بل مغلقًا، وكذلك الحاويات المتفرقة على جانبي الكرسي الجلدي.

لأي سبب يغلق فرانك الأدراج في منزلها؟ هل يخاف من اللصوص؟ عاد الصوت الذي يطن برأسها يزعجها: لا! بل لكيلا تعثري على شيء يا هيلين!

ذهبت إلى ملابس فرانك المعلقة فوق الكرسي المصنوع من الخوص أمام المدفأة المفتوحة، وفتشت جيوب البنطال والقميص، ليس ثمة مفتاح. دقت الساعة البندولية العتيقة الموجودة في زاوية الغرفة لتعلن الساعة الرابعة والنصف، من المقرر أن يصل فرانك في أي لحظة، فقد زعم في الصباح أنه سيعود إلى المنزل بعد الظهر في وقت متأخر، سيعود من المكتب! يا لها من مزحة! خاصة وأن حقيبته هنا بجوار طاولة المكتب. فتحت هيلين العروة الجلدية وفصلت الحقيبة القابلة للطي عن بعضها، كانت أقلام الحبر

والدفاتر بجوار المذكرات المكتوبة بخط اليد، فتحت الجيوب الجانبية، وقد ضمت مائة وعشرين يورو وبطاقة الوقود وأعواد ثقاب ومشابك ورق و...

جف فم هيلين.

- هذا مستحيل!

أخرجت من حقيبته واقيين ذكريين مغلفين بورق معدني أزرق، ثم نظرت فيهما، تاريخ انتهاء الصلاحية لم يتجاوز ثلاث سنوات، هي تعلم أن فرانك لا يستخدم الواقي الذكري، لم يكن ذلك ضروريًّا، على الأقل معها، فهي غير قادرة على الإنجاب.. ربما تخص صديقًا؟

قال الصوت في رأسها: بالطبع، لصديقه المفضل! فتعرقت راحتا يد هيلين.

لماذا هو في حاجة إليها؟

لتجنب العدوى أيتها الغبية!

- العدوى ممَّن؟

الصوت في رأسها لم يكن لديه إجابة، فأعادت هيلين الواقي الذكري إلى الحقيبة، وفي الجزء السفلي من جيب الحقيبة شعرت بمفتاح صغير، فأخرجته وحملته إلى قفل الدرج، وقد ناسبه. ففتحت الدرج ببطء، وفي الوقت نفسه كانت خائفة مما ستجده.

فتاحات رسائل، وأقلام رصاص، وأعواد كبريت، وعلبة سيجار دافيدوف، ومقصات أظافر، وشريحتا اتصال قديمتان، ومجموعة من المفاتيح، ومفتاحان نحاسيان معلقان بحلقة معدنية، واحد كبير لبوابة منزل، كما اشتبهت، والآخر الصغير لباب شقة، ولم تكن تعرف أيًّا منهما، ربما هي مفاتيح مكتب فرانك، أو خزانة الكلية، أو غرفة تبديل الملابس في نادي الجولف، أو مكتب المحكمة، أو قسم علم الأمراض بالمستشفى.

بالضبط! ولهذا السبب أبعده عن المتناول.

لا، أنت تعرفين الإجابة يا هيلين! إنه مفتاح شقة امرأة أخرى.

ابقي هادئة!

كانت أفكارها سيئة الظن تدفعها إلى الجنون، ومن ناحية أخرى.. فالمرأة التي تتساءل عن سبب استخدام زوجها للواقي الذكري، عليها أيضًا أن تتساءل عن سبب حمل مفاتيح غريبة. ثم أعادت الحلقة إلى مكانها وفتحت حاوية اللفائف، احتوت إحداها على ملفات مصطفة، وتذاكر يانصيب قديمة وكتاب سودوكو أصفر اللون ووثائق تأمين منتهية الصلاحية.

وفي الحاوية الأخرى وجدت زجاجتي خمر فارغتين، وغسولًا للفم، وعلبة أخرى من سيجار دافيدوف، وزجاجة تحتوي على محلول مضاد حيوي عالي التركيز، شمتها هيلين، هل استخدمها لتنظيف الشاشة أو الكرة الدوارة لفأرة الكمبيوتر؟ وفي الخلف كانت هناك حقنة مغلفة بورق معدني، لماذا هو في حاجة إليها؟ طافت هيلين حول نفسها عندما دقت ساعة البندول الخامسة، إنه بالفعل وقت متأخر جدًّا؟ نظرت قسرًا نحو الشارع من خلال شيش النافذة، وفي تلك اللحظة مرت السيارة اللامبورجيني الحمراء الخاصة بفرانك مسرعة بجوار مكان الإقامة، فتوقف قلبها للحظة.

لا أستطيع أن أتخيل ماذا كان سيحدث لو لم تر السيارة في الوقت المناسب! غطت الزجاجة وهمت بإعادتها، لكنها سقطت وجرت الزجاجات الأخرى معها محدثة قعقعة.

- اللعنة!

دوّى صوت المحرك أمام المنزل، وسمعت هيلين فرانك وهو يقود السيارة إلى المرأب ويضغط على الحصى، ثم أُغلق باب السيارة.

وبسرعة أعادت جميع الزجاجات مرة أخرى، ثم أزاحت علبة السيجار، فظهرت أسفلها مجموعة من كشوف حساب بطاقات الائتمان، حدقت في التاريخ للحظة.. لقد تراوحت الكشوف من نوفمبر من العام السابق إلى

الشهر الماضي، وبدون سابق إنذار أخرجت الأوراق، وطوتها، ثم وضعتها في جيب بنطالها الجينز.

أغلقت الدرج والحاوية المتحركة وتركت المفتاح يغوص في الجيب الجانبي لحقيبة فرانك، هل أعادت الواقي الذكري أيضًا؟

نعم! اخرجي من الغرفة الآن!

توقفت، ثم ضمت الكرسي إلى المكتب، وغادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها.. أُفٍّ! لقد نسيت أن تطفئ المصباح، أرادت العودة، ولكن في تلك اللحظة دخل فرانك المنزل، فظلت هيلين واقفة في غرفة الانتظار وهي تنظر إليه، كان نبضها يتسارع، فتوقف عن الحركة ونظر إليها: «ما الخطب؟».

سألت: «وماذا يفترض أن يحدث؟».

- تبدين متوترة.

يا للذكاء! لقد لاحظ كل شيء أيضًا!

- أنا بخير، كيف سار الأمر في نادي الجولف؟

يبدو أن السؤال لم يزعجه: «هل علمت بشأن نادي الجولف؟».

- لقد حاولت الوصول إليك في المكتب، فأجابت السكرتيرة أنك ذهبت إلى النادي.

- أردت مقابلة المحامي زايسنر هناك لتوضيح مسألة طويلة أخيرًا، لكنه أعاد جدولة الموعد؛ لذلك التقينا في وسط المدينة.

ثم أشار إلى قميصه البولو الأبيض الذي بدا ناصعًا في السابق وقال: «لقد لطخت نفسي بصلصة الرافيولي».

يمكنك غسله بمحلول مضاد حيوي!

تجاوزها ودخل إلى مكتبه، في حين توقفت هي في الدهليز وتركت كتفيها يرتخيان.

جاء صوته من خلال الباب المغلق: «هل دخلت إلى غرفتي؟».

- لقد فتحت النافذة.

- تركت المصباح مضاء.

هتفت: «ربما، فقد كان الجو عفنًا وكئيبًا للغاية هناك».

ذهبت هيلين إلى غرفة المعيشة. يا إلهي، العلبة ذات القماش الأحمر والخاتم الياقوتي كانا لا يزالان على الرف، أغلقت العلبة وأخفتها خلف صف روايات كويلو، فلن يلقي فرانك نظرة واحدة خلفها ولو بعد مائة عام.

وبارتياح انهارت على الأريكة، وسرعان ما أخرجت كشوف حساب بطاقة ائتمان فرانك من جيب بنطالها الجينز وفتحت الأوراق. في تلك اللحظة اهتز باب الكلب، واندفع داستي عبر غرفة الانتظار، ثم قفز ثلاث قفزات ليصل إلى غرفة المعيشة ويهبط على الأريكة، فقد كان دقيقًا في موعده كنشرة أخبار الراديو عندما يتعلق الأمر بالعشاء، قفز على بطن هيلين ودفعها في وجهها بفمه.

- أجل يا صغيري، قريبًا سيكون هناك شيء جيد للأكل!

داعبت داستي خلف أذنه بيد واحدة وهي تتصفح الصفحة الأولى من كشوف الحساب، وشعرت بالذنب على الفور عندما رأت قائمة بهدايا عيد الميلاد التي اشتراها لها فرانك، وعشرات الروايات والمجلات المتخصصة من متجر الكتب المفضل لديها، بالإضافة إلى أسطوانات لمالر وشونبيرج، وقوارير عطر، وقسائم شراء من متجرها المفضل، وتذاكر لـمسرح سوفينزالي وبوليفارد.

دفعها داستي مرة أخرى ولعق ساعدها كما لو كان يعزيها، من المؤكد أن الكلب شعر بشكوكها، فحدثت نفسها: إن ما تفعلينه جنوني، فرانك لم يخنك، ولا يعرف أي شيء عن آنا لينر.

وعندما أنزلت الأوراق، رأته يتجه نحو غرفة المعيشة، فسارعت بطيّ الأوراق ووضعتها تحت الوسادة.

حاول داستي سحب كشوف الحساب، فيبدو أنه ظن أنها تريد اللعب معه.

فصرخت فيه بصوت منخفض: «كفى!».

لكنه لم يستسلم ومد مخالبه تحت الوسادة، فصرفته عن الأمر وقالت: «انظر، سيدك هنا!».

رفع داستي بصره، لكن في اللحظة التالية عاد يخدش قماش الأريكة مرة أخرى.

جاء فرانك إليها وجلس على المقعد، ثم داعب داستي بشرود ذهن: «لماذا كان المنزل مغلقًا؟ هذا ليس أسلوبك».

فكذبت عليه: «أتى عميل شاق إلى العيادة بعد الظهر، ولديه سابقة، لم أرغب في أن أقدم له فرصة لدخول المنزل».

- حسنًا.

نظر فرانك إلى داستي وقال: «وما خطب الكلب؟».

كان داستي يمد فمه تحت الوسادة وهو يزمجر.

فكذبت مرة أخرى: «جاءت قطة الجيران إلى المنزل ورقدت هنا لبضع ساعات».

فكرت في الإصبع الموجود في الثلاجة، وفي كشوف حساب فرانك المسروقة، والعلبة التي تضم الخاتم، التي خبأتها خلف الكتب، لأول مرة في حياتها تخفي عدة أسرار عن زوجها، على أمل أن ينتهي هذا الكابوس قريبًا.

مرر فرانك يده عبر شعره الرمادي: «إلى أي مدى وصلتِ في الاستعدادات للاحتفال؟».

قالت: «لقد اتصلت بالأشخاص المترددين في قائمة الضيوف»، هذه المرة لم تكن كذبة، فخلال فترات الاستراحة بين مواعيدها، كانت تجري

اتصالات بالأسماء الموجودة في القائمة: «في المجمل سيأتي أربعة وخمسون شخصًا يوم الأربعاء».

سأل: «بما فيهم الأطفال؟».

هزت رأسها.

- الشكر للرب.

كان على وشك الوقوف عندما لمست ذراعه وقالت: «لماذا دعوت بن كولر؟».

هز كتفيه: «لقد كنت أعمل مؤخرًا مع فرقة القتل التابعة له، إنه لطيف، ويسأل عنك كثيرًا».

جلست: «حقًّا؟».

مرر يده على خدها: «ما المشكلة؟ أعلم أنكما كنتما مرتبطين، هذا لا يزعجني... ما بال هذا الكلب؟».

- داستي! اخرج!

أمسكت به من طوقه وسحبته بعيدًا عن الوسادة، كانت هناك قصاصة من الورق تتدلى من فمه، فأزالتها.

- هل يزعجك مجيئه؟

- لا، ولكن.. كان لدى بن طفل من زواجه الأول، وعندما مات انفصلنا.

- أنا أعلم، كان شيئًا مأساويًّا، لكن ما علاقة ذلك بنا أو بالحفل؟ هل عليّ إلغاء دعوته؟

ابتلعت هيلين ريقها: «لا.. الأمر كله فقط أن.. ابن بن كان أحد ضحايا كريستوف فينكلر».

حدق فرانك إليها بذهول، كان يعلم مدى حساسية ردود فعلها تجاه هذا الموضوع، وأنها رفضت المقابلات والأحداث الصحفية كلها حول هذا الموضوع.

بدا متفاجئًا: «لم أكن أعرف ذلك».

- لقد كنت على وشك التورط في هذا الأمر؛ لذلك لم أخبرك قط.

وأخيرًا ترك داستي الوسادة، واستلقى على بطن هيلين ولعق خدها.

يبدو أن فرانك بدأ يفهم السياق الآن فقط، فقال: «ما هذا يا رجل!».

- عندما فتحت القضية قبل سنوات، تعرض بعض الزملاء من مكتب المدعي العام لهجوم شديد، واضطروا إلى توضيح سبب عدم القبض على قاتل طفل في أثناء التحقيق في ذلك الوقت، وقد ألقى مكتب المدعي العام اللوم على رئيس الشرطة، فألقى هو اللوم على ضباط مكتب الشرطة الجنائية، وألقوه هم على قسم الشرطة، وأخيرًا ألقى قسم الشرطة الجنائية اللوم عليّ أنا.. كانت فوضى!

مسد فرانك على خدها بحنان مرة أخرى: «أنا آسف لتذكيرك بكل هذا، كان ينبغي أن أسألك في المطلق إذا كنت ترغبين في رؤية بن كولر».

هزت كتفيها وقالت: «لا بأس، فقد كنا منفصلين بالفعل عندما بدأت الألاعيب القذرة، وراحت الصحافة تبحث عن كبش فداء».

- ولكن كان بإمكانه أن يشهد في صالحك، فقد علم بالتأكيد بشأن تقريرك عن فينكلر وجهودك لإدانته.

تمتمت: «بالتأكيد، ولكن بعد وفاة فلوريان، كان لدى بن مشاكله الخاصة، ولم أتمكن من مساعدته».

ولم ترغب في تذكر فلو مرة أخرى، فالتفكير فيه يحطم قلبها.

قال فرانك وهو يعض شفته السفلية: «هل تظنين أنه يلومك على وفاة الأطفال الخمسة؟».

كان هذا هو السؤال الحاسم: «لا أعلم».

في ذلك الوقت التقت بالمدعي العام فرانك بيرجر، وحتى ذلك الحين كان يؤمن ببراءتها؛ لأنه كان يعرف المدعية العامة يوهانا فينكلر - زميلته المتورطة في القضية- جيدًا جدًّا، ولذلك أحضر لها محامية ممتازة كانت صديقة له، مثلتها في هذه المسألة واستطاعت تبرئتها من أي ذنب، لقد كشفا معًا قضية التستر التي أبرمتها الشرطة الجنائية والنيابة العامة، ومع ذلك تلطخت سمعة هيلين، وحينها كانت في أمس الحاجة إلى شخص ما للتحدث معه، وكان فرانك موجودًا دائمًا من أجلها. وبعد مرور عام تزوجا، وظل هناك الكثير من الأحاديث المعلقة بينها وبين بن.

مسح فرانك على خدها: «هل هناك شيء آخر؟».

أرادت بشدة أن تسأله عن الخاتم الياقوت، أو الواقي الذكري الموجود في حقيبته، أو حلقة المفتاح الموجودة في درج مكتبه، لكن ما دامت تشك في إخلاصه، فلن تخبره بأمر المكالمة.

هزت رأسها نافية.

فطبع قبلة على جبينها وقال: «حسنًا يا صغيرتي، سأخرج بالكلب».

- شكرًا.

- تعال أيها الكلب! سنجد شيئًا لتأكله، ثم سنذهب لاصطياد القطط الشريرة.

قفز داستي وتبع فرانك، كان كلب جاك راسل هو كلبها هي، ربما لهذا السبب لم يطلق عليه فرانك لقب «داستي» مطلقًا، بل «كلب» فقط، لكن هيلين كانت سعيدة؛ لأنه أحيانًا كان يصطحب داستي مقيدًا عندما يتجول على طريق الغابة نحو غابة الصنوبر ليدخن سيجاره بسلام في المساء.

عندما غادر الاثنان غرفة المعيشة أخيرًا، سحبت كشف حساب بطاقة الائتمان من تحت الوسادة، كانت حواف الورق ممزقة ومبللة من فم داستي.

لقد قرأت شهري يناير وفبراير سريعًا، ثم وجدت ما تبحث عنه في مارس.. ففي السادس من مارس اشترى فرانك شيئًا مقابل 469 يورو، شعرت بقلبها يعتصر، كان النص المقابل للمبلغ مكتوب فيه «مجوهرات براينشميدت»، لم تسمع بهذا المتجر من قبل، فجأة شعرت بوحدة لا نهائية، وقد صور لها ذهنها الصائغ براينشميد وهو يضع ياقوتة في خاتم وينقش إهداءً شخصيًّا من الداخل.

من أجل آنا- من فرانك.

لماذا يعطي زوجها فأرًا رماديًّا غريبًا وخجولًا وبسيطًا قطعة مجوهرات باهظة الثمن عليها نقش شخصي؟

لأنه يحبها يا غبية!

12

جلست زابينه في شقة مونيكا، في حين ظلت كرستين وكوني وفيونا مع واحدة من صديقاتهن في الطابق السفلي، كانت النسخة المسائية من صحيفة «Süddeutsche Zeitung» مع صورة كاتدرائية ميونخ على طاولة غرفة المعيشة، وبجانبها سلاح فالتر بي بي كيه الخاص بزابينه.

احمرت عيون مونيكا: «من أين تعرفين أنه ليس أبي؟».

قفزت زابينه وسارت عبر الغرفة: «موني، أرجوك! أبي لا يستطيع أن يؤذي ذبابة».

- تقولين ذلك لأنك طفلته المفضلة! لقد كان يكره أمي، بل هددها أكثر من مرة بكسر رقبتها.

قالت زابينه وهي تعد على أصابعها: «لقد تركت والدنا بعد مشاجرة حامية، وانتزعت أطفاله منه، كما منعته من زيارتنا، وافترسته كأنه إوزة عيد الميلاد، فمن الذي لن يتحدث بهذه الطريقة بعد ذلك؟».

- وقد فعل!

- لكن ليس بعد عشر سنوات.

بكت مونيكا: «من الواضح أنه خدعها!».

لا من فضلك! لم ترغب زابينه في التحدث عن الأمر مرة أخرى، وبصورة غريزية قبضت على ميدالية القلب الذهبية المعلقة في سلسلة رقبتها، لم تتخيل أن والدها يمكن أن يغدر بوالدتها، وأدركت مرة أخرى الآن مدى تعلقه بها رغم النزاع على الطلاق والحضانة.

رن هاتفها: «أرجو المعذرة».

التقطت زابينه الهاتف، فوجدت رقم جابرييل، وأجرت معه محادثة قصيرة، لقد وصل في تلك الأثناء إلى المكتب الإقليمي للولاية في شارع مايلينجر شتراسه، ورافق والدها خلال الاستجوابات، وقد علمت من جابرييل أن هناك رجلًا طويل القامة أصلع الرأس وذا لهجة هولندية قد تحدث معه قليلًا أيضًا، رغم أنها كانت محادثة قصيرة مقتضبة، فقد سأله ببساطة ثلاثة أسئلة وضغط عليه للحصول على إجابات قصيرة ودقيقة، ثم غادر مرة أخرى.

وتساءلت زابينه عما إذا كان شنايدر مجرد رجل مجنون أم هو عبقري.

وبمجرد أن أنهت المكالمة، رن هاتفها مرة أخرى، فظهر رقم إريك على الشاشة.. أخيرًا! ثم ركضت إلى المطبخ وأغلقت الباب.

تحدث بصوته الخشن النموذجي الذي طالما تحدث به وهو مراهق: «مرحبًا يا بينه، لقد اتصلت عدة مرات».

لا تزال تشعر بالقشعريرة كلما سمعت ذلك الصوت الذي يشبه المبشرة.

تحدثت عن وفاة والدتها، وأنه يجري استجواب والدها، فأصيب إريك بالصدمة وأعرب عن تعازيه. فقد عرف والديها منذ أن كانا يعيشان في كولونيا، كان إريك هو أول من لاحظ أنهما زوجان مختلفان تمامًا.. فقد بدت الأم نشيطة وأنيقة دائمًا، في حين كان الأب منطويًا ومولعًا بقطاراته التي عفا عليها الزمن، ثم أبلغته زابينه بشأن زميل له من مكتب الشرطة الجنائية يظن نفسه مهمًا في ميونخ: «اسم الرجل هو مارتن شنايدر».

صحح إريك وهو يقلد النبرة المتعجرفة: «مارتن س. شنايدر، ومن لا يعرفه هنا؟ إنه من روتردام ويدخن الماريجوانا».

- إنه يخيم في مكتبنا حاليًا، ولا أستطيع أن أتخيل أنه لا توجد عواقب لذلك».

قال إريك: «شنايدر حالة خاصة، ففي سن الثالثة والعشرين أكمل دراسته الجامعية بنتائج ممتازة، بالإضافة إلى خمسة عشر عامًا من الخبرة العملية في تحليل قضايا الجرائم، كما خاض عملية الاختيار لـ OFA، وخمس سنوات من التدريب على تحليل قضايا الشرطة».

وOFA هو التحليل الإستراتيجي للقضايا.

- لهذا السبب يسمح له بتدخين الماريجوانا؟

- ربما لهذا السبب أنشأ أفضل الملفات الشخصية للجناة، من الواضح أنه يزرع هذا الشيء في شقته، وهو يزعم أنه يحفز العقل ويقوي الإدراك.

- أوه، ما مدى روعته! وتركه رؤساؤه يفلت من العقاب؟

- لا تقلقي، رئيس الشرطة الجنائية الاتحادية يكرهه بسبب ذلك، لكنه لا يستطيع أن يخسر خبيره الوحيد في قضايا الابتزاز والاختطاف، والذي تدرب أيضًا على الطب الشرعي وعلم النفس الشرعي، كما أن لديه أيضًا اتصالات ممتازة باليوروبول في لاهاي...».

علقت زابينه: «.. كما أنه أحمق متعجرف!».

- أعلم ذلك، لكنه حذق، فتوخي الحذر!

قالت بقليل من الاندهاش: «يا إلهي!».

فضحك إريك: «أحب أن أسمعك وأنت تقولينها».

- أعلم ذلك.

لطالما استطاعت رسم الابتسامة على وجه إريك أيام دراستها في كولونيا، ولكن الوقت قد حان للتحدث معه عن شيء آخر، قالت: «شنايدر علم باستخدامي لدايدالوس، لقد حظر عنوان IP الخاص بي ورمز الوصول الخاص بك».

صمت إريك.

- لكنني لا أعتقد أنه سيسعر لك الجحيم لهذا السبب!

قال إريك: «لهذا السبب اتصلت مرة أخرى، في الواقع لا يُسمح لي بالتحدث معك بشأن نتيجة استفسارك عن هذه القضايا؛ لأن الأمر سري».

ألحت عليه: «القضايا؟ ماذا عرفت؟».

- قبل أن يتم إبطال كلمة المرور الخاصة بي، تلقيت نتيجة طلبك، فقد ارتكبت جريمتا قتل مماثلتان خلال الشهر ونصف الشهر الماضيين، بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الاختطاف حُرقت امرأة في حوض من الصفيح عند برج الجرس بكاتدرائية لايبتسيج، والمرأة الأخرى قيدت بالسلاسل في قبو كاتدرائية كولونيا، وأخذ اثنان من كلاب البيتبول ينهشانها حتى الموت.

تمثلت صورة رهيبة في رأس زابينه، فقد عرفت أيضًا كاتدرائية كولونيا.. كنيسة سوداء قاتمة، أبراجها تشبه هيكلين عظميين.

- في لايبتسيج وكولونيا؟ من هاتان المرأتان؟

- السيدة الأكبر سنًّا من لايبتسيج كانت معلمة سابقة متقاعدة، أما المرأة التي من كولونيا فهي في منتصف العمر، وليس لدي أي تفاصيل أخرى.. بينه... ما هذا؟

- لا شيء، شكرًا لك.

أنهت المكالمة.. كانت والدتها تُدرِّس في كولونيا، مثل المرأة التي من لايبتسيج، ولكن ما الرابط بينهما؟ **ومن أين تعرفين أنه ليس أبي؟**

تردد صدى صوت مونيكا في رأسها وهي تقول الجملة السابقة.

عليها أن تتحدث إلى شنايدر مرة أخرى.

دخلت زابينه مكتبها بعد الظهر في وقت متأخر، ثم اتجهت نحو الطابق الثالث وطرقت باب غرفة الاجتماعات: «ماذا إذًا؟».

بدا صوت شنايدر منهكًا.

دخلت، وكانت الستائر مسدل ثلثاها، كما فاحت رائحة شاي الفانيليا والماريجوانا، وقد أضاء الغرفة مصباح مكتب خافت فقط، والضوء المنبعث من جهازَيْ كمبيوتر محمولين ينعكس على النافذة، جلس شنايدر في الغرفة المظلمة موليًا ظهره للباب، ورأسه مرتخٍ إلى الخلف. وبينما هي تسير نحوه، لاحظت إبرة طويلة في كلتا يديه، لقد كانت مغروسة في النقطتين السوداوين الموشومتين في الثنية بين الإبهام والسبابة.

وكان شنايدر غارقًا في عرقه، ففتح عينيه ببطء.

- ماذا تفعلين هنا؟

- أعمل.

انحنى إلى الأمام وأوقف مسجل الصوت مؤقتًا، ثم لف رأسَي الإبرتين، ولوى وجهه بألم وهو يفعل ذلك، وأخيرًا أخرجهما من جلده.

وأوضح بإيجاز: «هذا هو الوخز بالإبر.. في ذلك الموضع يستقر المسار العصبي المركزي، ومن شأن ذلك تخفيف التوتر».

سألت زابينه بقليل من الاندهاش: «هل تتألم؟ إذًا عليك أن تتوقف عن تدخين هذه الأشياء».

ثم سقطت عيناها على منفضة السجائر.

- من السهل الإقلاع عن التدخين، لقد فعلت ذلك مائة مرة.

ثم ابتسم بوهن: «لكن هذه الأشياء ترفع من مستوى وعي الحواس، وأنا أحتاج لذلك في عملي، كما تساعد تلك الأشياء أيضًا في علاج الصداع العنقودي».

- لم أسمع بذلك.

- لم أتوقع منك خلاف ذلك، خذي آلام نوبة الصداع النصفي وارفعيها لأس ثلاثة، يبدو أن العباقرة فقط هم من يعانون من الصداع

العنقودي.. لكنني لست متأكدًا من ذلك، فأنا أعرف مرضى بالصداع العنقودي وهم أغبياء تمامًا.

شنايدر الأنموذجي! نظرت زابينه إلى أجهزة الكمبيوتر المحمولة، وفي اللحظة التالية طوى الشاشات، لكنها رأت ما يكفي، كانت هناك العديد من قواعد البيانات المفتوحة: SIRENE، AFIS، ZLS، SIS، ViCLAS. كما أن الشيء الذي انشغل به كان مثيرًا للغاية؛ نظام الجرائم المتسلسلة في مجال الجرائم الجنائية الخطيرة، ونظام معلومات شنغن[1]، ومجموعة من الصور الضوئية المركزية، ونظام التعرف الآلي على بصمات الأصابع، وطلب المعلومات التكميلية لصلاحية الدخول القومية.

لقد عملت فقط مع نظام قيادة العمليات المركزية، لكنها كانت تعرف قواعد البيانات الأخرى من حكايات إريك، وقد درب مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية أفراده في الكلية التقنية في خدمة تحضيرية مدتها ثلاث سنوات ليصبحوا مفتشين جنائيين مرشحين، وليصيروا بعدها متخصصين في الكمبيوتر ونصف مبرمجين.

سألته: «ماذا قال والدي؟».

فاقترح عليها قائلًا: «اسألي طليق أختك.. كما أنني أظن أنك تعرفين بالفعل، فعلى أي حال لا بد أنه تحدث معك بهذا الخصوص، وإلا لكنت قد بدأت في الاستعلام عن الاختطاف والألغاز».

هذا الرجل غير قابل للكسر ببساطة! لماذا تصر على أن تبدو ساذجة للغاية، وتأتي إليه على أمل أن يتعاون معها قليلًا.

(1) نظام معلومات شنغن ويعرف بـ SIS، هو قاعدة بيانات حكومية تحتفظ بها المفوضية الأوروبية، وتستخدمه 31 دولة للعثور على معلومات حول أشخاص وكيانات بغرض الأمن القومي ومراقبة الحدود.

رمقها بنظرات متسامحة وقال: «حسنًا، توفيت والدتك في الساعة 7:30 مساءً، وقابلك والدك في الساعة 8 مساءً، وليس لديه أي إثبات على تغيبه عن مسرح الجريمة في الوقت الذي سبق ذلك، فذلك الشيء مع بعض الأدلة الأخرى تجعله المشتبه به الرئيس، وسيظل رهن الاحتجاز في الوقت الحالي».

- ليس هو الفاعل.

هز شنايدر كتفيه وكأنه لا يستطيع تغيير هذه الحقيقة: «إنه يناديك بالسنجابة الصغيرة».

حدقت به.. ما هذا الإحراج!

- تشعرين بالإحراج، أليس كذلك؟
- هو فقط من يدعوني بهذا الاسم.
- فهمت تلميحك.

ثم اعتدل شنايدر في جلسته وقال: «بالمناسبة! في أثناء تفتيش شقة والدك عُثر على زجاجة من الحبر الأسود، وبالطبع ليس عليك الاندهاش من أنها من النوع نفسه الذي استخرج من رئتي والدتك، حتى إن الكيميائيين في المكتب الإقليمي اكتشفوا أنها من دفعة الإنتاج نفسها.

- أريد أن أساعدك في التحقيق.

الآن انكشف السر.

ضحك شنايدر لفترة وجيزة: «يا إلهي! لكل ولاية فيدرالية سيادة أمنية على محيطها، واختصاص مطابق بالتحقيقات فيها، وبوجود 320 ألف ملف جنائي جديد كل عام فهذه ليست طريقة مختلفة، إن مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي هو مجرد مصلحة مركزية وخدمية تتجمع فيها حركة الاستخبارات، وإلا تحول عمل الولايات الفيدرالية الست عشرة إلى تعايش فوضوي».

ثم فرد ذراعيه بتسامح وقال: «ونحن بالطبع ندعم الولايات في مجالات خاصة مثل تحليل القضايا أو إنشاء صور وهمية أو تحقيقات الطب الشرعي، وهذا كل شيء!».

هراء لا معنى له من كتيبات مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي.

قالت: «لكن في بعض القضايا خاصة توجد مسئولية رفيعة المستوى للولاية مع السلطة التوجيهية لمكتب الشرطة الجنائية الاتحادي».

هتف: «صحيح! في قضايا خاصة، ولكن هذه ليست قضية خاصة يا آنسة نيميتس!».

ثم نقر بإصبعه على الطاولة: «لم يتدخل مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي في هذه القضية! ولم يكلف أحد مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي بالتحقيق أيضًا!».

- ولماذا أنت هنا؟

- خطأ.. يجب أن يكون سؤالك هكذا: لماذا تريدين مساعدتي؟ وبما أنني ليس لدي وقت كافٍ، سأجيب عن السؤال بنفسي.

ورفع ثلاث أصابع وأردف: «أولًا: أنت متعطشة للانتقام وتريدين العثور على قاتل والدتك.. وأنا أقدر ذلك بعشرة في المئة. ثانيًا: تريدين إثبات براءة والدك.. وأقدر ذلك بعشرين بالمائة. ثالثًا: وهذا هو الدافع الأكبر لك...».

ثم انحنى إلى الأمام وقال: «إن الشعور بالذنب يفترسك، فقد كان من المفترض أن تذهبي معها إلى حصة البيلاتس ليلة الاختطاف، لكنك ألغيت الموعد؛ لأنك شعرت بأنك لست على ما يرام، وفضلت الاختباء في السرير مع قرص من عقار باركيميد».

- أنا..

قاطعها: «نعم، أعرف، لقد سمعت رسالتك على جهاز الرد الآلي الخاص بوالدتك. يا إلهي، لو أنني أستطيع الشعور بآلام رأسكِ».

دفع الإبر في الحقيبة الجلدية وأغلقها، ويبدو أن نوبة أخرى من العرق قد اجتاحته، فضاقت عيناه ومسح جبهته.

تمتم قائلًا: «أنا أقدر أسبابك، لو كنت مكانك، لربما فعلت شيئًا مشابهًا، ولكن حتى لو أردت ذلك، لا أستطيع أن أضمك لفريقي».

- لماذا؟

ذهب إلى الحوض حاملًا كأسًا وفتح الصنبور وقال: «أنت تتدخلين في تحقيقات جارية دون تصريح، وتجرين تحقيقًا في السر من مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي، ثم تقتحمين مكتب الطب الشرعي وتسرقين تقرير الصفة التشريحية نصف المكتمل، فهل تعدين نفسك جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد عليك؟».

وبينما كانت مياه الصنبور تجري، ويملأ شنايدر الكوب، تسللت بَيْنَه وبين المكتب، ثم تحسست مسجل الصوت الخاص به من وراء ظهرها، وبينما هي تسعل، التقطت بإصبعها الشريط الصغير من حافظة الشرائط ووضعته في جيب سترتها، ثم ردت على سؤاله: «لا! أنا لا أعد نفسي جديرة بالثقة».

- بالضبط.

أفرغ الماء دفعة واحدة وقال: «هل هناك شيء آخر؟».

فقالت له وهو يتجه نحو الباب: «سؤال آخر.. هل المرأة التي قتلت في كولونيا كانت أيضًا معلمة أو مديرة مثل والدتي والمرأة المقتولة في لايبتسيج؟»

وضع شنايدر كأس الماء، وللحظة بدا في الواقع متحيرًا، وقال: «ليس سيئًا أيتها السنجابة! لكنني لن أتحدث معك عن هذه الحالات، والآن اخرجي!».

استعارت زابينه جهاز تسجيل صوتي من أحد الموظفين في قسم مباحث المقذوفات وتصميم الأسلحة، وقد كان يتناسب مع شريط كاسيت شنايدر الصغير، فزملاؤها بالخدمات الجنائية كانوا في مهمة، ووقفت هي بمفردها في الكافتيريا، متكئة على حافة النافذة وهي تضع الجهاز على أذنها.

من حسن الحظ أن شنايدر لم يكن يتحدث الهولندية، لقد تحدث ببطء وإصرار وهدوء، وفي الحقيقة تمنت هي أن تعرف شيئًا عن شكوكه بشأن والدها، لكن تسجيل شنايدر لم يتعلق بوالدها، بل عمّق الملف الشخصي للقاتل، ويبدو أنه لم يفكر في والدها.

«... الأمر ليس مؤكدًا، لكنني أظن أنه استخدم غاز الأعصاب نفسه مرة أخرى، كيف أدخل المرأة إلى الكنيسة؟ هل فتح البوابة الرئيسة في الساعة 7 مساءً مستخدمًا إزميلًا؟ وأمام موسيقيي الشوارع؟ هذا احتمال بعيد! ربما اختبأ في الليلة السابقة في القبو لمدة يوم مجددًا، وعندما تهيأ الجو، سحبها للأعلى، لكن هذه المرة إلى أرغن الكنيسة، وبعد قبو الكنيسة الذي يعود للعصور الوسطى في كولونيا، وبرج الجرس في لايبتسيج، يركز غضبه الآن على موسيقى الكنيسة، قبو الكنيسة، الأجراس، الأرغن...».

تبع ذلك استراحة وأردف المسجل: «.. يقول خادم الكنيسة إنه سمع مقطوعة موسيقية لباخ، وكاتدرائية لايبتسيج هي كنيسة بروتستانتية.. كان باخ يعمل هناك. يبدو أن الأمر لا يتعلق بطائفة محددة، ولكن ربما كان يوهان سيباستيان باخ مهمًا، أو ربما مقطوعة محددة له».

صمت شنايدر، وبعد دقيقة واصل الحديث لكنه غيّر الموضوع، فهو يرى أن مرتكب الجريمة رجل انطوائي أعزب، يبلغ من العمر ثلاثين عامًا تقريبًا، وقد عاش طفولة رهيبة ونشأ لديه كراهية للنساء، يقول: «لا أعتقد أنه أكمل تعليمه، لكنه لا يزال يتمتع بذكاء أعلى من المتوسط»، ثم انتهى التسجيل.

استشاطت زابينه غضبًا، فإذا كان شنايدر مقتنعًا أن الأمر يتعلق بقاتل أصغر سنًا، فلماذا لم يبرئ ذلك النذل والدها؟ فبدلًا من ذلك ظل جالسًا بغطرسة على الأريكة الحمراء في مكتبة هايتال وتركها تنفرد بمخاوفها وقلقها.

وفجأة تداعت عليها الخواطر مرة أخرى.

معجنات البريتزل والحبر!

كيف خطر لها ذلك الآن بالذات؟ استحضرت الذكرى في ذهنها مرة أخرى: شنايدر يجلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى على الأريكة الحمراء، وخلفه الرفوف التي تحتوي على الكتب المصورة، **لقد عاش مرتكب الجريمة طفولة رهيبة.**

وبالنسبة لضحاياه؟

من نهشتها الكلاب! ومن أحرقت في حوض من الصفيح حتى صارت كومة من الرماد! ومن أكلت المعجنات وغرقت بالحبر!

وفجأة سرت القشعريرة في جسدها، وبردتْ يداها، وأحست بتنميل ساخن في فروة رأسها، فعندما تذكر الطفولة الرهيبة ليس بوسعها إلا أن تفكر في الكتاب المصور «بيتر ذو الرأس الأشعث»، الذي طالما كرهته وهي طفلة؛ لأنه كان يحكي عن أطفال يُحرقون وتنهشهم الكلاب.. البريتزل والحبر! ألم تكن هذه قصة الأولاد السود الذين غمسهم سانتا كلوز العظيم بالحبر؟

بيتر ذو الرأس الأشعث!

هذا هو الرابط بين جرائم القتل. نظرت إلى الساعة، وكان فرع هايتال بالتأكيد لا يزال مفتوحًا، وهي بحاجة إلى نسخة من الكتاب.

وبعد ساعة دخلت زابينه المكتب، والآن هي مستيقظة منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة، وقد نبهها الصداع بأنه آت، لكنها في تلك اللحظة تحمست جدًّا للنوم، فحتى لو أن شنايدر مجرد نذل منعدم المشاعر وغبي، كان عليها أن تتحدث معه، فهو الوحيد الذي يستطيع مساعدتها.

كان باب مكتبه المعاد توظيفه مغلقًا، فطرقت زابينه الباب، لكن لم يُجب أحد، فركضت إلى الطابق السفلي، ولم تجده في المقصف أيضًا، ثم رأت الضوء

المنبعث من مصباح مكتبها عبر الباب الزجاجي المصنفر لمكتبها، ومن خلفه ظل يتحرك.

قبضت تلقائيًّا على سلاحها وفتحت الباب، فوجدت جميع الأدراج وأبواب الخزانات مفتوحة، والملفات متناثرة على طاولتها وعلى الأرض: «ما هذا بحق الجحيم...؟».

جلس شنايدر وسط الفوضى بوجه شاحب، وجبهته مغمورة بالعرق، وقال: «آه، عادت ماتا هاري[1]!».

- ما الذي تبحث عنه في مكتبي بحق الجحيم؟

فتح يده وقال: «الشريط المأخوذ من مسجل الصوت الخاص بي!».

كم هي مقرفة! لقد نسيت الأمر تمامًا، ثم أدخلت يدها في جيب سترتها وأخرجت الشريط الصغير من الجهاز.

قال: «شكرًا جزيلًا لك»، ثم وضع الشريط في جيبه وخطا فوق جبل من المجلدات: «يكاد رأسي ينفجر من الألم بسببك، فالصداع العنقودي غير ضار مقارنة بمغامراتك الغريبة! لو تعلمت من أخطائك ستكونين عبقرية، فماذا يفترض أن أفعل معك؟ هل أجرك أمام محكمة عسكرية وأطلق النار عليك؟».

وبدون تعليق سلمته نسخة من الكتاب المصور «بيتر ذو الرأس الأشعث»، بغلاف أصفر وصفحات من الورق المقوى السميك، وتظهر صورة الغلاف بيتر بعرف أصفر لامع وأظافر طويلة للغاية.

- ماذا يفترض بي أن أفعل بهذا؟

- ألقِ نظرة أيها العبقري العنقودي.

(1) هي أشهر جاسوسة في التاريخ الحديث.

13

قبل أربعة أشهر

الجلسة العلاجية الرابعة.

ومثل المرات القليلة الماضية تجول كارل عبر ساحة انتظار السيارات لبعض الوقت وهو ينظر حوله قبل أن يرن جرس باب د. روزه هارمان، ولم تكن روزه مطمئنة لسلوكه هناك في ذلك اليوم البارد من شهر يناير، فقد أخذ ينظر داخل السيارات وكأنه اكتشف شيئًا مثيرًا للاهتمام على المقاعد الخلفية أو تابلوه السيارة، وأخيرًا ابتعد عن الأنظار واتجه نحو الباب الأمامي لعيادتها، وقرع الجرس في الوقت المناسب.

هذه المرة لم يكن يرتدي قميصًا أو سترة، بل كان يرتدي فقط بنطال جينز متآكلًا وبلوفرًا رماديًّا تحت معطفه، كما فاحت منه رائحة الزيت، وبدت أطراف أصابعه متسخة، فأوضح لها كارل أنه جاء مباشرة من ورشة إصلاح السيارات، حيث كان عليه أن يعمل ساعات إضافية لإجراء إصلاح عاجل لسيارة لامبورجيني.

جلسا في غرفة العلاج وشغلت روزه مسجل الصوت، ثم تحدثت في الميكروفون قبل وضعه على الطاولة: «الجمعة 28 يناير الساعة 4 مساءً، إنها الجلسة الرابعة لكارل بوني».

- كيف حالك؟

- جيد، شكرًا لك.

اتكأ كارل بظهره على الأريكة وأسند رأسه بيديه ثم شم أصابعه: «لقد أحضرت معي شهادة طبية من الطبيب المتابع تثبت أنني لا أتعاطى المخدرات، إذا كان يهمك الأمر»، ثم انحنى إلى الأمام وسلمها نتائج الفحص الطبي.

لقد وصلا إلى لحظة حساسة، ففي هذه المرحلة توقف أسلافها الثلاثة عن العلاج، وكان على روزه أن تقرر إذا ما كانت تريد الاستمرار مع كارل أم لا، هل سيحاول تحديها للمرة الأولى الآن في ظهر هذا اليوم؟

مس ذقنه الخرقاء، فلحيته الشقراء النابتة حديثًا لا يمكن رؤيتها إلا عن قرب، وقد جعلته يبدو أكبر سنًّا قليلًا.

عندما وضعت الاستمارة في ملفها، لاحظت أنه يحدق في تنورتها القصيرة من طرف عينه، وبلا خجل ظل يحدق في ركبتيها وربلتيها وكعبها العالي، كان ارتفاع الكعب أربعة سنتيمترات فقط، ومن الواضح أنه بالنسبة لكارل مرتفع بما يكفي ليدفعه إلى التحديق، ثم نظر إلى منحنيات قميصها الضيق، في تلك اللحظة بدا عقله مثل كتاب مفتوح، لكن حتى لو كانت روزه تجلس أمامه في جوال من البطاطس، فلن يغير ذلك كثيرًا من هذا الموقف، فقد كانت هناك دائمًا مشكلة عندما يأتي إليها عميل لم يقرر طوعًا الخضوع للعلاج، ولم تكن لتهتم بالأمر إن كانت داخل إحدى الغرف الفعلية في مركز عام للعلاج النفسي وسط فيينا، لكن العيادة كانت على مشارف المدينة بالقرب من شقتها، ونظراته التي لا لبس فيها أصابتها بالقشعريرة، صحيح أنه لا بد أن يحصل على عنوان منزلها الخاص أولًا، لكن ذلك لن يمثل بالتأكيد مشكلة بالنسبة لشخص مثل كارل، فقد أدانته المحكمة بالمطاردة من بين جملة الاتهامات، ومن جلسة إلى أخرى كان يحاول جاهدًا الحصول على نظرة أعمق على خصوصيتها، فلمدة أسبوعين ظل مهتمًّا بسيارتها والصور الموجودة في الردهة.

ركزي على حالة عميلك!

أخذت روزه نفسًا عميقًا وبدأت المحادثة بملخص للجلسات الثلاث الأخيرة، تحدثت عن مشكلته السابقة مع المخدرات، وسلوكه العدواني تجاه النساء، ثم انتقلت إلى تقييمها لطريقته وسلوكه.

- حتى الآن تبدو لي شخصًا يعيش الحياة بانفتاح واستقامة، ولا يشعر بالعدوان بداخله إلا عندما يصطدم بالجانب المرئي من البشر.. أي عندما يتظاهر شخص ما بصورة هو ليس عليها حقًّا أو يتبنى موقفًا... لا يتوافق معه، سواء كانت والدتك التي تتظاهر باستمرار بضرورة الادخار رغم أنها آمنة ماليًّا، أو عمتك في دريسدن التي تتصنع الالتزام بالمعتقدات الدينية بعمق رغم أنها أجهضت طفلين خارج إطار الزواج.

أومأ كارل، ويبدو أنه رأى نفسه بهذه الطريقة أيضًا.

- أنت أيضًا تركت أثرًا بداخلي كشخص لا يريد أن يجر معه أشياء غير مكتملة من ماضيه، أنا أفكر في المحادثة التي أجريتها مع والدك قبل وقت قصير من وفاته، تلك التي أخبرتني عنها في المرة الماضية، ولم تستطع أن تحكيها للنهاية.

مهما كان الشيء الذي أراد السيد بوني أن يقوله لابنه وهو على فراش الموت قبل ثلاث سنوات في يوم إصابته بأزمة قلبية، ربما لن يعرف أحد عنه شيئًا.

- كما أننا اكتشفنا أنك مررت بطفولة مأساوية.

أجاب كارل: «اضطررنا إلى التنقل في أغلب الوقت.. من فيينا إلى كولونيا ولايبتسيج ودريسدن».

هذا صحيح، لكن روزه قصدت شيئًا مختلفًا، ومع ذلك أرادت التوقف عند هذا الموضوع للحظة، وردت: «بسبب وظيفة والدك، أليس كذلك؟ لقد كان عازف بيانو».

صحح كارل: «نعم، لكنه ليس عازفًا عاديًا، فقد كان أبي عازف الأرغن في الكاتدرائية، وهي مهنة نادرة، كان يعزف على الأرغن خلال القداسات».

رفعت روزه حاجبها وقالت: «مثير للاهتمام... ولكنني عندما تحدثت عن طفولتك للتو، كنت أقصد شيئًا مختلفًا، وهو الحروق التي على ذراعيك».

تجمدت أسارير وجه كارل، ويبدو أن هذا الموضوع هو نقطة التحول بالنسبة لروزه، عليها أن تنبش بحثًا عن الجواب وأن تجبر كارل على مواجهة الصراع وترك مشاعره تتدفق، لكنه تجنب هذه النقطة كما يتجنب ربان السفينة الشعاب المرجانية الخطيرة قرب الساحل، وهذه إشارة أخرى على أن شعورها الغريزي كان صحيحًا.

والآن حان الوقت لتقديم تشخيص مبدئي بتقرير المحكمة، وكالعادة كانت تناقش هذا الأمر مع العميل، فأخرجت نموذج ICD-10[1] من المجلد: «إذا وافقت فأنا أود أن أقترح عليك اضطرابًا عاطفيًا يبدأ في مرحلة الطفولة والمراهقة.. أعتقد أن هذا ينطبق عليك».

توترت عضلات رقبة كارل: «وما فائدته؟».

حاولت روزه إبقاء صوتها هادئًا: «لا أحد يجب أن يتعرض سلوكه للتحليل أو التصنيف، لكن استنادًا للتصنيف الدولي للاضطرابات العقلية فالتشخيص المبدئي يجب أن يحدث».

- ولأي سبب؟ أنا لست مريضًا خاضعًا للتأمين الصحي.

---

(1) التصنيف الدولي للأمراض (ICD) هو تصنيف طبي عالمي يستخدم في علم الأوبئة والأغراض السريرية، وتتولى منظمة الصحة العالمية (WHO) صيانته، وهي السلطة التوجيهية والتنسيقية للصحة داخل منظومة الأمم المتحدة.

- هذا صحيح، فبأمر المحكمة تسقط هذه الخطوة في الغالب، لكن هذا ليس أول علاج تخضع له، فلدي إفادة قديمة من المحكمة.

إنهم في الواقع ثلاثة من زملائها الذين توقفوا عن العلاج معه.

- وبجانب هذا التشخيص أود أيضًا التأكيد على بيان من سبقوني في العلاج، وإضافة نقطة واحدة ببساطة: وهي أن حالتك تشير إلى صدمة نمو، ولن تعرف المحكمة أكثر من ذلك.

استراحت للحظات وأكملت: «سأقدم أيضًا بشكل مبدئي تقريرًا عن الحالة يفيد بأنك نظيف ومنتظم ومتعاون، سيرسل هذا التقرير إلى المحكمة مع تأكيد الطبيب الخاص بك».

انفرجت أسارير وجه كارل قليلًا، وكانت هذه فرصتها لإعادته إلى جانبها: «اتفقنا؟».

نظر إلى شاشة عرض المؤقت، لقد مضت خمس عشرة دقيقة، فانحنى إلى الخلف وقال: «حسنًا!».

فعرفت روزه أنه ليس لديه خيار سوى الاستمرار في العلاج معها، وإلا فسيواجه عقوبة السجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة حيازة الكوكايين والمطاردة والاعتداء، ومع ذلك ينبغي ألا يشعر بأن هناك قرارات مهمة اتخذت وفاتته، فسألته: هل تريد أن تكمل معي العلاج؟

فضيق حاجبيه وقال: «وهل لدي أي خيار آخر؟».

- يمكنك إيقاف العلاج في أي وقت بوجود سبب وجيه واختيار معالج آخر.
- لا، فالأمور تسير على ما يرام.
- يسعدني ذلك.
- ألا تريدين أن تعرفي سبب رغبتي في الاستمرار معك؟

فاجأها السؤال: «بالطبع أهتم لذلك».

ابتلع كارل وكوّر يده في شكل قبضة عدة مرات: «أجدك جذابة».

ظلت روزه جادة: «حقًا؟».

- تعجبني الفجوة بين أسنانك الأمامية، فعندما تبتسمين... تبدو لطيفة نوعًا ما، والشعر الكستنائي الأحمر الذي يتساقط باستمرار على جانب واحد من وجهك؛ مما يجعلنا لا نرى سوى عين واحدة فقط في كل مرة، فلذلك تأثير مثير...، ثم ابتسم بحماقة.

بربك يا رجل، لديها معجب خفي، وأي رجل! فبتلك الرموش الطويلة المذهلة والعيون الزرقاء القوية يستطيع بالفعل إقناع الكثير من النساء، ورغم ذلك كلفه الأمر بعض التجاوزات ليقول ذلك، حدق مرة أخرى إلى رسغي قدميها النحيفين وفخذيها الظاهرين تحت قماش تنورتها، كانت تنعم بقوام ممشوق، ولحسن الحظ لم تضطر إلى تحمل أي تمارين رياضية أو تمارين المعدة والساقين والمؤخرة للحفاظ عليه، ومن المؤكد أن ذلك كله سيتغير في غضون بضعة أشهر بسبب حملها، ولكن حتى الآن لم تكن هناك أي علامة على ذلك، فكرت في والد الطفل الذي فرح بخبر الطفل حقًّا. على الأقل هذا ما قاله، وأرادت هي أن تصدقه.

منذ أن ضبطت زوجها السابق في السرير مع أخرى قبل ثلاث سنوات ثم انفصلت عنه، وهي تظل تسمع في أغلب الأحيان أنها بالنسبة لعمرها -وهي الآن في الأربعين- تبدو جيدة، ربما كان ذلك بسبب عينيها الخضراوين اللامعتين، أو أن ذلك نبع من الشعور بأنها تعيش حياتها الخاصة أخيرًا، أو ربما بسبب شرائها مقصورة تسمير البشرة التي تبلغ قيمتها 2000 دولار، وبفضل الساعات العديدة التي قضتها على جهاز التسمير وهي تستمع إلى مايلز ديفيس وديوك إلينجتون وموسيقى الجاز البطيئة والتأملية، أصبحت تجاعيد وجهها مرئية عند الابتسام بشكل متزايد، لكنها لا تبالي، بدا الأمر سطحيًّا لها، فقد كانت بحاجة إلى الشمس والدفء ورائحة الجلد الأسمر

لتشعر بالارتياح، والآن تجد صبيًّا جذابًا أصغر منها بسبعة عشر عامًا، شيء مثير نوعًا ما، ولكن عديم الفائدة تمامًا.

سألت: «هل هذا مفيد لك؟».

- معذرة، ماذا؟

كررت روزه: «هل هذا مفيد لك.. أي أن تجدني جذابة؟».

يبدو أنها أضعفت حجته بالسؤال.

- آه... لا، لكن...

تدبر قليلًا وقال: «أنا أشعر بانجذاب نحوك».

أصبح الوضع حساسًا، وفكرت روزه في إدانة كارل بالمطاردة، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يجرب فيها هذه الحيلة، ففي حالة تمكنه من التطفل على حياتها الخاصة، ستواجه ذلك بمفردها، وهي ليس بإمكانها الاعتماد على والد طفلها في هذا الشأن، كان عليها أيضًا أن تكون حذرة للغاية حتى لا يكتشف سرها الصغير.

اقترحت روزه عليه: «في الوقت الحالي، لم نعد نتحدث عن حالتك الخاصة، بل عن علاقتنا، ولكن دعنا نتحدث للحظة على أي حال.. لنفترض أنك معجب بي، لكنني لا أستطيع أن أكون في مستوى توقعاتك... هل ستشعر بخيبة أمل؟».

فكر لكنه لم يجبها.

أمهلته الوقت، ولما لم يقل أي شيء، أعادت صياغة السؤال: «هل سيكون رد فعلك عدوانيًّا إذا فشلت في تلبية توقعاتك؟ وهل سيهدد ذلك علاجنا؟».

حبس الهواء في فمه حتى انتفخت وجنتاه: «لا، على الأرجح لا».

- جميل.. أود أن أتحدث معك اليوم عن طفولتك.

- رأيت سيارة سمارت خضراء متوقفة بالخارج، هي سيارتك، أليس كذلك؟ صغيرة ولكنها لطيفة، تناسبك، وفي داخلها دمية تستقر على التابلوه، إنها على شكل الدب بوه، هل تحبين الدببة؟

أجابت: «هل تحب أنت الدببة؟».

لكنه لم يتفاعل.

فكرت روزه في تميمة الحظ التي قدمت لها مع القميص المطبوع؛ ابقي هادئة! أعطتها صديقتها الحيوان في عيد ميلادها الأربعين، وقد عملت بيترا لوجريتي قاضية، كما ألقت نظرة ثاقبة على العديد من تقارير روزه للمحكمة، وعرفت ما تدور حوله، فقدمت لها كارل.

وبما أن كارل لا يزال لا يرد، واصلت هي: «لقد أمضيت طفولتك في فيينا...».

أومأ برأسه نحو الخزانة الموجودة أسفل النافذة: «أرى أنك تقرئين كتابًا عن الحمل».

وللحظة جال بنظره على بطنها، ثم ابتسم بخجل: «هل لديك طفل؟».

- لو كان الأمر صحيحًا، هل سيصدمك ذلك؟

لم يجب، لكنها رأته يفكر مليًّا، فبعد ذلك سيرغب في معرفة سبب طلاقها قبل ثلاث سنوات وعيشها بمفردها، كان عليها أن ترتدي خاتم زواجها القديم من أول جلسة، فقطعة المجوهرات المرصعة بالألماسات الثلاث تمنع بعض الرجال من طرح أسئلة فضولية.

- كارل، أود أن أتحدث معك عن طفولتك.. اتفقنا؟

سألها: «هل يمكنني أن أدعوك روزه؟».

زفرت بصخب، ولم يستسلم هو بسهولة، لكن كان عليها السيطرة على الوضع؛ لأنها لا تريد التخلي عن الحالة، فمن ناحية أرادت مساعدة كارل، ومن ناحية أخرى رفضت التخلي عنه بدافع الفضول والاهتمام.

سألته: «ما الفرق الذي سيشكله ذلك بالنسبة لك؟».

اعتدل فجأة في جلسته على الأريكة وقال: «أنت تردين على سؤالي بسؤال في كل مرة! لا أريد رفع الكلفة بيننا يا روزه، لكن ذلك سيزيد من ثقتي بك».

نحت الملف جانبًا، وقالت: «حسنًا، من الواضح أن هذا موضوع يشغلك كثيرًا في الوقت الحالي، دعنا نتحدث عنه».

- نعم جيد، ما المشكلة في أن أناديك بروزه؟

سحب أكمام سترته دون وعي، وتوترت عضلاته المفتولة، كما ظهرت الندبة الوردية الموجود في بطانة ساعديه مجددًا، إنها حرق قديم لا ينبت به الشعر، كأنه حبل من عقد وطيات، وكان من المستحيل معرفة إلى أي حد تصل هذه الندوب، ربما وصلت إلى أعلى الذراعين.

- هل تجدينني فظًّا أو مثيرًا للاشمئزاز؟

فأجابت: «ليس للأمر علاقة بما تقول، أنا أرى أنه لا بد من وجود مسافة مهنية بين العميل والمعالج، أنا هنا من أجلك في الجلسات، وأرافقك حتى تتعلم -بالمعنى المجازي- المشي بشكل أفضل.. لكنني لست جزءًا من حياتك».

- بلى، أنت كذلك! لقد قررت أن أتلقى العلاج منك، وهذا يجعلك جزءًا من حياتي.
- هذا صحيح، سأرافقك في مرحلة قصيرة، لكنني لست موجودة دائمًا من أجلك، مثل والدتك أو عمتك، على سبيل المثال».
- ولكن في هذا الوقت يمكنني أن أدعوك روزه؟

هزت رأسها: «ستشعر بصعوبة في التحرر من العلاقة لاحقًا، ولكن يمكنك أن تفعل ذلك في نهاية العلاج».

ظل صامتًا.

- ولن نصل إلى هذه الغاية إلا إذا تناولنا موضوعات معينة بطريقة احترافية، وليس مثل جلسة نميمة بين الأصدقاء.

نظر نحو الأرض.

- أود أن أتحدث معك اليوم عن طفولتك.

لم يقل كارل شيئًا، وبدلًا من ذلك شبك ذراعيه.

سألته: «هل تربيت بعنف؟».

- لا أعرف.

- ماذا الذي لا تعرفه؟

- ماذا تعنين بكلمة عنيفة تحديدًا؟

سألته: «ما العلامات التي تظن أنها دلائل على التربية العنيفة؟»

- لا أعلم.

- إذا كنت تعرف الجواب، ماذا سيكون؟

استغرق في التفكير، وبدا للحظة وكأنه نسي استياءه: «حسنًا، أعتقد أن هؤلاء الأطفال قد يكون لديهم كدمات على وجوههم أو سواعدهم، ينظرون إلى الأسفل، أو يظلون صامتين، ويرتعدون عند سماع صوت والدهم».

تنفست روزه بصدر منشرح: «وماذا عن تأثير التربية العنيفة على هؤلاء الأطفال؟ كيف من شأنها تغيير سلوكهم؟».

- لا أعلم.

- إذا كنت خبيرًا وتعرف، ما العلامات التي يمكن أن تكون هناك؟

فكّ ذراعيه، ونظر نحو روزه للمرة الأولى منذ بدء جدالهما: «ربما يواجهون صعوبة في النوم، أو ربما يرسمون صورًا، أو يتبولون في السرير، أو يتقيؤون طعامهم».

- هل سبق لك أن تقيأت طعامك؟

عقد ذراعيه مجددًا وقال: «هل يمكننا التحدث عن شيء أكثر متعة؟».

اللعنة!

- بالطبع يمكننا التحدث عن شيء أكثر متعة، ما أحداث الطفولة التي تحب تذكرها؟

كانت نظراته تقول: لم تكن هناك أحداث سعيدة في طفولتي.

فاقترح عليها: «دعينا نتحدث عن طفولتك أنت.. لماذا قررت أن تصبحي معالجة نفسية؟ ما المشكلة التي كنت تحاولين حلها؟».

- نحن نتحدث عنك وليس عني.

تجاهل إجابتها وقال: «ما نقطة التحول في حياتك؟».

لم تخف روزه قط من التحدث عن مشكلاتها مع الغرباء، وخاصة تلك التي تخص والدتها، فخلال أكثر من ثلاثمائة ساعة من خضوعها للإدراك الذاتي، لم تفعل شيئًا سوى ذلك، حتى إنها ناقشت مخاوفها ومشاكلها مع المشرف على حالتها.. لكنها لن تفعل ذلك مع العملاء.

- أنت محق، هناك نقطة فاصلة في حياتي، كما هو الحال في حياة جميع زملائي وزميلاتي تقريبًا، وإلا فلماذا يفترض أن نهتم بعلم النفس؟ لكن هنا والآن ليس الوقت المناسب للحديث عن ذلك.

- لماذا؟

- لأن من شأن ذلك أن يصرفك عن نفسك كثيرًا، وأنا لا أريدك أن تبدأ في تحليل مشاكل الآخرين بدلًا من البحث عن حلول لمشاكلك.

ركز كارل نظره عليها بعينيه الزرقاوين القويتين، وكأنه يريد تخمين رد فعلها على جملته التالية: سأقترح عليك شيئًا.

انحنت روزه إلى الخلف، ستبدأ الحرب النفسية الآن، في الساعة الرابعة تحديدًا، حتى إنها تساءلت متى وكيف سيبدؤها، فأومأت له بالسماح.

- أنا لست هنا للحديث عن طفولتي، ولكن لأُحد من عدوانيتي ومشكلة المخدرات التي أعاني منها، واقتراحي هو: أنني سأخبرك بما تريدين معرفته إذا بُحت لي بشيء عن حياتك الخاصة.

وكان هذا هو السبب وراء تخلي أسلافها عن الحالة.. كان كارل بارعًا، لقد اقترب منهم كثيرًا، وربما طاردهم، ربما فشلوا في التعامل مع الوضع وصاروا خائفين، في الدوائر المهنية وُصف سلوك كارل الهادئ الذي يبدو محبوبًا ومهتمًا بأنه «عدواني سلبي». في هذه الحالة كل ما يتطلبه الأمر هو محادثة مع المشرفة، التي ستنصحها بتسليم الحالة على الفور، لقد شهدت روزه العديد من المعالجين يحترقون طوال مسيرتها المهنية حتى تقاعدوا تمامًا في النهاية، لكنها كانت تتمتع بخبرة كبيرة لدرجة أنها لم تتورط في لعبة المقايضة الخطيرة هذه، فكلما عرف كارل عنها أكثر، سيستخدم ذلك ضدها.

وأجابت: «لو التقينا في ظروف مختلفة، سأسعد بالحديث معك على المستوى الشخصي، ولكن ليس خلال جلساتنا.. يجب أن نركز على مشاعرك».

- مشاعري مقابل مشاعرك.. وهذا هو اقتراحي.

ثم نظر كارل من النافذة وكأن الأمر برمته لا يعنيه.

لقد فقدت السيطرة.

- أود أن أقترح عليك تدريبًا ارتباطيًّا، سأدعوك ب...

- لا.

كان لا يزال ينظر من النافذة، وأردف: «لقد أخبرتك بالفعل أنني لن أحكي لك شيئًا إلا إذا حكيت أنت أيضًا».

- حسنًا.

ظلت روزه هادئة، فليس للحديث أي معنى في هذه الحالة، كان عليها إدخال المحفزات البصرية في اللعب؛ لذا توقفت، ثم ذهبت نحو السبورة المتحركة، وقسمت الصفحة البيضاء إلى نصفين باستخدام قلم فلوماستر.

- يمكننا الاستفادة من هذا الوقت في تمثيل مشاعرك بشكل تخطيطي في هذه اللحظة، على اليسار يوجد ركن الشعور بالسعادة وعلى اليمين يوجد ما يسمى بالأرض المحرمة، ما الصور التي تتبادر إلى ذهنك تلقائيًّا عندما....

- لا شيء على الإطلاق.

أغلقت روزه القلم، واتجهت نحو رف الكتب الموجود على الحائط المقابل؛ حيث كان هناك بعض الشخصيات البلاستيكية، مثل: أستريكس، وآيديفيكس، وميكي ماوس، والأميرات، والساحرة، بالإضافة إلى الخروف، وحاصد الأرواح ذي الرداء الأسود.

- أو نعرض مشاعرك على الطاولة كأننا في مسرح داخلي[1]، أي من هذه الشخصيات يمكن أن يمثل غضبك، أو حَنَقَك، ومن الذي يلائمه الحب، أو العاطفة، أو الخوف، أو حب الذات؟

ألقى كارل نظرة على الشخصيات وقال: «هذا هراء، أنا لست طفلًا في الخامسة من عمره يلعب بالدمى».

- هذا صحيح، لكن هذه اللعبة تسير بشكل مختلف مع البالغين أيضًا....

لم تكمل الجملة وأعادت الأميرة إلى الرف، فنظر إليها وقال: «كيف؟».

تريثت بعض الوقت للإجابة وقالت: «يسمى ذلك نقل المشاعر إلى الخارج».

«نتفق على شخصية خيالية لتمثل عدوانك على سبيل المثال، ونعطيها شكلًا، كثيرًا ما يستخدم العديد من العملاء الشيطان، أو القزم، أو حاصد الأرواح».

---

(1) إعطاء مساحة للأجزاء الداخلية في جميع المفاهيم النفسية الأساسية؛ لتشكل الأساس لفهم العمليات الداخلية والسلوك ومهارات التأمل الذاتي وتكوين العلاقات مع الآخرين.

التقطت روزه كرسيًّا فارغًا ودفعته نحو الطاولة: «نحن ندعو هذا الشخص للجلوس معنا ونبدأ في محاورته».

نظر كارل إلى الكرسي الفارغ: «وماذا سنسأل؟».

- على سبيل المثال، لماذا تصير عدوانيًّا في كثير من الأحيان، وفي أي مواقف؟ ومتى تختفي العدوانية مرة أخرى.
- وماذا سنسأل أيضًا؟
- لا يمكن التخطيط للحوار، هناك أسئلة كثيرة تطرح بشكل عفوي.

جلست روزه وقالت: «ترى ما الذي يمثل عدوانيتك؟ الموت؟».

- الحمامة البيضاء.

في البداية اعتقدت روزه أنه يحتال عليها، لكن من تعبيرات وجهه أدركت أنه جاد، كانت الحمامة البيضاء طائرًا جميلًا ومحبًّا للجمال.. على الأقل في نظرها هي، إنها بطريقة ما هادئة ومسالمة و.. وربما حتى مقدسة.

- فلندعُ الحمامة للجلوس معنا.

فكر لفترة من الوقت، ثم هز رأسه: «لا، هذا هراء».

نظرت روزه إلى الساعة، لقد أوشك الوقت على الانتهاء ولم تحقق شيئًا سوى صد محاولات التقرب اللفظية الصادرة منه، لكنها اكتشفت شيئًا واحدًا على الأقل: وهو أن العدوانية في نظره مثل حمامة بيضاء.. أي طائر أنثوي.

من المؤكد أنه لم يكن يريد الانخراط في لعبة الارتباطات، أو تمرين الرسم التخطيطي المرئي، أو المسرح الداخلي، أو حتى نقل المشاعر إلى الخارج، وهذا ليس بسبب كونها طفولية جدًّا بالنسبة له، ولكن لأنه كان يعرف بالضبط ما تهدف إليه هذه الأساليب: وهي كشف المزيد حول طفولته، ربما كان محرجًا من التحدث معها حول هذا الموضوع أو معرفة أي شيء جديد عن نفسه.

والآن نظر كارل أيضًا إلى الساعة: «هل سنكمل في المرة القادمة؟».

- بالطبع، لا يزال أمامنا الكثير من العمل لننجزه، ولكن في النهاية سأطلب منك شيئًا.

- هل يفترض عليّ اصطحاب شخصياتي الخاصة في الجلسة القادمة؟

بدا سؤاله ساخرًا.

- ليس ضروريًا، بل أريد أن أسألك عن شيء آخر.

لقد رأت أن كارل يعرقل خطة العلاج؛ لأنه يشعر بأن هناك عائقًا يمنعه من مناقشة الأمر مع أحد، لكن هناك طريقة لتجاوز هذا العائق.

نهضت روزه، وجلبت جهاز التسجيل القديم الخاص بها من أحد الأدراج، ثم ركَّبت داخله بطاريات جديدة وشريط كاسيت مدته خمسون دقيقة.

- أريد أن أعطيك جهاز التسجيل هذا لتأخذه معك إلى المنزل، وفي لحظة هادئة عندما تختلي بنفسك وتكون غير منزعج وتشعر بذلك، يمكنك التحدث عن مشاعرك.

أخذ كارل الجهاز: «وماذا سيحدث لشريط الكاسيت؟».

- إذا أردت أسقط الشريط في صندوق البريد الخاص بي، فأنا فقط من سيسمعه، ولا أحد سواي.

- رغم ذلك كله.. لا أعتقد أنني سأقول أي شيء حول ذلك الأمر.

- وأنت لست مجبرًا.

- حسنًا.

أخفى الجهاز ببطء في جيب بنطاله الجينز، وخلال الأسابيع الأربعة التالية كان كارل يلغي الجلسات، لكنه ذهب إلى منزلها عدة مرات وأسقط شيئًا ما في صندوق البريد.. خمسة أشرطة إجمالًا.

لقد اشترى نوع الأشرطة نفسه وملأه حتى اللحظة الأخيرة بمواد تحبس أنفاس روزه أكثر كلما استمعت إلى الأشرطة، والآن يمكنها أن تفسر من أين أتت ندوب الحروق، كانت تعلم أن الجلسة التالية ستكون واحدة من أكثر الجلسات كشفًا.

الجزء الثاني

الثلاثاء 24 مايو.

«لقد حققت الأبحاث في مجال الأمراض تقدمًا كبيرًا لدرجة أن العثور على شخص معافى تمامًا صار فكرة تزداد صعوبة».

ألدوس هكسلي

14

في الليلة الماضية لم يغمض جفن لهيلين، ظلت الأفكار نفسها تدور في ذهنها باستمرار، وهي شبه مستيقظة من الخوف والشك ولوم الذات.

فحتى لو بدا الأمر غير قابل للتصديق على الإطلاق، ظل من المحتمل أن يكون فرانك قد أعطى الخاتم لآنا لينر، هل زوجها على علاقة بعميلتها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمنذ متى وهما يتواعدان؟ ولماذا جاءت آنا إلى عيادتها عمومًا؟ ربما كان خاطف آنا هو أحد أصدقائها السابقين، وأراد الانتقام من فرانك، وربما كان الخاطف عميلًا لدى هيلين.

كلما فكرت في الأمر أكثر، ازداد سوء ظنها بفرانك، لم يكن بإمكانها إبلاغه بعملية الاختطاف، فلم يكن فقط الخاتم المنقوش عليه هو ما أجج شكوكها، بل فعل كشف حساب بطاقة الائتمان الخاصة بفرانك أيضًا، والواقي الذكري الموجود في حقيبته، ومفتاح الشقة الغريب، وربما يخفي أسرارًا أخرى ليس لديها أدنى فكرة عنها، وبالإضافة إلى ذلك كله خشيت على حياة آنا، فقرار واحد خاطئ سيدفع هذا الابتزازي إلى تشويه عميلتها.

عندما أدرك النوم هيلين أخيرًا عند مطلع الفجر، رن المنبه، كانت تفضل البقاء مستلقية، لكن داستي بحاجة إلى شيء ليأكله... وهي أيضًا بحاجة إلى قهوة قوية المفعول وخطة جيدة لتستطيع تجاوز يومها هذا.

مضى وقت الإفطار دون كلام تقريبًا، فقد بدا فرانك متوترًا أكثر من أي وقت مضى، لم تعهده هكذا من قبل، لقد استمر في النظر بساعته، وأخذ يجري مكالمات هاتفية لا تستجيب، ويكتب رسائل بريد إلكتروني على جهاز البلاك بيري الخاص به، وعندما سألته إذا كان لديه مشاكل، أشار إلى قضية قضائية صعبة.. حجج! كان شعورها الغريزي يقول إنه يكذب عليها، لقد

حل عشرات القضايا الصعبة في حياته المهنية، ومع ذلك كان قادرًا على فصل ضغوط العمل عن حياته الخاصة، هناك شيء يزعجه، وتظن أنها تعرف السبب.

سألته عندما اقترب منها والحقيبة بين ذراعيه ومفاتيح السيارة في يده: «هل ستظل في المكتب طوال اليوم؟».

طبع قبلة على خدها وهو يقول: «مع الأسف.. لقد تأخر الوقت حقًّا».

- إذا كان لديك وقت فراغ، فاهتمي بأمر الاحتفال من فضلك.

حاولت أن تبتسم وهي تقول: «طبعًا!».

ثم كذبت عليه: «لكنني أواجه يومًا صعبًا أيضًا، فالعميلة ذات الحالة المعقدة لديها موعد، آنا لينر، وبعد ذلك لدي خمسة مواعيد أخرى».

قاطعها بوجه ممتقع: «هل ستأتي آنا لينر اليوم؟».

ثم أضاف بطريقة تجعله يبدو غير مهتم، وكأنه يخفي ردة فعله المتسرعة: «لقد سألتني عنها بالأمس».

لكنك لم تنجح.

قالت: «نعم، كانت مجرد فكرة خطرت لي، فقد ظننت أنك تعرفها».

هز فرانك رأسه: «أراك الليلة»، ثم اختفى وراء الباب.

وفي اللحظة التالية سمعت باب السيارة، ثم انطلقت السيارة اللامبورجيني الحمراء بسرعة متجاوزة المنزل، خرجت هيلين من باب الشرفة إلى الهواء الطلق، ورأت سيارة فرانك تختفي عن المكان، في الواقع هي لم تكن سيارته على الإطلاق، لقد اشترت له سيارة لامبورجيني مما ورثته عن والديها، كانت الأوراق باسمها، لكنه هو من يقود السيارة، أما هي فكانت راضية تمامًا عن سيارتها التويوتا الصغيرة.

التصق داستي بساقيها وفرك فروه بربلتيها العاريتين: «الأمر على ما يرام يا صغيري، هيا لنحضر ما بصندوق البريد».

ركضت عبر المروج مرتدية أحذية رياضية، وتلألأ ندى الصباح في الشمس التي تعلقت فوق الجبال، لقد اختفت رائحة سماد الأمس بالتدريج، ووصلت هيلين إلى صندوق البريد، كان طريق الغابة الذي يمر عبر الصوب الزراعية والمطحنة المهجورة وصولًا إلى غابة الصنوبر مهجورًا، وقد هدل بعض الحمام على سلك خط الكهرباء.

أخرجت البريد من الصندوق، وافترش داستي العشب بجانبها وأخذ يتدحرج على ظهره.

- أجل، املأ جسدك بالقاذورات حتى أضطر إلى تنظيف المنزل بأكمله مرة أخرى!

ثم ركعت وفركت بطنه، فأطلق النباح.

ثم نظرت في صندوق الصحف، فوجدت كتيبات إعلانية وصحفية بالداخل، بالإضافة إلى علبة بيضاء، فشعرت هيلين بتلبك معدتها. **ليس مجددًا، أرجوك!**

سحبت منديلًا من بنطالها الجينز واستخدمته لالتقاط العلبة من صندوق الصحف.

قفز داستي واندفع نحوها وهو يهز ذيله، ثم قفز عليها بشراهة.

فنبهته: «ابتعد!».

كتب «السيدة الدكتورة هيلين بيرجر» على الغطاء هذه المرة، ففتحته بمنديلها بعناية، وكانت الفتحة كافية لرؤية إبهام بشري يستقر على القماش الأحمر، فشعرت هيلين بالدوار، وأغلقت الصندوق بأصابع مرتعشة، شعرت أن ركبتيها رخوتان، متى سينتهي هذا الكابوس؟

ورغم أن الرجل المجنون هدد بفعل أشياء فظيعة لآنا لينر إذا لم تخضع هيلين لقواعد لعبته، كان عليها إبلاغ بن كولر، وإلا فستتحمل ذنب حدوث جريمة القتل.

عندما رن هاتفها على طاولة الحديقة على بعد خمسة عشر مترًا، قفزت، ووقفت هناك مشلولة لا تحرك ساكنًا، فركض داستي عبر المرج وهو ينبح، فاستدارت وركضت إليه.

وأخيرًا صمت الهاتف، فسحبت هيلين نفسًا عميقًا، والتقطت البريد وذهبت إلى المنزل، وضعت العلبة بالمناديل في الثلاجة، حيث كان الإصبع الآخر لا يزال ملفوفًا بورق الألومنيوم، وكانت العلبة التي تحتوي على خاتم آنا لينر لا تزال على الرف خلف الكتب، عليها أن تتوقف عن لعبة الغميضة وإلا ستصاب بالجنون.

جلست هيلين على الشرفة في شمس الصباح، ورغم أن الأشعة دفأت وجهها، فإنها كانت ترتجف، هناك مكالمة فائتة.. أضاء رقم غير معروف على شاشة الهاتف، سيحاول مرة أخرى.. وفي نفس اللحظة رن الهاتف. الصوت الصاخب جعلها تقفز، فوصلت إلى الهاتف بأصابعها الباردة.

- مرحبًا؟

تعرفت عليه من خلال صوت أنفاسه.

- صباح الخير يا دكتورة.

لقد كرهت هذا الصوت المشوه إلكترونيًّا.

- من اختطفت؟ ولماذا؟ لا يزال أمامك ما يزيد قليلًا عن أربع وعشرين ساعة للرد.

صرخت هيلين: «لقد اختطفت آنا لينر».

ظل صامتًا لفترة وجيزة، وفي النهاية قال: «الإجابة خاطئة».

ارتعبت هيلين، كيف يستطيع أن يزعم ذلك؟ فالجواب صحيح! لقد رأت الخاتم في يد آنا.

طالبته هيلين: «أريد أن أتحدث معها».

- لا!

فصرخت في الهاتف «لقد وعدتني! قلت إنك ستسمح لي بالتحدث معها بمجرد أن تستعيد وعيها».

كان قلب هيلين يتسارع كالمجنون، سمعت حفيفًا، ثم وقع خطوات، وصرير باب، ثم فتح كوة، ثم خطوات مرة أخرى، ضغطت هيلين الهاتف على أذنها حتى لا تفوت أي ضجيج، وظنت أنها سمعت أنين امرأة، لكن الصوت المريع للشريط اللاصق جعلها ترتد للخلف.

وفجأة سمعت صراخ امرأة يائسة: «فليساعدني أحد! أرجوكم! أنا محتجزة! أنا ...».

سكت الصوت، وأغلقت الكوة، وتردد وقع الخطوات في الردهة

كانت هيلين في حالة ذهول تام، لم تستطع إخراج كلمات المرأة من رأسها؛ وذلك لسبب واحد قبل كل شيء: وهو أن ذلك الصوت هو صوت آنا لينر! تلك المرأة التي تتلقى العلاج لديها منذ ستة أشهر.

فكررت: «اسم هذه المرأة هي آنا لينر!».

قال الخاطف: «لا.. وأمامك حتى صباح الغد، إذا أعطيتني الإجابة الصحيحة، ستعيش المرأة، وإذا لم يكن الأمر كذلك، أو إذا تحدثت مع شخص ما عن لعبتنا أو هذه المحادثة، فسوف تموت».

- هذه هي القواعد الخاصة بك؟

- نعم، إلى اللقاء غدًا!

تنصتت هيلين وقالت: «قف! انتظر...». لم ينه المكالمة بعد، فنهضت ودخلت المنزل: «أريدك أن تبقى هناك وتستمع حتى تعرف أنني لا أخالف قواعدك».

توقفت أمام مشجب المعاطف في غرفة الانتظار، وبجوار التقويم المستقر على الخزانة كان هناك هاتف أرضي، ولم تكن قد سجلت الخروج منه بعد؛ لأن جهاز الإنترنت الخاص بفرانك كان متصلًا بالمقبس.

- ابق على اتصال واستمع.

وضعت هيلين الهاتف بجوار التقويم والتقطت سماعة الهاتف الأرضي، كان قلبها ينبض بعنف، اتصلت برقم مكتب بن كولر، فلسبب ما بعد كل هذه السنوات، لا تزال تحفظ الرقم عن ظهر قلب.

رن ثلاث مرات ثم رفعت امرأة السماعة.

تجمدت أصابع هيلين وتعرقت: «أود التحدث إلى المفتش بن كولر».

- مع الأسف، لم يحضر إلى القسم بعد، من المتحدث من فضلك؟

- هيلين بيرجر.

سمعت المرأة تكتب شيئًا ما: «هل الأمر خاص أم يمكنني توصيلك بزميل؟».

عرفها العديد من زملاء بن منذ أن كانت مسئولة عن إنشاء الملفات الجنائية لفرقة القتل الجنائي، ربما كان لدى معظم الناس ذكريات غير سارة بخصوص قضية فينكلر، وبناء على ذلك سيردون على مكالمة هيلين بفتور.

- صليني بأحد من فضلك.

انتظرت هيلين، وأخيرًا تحدث رجل، فتعرفت على صوت أوليفر براندشتيتر وتنفست بارتياح، كان مثل بن فيما مضى، عمل في وحدة فيجا، وأصبح فيما بعد شريك بن في فرقة القتل الجنائي بالمكتب الإقليمي، ربما صار بالفعل كبير المفتشين في هذه الأثناء، كان أوليفر من كرينتن، وكان كلبًا ساخرًا، لكنه الوحيد الذي ظل دائمًا عادلًا وودودًا معها، حتى بعد قضية فينكلر.

- مرحبًا أوليفر، معك هيلين.

- عزيزتي هيلين، ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

تغيبت إحدى عميلاتي عن جلسة العلاج بالأمس، اسمها آنا لينر، وأنا قلقة لأنني لا أستطيع الوصول إليها عبر هاتفها أو خطها الأرضي.

وتمنت أن يكون الخاطف لا يزال يستمع إليها بعناية على الهاتف؛ لأنها فعلا تلعب وفقًا لقواعده، وبما أنه ادعى أن اسم آنا لينر خاطئًا، فلن يشكل فعلها خطرًا على الضحية، وعلاوة على ذلك لم تذكر هيلين أي شيء عن عملية الاختطاف أو لعبة الرجل المجنون.

كرر أوليفر: «آنا لينر.. لحظة واحدة».

دلكت هيلين صدغها، ولم تكن تعرف ما الذي ستجنيه من ذلك، من المؤكد أنها سمعت أن الشخص يجب أن يكون مفقودًا لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة قبل أن تتدخل الشرطة، اللعنة! من المفترض أن تخبر أوليفر بأنها لا تستطيع الوصول إلى آنا منذ يومين.

عاد إليها مرة أخرى وأبلغها: «نحن نعلم بالفعل، أُبلغنا باختفائها من قبل».

انقطعت أنفاس هيلين: «حقًّا؟».

- اكتشفنا آثار اقتحام في شقتها.. وجار البحث عنها منذ مساء أمس، هل تعرفين شيئًا عن هذا؟

سارعت هيلين وقالت: «لا!».

زال ثقل قلبها، كانت الشرطة تعمل بالفعل على هذه القضية، لكن المسئولون لم يعرفوا أن آنا فقدت إصبعين بالفعل وأنها ستموت صباح غد إذا لم تخمن هيلين سبب الاختطاف.

نصحها أوليفر قائلًا: «لا يزال يتعين عليك الحضور إلى القسم للإدلاء بشهادتك».

نظرت هيلين إلى هاتفها، لا يزال الاتصال بالخاطف جاريًا: «لا أستطيع ترك العيادة اليوم». واقترحت عليه: «في الغد».

- حسنا، لكن لا تأتي إلينا، تعالي إلى زملائنا من قسم التفتيش، أنت تعرفين مكانهم».

ثم أغلق أوليفر الخط.

أعادت هيلين وضع السماعة، وسرعان ما التقطت الهاتف: «اسمع! لم أبلغ عن تغيب المرأة...». انقطع الاتصال.

بعد أن وضعت هيلين أطباق الإفطار في غسالة الأطباق، رن الهاتف الأرضي، فرأت رقم بن على الشاشة، أخذت نفسًا عميقًا ورفعت السماعة، أجابت: «هيلين بيرجر».

فقال: «مرحبًا هيلين».

لم تسمع صوته منذ ثلاث سنوات، لكن الكلمتين كانتا كافيتين، وتخيلت صورته في ذهنها؛ طويل القامة، عريض المنكبين، ذو شعر أشقر قصير، وعيون زرقاء ثلجية، ووشم عنقاء بمخالب مسنونة على ذراعه العلوي؛ وهي شارة وحدة فيجا.

- لقد اتصلت بالقسم.
- أنا قلقة بشأن آنا لينر، عميلة لا أستطيع الوصول إليها منذ الأمس.
- لقد أخبرك أوليفر بالفعل أنها ربما تكون قد اختطفت من شقتها.. لا تقلقي، سوف نجدها.

توقف، ثم أردف: «هل لديك أي فكرة عمن يمكن أن يكون وراء ذلك؟».

لو أنني أعلم فقط!

- لا للأسف! من الذي أبلغ عن اختفائها؟
- متصل مجهول.. ووجدنا رسالة غريبة على البريد الصوتي بهاتف آنا لينر تفيد بأن هناك ما يحول دون الوصول إليها في الوقت الحالي.

أنا أعرف، إنه ذلك الرجل، اعثر عليه! لقد قطع بالفعل أصبعين من أصابعها.

- هيلين؟ هل كل شيء على ما يرام؟

تنحنحت: «نعم، شكرًا لك.. كيف حالك؟».

أجاب: «هل تسألينني بعد ثلاث سنوات؟»، ثم فجأة بدا مكتئبًا: «كيف حالك أنت؟».

- لقد تزوجت.

- أعلم، من المدعي العام بيرجر، إن سألتني عنه سأخبرك بأنه والقيء سواء، لقد دعاني إلى حفل عيد ميلاده غدًا.

- ولماذا تأتي إذًا إن كنت تراه كالقيء؟

- لأنني أردت أن أراك.

عضت هيلين على شفتها.. **أوه من فضلك، لا تفعل ذلك بي.**

وفي اللحظة التالية انفجر: «أنا لا أفهم كيف استطعت الزواج من بيرجر؟!».

استنشقت هيلين الهواء، كان هذا هو التصرف الأنموذجي لـ بن! بمجرد ظهور القليل من الألفة، يدمر ذلك الشعور في اللحظة التالية.

- حتى وإن كنت ترى أن فرانك هو مجرد قيء، فيظل هو الشخص الوحيد الذي ساعدني في ذلك الوقت.

لم ترد أن يبدو الأمر وكأنه لوم، وعلاوة على ذلك لم تكن بحاجة إلى الاعتذار لـ بن عن زواجها من فرانك.

قال: «أعلم أن الأمر كان سيئًا جدًّا في ذلك الوقت، فمجرد تورط المصالح الأجنبية في اللعبة، تصير قذرة، لكنك عرفت ذلك، كانت مهمتك هي تحليل هوية الجناة».

- لهذا السبب تركت المهنة.

- لقد سمعت.. كيف تسير عيادتك؟

- جيدة، شكرًا لك..

باستثناء تلقي اتصال من خاطف مجنون.

- سمعت أنك ألفتِ كتابًا.

- نعم، منذ عامين، في مجال عملي.

- سوء المعاملة واضطراب الشخصية الفصامية عند الشباب.

- صحيح.

لا يزال يتذكر ذلك!

- أعمل في الوقت الحالي على تصحيح النسخة النهائية لكتاب آخر.

لكن العمل على هذا الموضوع لم يستطع أن يمحو ذكرى فلو.

فجأة تدفقت الدموع على خديها: «أفكر في فلو كل يوم، في عينيه الواسعتين، ودميته التي كانت تستدير دائمًا وتدندن باسمه...».

- هيلين، من فضلك! توقفي عن ذلك!

مسحت الدموع من وجهها: «هل فكرت يومًا لماذا فعل فينكلر ذلك بنا؟».

أجاب: «أفكر كل يوم لعين.. أتريدين سماع رأيي؟ لقد كان واثقًا جدًّا من نفسه، لم يصدق أنك تستطيعين إدانته، أراد أن ينتقم منك ويلقنك درسًا، ولهذا السبب وقع الاختيار على ابني».

أخبرها تشنج بطنها أن بن محق.

قال: «أنا آسف، لم أقصد ذلك.. أنا لدي الكثير لأفعله، سأراك ليلة الغد، حسنًا؟».

- أشكرك!

أغلقت الخط.

ذكّرت نفسها أن هناك أربعًا وعشرين ساعة أخرى، تقدمت خطوة أخرى، وحاليًّا تعتقد أنها تعرف سبب عصبية فرانك وتوتره، لقد كان هو بالتأكيد المتصل المجهول الذي أبلغ عن اختفاء آنا لينر أمس.

نظرت هيلين إلى الساعة، فوجدت أنها قد تجاوزت الثامنة، وسيصل عميلها الأول في غضون ساعة، وحتى ذلك الحين لديها الوقت لتفعل شيئًا ما، أرادت أن تبحث مرة أخرى في غرفة المكتب الخاصة بفرانك، ولكن هذه المرة بعمق.

15

في وقت متأخر مساء أمس تغلبت زابينه على الفوضى التي خلفها شنايدر في مكتبها وهو يبحث عن الشريط الخاص به، ثم قضت ليلتها في شقة أختها، غاصت بين كرستين وكوني وفيونا في السرير المزدوج الكبير، وحصلت أخيرًا على بضع ساعات من النوم بتناول مهدئ خفيف.

في الثامنة صباحًا أعدت هي ومونيكا الفطائر المحلاة، وبينما انشغلت الفتيات بالمربى والشراب وكريمة الشوكولاتة. استغرقت زابينه في الحديث مع جابرييل تسيرني، أو الدكتور جاتسي زوج أختها السابق، ليس ثمة أخبار جيدة، فوالدها في الحجز منذ أربع وعشرين ساعة الآن، في أفضل السيناريوهات سيواجه تهمة الشهادة الزور، وفي أسوأ الحالات سيعد شريكًا في القتل، وذلك إن لم يحمل تهمة القتل نفسها.

شربت زابينه قهوة أخرى، ثم اصطحبت الفتيات إلى المدرسة وروضة الأطفال، وتوجهت بالسيارة إلى القسم، بدأ يوم عمل شاق لا ينتهي..

وفي مكتبها اطلعت على العمل الذي ينتظرها في نظام إدارة العمليات المركزية، وبعد أن تحدثت عبر الهاتف مع كولونوفيتش، الذي أراد إرسالها مع زيمون لوجود اعتداء على محطة وقود، طرق شخص بابها، فرأت خلف الزجاج المصنفر ظل شخص هزيل وأصلع، وقد جعلها هذا المنظر تشعر بألم في معدتها، وقبل أن تتمكن من قول «تفضل بالدخول!»، دخل شنايدر المكتب، وأغلق الباب خلفه، وتقدم إلى مكتبها، كان كتاب «بيتر ذو الرأس الأشعث» عالقًا تحت ذراعه، سحب أرجل بنطاله إلى الأعلى وجلس على طاولة المكتب بردف واحد دون رسميات.

بدا أن شنايدر ليس في حالة جيدة، وربما لن يبدو كذلك أبدًا، لكن على الأقل بدت صحته أفضل اليوم مقارنة بالأمس. اختفى شحوبه الآن، فقد قاده زيمون إلى فندق ميركيور في البلدة القديمة بعد منتصف الليل، فإما أن الأسرة كانت مريحة أو أن شنايدر راح يدير إبر الوخز طوال الليل، بالإضافة إلى تورد وجنتيه قليلًا.

وعندما لم يقل شيئًا، قالت زابينه: «هل تحدثت إلى رئيسي؟».

- بشأن دايدالوس، وطبع تقرير الصفة التشريحية، والشريط المسروق من مسجل الصوت الخاص بي؟

لم ترد عليه.

ابتسم لها ابتسامته الصفراء، وأخيرًا طرقع بلسانه وقال: «ليس لدي أي فكرة عما تتحدثين عنه».

هل يريد الاستخفاف بها؟ إذا حكمنا عليه من خلال تعابير وجهه الشمعية، فهو جاد.

وضع الكتاب على مكتبها: «هل اشتريت هذا من هايتال؟».

يا له من سؤال غبي: «بالطبع اشتريته!».

أومأ ببطء: «أود أن أتحدث معك بشأن هذه القضية».

الآن وفجأة هكذا، هل يمكن إدراك ذلك؟

قالت: «أردت ذلك طوال أمس، ولسوء الحظ عليّ الذهاب الآن إلى محطة الوقود التي تعرضت للسطو مؤخرًا على طريق الحلقة الوسطى».

- السطو! إذًا فالأمر مثير للاهتمام!

لقد كرهت لهجته الساخرة، وبصقت قائلة: «لا يعمل الجميع على أشياء مهمة مثلك».

تنهد وقال: «أنا أعلم.. أن تعرفني يعني أن تحبني».

نهضت.

- اجلسي، نحن بحاجة إلى التحدث.

- الآن؟

- إذا لم يكن الآن، فمتى؟

ظل جالسًا على الطاولة وانتظر حتى جلست مرة أخرى: «لقد أبقى مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي تفاصيل جريمتي القتل في كولونيا ولايبتسيج سرًّا عن الجمهور لأسباب أمنية.. إنها فكرتي».

نظرت إليه بتساؤل لكنها لم تقل شيئًا.

- أولًا: لعدم تشجيع المقلدين على ارتكاب جرائم قتل مماثلة وإلقاء اللوم على مرتكب الجريمة الأصلي. وثانيًا: لاستدراج القاتل، إذا كان مغرورًا، حتى يتهاون في حذره، فيرتكب خطأه الأول، لكنه لم يقدم لنا هذا المعروف بعد.

- لماذا تخبرني بهذا الآن بعدما أذللتني طوال يوم أمس؟

نقر على الكتاب المصور بإصبعه: «لم أكن أعرف هذا الكتاب».

وفجأة اصطبغ صوته بنبرة خافتة غريبة لم تسمعها منه من قبل: «الأطفال في هولندا يشبون على نوع مختلف من الأدب»، ثم أشار إليها: «لا أعرف كيف فعلت ذلك أيتها السنجابة، لكن تلميحك كان في محله، يبدو أن جرائم القتل في لايبتسيج وكولونيا وميونخ يمكن أن تكون إعادة تمثيل للقصص الواردة في هذا الكتاب، تلك القصص القاسية لفريدريش الشرير، وبولين المحترق، والأولاد السود.. مما يدفعني خطوة للأمام».

- يدفعك أنت؟ لقد ظننت أن الشرطة الجنائية الاتحادية غير متورطة في هذه القضية، ولم تكلف بالتحقيق فيها.

- هي كذلك بالفعل أيضًا.

مالت زابينه بظهرها إلى الخلف: «أنت تثير فضولي».

نهض شنايدر وتجول في الغرفة، ثم توقف أمام النافذة، ووضع يديه على حافتها، ونظر أولًا إلى النبات الزاحف ثم نظر نحو الكنيسة: «كلامك صحيح، ويحقق مكتب الشرطة الجنائية في شمال الراين بقضية القتل التي تمت في كولونيا، كما يحقق المكتب الخاص بسكسونيا في قضية القتل الي ارتكبت في لايبتسيج، لكنّ الجريمتين كلتيهما بدأتا بعملية اختطاف، مثل قضية والدتك، وفي حالة احتجاز الرهائن والابتزاز، يتم استدعاء خبراء المفاوضات والمجموعات الاستشارية التابعة للمكتب، فعمليتا الاختطاف كلتاهما انتهتا بالموت، وبهذا أصبحت أنا داخل اللعبة، أنا أجري تقريبًا ثلاثين تحليلًا للقضايا كل عام».

قالت بسخرية: «لقد اندهشت».

فأجاب: «ليس عليك فعل ذلك.. فعندما نظرت إلى مسرح الجريمة، علمت أن المزيد من جرائم القتل ستتبعها، وأن المزيد من الأمور الفظيعة ستأتي، نحن في هذه اللحظة لا نرى سوى قمة جبل الجليد؛ لذلك أنا أؤدي عملي، وأعد تقريرًا عن كلتا الجريمتين وأطلقت على دراسة الحالة اسم «ألغاز الـ 48 ساعة»، القاتل يضع شخصين مقربين في مواجهة بعضهما بعضًا: «إذا اكتشف أحدهم في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة سبب اختطاف الشخص الآخر، فسوف يبقى على قيد الحياة، إذا لم يكن الأمر كذلك، فسوف يموت»».

فصرخت بانزعاج: «وهذا يثبت براءة والدي!».

- لحظة، ليس بهذه السرعة! فقد يثبت أيضًا أن بسبب وصولك إلى دايدالوس، وأنك على علم بتحليل القضية، أخبرت والدك عنها، وقد قتل زوجته السابقة وفقًا لهذا المخطط.

علق الهواء في حلق زابينه: «أنت لا تصدق ذلك!».

زفر: «ما أصدقه أنا في هذا الصدد غير مهم، لقد أخذ المدعي العام هذه القضية على عاتقه، كل ما يمكنني قوله لك هو أن المكتب الإقليمي سيحقق معك أيضًا».

قفزت زابينه من كرسيها: «معي أنا؟».

- اهدئي، ستظل مجرد تحقيقات مجموعة من المبتدئين، يستجوب الزملاء حاليًّا سبعة أشخاص، لكن القاتل ليس منهم، في تلك الأثناء يوجد تعتيم كبير على المعلومات؛ لذلك لدينا ما لا يقل عن اثنتي عشرة ساعة لنفكر مليًّا.

نحن؟ لقد قال (نحن)، أخذت نفسًا عميقًا وقالت: «أكمل حديثك».

ابتعد عن النافذة وجال في الغرفة: «اختطفت المرأة في كولونيا يوم 6 أبريل وقتلت في اليوم نفسه، ثم اختطفت المرأة من لايبتسيج في 20 أبريل ولم تُقتل إلا بعد ثمان وأربعين ساعة؛ لذلك نحن نعلم أن الجاني يراقب هاتف ضحيته، وبمجرد إبلاغ الشرطة -كما حدث في كولونيا- تموت المرأة المخطوفة على الفور».

غزت أفكار كثيرة رأس زابينه في تلك اللحظة، وجميعها تتعلق بوالدها، وبصورة بديهية قبضت على الميدالية القلب: «هذا يعني...».

وكأنه يستطيع قراءة أفكارها: «... أن والدتك كانت ستموت على الفور لو أن والدك اتصل بالشرطة».

وفجأة سقط الحمل عن كاهلها، وشعرت أن عقدة في صدرها قد انحلت، تنفست بحرية، عندها فقط أدركت أنها ألقت باللوم على والدها دون وعي في وفاة والدتها، وهو في الواقع قد أطال عمرها لثمانٍ وأربعين ساعة... رغم أنها ماتت في النهاية على يد الخاطف.

- لماذا أتيت إلى مكتبي؟

اتكأ شنايدر على خزانة الملفات وقال: «منذ أسابيع وأنا أنتظر حالة ثالثة.. فكل مسرح جريمة يوفر لنا أدلة جديدة ويؤدي إلى مزيد من التكهنات حول ما قصده القاتل من خلال (عمله الفني)».

سقطت عيناه على كتاب «بيتر ذو الرأس الأشعث» وأمرها: «افتحيه!».

فتحت غلاف الكتاب، وفي الأسفل وجدت كومة من الصور لمسرح الجريمة، وبتردد أمسكتها فأظهرت الصورة الأولى جثة لامرأة تبلغ من العمر حوالي خمسة وثلاثين عامًا، وبسبب كثرة الدماء لم يعد لون شعرها واضحًا. جف ريق زابينه، فهي تعمل منذ سنوات عديدة في الخدمة الجنائية، لكنها لم تر شيئًا كهذا من قبل، كانت المرأة عارية ومقيدة في الأرض بحلقات حديدية بذراعيها وكاحليها، وفمها مكمم بسلسلة كلب، وفي الخلفية بناء حجري بلون الطين على شكل أقواس دائرية لقبو فارغ، اعتقدت زابينه أنها تعرفت على القبو الذي يعود للقرون الوسطى والذي ذكره شنايدر في شريطه. وأظهرت الصورة التالية نفس المرأة تحت مصباح أزرق على طاولة التشريح، فتراجعت زابينه وأغمضت عينيها للحظة، لكنها رأت الكثير بالفعل.

وأوضح شنايدر: «كلاب البيتبول لم تترك الكثير منها.. وكان القاتل قد قطع ذراعي المرأة وساقيها مسبقًا مستخدمًا نصلًا حادًّا؛ لأن الدم يحفز غرائز الافتراس لدى الحيوانات الجائعة».

لقد خطر ببالها أن نفس الرجل قتل والدتها: «هل كانت المرأة لا تزال على قيد الحياة؟».

فاقتبس شنايدر مقطعًا من الكتاب المصور: «فريدريش الغاضب بشدة، الذي صرخ وبكى بمرارة.. لقد قتل الرجل الشرير الطيور ضربًا، ودهس الكلاب، وجلد زوجته حتى عضه كلب في قدمه.. إلى نهاية القصة».

سكت قليلًا وأردف: «نعم، كانت لا تزال على قيد الحياة، لكن الطبيب الشرعي قال إن عضة عميقة في حبل الوريد قتلت المرأة منذ البداية، أعتقد أن هذا لا يرضي «بيتر ذو الرأس الأشعث» كثيرًا، ربما كان يأمل أن يستمر هذا السيناريو لفترة أطول قليلًا».

كان شنايدر قد أطلق على القاتل اسم «بيتر ذو الرأس الأشعث»، ففكرة ربط شخصية في كتاب مصور بجرائم القتل هذه جعلت القشعريرة تسري في جسد زابينه.

- اسمها فالتراود نيسلبرجر، وبالمناسبة! لم تكن معلمة مطلقًا، بل عملت لدى محامٍ، حيث كانت تكتب الوصايا وعقود التبرعات، هل عرفت المرأة؟ فعلى الأقل أنت قضيت بضع سنوات في كولونيا.

هزت زابينه رأسها بالنفي، وأجبرت نفسها على التمرير إلى الصورة التالية، فأظهرت جثة محترقة في حوض من الصفيح لدرجة التفحم، وكانت الملابس مطوية بشكل أنيق بجانب المرأة الميتة، بالإضافة إلى سلسلة ذهبية عليها صليب فوق البلوزة، لكن القاتل لم يرمِ السلسلة عشوائيًّا، بل شكّلها على شكل قلب، وكأنه يريد أن يعبر بفعلته عن شيء جميل وحسي، وفي خلفية الصور الأخرى الملتقطة بزاوية واسعة يمكن رؤية الحافة السفلية لجرس ضخم يبلغ عرضه حوالي مترين، تتراكم تحته أنقاض المباني والأكياس الإسمنتية، ووراء النوافذ المفتوحة بجملون السقف ظهرت سماء رمادية.

- إلفريده نيكيتش، ثمانية وخمسون عامًا، معلمة سابقة في المدرسة الثانوية في لايبتسيج، لم نتمكن من إثبات هويتها إلا من خلال طقم أسنانها، ومستندات طبيب الأسنان الذي أجرى لها عملية زرع الأسنان.

كان هناك شعور ضاغط يجثم على صدر زابينه، هل كان منظر هذه الصور سيرهقها إلى هذا الحد لو لم تكن يد قاتل والدتها متوارية خلفها؟ ربما لا، لم تكن لتهتم بهم، لكن وفاة والدتها واصلت سلسلة جرائم القتل المروعة التي ارتكبها هذا الرجل المجنون، فعانت زابينه مع كل حالة وفاة وكأنها تعرفها شخصيًّا.

ورغم الأفكار المرعبة، تبادرت إلى ذهنها تفصيلة واحدة، فكررت: «نيسلبرجر ونيكيتش ونيميتس... الأسماء جميعها تبدأ بحرف ن».

- تبدأ بـ (ني) على وجه الدقة، لكنني لا أظن أن لذلك أي معنى.

رفض شنايدر فكرتها: «في قصص الكتاب المصور كانت باولينشين بمفردها في المنزل تلعب بأعواد الثقاب حتى نشبت النيران في فستانها ومئزرها وشعرها، أما في الواقع فقد جرت الأمور على نحو مختلف؛ حيث قيد «بيتر ذو الرأس الأشعث» المرأة بالسلاسل في حوض معدني، وغمرها بالبنزين وكرر عملية الحرق مرتين بعد وفاتها، لم تنفتح النوافذ؛ لذلك كسر ببساطة النوافذ لتوفير إمدادات الهواء اللازمة».

نظرت زابينه إلى لقطة برج الجرس ذات الزاوية الواسعة مرة أخرى، إن عدم اشتعال الهيكل الخشبي تعد معجزة: «من أين أتى الحوض الصفيح؟».

قال شنايدر: «من عمال البناء المختصين بخلط الإسمنت.. لقد رُمم البرج، ربما تكون هذه الميتة قد أرضت «بيتر ذو الرأس الأشعث» أكثر، بالتأكيد كانت لديه صورة ذهنية لصوت صراخ المرأة وهي تطلب المساعدة عندما تراه يفرغ جالون البنزين».

- ألم يلحظ أحد النيران أو الدخان؟

- ليس في الرابعة صباحًا.

حدقت زابينه في الصورة، اضطرها شيء إلى تخيل منظر والدتها وهي مقيدة بالسلاسل في أرغن الكاتدرائية العظيم: «أُعدمت هؤلاء النساء كالماشية».

أومأ شنايدر: «جرائم القتل تحت التعذيب»، ثم تمتم طاويًا يديه أمام فمه متفكرًا: «اليد تحترق، والشعر يحترق، وحتى الطفل كله يحترق».

حفظت زابينه مقولات الكتاب المصور عن ظهر قلب، لقد سمعتها كثيرًا في طفولتها.

وأشار شنايدر إلى الصور التالية التي كانت قد وضعت مقلوبة: «هل أنت مستعد لجريمة القتل الثالثة؟».

هل هذا الكلام موجه لي؟ ضمت يديها معًا وقالت: «لقد قلت بنفسك سابقًا: إن لم يكن الآن، فمتى؟».

- تتعلمين بسرعة.

قلبت زابينه الصور ورأت وجه والدتها، وراحت غرفة المكتب تدور بها.. إنها العيون المفتوحة، والأنف الملتصق، والفم المفتوح على مصراعيه، تشبثت زابينه بالجزء الخلفي من الكرسي.

- كان الأنبوب وخرطوم الاستنشاق مغروسين بعمق خمسة سنتيمترات في القصبة الهوائية، ربما استطاعت والدتك الصمود بهذا الحال، لكن «بيتر ذو الرأس الأشعث» استخدم قمعًا لتجريعها لترين من حبر الكتابة، لا بد أنه جمع محتويات سبعين جرة حبر بجهد كبير، وطبقًا للمختبر فالحبر من ماركة بيليكان ذات اللون الأسود اللامع، يمكنك شراء ثلاثين ملليلترًا من أي متجر أدوات مكتبية مقابل أربعة يوروهات.

توقف لحظات وكأنه يريد لكلماته أن تترك أثرها بها، ثم قال: «كيف توصلت إلى الكتاب المصور؟ هل بسبب البريتزل المملح الذي كان الصبي يحمله بيده عندما غمسه سانتاكلوز في المحبرة؟».

وفي الأعلى يغمس سانتاكلوز رأسه في المحبرة.. تذكرت الآن القافية من الكتاب المصور، في هذه القصة غطّس سانتاكلوز ثلاثة أولاد في برميل كبير وصبغهم باللون الأسود؛ لأنهم ضحكوا وأزعجوا الزنجي الأسود المنحوس.

نبش شنايدر باحثًا عن جواب: «هل كان لدى والدتك تمييز ضد الطلاب ذوي البشرة الداكنة؟».

هزت زابينه رأسها: «مطلقًا، لكنها لم تكن لتأكل البريتزل بمحض إرادتها، لو كانت قد غرقت بالزيت أو بمياه الصرف الصحي، ربما لم أكن

لأصل قط لفكرة أن القاتل يعيد تمثيل مشهد من كتاب مصور، لماذا يتصرف بهذه القسوة؟ هل يثيره ألم ومعاناة الآخرين؟».

هز شنايدر رأسه: «احتمال بعيد، الجاني لا تحركه غريزة جنسية، لا شيء يدل على ذلك، كما أن عمره لا يتجاوز الثلاثين، إنه أعزب، ومنطوٍ، وربما لا يزال يعيش مع والدته في المنطقة المحيطة بمدينة كولونيا؛ حيث اختار ضحيته الأولى، والأهم من ذلك أنه يكره النساء».

نحت زابينه الصورة جانبًا: «هل خانته صديقته أو أهانته أو تركته؟».

- إذا افترضنا أنه تعرض لصدمة بالفعل، ستكون في طفولته المبكرة.. قبل وقت طويل من مقابلة صديقته الأولى، إنها على الأرجح تربية عنيفة.

عارضته قائلة: «الطفولة الصعبة ليست مبررًا لجرائم القتل هذه، وإلا لوجدت مزيدًا من القتلة المجانين يركضون في كل مكان».

أجاب شنايدر: «الانقلاب على الذات». وكأن ما قاله يفسر كل شيء، ثم جلس مرة أخرى على الطاولة وقال: «هناك طريقتان نستطيع أن نتغلب بهما على صدمة الطفولة، فإما أن نشمر عن ساعدنا، ونظل نقنع أنفسنا لسنوات طوال بأن والدينا كانا على حق عند ضربنا؛ لأننا كنا سيئين للغاية، أو قد نسمح لتربيتنا بأن تصير جزءًا منا، ونعتنق عادات ضرب الوالدين والآلام المبرحة ونسلي أنفسنا بها».

- إذًا أقدمت والدة هذا الحثالة على إشعال النار فيه، أو عضته، أو أجبرته على شرب الحبر.

نظرت زابينه إلى السقف وقاومت دموعها: «كلام غير منطقي بالنسبة لي».

- مفهوم! ترى كيف نفهم استدلالات العقل المريض دون أن نصاب بالجنون؟

نظرت زابينه من النافذة، أشرقت الشمس خلف أبراج الكاتدرائية، ثم انفتح باب المكتب ووقف زيمون في الممر حاملًا حقيبة كتف ثقيلة، ثم نظر إلى شنايدر بدهشة: «حضرتك هنا؟ ألا تعيق النباتات تفكيرك؟».

رمقه شنايدر ببرود: «لا، لكن وجودك يسحب مني الأكسجين».

قالت زابينه في نفسها: وأنا أيضًا، عندما رأيتك بالأمس مع زوجتك وطفليك!

- لا مشكلة! سأغادر على الفور.. بينه، محطة الوقود تنتظر!

فأشار شنايدر إلى الأعلى وقال: «هل وضعت وعاءً من شاي الفانيليا على مكتبي؟».

- يمكن لحضرتك أن تحضرها بنفسك، فعليّ الذهاب.

قال شنايدر: «وأنت لست مضطرًّا للعمل على شيء لم يبدأ بعد..»، ثم نظر إلى ساعته النحيلة وأردف: «لا يزال أمامنا خمس دقائق للحديث، فافعل شيئًا مفيدًا في تلك الأثناء، واصنع بعض الشاي.. والآن اخرج من هنا!».

فانحرفت عينا زيمون وأغلق الباب، والتفت شنايدر إلى زابينه وكأن الحديث بينهما لم ينقطع: «يتمتع القاتل بمهارة غير مسبوقة في السيطرة على ضحاياه».

سحب كرسيًّا وجلس عليه بالمقلوب، ثم أسند ذراعيه على ظهر الكرسي، لم يكن الوضع غير الرسمي يناسبه، لكن من الواضح أنه لا يهتم بالمظهر الأنيق في الوقت الحالي.

نظر إلى زابينه عبر المكتب: «إنه يضرب فقط عندما يصير متأكدًا من أن له اليد العليا، ولهذا السبب يبحث عن نقطة ضعف ضحيته، إنه لا يعرف الشعور بالندم، فضميره النشط سيبطئه، لكن بالنسبة له لا توجد حدود مكانية أو زمانية، إنه يشعر بأنه لا يقهر».

لا يقهر! فكرت زابينه في المحبرة التي وجدها والدها أمام باب شقته.

- هل قدم أيضًا هدايا لسائر ضحايا المكالمات الهاتفية؟

أومأ شنايدر برأسه: «لكنها ليست هدايا...إنها أدلة، خصلة شعر محترقة في لايبتسيج، طوق كلب من الجلد الأسود يحمل اسم جريتشن في كولونيا».

تذكرت زابينه أن جريتشن هو اسم أخت فريدريش الشريرة، لكن بالتأكيد اكتشف شنايدر ذلك بالفعل.

كرر شنايدر: «الأمر يتعلق بالقوة والسيطرة، فرغم أنه يمنح ضحاياه ثمانيًا وأربعين ساعة بالإضافة إلى الإرشادات، فهو يستمتع بانتصار نابع من تقدمه عليهم بخطوة».

قالت زابينه بشكل عفوي: «إنه يعلم أن أي شيء يقدمه لنا سيكشف القناع عنه وسيؤذيه».

- صحيح، وهو يفخر بأنه أذكى من المحققين، فمخاطرة القبض عليه تثيره، والنرجسية هي نقطة ضعفه.

ثم نظر شنايدر إليها وقال: «ومن خلالها علينا أن نمسك به!».

نحن مجددًا؟

فسألته في النهاية: «لماذا تخبرني بهذا كله؟».

- لأن تحرياتك أذكى من زملائك، حتى إن قدراتك أعلى من رجال المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية الذين يضعون والدك في مأزق وكأنه مجرم خطير، لقد احتجت إلى النظر في وجهه مرة واحدة فقط لأدرك أنه لا يستطيع قتل أي إنسان.

تصاعدت الدموع في عيون زابينه: «فلتساعده إذًا!».

- هذا ما أفعله! لماذا برأيك أنا هنا الآن أقدم لك كل حقائق القضية؟

جففت خديها: «كيف يمكنني دعمك؟».

- فكري معي!

يا إلهي، كيف يمكنها أن تأتي بفكرة مفيدة بهذه السرعة؟ توقف عقلها، فمنذ أن قرأت تقرير التشريح، وهي تتساءل لماذا فعل القاتل هذا بأمها.. أعادت صور مسرح الجريمة إلى الكتاب.

- هل يختار هذا السيكوباتي ضحايا عشوائيين أم نساء محددات يتناسبن مع قالب القصص؟

نظر شنايدر إلى ساعته مرة أخرى: «لا أظن أنه يختار النساء مصادفة، لا بد أنهن يفعلن شيئًا ما موجودًا في تلك القصص».

أخذت زابينه تفكر.. إذا كانت هناك علاقة، فهي أقرب لأن تكون بين والدتها والمعلمة الأخرى، وليس بينها وبين المساعدة القانونية من كولونيا: «لا بد أن هناك علاقة بين معلمة لايبتسيج ووالدتي».

قال شنايدر متحاشيًا: «لقد بحثت بالفعل عن ذلك دون جدوى، فبسبب حريق وقع قبل عشر سنوات في المدرسة الابتدائية التي عملت والدتك مديرة لها في كولونيا، دُمرت جميع المستندات، ولا توجد أوجه تشابه بينها وبين معلمة لايبتسج في الوثائق الجديدة».

الحريق الغامض في مدرسة كولونيا الابتدائية.. تذكرت زابينه ذلك بملل، ولم يتضح السبب قط.

ربما كان والدها متورطًا.

طلبت منه: «هل يمكنك أن ترسل لي نسخة من وثائق معلمة المدرسة الثانوية في لايبتسيج؟».

هز شنايدر رأسه نافيًا وقال: «يداي مكبلتان، فجهودك الفردية هذه قد تجعلك مهددة بالإعفاء من منصبك، لا أستطيع إشراكك في التحقيق، على الأقل ليس بشكل رسمي».

صياغته تدل على أنه لا يزال يترك الباب مفتوحًا.

فألحت زابينه: «لا بد من وجود علاقة... وربما وجدتها».

- إذا كان الأمر كذلك، فأنا لم أنخدع بك.

وللمرة الأولى منذ أن التقيا ترى شنايدر يبتسم، حتى ولو للحظة واحدة.

توقف، ودار حول المكتب، ثم أخرج لوحة المفاتيح: «سأطبع المستندات لك».

- لن تفتح على هذا الكمبيوتر.

- إذا عرفت كلمات المرور الصحيحة أيتها السنجابة، فسيعمل معك حتى لو على الهاتف.

فتح شريط القائمة، ووصل إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به عبر شبكة الإنترنت الخاصة بالشرطة، والمتصلة بالشبكة في الطابق العلوي، وأرسل ملف إلفريده نيكيتش الإلكتروني إلى طابعة زابينه.

في اللحظة التالية خرجت ثلاث رزم مكتوبة بدقة من طابعة الليزر الخاصة بها.

فذهب وطوى رزمة الورق، ثم أوضح: «ستجدين في الوثائق تعليقاتي الشخصية». عندها فقط سلمها كومة الأوراق.

- أعتقد أن هذا يعني أنني من المفترض أن أحتفظ بتلك البيانات لنفسي.

- إن لم تفعلي ذلك، فابدئي غدًا بتنظيف مراحيض الرجال في مترو الأنفاق.

- يا لكرمك!

- أعلم، شكرًا.

اتجه نحو الباب وقال: «لا أريد أن أعرف كيف ستكتشفين علاقتها بوالدتك.. كل ما يهمني هو النتائج، أمامك ساعتان، فبعدها سيتحتم عليّ الذهاب إلى المطار».

16

أخذ العرق يسيل على رقبة هيلين، لقد بحثت في مكتب فرانك بأكمله، بحثت في جميع الملفات والحافظات ودفاتر الملاحظات والرسائل وحتى ألبومات الصور، لكن ليس ثمة شيء، حتى إنها قلبت مجموعته الخزفية المحفوظة داخل فاترينة زجاجية رأسًا على عقب، ونظرت خلف النصوص القانونية ومجلدات موسوعة بروكهاوس، كما نظرت تحت البومة الرخامية الثقيلة، وأخيرًا فتشت في ملابسه، لا توجد صور، أو رقم هاتف، ليس هناك إشارة واحدة تدل على أنه على علاقة بآنا لينر، ولا يوجد تلميح واحد حتى على وجود امرأة أخرى، لكن هذه المرة لم تفتح الدرج أو حاويات مكتبه، فقد اصطحب فرانك حقيبته إلى المكتب ومعها المفتاح.

دقت ساعة الجدار العتيقة الثامنة والنصف، سيصل عميلها الأول خلال ثلاثين دقيقة، ربما تكون طريقتها خاطئة ومن المفترض أن تبدأ في البحث وراء آنا لينر؟

تركت هيلين مكتب زوجها وسارت عبر الحديقة الشتوية إلى عيادتها، كان مكتبها بجوار غرفة العلاج، وقد اطلعت بالأمس على ورقة البيانات الرئيسة الخاصة بآنا، والآن أرادت إلقاء نظرة على السجلات والمذكرات.

فتحت المجلد الموجود على مكتبها وبحثت عن أدلة، كانت آنا لينر تذهب في البداية إلى أخصائية علاج بالمعنى تمارس عملها في شارع باخ الذي عاشت فيه آنا، لكنها لم تستطع الانسجام مع المرأة؛ لذلك بحثت عن بدائل وصادفت هيلين، وقد استمر العلاج بالفعل لمدة ستة أشهر بإجمالي خمس عشرة جلسة.

عملت آنا بائعة في صيدلية القديس أولريش، وكانت امرأة منطوية وفاشلة وساخطة إلى حد ما، نشأت في جو يضن بالحب والمودة، ربما كان

ذلك بسبب منزل والديها الكاثوليكيين. أقنعتها إحدى زميلاتها في العمل بأن تصبح عضوة في موقع للمواعدة عبر الإنترنت، وهناك تعرفت على رجالها، لكن لم تدم أي من علاقاتها أكثر من شهرين، وكان معظمهم من الرجال المتزوجين الذين يبحثون عن مغامرة مع امرأة ساذجة.

هل تعرفت هناك أيضًا على زوجي؟

أغلقت هيلين عينيها للحظة، لم تكتشف أي رسوم تثبت اشتراك فرانك في موقع مواعدة في كشف الحساب الخاص به في الأشهر الستة الأخيرة، ربما التقى الاثنان في عيادتها؟ مستحيل. فقد اعتادت آنا أن تأتي بعد ظهر يوم الجمعة، وفي ذلك الوقت ينشغل فرانك بجلسات مباحثات ثم يتجه إلى نادي الجولف.

قلبت هيلين الصفحات لتبدأ النص التالي، ففي أثناء الجلسات دار الحديث بصورة رئيسة حول انجذاب آنا للرجال الأكبر سنًّا، وقد دونت هيلين بجوارها عبارتين: (البحث عن الأمان- عقدة إلكترا). وفي النظير الأنثوي لعقدة أوديب تكره المرأة والدتها وتنجذب إلى والدها.. تشخيص تافه قد ينطبق على العديد من النساء. فكرت هيلين في حياتها الخاصة... وقد انقبض قلبها بصورة مؤلمة، فقد توفي والداها قبل خمس سنوات وهما يهبطان بالطائرة على جزر ماديرا؛ حيث تعطلت معدات الهبوط واشتعلت النيران في الطائرة المروحية الصغيرة، احترق الطياران والركاب الثمانية جميعهم، وقد سمعت هيلين عن الكارثة في الأخبار، فأتاها شعور غريب بالخدر في بطنها ليؤكد لها أنها لن ترى والديها مرة أخرى أبدًا، ولم تتلقَّ أخبارًا رسمية من السفارة النمساوية في لشبونة إلا بعد يومين، لقد سقطت هيلين في قبضة الاكتئاب، واستغرق الأمر أسابيع لتتفهم أن والديها قد ماتا، والغريب أنها حزنت على والدها أكثر من والدتها.

بعد أشهر من الحادث تركت شقتها في فيينا وعادت إلى جريسكيرشن، وهي تعيش الآن في المنزل الذي بناه والدها بصحبة زوجها الذي يكبرها بأربعة عشر عامًا، ليس ثمة شيء غير طبيعي؛ ففارق العمر بين والديها كان خمسة عشر عامًا، ربما أرادت دون وعي أن تعيد تكرار هذه العلاقة.

سقطت دمعة على المذكرات، فمسحتها... **ركزي على آنا لينر!** حاولت في العلاج أن ترفع من مستوى الاعتزاز بالنفس لدى آنا، وطمأنتها بأنها امرأة مثيرة للاهتمام وجذابة، وفي إحدى الجلسات الأخيرة تحدثت «آنا» عن علاقتها المعقدة برجل أكبر سنًّا ومتزوج.

فرانك!

كوّرت هيلين قبضة يدها، فلو تأكدت من صحة شكوكها!... ما لبثت أن قمعت الفكرة، أي مسخ كانت آنا؟ لقد أتت إليها لتلقي العلاج، ومن ثم ضاجعت زوجها أيضًا، ولكن الآن هناك شخص ما قطع أصبعين من أصابعها.. فمن؟ أهو عاشق قديم؟ هل هو شخص باعت له الدواء الخطأ في الصيدلية؟

أغلقت هيلين الملف، لقد تخلت عن وظيفتها في المباحث لتبتعد عن أي قضايا تكسر رقبتها، فرغم أنها تعرضت لقضية تستر وواحدة من أسوأ حملات التشهير بشكل مباشر، كان القرار لا يزال صعبًا بالنسبة لها، لقد أرادت إعداد مكان آمن صغير لنفسها من خلال عيادتها، فماذا جنت من وراء ذلك؟ إنها الآن في خضم قضية اختطاف وابتزاز.

لم يتركها الماضي تستريح، وهي لا تستطع إرجاء التعاون مع الشرطة مدة أطول، ستلتقي بـ بن بحلول مساء الغد على أقصى تقدير، أخذت المفتاح من تحت مفرش الطاولة وكأنها في غيبوبة، ثم فتحت خزانة الملفات المقفلة، وجدت بها تقارير المحكمة الخاصة بها، فقد صادر المدعي العام ملف فينكلر، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من المستندات في الملف الصغير، فأخرجتها

هيلين، وفي الأعلى رأت مقالًا صحفيًّا من إحدى جرائد الصحافة الصفراء، بدا العنوان مروعًا:

أطفال تنتهك وتُعذب وتقطع إربًا!

وفي الأسفل صورة لكريستوف فينكلر، البالغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، وسيم المظهر، جذاب، وهو زوج الابنة الأنيق، وكالعادة يبدو هؤلاء الرجال غير ضارين، فقد عمل فينكلر أخصائيًّا اجتماعيًّا، وكان شابًّا ساحرًا وتعليمه جيدًا، ليس له سجل جنائي، ومعه مزاولة مهنة مثالية.

كان يقضي أحيانًا وقت فراغه مع لويس، ابن جيرانه البالغ من العمر سبع سنوات؛ حيث عمل والد الصبي عامل بناء، يقضي معظم الشتاء عاطلًا عن العمل، ووالدته تعيش على الإعانات. وفي أحد الأيام لم يعد لويس يرغب في الذهاب إلى شقة فينكلر، وأمام زملائه أخذ يزعم أن فينكلر ينتهكه، لكن والديه استمرا في إرساله إلى هناك مرتين في الأسبوع، ربما يمكنهم اللجوء إلى أموال فينكلر.

وفي إحدى الأمسيات أصاب فينكلر الصبي بجروح خطيرة لدرجة أن لويس اشتكى من آلام في المعدة واضطروا إلى نقله إلى المستشفى، شخص الطبيب الحالة بأنها تمزق في منطقة العجان بين فتحة الشرج وكيس الصفن، ومن خلال تمزق فتحة الشرج تسللت البكتيريا المعوية إلى تجويف البطن، مات الصبي بعد أربع وعشرين ساعة، وقدمت المستشفى بلاغًا، وتدخل مكتب رعاية الشباب والقاصرين، وحقق مكتب المدعي العام، وأعدت هيلين تقريرًا عن فينكلر للمحكمة.

بعد أربع مقابلات شخصت فينكلر بأنه مغتصب قهري ولم يلقَ القبض عليه مطلقًا؛ لأنه كان ذكيًا جدًّا وعاش حياة مزدوجة بصورة متقنة، حتى إن هيلين ألمحت إلى أن والدي الصبي كانا على علم بالانتهاكات وتلقيا أموالًا من فينكلر، لكن كريستوف فينكلر كان نجل ممثلة الادعاء جوانا فينكلر، وهنا بدأ الإزعاج كله.

اتخذ المدعي العام قرارًا ضد تقرير هيلين، ولم يكن هناك حتى مسحة من الحمض النووي لإثبات إذا ما كان فينكلر قد لمس الصبي بالفعل أم لا، يبدو أن الشرطة استجوبت الشخص الخطأ، فسبب وفاة الصبي يكمن في العلاقات الأسرية المحطمة، ثم أعلن الطبيب المعالج فجأة أن لويس قد أصاب فتحة الشرج في أثناء لعبه، وأنه مجرد خدش صغير بأحد الأظافر ليس أكثر. وبالطبع لم يعد من الممكن استجواب لويس، وأطلق سراح كريستوف فينكلر، لم تكن هيلين تعرف المبلغ الذي أنفقته ممثلة الادعاء فينكلر مقابل هذه الصفقة، لكن بالتأكيد هناك بعض الأشخاص الذين اغتنوا من هذه الصفقة.

على مدار العامين التاليين اختفى أربعة أطفال تتراوح أعمارهم بين أربعة وستة أعوام في المنطقة التي يعيش فيها فينكلر، أما الطفل الخامس فقد جاء من منطقة مختلفة؛ إنه فلو بن بِن كولر، ولم يكن فينكلر مشتبهًا به.. لماذا؟ ولم يقدم تقرير هيلين بشأن فينكلر إلى المحكمة مطلقًا، كما تم التحفظ على طلباتها لإجراء اختبار كشف الكذب وتفتيش المنزل وتحليل الحمض النووي، ثم ارتكب فينكلر خطأ، نبش كلب الغابات الأرض واستخرج جزءًا من جسد في غابات فيينا، كان ملفوفًا في ورق صحيفة يتابعها فينكلر، وقد ضبط اسمه وعنوان تسليم الصحيفة على ملصق في الخلف.

وفي أثناء جلسة الاتهام أعيد فتح قضية لويس، وفجأة تساءلت وسائل الإعلام كيف يتقاعس المعالج النفسي عن التحذير من الجاني المشتبه به، فقد كان بإمكانها إنقاذ حياة خمسة أطفال، ولم يكن تعقب طلبات هيلين المزعومة بإجراء اختبار كشف الكذب وتحليل الحمض النووي وتفتيش منزل فينكلر ممكنًا، فقد اضطرت الصحافة ومكتب المدعي العام ومكتب الشرطة الجنائية الاتحادي وفرقة المحققين المتخصصين في قضايا القتل إلى العثور على شخص يلقون اللوم عليه. في النهاية دمرت سمعة هيلين بسبب الأداء المسرحي الذي قدمه رئيس الشرطة، واستقالت من وظيفة الطبيبة النفسية الجنائية والشرعية، ولم ترغب قط في التورط في قضايا جنائية مرة أخرى، لكنها

حزنت بشأن العمل مع أوليفر براندشتيتر، فقد كان شريك بن يتصرف دائمًا بإخلاص لها في خضم التشهير بها، إلى جانب ذلك وقف فرانك بجانبها هو وصديقه المحامي.

فكرت هيلين في اختطاف آنا، هذه المرة لن تكون رهن إشارة أحد، ولن تسمح للشرطة بأن تجعلها كبش فداء، فأمامها ثلاث وعشرون ساعة لإنقاذ حياة آنا، ولديها فكرة لتعقب الخاطف، فتحت ورقة البيانات الرئيسة الخاصة بآنا، وكان العنوان هو 33 شارع باخ، وسيتولى نظام الملاحة في سيارتها أمر العثور على المنزل.

في تلك اللحظة رن جرس باب العيادة، وكان ذلك قبل الساعة التاسعة بقليل، فغادرت هيلين المكتب وفتحت الباب الأمامي لبيت الضيافة السابق، هناك أم عازبة وابنتها البالغة من العمر خمس سنوات تقفان على الدرج.

- تفضلا بالدخول واستريحا بغرفة العلاج، سأعود إليكما خلال دقيقة.

وبينما دخل الاثنان البيت، ذهبت هيلين إلى مكتب فرانك وهي تقول لنفسها: **إذا لم تفعلي ذلك الآن، فستعودين إلى التردد لاحقًا.**

في درج مكتب فرانك هناك مجموعة من المفاتيح من بينها مفتاح المنزل والشقة المجهولين، لكن طاولة المكتب كانت مقفلة، وقد اصطحب فرانك حقيبته إلى المكتب، فدفعت هيلين البومة الرخامية الثقيلة من على رف الكتب المجاور لموسوعة بروكهاوس وحملتها إلى المكتب

زمجرت وهي تسقط التمثال بكامل قوته على القفل: «سنرى إذا كنت تعرف آنا لينر أم لا».

تشقق الدرج الخشبي، وقفزت الأسطوانة المعدنية، وأحدثت البومة شرخًا في الأرضية الخشبية الجديدة، فتحت هيلين الدرج، المفتاح مفقود!

نبشت على عجل بين فتاحات الرسائل وأقلام الرصاص وأعواد الثقاب وشرائح الهواتف وقصافات الأظافر، وجدته مختبئًا خلف علبة سيجار دافيدوف، فأخرجته بارتياح.. وبعد جلسة العلاج ستزور شقة آنا لينر.

17

بذل كولونوفيتش كل ما في وسعه ليحافظ على السلام في القسم المسئول عنه؛ لذلك صنع زيمون وعاءً من شاي الفانيليا بالفعل، ووضعه في مكتب شنايدر، ثم تولى مهمة سرقة محطة الوقود بمفرده؛ لأن زابينه أوضحت لرئيسها أن لديها بعض الأعمال البيروقراطية التي يتعين عليها إنجازها بسبب وفاة والدتها.. زيارات للمحامي وشركات التأمين، لم تكن تعرف هل سيخفف كولونوفيتش عنها أم لا، على أي حال فقد سمح لها بالرحيل، كما أنه عرض عليها أمس بالفعل أن تحصل على إجازة خاصة.

قادت سيارتها إلى شقة والدتها في شفابينج فيست، ودخلت المنزل المشيد بالطوب الأصفر في شارع فينتسارار شتراسه، ثم ركضت صاعدة الدرج متجهة نحو العلية، لم يكن محققو المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية قد حضروا بعد، وإلا لوجدت ختمًا جديدًا ملصقًا فوق قفل الباب.

بدت شقة والدتها موحشة وفارغة، وقد علق الهواء الراكد في كل غرفة مثل رائحة الموت العفنة. جلست زابينه على أريكة غرفة المعيشة، وتصفحت ملف إلفريده نيكيتش المكون من خمس وثلاثين صفحة والذي طبعه لها شنايدر. هذه معلمة المدرسة الثانوية الجذابة ذات الثمانية وخمسين عامًا المتقاعدة التي تعيش في لايبتسيج، ذات شعر أشقر، ونحيفة، وجسدها رياضي، مطلقة وأم لابنتين. تلقت الابنة الكبرى مكالمة «بيتر ذو الرأس الأشعث» مع إرسال خصلة الشعر المحترقة. وضم الملف سيرة ذاتية، وقائمة بالهوايات والاهتمامات والعادات، وتقريرًا مفصلًا عن نشاطها خلال الأسبوعين الأخيرين قبل اختطافها، وشهادات من الأصدقاء والأقارب والزملاء السابقين.

وبعد نحو نصف ساعة أغلقت زابينه الملف، لقد قرأت ما يكفي عن حياة المرأة التي بدت غريبة عنها تمامًا، لا يوجد أي تداعي للأفكار أو ومضة إلهام، ولم يكن هناك أي صلة بوالدتها، سوى أن المرأتين كانتا في العمر نفسه تقريبًا، ومطلقتين وأمهات لطفلين، يحتوي الملحق على قائمة أبجدية بأسماء طلابها، بالإضافة إلى الزملاء المعلمين الذين عملت معهم إلفريده نيكيتش، فقد التقت بالكثير منهم على مدى خمسة وثلاثين عامًا من الخبرة المهنية، لم تعرف زابينه أي شخص في القائمة.

أمي، ما الذي يربطك بهذه المرأة؟

أخبرها شنايدر أن مقارنة قائمة أسماء الزملاء والطلاب بأسماء والدتها باءت بالفشل، لكن النيران دمرت الوثائق التي كانت موجودة قبل حريق مدرسة كولونيا الابتدائية، وحتى يومنا هذا لم يعرف أحد سبب اندلاع الحريق في مكتب المدير، والذي قضى على الأخضر واليابس بالمبنى، لكن زابينه ظلت متشككة دائمًا. تذكرت تلك الليلة قبل عشر سنوات عندما عاد والداها إلى المنزل منزعجين وآثار السخام على وجهيهما، بملابس محترقة وشعر تفوح منه رائحة الدخان، استحما على الفور ثم وضعا ملابسهما في كيس القمامة، في تلك الليلة نفسها سمعتهما زابينه وهما يتجادلان، وأقسما في النهاية على ألا يتفوه أحدهما بكلمة واحدة حول ما حدث في تلك الليلة، وبعد ذلك مباشرة انتقلا إلى ميونخ، وتبع ذلك الانفصال.

ومع ذلك ظلت هناك طريقة للعثور على الوثائق التي وجدت قبل الحريق، فقد علمت زابينه أن والدتها كانت تحتفظ بالكتب الدراسية جميعها على مر الأعوام.

وبعد تفتيش الغرف بحثًا عن الدفاتر والكتب الدراسية، راودت زابينه فكرة مرعبة، وهي أن المستندات ربما تكون متعفنة في قبو شقة والدها في كولونيا.

وقفت في الردهة أمام باب الشقة وحدقت في الدرج القابل للطي في السقف، ومن فوقهما علية المنزل، فانطلقت في داخلها شرارة الأمل الأخيرة، فعندما انتقلت والدتها بصحبتها ومونيكا من كولونيا إلى ميونخ، سحبن معهن عشرات الصناديق إلى مكان التخزين، وكانت شقة الأم هي الوحيدة التي لا تحتوي على مقصورة تخزين في القبو، فسمح لها المالك بتخزين متعلقاتها الشخصية في علية المنزل العامة، وفي هذه المرحلة كانت جدتها قد فارقت الحياة، وبيعت المزرعة المديونة، وبدت العائدات كافية لتغطية تكاليف جنازة الجدة.

اعتلت زابينه السلم إلى الأعلى وجثت على ركبتيها بجوار الفتحة، العلية التي يبلغ ارتفاعها مقدار متر ونصف تقريبًا تفوح منها رائحة الخشب والمواد العازلة، والذباب والدبابير الميتة ملقاة على الألواح، وخيوط العنكبوت معلقة في العوارض الخشبية، ربما كانت درجة الحرارة هنا أدفأ بمقدار عشر درجات عن منزلها.

تعرقت جبهة زابينه، والتصق الغبار ونشارة الخشب بيديها وهي تزحف على الأرض على أطرافها الأربعة، وأمام عمود المدخنة تكدست صناديق الكتب المدرسية، على عروة الصندوق الأول كُتب بخط يد والدتها بقلم فلوماستر «بينه»، وبداخل صندوق من الورق المقوى تجمعت هناك كتب الأحياء والكيمياء والكتب اللاتينية من أيام دراستها في المدرسة الثانوية الرياضية، لو أنها اختارت مهنة أخرى في ذلك الوقت، لما جلست الآن القرفصاء هنا، بل كانت ستعتني في الواقع بملكية والدتها، كما أبلغت كولونوفيتش، لكنها منذ فترة مراهقتها وهي تعلم أنها تريد الالتحاق بالشرطة الجنائية، ثم تلقِّي تدريبها لاحقًا في الشرطة الجنائية الاتحادية. وأدرك والدها أن لديها شغفًا بالعدالة ورغبة لمساعدة الآخرين، أما والدتها فعلى العكس تبنت دائمًا ردود فعل متحدية بشأن قرار زابينه، ولو ترك الأمر

لها لصارت زابينه معلمة أيضًا. **لو أرادت تلك الصغيرة على الأقل، فلتوزع سماعات الدليل الصوتي في المتاحف مثل مونيكا! لكن إنشاء ملفات تعريفية لمرتكبي الجرائم؟ هذا هراء نفسي!**

مسحت زابينه العرق عن جبهتها ونظرت إلى الساعة، أمامها ساعة أخرى وسيصطحب أحد الأشخاص شنايدر من المكتب إلى المطار، مزقت جميع الصناديق، في أحدها وجدت كتب مونيكا المدرسية، وفي الآخر وجدت هناك ألبومات صور من طفولتها ودُماها المحشوة على شكل زرافة، وروجر رابيت، ودافي داك، وتويتي، وسيلفستر.. جميعها مغبرة وباهتة، ليس ثمة دفاتر تحضيرية! أما الصندوق الأخير فقد ضم أطباق الخزف القديمة فقط، وألبوم الشِّعر الخاص بمونيكا، وعلبة من الصفيح عليها طوابع قديمة وعملات معدنية، وألبوم صور أصفر انزلق منه كيس ممتلئ بالورق بحجم A4، وكتب عليه بخط يد الأم بقلم جاف حبري «المدرسة الابتدائية بكولونيا (1989 - 2001)»، كانت الحقيبة تحتوي على كومة من الصور؛ صور الفصل! تسارعت نبضات قلب زابينه. ومن خلال فتحة السقف المفتوحة سمعت بوابة المدخل بالطابق السفلي تُغلق، وتعالت الأصوات الصاعدة، فحبست أنفاسها واستمعت، كان هناك رجلان يصعدان درجات السلم.

زحفت بسرعة إلى السلم القابل للطي، وتلصصت من خلال الفتحة على بئر السلم، فسأل أحد الرجال عن شيء لم تفسره.

وأجاب الآخر: «... في الأعلى مباشرة».

أخذ قلب زابينه يخفق بشدة، لم تتعرف على أي من هذه الأصوات، فإذا كان هؤلاء هم اختصاصيي رفع الأدلة الجنائية من المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية، فعليها أن تختفي في أسرع وقت ممكن.

طوت المظروف الذي يحتوي على الصور، ووضعته في جيب صدرها، ثم نزلت على السلم، وكان باب شقة والدتها لا يزال مفتوحًا، وقد تمزق ختم الأمان الخاص بالخدمة الجنائية الدائمة الذي أرفقه زيمون، فأخرجت زابينه ختمًا جديدًا من حقيبتها.

اللعنة! كان الورق المطبوع الخاص بشنايدر لا يزال مستقرًّا على طاولة القهوة، فركضت نحو غرفة المعيشة، ووضعت كومة الورق الملفوفة تحت إبطها وغادرت الشقة، كان الرجلان قد وصلا للتو إلى الطابق الثالث.

- هل استجوبوا سكان المنزل؟

- لا.

دفعت زابينه الباب بهدوء وأغلقته بالقفل المكسور، لصقت الختم الجديد على عجل فوق الإطار، وعندما وصل الرجال إلى الطابق الرابع، كان لدى زابينه الوقت الكافي لصعود الدرجة الأولى من السلم القابل للطي، وفي اللحظة التالية كان المحققان قد وصلا إلى الطابق وهما يلهثان.

فتصرفت كأنها نزلت للتو من العلية، ومسحت العرق عن جبهتها، وقبل أن يتمكن الضابطان من قول أي شيء، سألتهما: «هل أنتما من شركة مكافحة الحشرات؟».

أجاب الأكبر فيهما: «لا».

كانت زابينه قد أغلقت سترتها بسحاب بحيث تمكنت من إخفاء سلاح خدمتها وشارتها، وأخذت تسب أمامهما: «هذا العِرس اللعين يقودنا جميعًا إلى الجنون! إنه ينزلق في مكان ما، وقد وضعنا بيضة دجاجة عجوز من المزرعة، فظلت في الفخ لمدة أسبوعين، لكن اللقيط لم يدخل».

وبذلك أغلقت السلم القابل للطي واندفعت أمام الرجلان، فشعرت أنهما يحدقان بها.

وعندما توقفت في الشارع لتستنشق هواء الربيع الدافئ، نظرت حولها، ولحسن الحظ لم يكن هناك أي ضباط شرطة آخرين هنا، فسحبت الصور المطوية من الظرف، التي بلغ عددها في المجمل اثنتي عشرة لقطة باثني عشر عامًا من الخدمة، إنها فصول الأم في المدرسة الابتدائية بكولونيا؛ ثلاث مرات خلال أربع سنوات، كانت الكتابة خلف الصور باهتة ولكنها ظاهرة، حيث وقع عليها الطلاب والمعلمون.

عندما اقتحمت زابينه قسم الشرطة قبل الحادية عشرة بقليل، ركضت بين ذراعي كولونوفيتش تحديدًا، لكنه تحدث بغلظة: «اللعنة، ماذا تفعلين هنا؟ هل أنجزت بالفعل كل الشئون الإدارية؟».

سألته: «أين شنايدر؟».

احمر وجهه: «نظرًا لأن عليك إنجاز أمور شخصية، اضطر زيمون للعمل بمفرده، لا بأس في ذلك، ولكن أن أجدك تتسكعين الآن هنا؟».

ركضت نحو المصعد وهي تقول: «هل لا يزال شنايدر هنا؟».

صرخ فيها: «ليس لدي فكرة، هناك زميل من المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية ويريد التحدث معك، ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟».

سأشرح لك لاحقًا.

توجهت إلى الطابق التالي وركضت نحو غرفة الاجتماعات، ومن مسافة بعيدة استطاعت أن ترى أن نخيل اليوكا لم تعد موجودة في الممر، كانت الغرفة فارغة، وأجهزة الكمبيوتر الخاصة بشنايدر غير موجودة، ليس ثمة شيء بجوار الباب سوى حقيبة سفر سامسونايت حمراء صلبة، في تلك اللحظة خرج شنايدر من المرحاض المجاور، كان وجهه أبيضَ مثل جدران غرفة المشرحة، وهناك إبرة عالقة في ظهر يده بين إصبعيه السبابة والإبهام.

سألته: «هل ساءت حالتك مرة أخرى؟».

فهدر: «لا، أنا بخير! أحب الطيران والوقوف في طابور أمام البوابة، ناهيك بالزحام على متن الطائرة والمقاعد الضيقة، ودائمًا ما يكون هناك طفل يصرخ في المقعد الذي يليني أو الذي أمامي».

يا له من وغد هازئ! سلمته زابينه صور الصف الخاصة بوالدتها: «لقد قارنت أسماء طلاب وزملاء إلفريده نيكيتش بأسماء والدتي، وعلى مدار اثني عشر عامًا وجدت خمسة تطابقات: أربعة طلاب ومعلم واحد.

ألقى شنايدر نظرة خلف الصور، التمعت عيناه، وفي لحظة تلون وجهه: «اطلبي لي سيارة الأجرة، وأعدي لي إبريقًا من الشاي بالفانيليا، وتعالي إلى مكتبي خلال نصف ساعة، عليّ إجراء بعض المكالمات الآن».

وأغلق الباب في وجهها.

وبعد ثلاثين دقيقة دخلت زابينه غرفة الاجتماعات، فوجدت أشجار اليوكا الممتدة من الأرض إلى السقف قد عادت إلى الممر، وقد أخرج شنايدر جهاز كمبيوتر محمول فقط واتصل بشبكة الإنترنت، فاحت رائحة أوراق الشاي والعشب من الغرفة، وهناك لفافة ماريجوانا مسحوقة في منفضة السجائر.

سألت زابينه: «هل وصلت إلى شيء؟».

اتكأ بظهره على الكرسي وشبك يديه خلف رأسه وكأنه أنهى للتو عبء عمل يوم كامل.

- التحريات جارية عن الأشخاص الخمسة.

استدار بالكرسي، وأسند قدميه على حافة النافذة وهو ينظر من خلالها: «لدي أخبار جيدة وأخبار سيئة».

- السيئ أولًا.

قال: «دعي الترتيب لي.. أريد أن أضمك إلى فريقي في التحقيق بشأن «بيتر ذو الرأس الأشعث»».

التقطت زابينه أنفاسها: «هل هذه هي الأخبار الجيدة أم الأخبار السيئة؟».

أنزل ساقيه، والتفت إليها ثم تفحصها باندهاش وقال: «الخبر الجيد بالطبع!».

- ممن يتشكل فريقك؟

فأجاب: «مني»، كما لو كان هذا هو أكثر الأشياء وضوحًا في العالم.

- هناك معايير للجودة يعمل الفريق وفقًا لها، وأنا أعمل بشكل مختلف.

لم تتفاجأ زابينه من ذلك نوعًا ما، فشنايدر يختلف تمامًا عن أي محقق تقليدي، قالت: «والأخبار السيئة؟».

- يريد المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية استجوابك.

- أعرف ذلك.

فصحح لها: «أنت لم تعرفي كل شيء بعد».

انحنى إلى الأمام: «الزملاء ليسوا ضعافًا بالقدر الذي اعتقدته، فبطريقة ما اكتشفوا أنك قدمت طلبًا إلى دايدالوس بالأمس بخصوص مقتل والدتك، لقد سجلتِ دخولك إلى دايدالوس ثلاث مرات في الأسابيع الخمسة الماضية بعنوان IP الخاص بجهازك، صحيح أن محتوى هذه الاستفسارات لم يسجَّل، لكن المدعي العام يشتبه في أنك تمكنت بالفعل من الوصول إلى طريقة عمل جرائم قتل «بيتر ذو الرأس الأشعث» في ذلك الوقت.

- هذا ليس صحيحًا، كان الأمر يتعلق بـ...

رفع يديه: «الأمر تافه كليًّا! إنه يدور حول أنه ربما يكون والدك قد قرأ في الصحيفة عن مقتل معلمة لايبتسيج والمساعدة القانونية من كولونيا. متى كانت آخر مرة تحدثت معه عبر الهاتف؟».

عرفت زابينه غرض هذا السؤال: «أبي ليس «بيتر ذو الرأس الأشعث»!».

فقاطعها قائلًا: «هذا ما نعرفه نحن الاثنان، لكن المكتب الإقليمي يشتبه في أنه يعلم أسلوب الجريمة وأراد إلقاء الذنب على القاتل في قضية مقتل زوجته السابقة».

- كلام فارغ!

- ربما كان الأمر هكذا، لكن الكنيسة والمدعي العام والمكتب الإقليمي يطالبون بحل سريع، وسيزور القس الكاثوليكي ميونخ الأسبوع المقبل للاحتفال بالقداس في الكاتدرائية، وفي غضون ذلك الوقت لا بد من حل جريمة القتل.

ثم لوح شنايدر بيده: «فبمجرد أن يبدأ الزملاء في الضغط عليك لساعات وساعات، ستصبحين عديمة النفع بالنسبة لي ولتحقيقاتي، هناك طريقة واحدة فقط يمكنك من خلالها الهروب من التحقيقات، وهذا يعيدنا إلى الأخبار الجيدة مرة أخرى». ثم ابتسم لها ابتسامته الصفراء المعتادة وقال: «سترافقينني إلى دريسدن، ستنتهي الشرطة الجنائية الاتحادية في فيسبادن من طلب رحلة العمل الخاص بك بمكالمة هاتفية واحدة»، ثم فرقع أصابعه.

- الآن؟

- إن لم يكن الآن، فمتى؟

كان ذلك واضحًا، ونظرت زابينه إلى الساعة: «إننا على بُعد خمسمائة كيلومتر من دريسدن».

- أربعمائة وستين على وجه الدقة إذا سافرنا عبر نورمبرغ وشيمنتز، وسيارة الخدمة التابعة لقسم شرطة ميونخ تقف في الأسفل بخزان ممتلئ، إذا أسرعت في القيادة، فسنصل هناك خلال أربع ساعات ونصف».

سألته: «أنا من سيقود؟».

فأجاب بسرعة: «بالتأكيد لن أفعل أنا».

الأمر واضح، فقبل كل شيء لم يكن يمتلك رخصة قيادة.

- ماذا سنفعل في دريسدن؟

أغلق الكمبيوتر المحمول وأخرج السلك من المقبس: «لا تنسي هويتك وسلاح الخدمة وكتاب «بيتر ذو الرأس الأشعث»، سأشرح لك ما تبقى ونحن في طريقنا».

18

تأنقت هيلين مرتدية بلوزة وسترة وتنورة زرقاء داكنة قبل أن تغادر المنزل، لم تحتج أكثر من خمس عشرة دقيقة لتصل بالسيارة من جريسكيرشن إلى الضواحي الجنوبية لفيينا، فقبل الظهر بقليل لم يكن هناك نشاط كبير في الشوارع، وبهدوء اتبعت تعليمات نظام الملاحة الذي يقودها إلى شارع باخ.

وطوال الوقت الذي قضته بسيارتها في الطريق كانت تتحدث عبر الهاتف عن طريق مكبر الصوت، فقد تواصلت أولًا مع خدمة الاحتفالات، فمن المفترض أن تبدأ صباح الغد في تحضير الصناديق الباردة، والمقبلات الإيطالية، والبروشوتو، والمأدبة على طريقة البحر المتوسط، يقدم النوادل الشمبانيا والنبيذ الفاخر، ويعد طاهي العرض أسياخ الجمبري والباييلا في مقلاة عملاقة على نار أمام الضيوف، وفي النهاية يجتمع الضيوف في ساحة المشروبات المتنوعة.

ومن المقرر أن تصل الفرقة حوالي الساعة الرابعة عصرًا وتجهز معداتها، كما يجب على المصور ومساعده معاينة الموقع، ورغم أن احتمالية سقوط أمطار لم تكن مرجحة، طلبت هيلين منذ أسبوع بالفعل خيمة لنصبها في الحديقة، بحيث تكفي لتغطية الفرقة وأربعين ضيفًا تقريبًا، فالمرأة الذكية هي التي تستعد لأية عواقب، فقد تمطر بغزارة، سيكون هذا هو الطقس المناسب لعيد ميلاد زوجها.

وصلت إلى زيبنهيرتن، المنطقة الجنوبية من فيينا، وهي منطقة خضراء تصطف فيها الحدائق الأمامية المشذبة واحدة تلو الأخرى، عندما انعطفت نحو شارع باخ أغلقت هاتفها، ووجدت هناك ساحات لا نهائية لاصطفاف السيارات مجانًا، كانت هناك لافتة بجوار ساحة انتظار السيارات تشير إلى

عيادة العلاج النفسي، أبطأت هيلين في سيرها، وأنزلت زجاج النافذة، ثم ضيقت عينيها، وقرأت اللافتة: **أخصائية الأمراض النفسية الدكتور/ روزه هارمان**

العلاج بالمعنى والتحليل الوجودي وفقًا لفيكتور إي فرانكل.

لا بد أن هذه هي الزميلة التي مارست العلاج مع آنا لينر من قبل ولم تتوافق معها، لقد سمعت هيلين عن هارمان من قبل، ورغم أنها شخصية لامعة في المؤتمرات، لكنها لم تكن تعرفها بشكل شخصي.

انحدرت هيلين ببطء بجوار حديقة ومحطة حافلات حتى وصلت إلى المبنى الصحيح، مبنى رقم 33، وهو مبنى سكني حديث مكون من ستة طوابق به شرفات وساحة انتظار سيارات أسفله، شعرت من منظر أشجار الشمشير الصغيرة في الأصص الرخامية مع الواجهة الزجاجية الواسعة والنافورة وكأنها بمدخل مركز المؤتمرات، لقد ظلت آنا تعمل طوال حياتها، وكانت عزباء، وليس لديها أطفال، بل تقضي إجازتها في المنزل، ومع ذلك تساءلت هيلين.. كيف يمكن لمساعدة عادية في صيدلية أن تتحمل تكاليف شقة في هذه المنطقة؟

صفّت سيارتها أمام المنزل، ووجدت جهاز اتصال داخلي حديثًا مع شاشة بارزة في الحائط، فتحققت هيلين من القائمة، كان هناك خمسون شقة إجمالًا في هذا المجمع السكني، وكانت آنا لينر في شقة رقم 48 في الطابق الأخير. أنهت هيلين التحقق من القائمة وأخرجت من حقيبة يدها حلقة المفاتيح التي أخذتها من درج مكتب فرانك، والآن حانت لحظة الحقيقة، تمنت لو كانت مخطئة بحقه، وأن يكون مفتاح فرانك يخص خزانة ملابسه في نادي الجولف فقط، وبأصابع مرتجفة أدخلت المفتاح الأكبر في القفل، فانزلق في الفتحة دون مقاومة، وانفتح الباب بنقرة خفيفة، فحدقت هيلين في الشق بدهشة.

وماذا توقعت أيتها السخيفة؟ اهدئي!

دخلت المبنى، وكانت الردهة الواسعة مبلطة باللون الكريمي، والدرج المبني من الكروم يؤدي إلى الطوابق العليا، وبجانبه مصعد به مقصورة زجاجية بيضاوية، تسللت أشعة الشمس من خلال السقف الزجاجي إلى الطوابق الستة، ورائحة الأرض الرطبة ملأت الردهة. يبدو أن العامل قد انتهى للتو من سقي أشجار الشمشير الموجودة أمام تقاطعات الممر، اتجهت هيلين إلى المصعد، جلجل كعبها العالي على بلاط الأرضية، وصدى قرع الأبواب يدوّي من حين لآخر عبر المبنى.

ضغطت هيلين على جهاز استشعار المصعد، فصعدت بها المقصورة مع صوت طنين سلس. شعرت وهي في المصعد وكأنها قطعة معروضة في فاترينة، وأظهرت اللوحة أنه لا يزال هناك ثلاثة طوابق أخرى، رأت هناك متاجر بالإضافة إلى صالون تجميل وتصفيف للشعر، ومركز استجمام وحمّام شمسي وساونا، بالإضافة إلى ساحة انتظار سيارات تحت الأرض، كان هذا المجمع السكني واحة للأثرياء على أطراف المدينة.

ترجلت هيلين مباشرة تحت سقف مسطح، وبنظرة كلية بدا المدخل مذهلًا، فهنا أيضًا استخدم المهندس المعماري عناصر زجاجية بحيث يتخلل ضوء الشمس المبنى بصورة أكثر من اللازم.

البسُط البرتقالية ازدردت كل الأصوات، توقفت أمام الباب رقم 48، بالطبع! كان القفل مكسورًا، لقد أخبرها بن كولر أن هناك شخصًا ما اقتحم الشقة بعنف، وربما اختطف آنا، وقد أحدث إزميل عريض انبعاجات في أماكن متفرقة بإطار الباب، ومع ذلك أُغلق الباب باستثناء شق في الخشب الملتوي ظل مفتوحًا، بالتأكيد حاول المسئول الفني عن المنزل إجراء إصلاحات مؤقتة على الباب.

كان ختم الشرطة عالقًا فوق القفل، فمزقته هيلين بسرعة وأدخلت المفتاح الأصغر من بين المفتاحين، صرت الأسطوانة عندما دفعت المزلاج جانبًا، وعلق الباب، لكن هيلين دفعته.

ترددت لحظة، هل ستعاقب قانونيًّا على دخولها هذه الشقة؟ ومن ناحية أخرى كانت قد اقتحمت مكتب فرانك بالفعل، التراجع غير متاح، وعليها أن تجد إجابات؛ لذا دخلت هيلين وأغلقت الباب خلفها.

كانت الشقة مفروشة بشكل أنيق، هناك مطبوعات فنية على الجدران، وطبعات مجلدة بأغلفة جلدية لروايات من السبعينيات، والكثير من الفترينات، ومصابيح معدنية، وطاولة زجاجية، وأريكة جلدية، والورود النابتة على عتبات النوافذ ومطبخ صغير من الكروم مع ألواح خشبية متكاملة. **أرني كيف تعيش، وسأخبرك من أنت.** ولكن من هي آنا لينر بحق الجحيم؟

ظلت هيلين تشهد مفاجأة جديدة في كل غرفة، تبدو الغرف رطبة ولكنها شديدة البذخ، فهي لا تتناسب مع الصورة التي كونتها عن آنا، ولكن بالتأكيد هذه هي الشقة المنشودة، فالمفتاح متطابق، وقد حدث اقتحام، ولوحة الباب عليها اسم آنا.

هناك إطارات صور على خزانات الأدراج، لكن بعض الصور كانت مفقودة، حتى إن إحدى الصور كانت ممزقة إلى نصفين، فهل أخفى خاطف آنا أي آثار تشير إليه؟

دخلت هيلين الحمام، وفي خزانة المرآة لم تجد الأغراض النسائية المعتادة فقط، بل وجدت كريم الحلاقة وما بعد الحلاقة وشفرة حلاقة رطبة.. لقد مرت ببالها ذكرى عنيفة، كان فرانك يستخدم جيليت ماخ 3؛ لأنه ادعى أن الأجهزة الكهربائية كانت تصيبه عند منبت الشعر، وللحظة ظنت أنها تقف في حمامها الخاص عندما رأت العبوة الزرقاء الأصلية لشفرة جيليت، بالإضافة إلى أن فرانك كان يستخدم أيضًا عطر ويلكنسون الأزرق بعد الحلاقة.

ماذا كنت تتوقعين أيتها الغبية؟ أن لديه مفتاح هذه الشقة لكنه لا يستحم أو يحلق فيها؟

اخرسي!

أغلقت هيلين باب الخزانة، حدقت في انعكاس صورتها بالمرآة.. لماذا فعل هذا بها؟ لماذا أتى إلى هنا؟ وكم مرة فعل؟ كل أسبوع؟ ألستُ جيدة بما يكفي بالنسبة له؟ تزوجت منذ سنتين فقط وهي أصغر منه بأربعة عشر عامًا! ألم يكن ذلك كافيًا؟

فتحت كابينة الاستحمام وكأنها تحت تأثير غيبوبة، وجدت هناك أنبوب جل استحمام أسود من دافيدوف على الرف العلوي في الزاوية.

فرانك، لم تدهشني قطّ!

فرائحة امرأة أخرى أو رائحة عطر آخر ستلفت انتباه هيلين، وقد أدرك فرانك ذلك.

ماذا فعلت بي أيها الوغد اللعين؟ أغلقت هيلين عينيها وحاولت أن تضع نفسها مكان زوجها.

لم تستطع الوصول إلى آنا صباح يوم الإثنين، وبدلًا من ذلك يتحدث إليك صوت غريب على البريد الصوتي لهاتفها، وبعد ساعات تقود سيارتك إلى شقتها وأنت تتمنى أن تجد آنا في المنزل؛ لأن حلقة المفاتيح الخاصة بك موجودة في درج مكتبك، لكنك تجد الباب مكسورًا، فتدخل الشقة وتجد أن آنا متغيبة، فيسيطر الذعر عليك، لم يغير اللص شيئًا، لكنك اقتحمت الشقة وأخرجت الصور من الإطارات ومزقت الأجزاء التي تظهر أنت بها، ثم مسحت بصمات أصابعك وقدمت بلاغًا للشرطة من مجهول عن شخص مفقود.

لكن ارتكبت خطأً يا فرانك، لم تدخل الحمام! وكيف ستخمن أنني سألقي نظرة عليه؟

ضاق صدر هيلين جدًّا لدرجة أنها لم تعد قادرة على التنفس، لقد رأت ما يكفي في الواقع، لم تكن بحاجة إلى دخول غرفة النوم أيضًا، فهناك إشارات كافية في كل مكان تدل على وجود فرانك، ورغم ذلك فعلت، ربما أرادت تعذيب نفسها لإحداث طعنة أكبر في قلبها حتى تكره فرانك أكثر بسبب ما فعله بها.

لقد سدد منظر السرير المزدوج والوسائد الحريرية السوداء والبطانية ذات اللون الكريمي طعنة في روحها. **فرانك، هل استلقيت على هذا السرير؟ عاريًا ومتعرقًا؟ هل مسحت المني من عضوك بمنديل؟ هل فاحت رائحتها من أصابعك؟**

ومساء كل جمعة؟ لا تفعل ذلك بي...

فأنا أعتني بك عندما تمرض، وأواسيك عندما تخسر قضية، فلا تفعل ذلك بي أرجوك! على الأقل أخبرني أن الأمر كله مجرد علاقة جنسية فقط، وأنك لا تحب هذه المرأة!

فتحت وحدة الأدراج وكرهت نفسها في نفس اللحظة لأنها فعلت ذلك، فقد وجدت بالدرج سراويل سوداء ضيقة وبها فتحات، وأنبوبًا من جل المزلق الحميمي، وشموعًا وزيوتًا معطرة وكريمات تدليك، يا له من كابوس! أرادت تحطيم الدرج وإلقاءه من النافذة، فقط أي نوع من العاهرات كانت آنا لينر؟ تلك الفأرة الرمادية الصغيرة التي كانت تعمل في الصيدلية ويستغلها باستمرار الرجال الذين تتعرف عليهم في منتديات الإنترنت؟ لا ترجح ذلك.

ربما استغلت هؤلاء الرجال، وإلا كيف تمكنت من تحمل تكاليف هذه الشقة؟ ربما لم يكتف فرانك بتحمل تكاليف الخاتم الياقوت، وفي المقابل سمح لنفسه بزيارة عش الحب وفرك جسد آنا بزيت التدليك ثم إيلاج عضوه بها مستخدمًا جل المزلق الحميمي.

شعرت هيلين بالاشمئزاز، وأغلقت الدرج وفضت خزانة الملابس، فوجدت الملابس الداخلية السوداء والأرجوانية مكدسة عند مستوى النظر، وخلفها لاحظت ياقة قميص متصلبة. أخرجت الثوب، كان قميصًا رجاليًّا أزرق داكنًا مصنوعًا خصوصًا ومطرزًا على الصدر بالأحرف الأولى من الاسم (ف.ب)، وهو ما تعرفه هي جيدًا؛ لأنها اشترت هذه القمصان بنفسها من المصمم الإيطالي والخياط (برناردي وسالوتشي) ودفعت ثمنها، كل شيء في هذه الشقة ينبئ بأن زوجها كان يعيش حياة مزدوجة مع آنا منذ سنوات.

أخذت تصرخ وهي تمزق الملابس الداخلية بالخزانة: «أيها الخنزير القذر.. لقد نسيت أحد قمصانك في أثناء اندفاعك!».

أزاحت كل شيء عن الأرفف، سراويل داخلية وجوارب شفافة وقمصان داخلية وحمالات صدر وبلوزات، أمسكت بكومة من البلوزات من الرف الثاني ونثرتها في أنحاء الغرفة، سيكون إحداث فوضى بالغرفة شيئًا رائعًا، لقد فوجئت بنفسها، لكنها تقدمت ومزقت عدة سترات من حجرة الغسيل، لقد كان رائعًا خلق الفوضى في هذه الشقة! ولكن فجأة شعرت بالألم، وسال الدم من جرح عميق في إصبعها، مصت الجرح وشعرت بطعم الدم المرير. كان قلبها يتسارع كالمجنون.

في أي شيء جُرِحت؟ فوجدت الأشعة ملقاة على الأرض بين قطع الملابس، لا بد أن هيلين مزقتها بسبب غضبها وألحقت الأذى بنفسها، وسقطت على ركبتيها بجانب كومة الغسيل وهي تلهث، لم تكن أشعة سينية، بل صورة بالموجات فوق الصوتية.. لطفل!

أخرجت إصبعها من فمها والتقطت الصورة، وأظهرت الصورة طفلًا في الشهر الثالث، هل هذا هو طفل آنا؟ كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ آنا في الخامسة والأربعين من عمرها وحامل؟ إذا حكمنا من خلال التاريخ

الموجود على حافة الصور، فربما تكون في شهرها السادس، لكن هيلين لم تلاحظ ذلك، وعلاوة على ذلك لم تقل آنا كلمة واحدة عن ذلك خلال الجلسات.

شعرت هيلين بالإعياء، هل فرانك هو الأب؟

سقطت الملفات من يدها الضعيفة، والتصق دمها بالأطراف، فتراجعت هيلين وأسندت ظهرها إلى الخزانة، ماذا فعلت؟ بدا الوضع في غرفة النوم وكأن جنكيز خان قد عاد واقتحمها مع جحافله، ودت لو خنقت فرانك وآنا معه، لكن شخصًا آخر كان قد تولى أمر آنا بالفعل، وبسبب مشاكلها الشخصية نسيت تمامًا أمر خاطف آنا.

لماذا اختار الرجل هيلين من بين كل الناس لتشترك في هذه اللعبة المفزعة، فما علاقتها بهذا الأمر؟ كل شيء على ما يرام، لقد كانت معالجة آنا، وزوجها على علاقة بهذه العاهرة، ألا يكفي ذلك لإشراكها في الأمر؟ بالكاد.. لا بد من وجود المزيد من الأسباب لذلك.

مع مرور كل ساعة كانت فرص آنا في البقاء على قيد الحياة تتضاءل، وقد استشرى الغضب داخل هيلين، فمن بين كل الناس يتحتم عليها هي إنقاذ حياة هذه المرأة؟ كيف وصلت إلى هذا؟ فعلى هذا الوحش أن يقطع كل أصابعها ويهديها إياها داخل علبة، هل يفترض أن تموت بهذا البؤس! إنها تستحق هذا، ما الذي تعتني به هيلين هنا؟ فيجب على فرانك أن يعتني بحبيبته، التي يزعم أنه لا يعرفها، ومن المحتمل أن تكون حاملًا منه.

يا لها من نكتة سيئة!

اعتقدت هيلين أنها الزوجة المثالية لفرانك، فهو يكره الأطفال.. لكنها تحبهم، وودت لو كان لها أطفال، لكنها لم تستطع أن تحظى بواحد، والطفل الوحيد في حياتها كان فلو بن بِن كولر، وقد سلبه منها قاتل ومغتصب، والآن من المفترض أن تلد امرأة أخرى طفلًا لفرانك! انهمرت الدموع على وجهها.

كانت تعرف شيئًا واحدًا، وهو أن فرانك غارق في هذه الحالة حتى أذنيه، ربما كان يعرف خاطف آنا.

وعلى طرف صورة الموجات فوق الصوتية وجدت اسم طبيب أمراض النساء الخاص بآنا، طوت هيلين الصورة ووضعتها في حقيبتها وغادرت الشقة.

19

«أسرعي!»، تجاوزها شنايدر ممسكًا بالمقود وضغط على بوق السيارة.

صرخت زابينه: «أبعد أصابعك! فأنا أقود».

أسرعا بطول الطريق السريع المؤدي إلى دريسدن بسرعة مائة وثمانين كيلومترًا في الساعة، وقد غيرت زابينه مسارها وتجاوزت سيارة مرسيدس، كان محرك سيارة الخدمة المدنية يدور بقوة 190 حصانًا، وستوصلهم إلى وجهتهم بشكل أسرع مما توقعه شنايدر.

تراجع شنايدر إلى مقعده شاحبًا، وقد دفع المقعد الأمامي إلى الخلف حتى تتوافر لساقيه الطويلتين مساحة كافية، ثم رن هاتفه الآيفون للمرة الخامسة، وبعد بضع كلمات أنهى المكالمة وأغلق الهاتف، منذ أن غادرا ميونخ وهو في مأزق، وقد بدا لزابينه أن جُلّ المكالمات غير مفهومة.

سألت زابينه: «والآن أخبرني أخيرًا ما الذي نبتغيه من دريسدن؟».

تحرر شنايدر من حزام الأمان الخاص به وكأنه كان يخنقه، وللحظة ترك سترته تنفتح، وفوق صداره الصوفي الأسود كان يرتدي حافظة مسدس بالكتف. تعرفت زابينه على سلاح جلوك 17 من خلال قبضته السوداء ذات الأخاديد، وقد اصطحبت هي نفسها سلاح الخدمة كما أمرها شنايدر.

وأوضح شنايدر: «من بين الأشخاص الخمسة الذين التحقوا بمدرسة كولونيا الابتدائية، الذين أكملوا بعدها بسنوات في مدرسة دريسدن الثانوية، توفي واحد الآن».

- قُتل؟

- أُصيب بسرطان القولون منذ ثلاث سنوات، هو طالب سابق ولا علاقة له بقضيتنا، وبعد التحري عن الأشخاص الأربعة الآخرين،

تعرفنا على العناوين المسجلة لثلاثة منهم، ولم نصل لشخص واحد منهم.

اشتبهت زابينه في اهتمامه بشكل خاص بهذا الشخص: «ما اسمه؟».

- كارل بوني.

تذكرت هذا الاسم غير المعتاد عندما كانت تقارن التوقيعات الموجودة على ظهر الصور بقائمة الأسماء بمدرسة إلفريده نيكيتش، وعلى مدار السنوات الأربع ظل خط يد كارل دائمًا طفوليًّا، كأنه كان يحمل قلمًا في قبضة يده ويحاول أن يرسم حروف اسمه بشكل جميل. صبي ذو شعر أشقر وملامح متناسقة، وهو أطول بنصف رأس من زملائه في الفصل.

- لا نعرف محل إقامة كارل أو مكان عمله أو حتى مكان سكنه الحالي، ويعمل زملاؤنا في فيسبادن على هذا الأمر، لكن الأمر سيستغرق أربعًا وعشرين ساعة على الأقل حتى تظهر النتيجة الأولى.

لكن هذا لا يوضح شيئًا عن سبب وجودهم في دريسدن.

دلك شنايدر صدغيه وقال: «سيبلغ كارل بوني الرابعة والعشرين من عمره في السادس من نوفمبر، وهو ميكانيكي سيارات، توفي والده بسبب قصور في القلب منذ أكثر من ثلاث سنوات، تحديدًا قبل أربعة أيام من عيد الميلاد، لا تزال أمه على قيد الحياة، لكننا لا نعرف مكان إقامتها الحالي أيضًا».

انتشر شعور مبهم في معدة زابينه: «هل قُتل الأم والابن؟».

- محتمل، على أي حال فالسيدة لوره عمة كارل لا تزال على قيد الحياة، وتعيش في دريسدن.

قالت زابينه: «هل سنذهب إلى منزل عمته؟».

رفعت قدمها عن دواسة البنزين تلقائيًّا، وتجاوزت شاحنة، ثم تركت السيارة تتراجع قليلًا.

حذرها شنايدر وهو يلوح بيده. «واصلي القيادة! فقد عاشت عائلة بوني مع هذه العمة لبضع سنوات».

«لا أستطيع تصديق ذلك، فنحن نسير بسرعة مجنونة إلى ساكسونيا فقط لزيارة تلك العمة لوره العجوز. لماذا لا نتصل بها؟».

نظر إليها شنايدر وكأنها أهانت ذكاءه: «لقد حاولت، لكن لا أحد يجيب، إنها مفقودة، لا أثر لها منذ السادس من مايو».

الآن اتضح الأمر لزابينه، فتصرفات شنايدر تتبع منهجية معينة: «يبدو أن هناك من يريد القضاء على العائلة».

لم يقولا أي شيء لفترة من الوقت، وأخيرًا عالجت زابينه المعلومات الجديدة ولخصتها بصوت مرتفع: «كل الأشياء متصلة ببعضها بطريقة ما...».

قاطعها شنايدر: «إنها كذلك بالطبع! فإذا نزعت شعرة من مؤخرتي ستدمع عيناي!».

يا له من حمار! لم تستجب لتعليقه، وبدلًا من ذلك قالت: «لقد اختطفت المساعدة القانونية في كولونيا يوم 6 أبريل، واختفت العمة لوره يوم 6 مايو، واختطفت معلمة لايبتسيج في يوم 20 أبريل، ووالدتي يوم 20 مايو.

ابتسم شنايدر: «ملاحظة مثيرة للاهتمام أيتها السنجابة».

أجابت بسخرية: «رغم أنني لا أدخن الماريجوانا».

تجاهل إشارتها اللاذعة: «ولد كارل في السادس من نوفمبر وتوفي والده في العشرين من ديسمبر، الميلاد والموت.. يبدو أنهما يومان لا يُنسيان»، ثم أكمل شنايدر متأملًا: «يبدو الأمر وكأنني لدي حل، لكنه لا يناسب مشكلتي».

سألته: «ما وظيفة والد كارل؟».

نظر إليها نظرة ذاهلة، وكأنها بسؤالها جذبته من مكان بعيد: «لن تتخيلي أبدًا، كان عازف أرغن في الكاتدرائية، بل متخصصًا في مقطوعات باخ».

عندما فكرت بذلك اقشعر جسدها، وفجأة عادت صورة والدتها إلى ذهنها مرة أخرى، الأنبوب في حلقها وفمُها مفتوح، ومتجمدة في حالة تصلب موتي غريب، تذكرت زابينه التسجيل الصوتي الخاص بشنايدر وقالت: «سمع خادم الكنيسة مقطوعة موسيقية لباخ قبل أن يجد جثة الأم».

- هذا ما زعمه، ولكن بطريقة ما لم يتضح الأمر بعد، فكاتدرائيات كولونيا وميونخ هي كنائس كاثوليكية، وكنيسة توماس في لايبتسيج هي كاتدرائية بروتستانتية، للأمر علاقة بموسيقى باخ وموسيقى الأرغن، لكن لا يمكنني العثور على أي علاقة معقولة في هذا النظام الكنسي القذر.

ارتعدت زابينه، عاد مصطلح القس الكاثوليكي إلى ذهنها، وقالت باقتضاب: «تجديفك على الروح القدس مزعج».

هز رأسه: «كيف أسب أحدًا غير موجود؟ أنا لا أؤمن بالرب أو بالشيطان».

- عليك أن تؤمن بشيء ما.
- بأنني في يوم من الأيام سأموت.

كم هو مثير للشفقة!

واستشهد بمقولة مشهورة: «العِلم يطير بك إلى القمر، والدِّين يطير بك فوق المباني»[1]، ثم أكمل: «أنا أؤمن بالعلم وعلم النفس، وبحقيقة أن سرطان الغدة الدرقية سيكون قابلًا للشفاء في يوم من الأيام.. لكنني لا أؤمن بالديانات الغربية».

لقد مرا بصف لا نهاية له من الطواحين الهوائية الضخمة: «إذًا فأنت جيد مع البوذية؟».

---

(1) مقولة لفيكتور جون شتينجر (Victor John Stenger)، هو أمريكي متخصص في فيزياء الجسيمات، وفيلسوف وكاتب ومشكك ديني.

أومأ: «طائفة الزن البوذية».

- هل هذا هو سبب كونك أصلع؟

لم يجب، وفجأة تذكرت أصابعه الثلاث الممدودة التي أذل بها من حوله: «هل يمكنك أن تشرح لي الفرق بين بوذية الزن والديانات الأخرى في ثلاث جمل بسيطة؟».

جرت ابتسامته الصفراء الباردة النموذجية على وجهه وقال: «يمكنني حتى أن أشرح لك ذلك في جملة واحدة: الديانات الغربية تعتمد على الخلاص الخارجي، في حين تعتمد الديانات الآسيوية على الخلاص الذاتي».

الخلاص الذاتي! ليس سيئًا! وهذا يناسب شخصًا أنانيًّا مثل شنايدر.

- أود أن أتفلسف معك حول هذا الموضوع، لكن يجب أن أجري بعض المكالمات الإضافية قبل أن نصل إلى دريسدن.

التقط الآيفون.

- بمن تتصل؟

- أحاول تنشيط الزملاء في المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية بسكسونيا قليلًا، فنحن بحاجة إلى الوصول إلى شقة العمة لوره العجوز.

20

قبل ثلاثة أشهر

الجلسة العلاجية الخامسة.

أدارت الدكتورة روزه هارمان جهاز التسجيل الصوتي: «الثلاثاء 24 فبراير الساعة 5 مساءً- الجلسة الخامسة مع كارل بوني..».

وضعت الجهاز على الطاولة، ثم ارتشفت من كأسها عصير الليمون! كان طعم المشروب العضوي مُرًّا، لكنها زودته بالفيتامينات.

صرَّح كارل: «يبدو مقرفًا».

- لكن من المفترض أنه صحي.

انحنت إلى الأمام وأزاحت الكأس جانبًا، وبهذه الحركة انطلق هذا الألم اللعين أسفل بطنها مرة أخرى، فأغمضت عينيها للحظة وصرّت على أسنانها.

- هل تشعرين أنك بخير؟

بدا صوت كارل قلقًا بالفعل.

كذبت عليه: «شكرًا، فكل شيء على ما يرام».

كانت تلك التشنجات اللعينة تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، ستزور طبيبها النسائي غدًا أخيرًا، وستذهب دون موعد، لكن ليس ثمة مشكلة في ذلك، فقد عرفت الرجل جيدًا؛ إذ كان مسئولًا عن فحص والدتها من قبل، إلا أنها لا تفضل إخبار والد الطفل بأي شيء عن ذلك، وقد حدّثها شعورها بأنه لن يحزن جدًّا بشأن هذه المضاعفات، يمكنها الاستغناء عن هذا التعاطف بسهولة في الوقت الحالي.

اتكأت على ذراع الكرسي، وتنفست ببطء، قالت: «مر على آخر مقابلة بيننا ما يقرب من أربعة أسابيع».

برر كارل موقفه قائلًا: «لقد أصبت بالإنفلونزا وانشغلت بأشياء كثيرة».

استراح بهدوء على الأريكة، وأصابعه ملطخة بالزيت مرة أخرى، ثم تأمل في قمم التلال.

ابتسمت روزه: «لا مشكلة، في النهاية يجب أن تركز جلسات العلاج على الحياة، وليس أن تصير الحياة مُسخَّرة لجلسات العلاج».

في العادة كانت ستضطر إلى التوجه إلى المحكمة بشأن هذا الأمر، ولكن بما أنه كان يضع الشرائط بانتظام في صندوق بريدها، لاحظت أنه يجتهد في تحسين ذاته، فأرادت أن تعطيه الوقت لذلك.

بالتدريج بدأ التشنج في بطنها يخف، وهدأ الألم، يا له من شعور! لكن الأمر كان مجرد مسألة وقت قبل أن تشعر باللدغة التالية.. **لا تفكري في الطفل الآن! ركزي في الجلسة!**

أشارت إلى الأشرطة الخمسة الصغيرة الملقاة على الطاولة: «شكرًا لك على هذه المادة المثيرة للاهتمام».

تصرف كارل وكأنه لاحظ الأشرطة للتو: «هل سمعت ذلك أصلًا؟ لا أتذكر حتى ما قلته».

بالتأكيد لا تزال تذكر ذلك.. تذكر كل كلمة.

لكن كذب كارل لم يعد يشكل أهمية، لقد انفتح عاطفيًّا وتحدث عن طفولته لأول مرة، وأخرج مادة مفيدة عن ذي قبل.

- هل ما زلت تتذكر متى تحدثت بالشريط الأول؟
- لقد جاءني كابوس، وبعد فترة وجيزة أخذت أثرثر في جهاز التسجيل الصوتي قبل أن أذهب إلى العمل.

كان تدفق الكلام في الشريط الأول مترددًا للغاية، ودوي الصوت يشير إلى أن كارل قد سجل الشريط في الحمام، ربما أمام المرآة المعلقة فوق الحوض، وهذا من شأنه أن يفسر أيضًا سبب مخاطبته لنفسه بضمير المخاطب، مثل (أيها القذر عديم الفائدة!)، لكن في سائر الأشرطة بدت جمله أسرع وأكثر مرونة، كما لو أنه اعتاد على السماح لمشاعره بالتدفق، ولكن حتى في ذلك الحين ظل يتحدث عن نفسه بضمير المخاطب.

محاولة لا طائل من ورائها لتجاهل محتويات الأشرطة باعتبارها غير ذات صلة، كانت حاجته للحديث واضحة، وإلا لما كلف نفسه عناء شراء أربعة أشرطة أخرى.

- هل استمررت الأحلام؟

- كل ليلة.

أوضحت: «قد تكون الأحلام مفيدة.. فهي تظهر أن عقلك الباطن مشغول بأشياء ظللت تكبتها لفترة طويلة».

ثم دفعت أشرطة الكاسيت نحوه عبر الطاولة وقالت: «مرة أخرى أشكرك».

نظر إليها بذهول: «إنهم لك».

- شريط واحد فقط يخصني، لكنها في النهاية مادتك.

- لقد أعطيتني أشرطة الكاسيت الخمسة، وأنا لست بحاجة إليها.

تأملته روزه، فتعابير وجهه وهو يُقر بذلك تقول إنه يصدق فعلًا ما يقوله، ربما لم يكن يريد أن يصدق تأثير الخلاص النابع من مناجاة الذات، هل أجّل شراء الأشرطة ليقنع نفسه بضرورة مناقشة الأشرطة الخمسة لروزه؟ لقد تركت الأمر عند ذلك.

- أود أن أتحدث إليك بخصوص المحتويات.

- لأي سبب؟ لقد سمعت هذه الأشياء بالفعل.

أومأت روزه برأسها: «يمكننا أيضًا أن نتحدث عن شيء لم يُذكر في أشرطة التسجيل، على سبيل المثال: وقت المدرسة».

هز كارل كتفيه، ويبدو أن التطرق لهذا الموضوع كان مقبولًا بالنسبة له.

- علمت في لقاءاتنا الأخيرة أنك اعتدت التنقل كثيرًا، فبعد روضة الأطفال في فيينا، أكملت دراستك الابتدائية في كولونيا، والمدرسة الثانوية في لايبتسيج، ثم تلقيت التدريب المهني في ميكانيكا السيارات في دريسدن، كيف كان شعورك عندما كنت تنفصل عن محيطك المعتاد؟

نظر إلى سقف الغرفة وقطب جبينه، وكأن ذكرى هذه الأحداث مدفونة بعمق: لا أعرف.. لم أفكر في الأمر قط، كان علينا أن نعيد توطين أنفسنا.. ولم نُسأل أنا وأمي عما إذا كنا نريد ذلك، فكل بضع سنوات يتولى أبي منصبًا جديدًا كعازف أرغن، كان يعزف في أثناء القداديس في الكاتدرائية.

- وأمك؟

- وما الذي أمامها لتفعله؟ كانت تبحث عن وظيفة جديدة أيضًا.

- هل كان ذلك صعبًا؟

- لقد حصلت على تدريب جيد في التمريض، وكانت هناك حاجة دائمًا إلى أشخاص للعمل في النوبات الليلية.

- ما الدور الذي لعبته والدتك في طفولتك؟

- لا شيء.

- هل كانت تضربك أيضًا؟

- مُطلقًا.

- وبصفتها ممرضة.. كيف كان رد فعلها تجاه الكدمات الدموية والحروق على صدرك وذراعيك؟

- لا شيء مُطْلَقًا، لقد أخفيتها عنها.

- لماذا؟

هز كتفيه مرة أخرى: «إذا لاحظتها أمي كان سيتضح لها أنني ولد شقي».

تساءلت روزه: «وهل لذلك عواقب أخرى عليك؟.. وهل كنت شقيًا حقًّا؟».

نظر إليها للحظة، وبدأت الأوردة السباتية تخفق في رقبته، من الواضح أنها نكأت جرحًا مؤلمًا في داخله.

- هل كنت شقيًّا؟

ارتفع صوته قليلًا: «وإن لم أكن كذلك، فهل كان أبي سيحرق طفلًا عمره خمس سنوات بمكواة ملابس؟».

فكرت روزه في الحروق التي أصابت ساعديه، وإذا صحت الادعاءات الواردة في الأشرطة، فمعنى ذلك أن جسده بأكمله مرصع بآثار الانتهاكات. وتخيلت كيف شُوه جسده كله، خاصة الآن بصفتها امرأة حاملًا، لكنها لم تستطع أن تفهم كيف يمكن لشخص أن يعذب طفله بهذه الطريقة.

وأوضحت روزه: «يحاول الأطفال فهم سبب تنكيل الآباء بهم، وغريزيًّا يلقون باللوم على أنفسهم، ففي كثير من الأحيان كنت أسمع من عملائي الجملة التالية (لا بد أن بداخلي شيئًا سيئًا، وإلا لما ضربني والدي)».

هدأ صوت كارل: «أنا ممتن لوالدي على تربيته لي».

- حقًّا؟ إلى أي مدى؟

- أليست التربية الصارمة أفضل من عدم التربية على الإطلاق؟

حتى لو كانت النتيجة تعاطي المخدرات وحكم بثلاث سنوات مع وقف التنفيذ!

سألت روزه: «هل تعتقد أن والدتك كانت على علم بطريقة تربية والدك؟».

- لم تكن في المنزل قط.

- وأين كانت عندما يلجأ والدك إلى تصرفاته التربوية؟

- لقد قلت بالفعل: غالبًا ما كانت تعمل في نوبات ليلية وفي عطلة نهاية الأسبوع أيضًا.

- هل تظن أن والدك كان يثار عندما يسبب لك الآلام؟

تحولت نظرة كارل بشكل غير مريح نحو الساعة ثم عادت مرة أخرى: «يثار؟ ماذا تقصدين؟».

- هل هناك عنصر جنسي لعب دورًا؟

اتسعت عيون كارل: «عذرًا؟».

لقد عرفت من خبرتها أن الجسد دائمًا ما يتفاعل مع المشاعر الحقيقية أولًا، ثم تتبعه الكلمات.. لذا فإن سخط كارل لم يكن مصطنعًا.

- في بعض الأحيان يحدث مع متلازمة الطفل المنتهك أن...

ارتعش صوته: «لم يكن اعتداء! كيف يبدو ذلك! كان على والدي أن يربيني بالطريقة نفسها التي ينشأ بها الأولاد الآخرون».

ابتلعت روزه ريقها: «بالطبع.. أتعلم؟ يرى الطفل أشياء كثيرة بعيون مختلفة، والأشياء التي لا يستطيع إدراكها يحاول تبريرها، لا أقول إن هذا صحيح بالنسبة لك، لكن بعض الأطفال يعتقدون أنهم مقززون، وأشرار، ومرضى، ولديهم أفكار منحرفة، وأنهم يستحقون ما ينالونه».

اعترض قائلًا: «لم يكن الأمر كذلك».

- إذًا فوالدك ليس ساديًّا في نظرك؟

قضم أظافره: «بالطبع لا، لقد كان متدينًا للغاية ويقدر الانضباط، هل تعتقدين أنه كان يستمتع بأسلوب تربيته؟».

لم تكن روزه متأكدة، وحقًّا لم يكن لديها أي دليل من المحكمة أو مكتب رعاية الشباب.. على الأقل حول الفترة التي عاشها كارل في النمسا، هي تعرف فقط تصريحات كارل التي أدلى بها في الأشرطة، ووفقًا لذلك فإن

والده كان يخنقه تقريبًا بكيس بلاستيكي من مرتين إلى ثلاث مرات أسبوعيًّا وهو في الخامسة من عمره فقط، وفي وقت لاحق نكل به مستخدمًا شمعة مشتعلة أو زجاجًا مكسورًا من قارورة ماء مقدس، وكان يضربه كل يوم تقريبًا، بغض النظر عما إذا كان مريضًا أو مصابًا بالحمى أم لا. وإذا قارنت بينهما، فإن التشنجات التي ظلت تؤلم بطنها لعدة أيام لدرجة أعجزتها عن الوقوف منتصبة في بعض الأمسيات، لم تكن شيئًا إذا قورنت بما عاناه.

لم ينته الضرب فعليًّا إلا بوفاة والده، لكنه ما زال قائمًا داخل رأس كارل، والنتيجة هي عدم احترام الذات الذي سيرافقه طوال حياته، ربما كانت المحادثة التي جرت قبل وقت قصير من إصابة والده بالسكتة القلبية من شأنها تغيير شيء ما، لكن كارل لم يعرف قط ما أراد والده أن يقوله له وهو على فراش الموت قبل ثلاث سنوات.

- ما الوقت الذي كان أبوك يربيك فيه؟

في الحقيقة شكت روزه في أنه يهاجمه دائمًا وهو مخمور أو مكتئب أو عندما لا يطيعه كارل، لكن إجابة كارل جاءت مختلفة.

- دائمًا قبل ساعة من عودة أمي إلى المنزل، ودائمًا ما كان يضمد جروحي بعدها مباشرة.

ابتلعت روزه ريقها، وللحظة استطاعت أن تتخيل نفسها مكان كارل وهو في السابعة أو العاشرة أو الرابعة عشرة من عمره، ما شعوره في كل مرة تغادر فيها الأم المنزل وهو يعلم أنها ستعود خلال ساعة أو ساعتين أو في الصباح التالي؟ فماذا لو اقترب الأب ودعا كارل الصغير؟ وبقدر ما علمت عن طفولته حتى تلك اللحظة، لم تكن هناك حالة اعتداء جنسي، فالعقاب جسدي فقط! ربما كان والد كارل ساديًّا أو متعصبًا دينيًّا، وسعى للحصول على منفذ لممارسة سلطته على ابنه، ولكن كان هناك شيء مفقود في هذه الصورة، فلماذا؟

- في الأشرطة ذكرتَ قصيدة كان والدك يرددها كثيرًا وهو يمارس عليك سلوكياته التأديبية.

- أنا أكرهها.

- أي قصيدة كانت؟

- إنها مجرد قوافي.. أعني أنني لا أستطيع أن أتذكر منها شيئًا.

أخذ يقضم أظافره وقال: «هل يمكننا التحدث عن شيء آخر؟».

- بالطبع! ارتشف شربة ماء وتنفس بعمق.

استرخت أكتاف كارل على الفور.

- ما رأيك لو طلبنا من والدك أن يكتب لك رسالة؟

- إنه ميت.

- أعلم، ولكن ما الذي يمكن أن يُكتب في هذه الرسالة؟

- لا أدري.

- وإذا كنت تعرف، فماذا سيكون؟

- هل يمكننا التحدث عن شيء آخر من فضلك!

أخرج كارل طرف إصبعه من فمه ومسح مهاد ظفره الملطخ بالدماء في بنطاله الجينز.

تنهدت روزه: «نعم، جيد.. ما الذي ترغب في التحدث عنه؟».

- متى يحين عيد ميلادك؟

في البداية كانت مندهشة: «هل أنت مهتم بالبرج الفلكي الذي أنتمي إليه؟».

لا بد أن يبدو رد فعلك احترازيًا وواقعيًا، ولكن مع لمسة من السخرية، وتساءلت سرًا إذا كان يريد أن يهديها شيئًا، فإلى أي مدى سيتألم إذا رفضت الهدية؟

هز رأسه: «لا، أريد فقط أن أعرف موعد عيد ميلادك».

- ما فائدة ذلك بالنسبة لك؟ يجب أن نركز على أشياء أخرى.

بدا محبطًا وقال: «لقد بحثت عنه بالفعل عبر الإنترنت على أي حال، فعيد ميلادنا في اليوم نفسه، لكنني أردت أن أسمع ذلك منك».

- أنت تعرف موقفي حيال ذلك، لا يزال لدينا خمس عشرة دقيقة تقريبًا، فماذا عن تمرين الاسترخاء في النهاية؟

نظر إلى منبه الراديو: «ليس لدي مانع».

وقفت روزه وأسدلت الستائر، فساد ضوء خافت في الغرفة، ثم أدارت مشغل الأقراص المضغوطة وخفضت صوت موسيقى التأمل بدرجة يمكن سماعها، ومن ثم أخذت بندول الإيقاع من الخزانة ووضعته على الطاولة بينهما.

اتكأ كارل بظهره على الأريكة بشكل غير مريح: «هل هذا تنويم مغناطيسي؟».

- لا، ولكن إذا وافقت، فسنحاول الاسترخاء العميق، إنه أشبه بتدريب التحفيز الذاتي.

- هل سأتمكن من تذكر كل شيء لاحقًا؟

لم تستطع روزه إلا أن تبتسم: «بالطبع، فأنا لن ألقي عليك تعويذة.. أعدك».

ابتسم بارتباك: «حسنًا».

- ما أجمل تجربة تتذكرها باعتزاز؟

أجاب على الفور: «عيد ميلادي السابع».

- آه لطيف، لذلك دعنا نستخدم عيد ميلادك كنقطة مرجعية.

ارتعش خدا كارل، وكان منفعلًا: «حسنًا».

- جيد، استرخ، واجلس في وضع مستقيم، وافرد ظهرك باستقامة، واترك ذراعيك تتدليان كيفما اتفق، وركز على حركة البندول.

راقبت روزه إيقاع تنفس كارل للحظة، ثم انحنت إلى الأمام، وأزاحت ثقل ذراع البندول إلى الأسفل، ودفعته، فبدأ البندول يتحرك ببطء.

تيك... توك... تيك... توك...

قالت بصوت مريح يطابق إيقاع البندول: تنفس بعمق وبانتظام.. ركز على حركة البندول، سيختفي العالم المحيط .. سيصبح مظلمًا، ويهدأ نبضك، كل ما تسمعه هو هذا الإيقاع وسيبدأ قلبك بالنبض في انسجام تام.

تيك... توك... تيك... توك...

ورغم أن جهاز التسجيل الصوتي كان يسجل جلسة الاسترخاء، فقد التقطت روزه قلمًا ودفترًا في حالة احتياجها إلى تدوين ملاحظات.

خففت صوتها: «ذراعاك وساقاك سيثقلان، وستشعر بقدميك ثابتتين على الأرض، ستسري الطاقة في جسمك، فتبرد جبهتك، ويتفشى حولك شعور لطيف بالهدوء».

من الواضح أن كارل أخذ الأمر على محمل الجد، فبعد حوالي دقيقة تدلت جفونه قليلًا، وصار تنفسه أعمق وأبطأ.

قالت: «في حالة الشهيق سيتركز وعيك في معدتك»، ثم استراحت للحظة وأكملت: «وفي أثناء الزفير سيتمدد جسدك ووعيك.. شهيق.. زفير.. أغمض عينيك».

في اللحظة نفسها أغلق كارل عيونه.

قالت روزه: «إنه السادس من نوفمبر.. عيد ميلادك السابع، فأين أنت الآن؟».

- أنا...

تمهل كارل، كان لدى الجميع تجربة مماثلة خلال جلسة الاسترخاء الأولى، ربما كان عليه أن يعتاد على صوته.

- أنا في غرفتي.

- انظر من خلال النافذة، ماذا ترى؟

- الجو مظلم في الخارج، أرى قمتَيْ برجَيْ كاتدرائية كولونيا، يشبه البرجان هيكلين عظميين مصنوعين من الرماد، كل شيء لا يزال غريبًا جدًّا، فنحن بدأنا نعيش في تلك المدينة منذ فترة قصيرة فقط.

- ماذا تفعل في غرفة طفولتك؟

- أنا أقف خلف الباب، وهو مفتوح بعض الشيء، وأنا أتنصت.

- ماذا تسمع؟

- أبي وأمي.. يتهامسان بانفعال، ثم ناداني، كنت أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك، ومع ذلك تظاهرت بالدهشة.

- وعن أي شيء كان؟

- تستقر كعكة على طاولة غرفة المعيشة، والجو مظلم، هناك فقط سبع شمعات مشتعلة وشمعة الحياة في المنتصف. أمي تحمل في يدها مفرقعات نارية على شكل نجوم، رائحتها تذكرني بليلة عيد الميلاد، أما أبي فيضع يده على كتفي ويتحدث: «عيد ميلاد سعيد! والآن سيصبح كل شيء على ما يرام يا بني».

كتبت روزه الجملة الأخيرة وقالت: «هل تعرف ماذا يقصد بذلك؟».

هز كارل رأسه.

- وماذا تفعل والدتك؟

المفرقعات النجمية تحترق، تضمني بين ذراعيها، وتعانقني بشدة، وتمسد بيدها على شعري، وتخبرني أنه ينبغي عليّ أن أظل دائمًا ولدًا صالحًا وشجاعًا.

- هل أنت كذلك؟

- في هذه اللحظة نعم بالفعل، أمشي ببطء نحو الطاولة وأنظر إلى الأعلى لألقي نظرة فاحصة على الهدايا، أبي لا يريدني أن أركض، أسحب الحزمة الأولى للأسفل وأزيل الشريط والغلاف بعناية.

- ألا يريد والدك أن تمزق الغلاف؟
- نعم
- وماذا يوجد في الحزمة؟
- كتاب مصور، وأبي يقول إنني يجب أن أتأكد من عدم تلطيخ الورق بالشوكولاتة وعدم قطع أي صفحات.
- أي كتاب؟
- الساحرة الصغيرة، وتوجد في العبوات الأخرى كتب مصورة أخرى، وقلعة بشخصيات بلاستيكية، وأقلام تلوين، ودفتر رسم، ووشاح، وقفازات صوفية لفصل الشتاء، وقبعة صفراء.. للعام المقبل كي تقيني من الشمس.
- لا توجد كرة قدم أو لعبة الطبق الطائر؟ ألم تجد زلاجات؟

هز كارل رأسه وأغلق عينيه: «هذا خطير جدًّا».

دوّنت روزه المزيد من الأفكار: «ماذا يحدث بعد ذلك؟».

- عمتي لوره، أخت والدي، قادمة لزيارتنا، لقد جاءت خصوصًا من دريسدن بالقطار، وستظل معنا لبضعة أيام.

كررت روزه: «أهذا حدث خاص؟ أي بسبب عيد ميلادك؟».

- هذا ما قالته.
- ماذا تعتقد؟
- لا أعرف، إنهم يشربون القهوة ويأكلون كعك الجوز، في حين ظللت أنا ألعب مع فرسان القلعة، كان والداي يتحدثان عن رغبتهما في البدء من جديد هنا كعائلة.
- لماذا؟ ماذا حدث في فيينا؟

تجهم كارل: «لقد كان هذا الرجل، لا أعرف أكثر من ذلك».

هذا الرجل!

أزاحت روزه القلم جانبًا: «ما الذي يتحدث عنه والداك أيضًا؟».

- واصلت المرأتان الحديث في المطبخ، ويجلس والدي على الأرض بجواري ونتصفح الكتاب المصور، يشرح لي من هي الساحرة الصغيرة ويخبرني عن غرابها أبراكساس.

- لماذا تفضل تذكر عيد الميلاد هذا؟

- لأن والدي لم يضربني في ذلك اليوم.

جف فم روزه: «هل كنت مهذبًا في ذلك اليوم؟

أومأ كارل برأسه.

- بصفتك صبيًّا الآن هل كنت تخدش ركبتيك بسبب لعب كرة القدم في الشارع في أغلب الوقت، أو تعود بقمصان متسخة، أو أيدٍ ملطخة بالزيت لأن السلسلة حُشرت في دراجتك؟

- لم أكن أمتلك دراجة.

- واصل الحكي إذًا، ماذا حدث أيضًا في ذلك المساء؟

قطب كارل جبينه وقال: «ليس ثمة شيء آخر».

نبشت روزه باحثة عن جواب: «كيف ينتهي اليوم؟».

- تلا لي أبي من الكتاب.

- ثم؟

- لقد ذهب.

- أين اختفى؟ هل غادر الشقة؟

عبس كارل: «أعتقد أنه ذهب إلى المطبخ».

تسارع نبضها: «هل كان وحده هناك؟».

- أنا.. ليس لدي أي فكرة!

- ماذا لو كنت تعلم؟

هز رأسه.

- أنت تعلم.

حثته روزه بلطف، لقد اشتبهت بصورة فطرية في أن كارل لم يختر هذا اليوم مصادفة، ربما أراد عقله الباطن أن يخبرها بشيء ما وهو يقاومه الآن.

- أنت تعرف! من كان أيضًا في المطبخ؟ هل أمك؟ عمتك؟

أمال كارل رأسه جانبًا، اعوج وجهه وعبس: «نعم ربما..».

- هل كان والدك غاضبًا؟

- كان صاخبًا.

- هل غضب منك؟

- لا، فهو لم يضربني في ذلك اليوم.

- هل والدتك هي من أغضبته؟

- لقد صرخ فيها بسبب شيء ما حدث قديمًا، فبكت، لا أعرف أي شيء آخر.. فالباب كان مغلقًا.

- هل تكرر حدوث ذلك كثيرًا؟

- لا، أبدًا، ظللت أنظر إلى صور أبراكساس ذلك المساء، كان يجلس على سطح المنزل وينتظر عودة الساحرة الصغيرة من اجتماع الساحرات.

- ماذا قال والدك قبل أن يغلق الباب؟

- الساحرة الصغيرة تجد الغراب وقحًا نوعًا ما و..

- ماذا قال والدك؟

- لا أعلم!

- فكر في الحمامة البيضاء، تخيل أنك هذه الحمامة البيضاء، أنت تعرف!

فتح كارل عينيه، رغم أن الستائر كانت مغلقة، طرف بعينيه: «اللعنة! قلت مرارًا إنني لا أعرف!».

- لكن الحمامة البيضاء تعرف.

احمر رأس كارل: «هذا هراء!».

طالبته روزه: «أخبرني بما قاله والدك!».

- إنني دائمًا شجاع ولطيف!

ثم انقلب صوته وقال: «كان يذكر أمي بذلك!».

تساءلت روزه: «وماذا أيضًا؟».

- لا شيء!

انحنت إلى الأمام: «وماذا أيضًا؟».

- إنه لم يعد مسموحًا لها بالتخلي عن الأسرة! هل أنت راضية الآن؟

بصق الكلمات الأخيرة بكل كراهية، ثم غاص مرة أخرى بقوى خائرة.

لاحظت روزه كيف تتسارع نبضات قلبه، وقد كان نبضها يهرول بالسرعة نفسها، وبينما راح كارل يمسح اللعاب من زاوية فمه، أوقفت هي تشغيل بندول الإيقاع، لقد انتهى الأمر. أعطاها كارل دون وعي الدليل الحاسم، لم يعد مسموحًا لها بالتخلي عن الأسرة!

قالت ببساطة: «شكرًا لك».

استغرق كارل دقيقة واحدة ليهدأ، ثم سأل أخيرًا: «علامَ؟».

- على إخباري بالحقيقة.

فرد متلعثمًا: «أنا.. لا أعرف إذا ما كان ذلك صحيحًا حتى».

مالت روزه إلى الخلف: «أفكر في ذلك، لقد هددت والدتك بالتخلي عن الأسرة إذا صرت شقيًّا أو سيئًا أو غير مهذب، أليس كذلك؟».

هز كارل كتفيه: «محتمل».

- هل أحب والدك والدتك.. أو ربما كان يعشقها أو يعبدها؟

- ربما... أعتقد ذلك.

- وأنا أيضًا، وأظن أن السبب وراء تربية والدك لك بهذه القسوة هو أنه كان يخشى أن تتركه زوجته.

تمهلت قليلًا ثم أضافت: «وتخليها عنكما مجددًا.. ربما ليس بسبب كونك شقيًّا فقط، ولكن أيضًا بسبب وجود رجل آخر».

وفكرت روزه في احتمالية أن يكون ذلك الحدث قد تكرر أحيانًا كثيرة، ولا يزال هناك أمور كثيرة في الخفاء، فيظل هناك شيء ما كان يدفع هذه المرأة إلى أحضان رجال آخرين، هل كانوا مرضى أم أطباء متزوجين أم ممرضين شباب؟ جميعهم سواء! وبدا السبب حاسمًا.

- وارد أن يكون هذا هو السبب وراء انتقالاتكم المتكررة؛ لأن والدك أراد أن يبدأ حياة جديدة معك ومع والدتك.

كانت روزه تدرك كيف يبدو ذلك بكل معنى الكلمة، تشير الجملة ضمنيًّا إلى أن والدة كارل كانت لها علاقات غرامية في كل مدينة، نظر كارل إلى المنبه: «لقد انتهى وقتنا».

- أنا أعلم، شكرًا.. هناك شيء آخر..

انتظرت روزه حتى تأكدت من أنها حظيت باهتمامه كله: «ربما هذا ما أراد والدك أن يخبرك به وهو على فراش الموت، إنه يعتذر عن سوء معاملته لك، وإنه أراد فقط الحفاظ على تماسك الأسرة».

- كلام فارغ!

قبضت روزه على جهاز التسجيل وأطفأته، ثم نهضا في الوقت نفسه.

مشت به إلى الباب: «فكر في الأمر!».

لقد علمت أن الموضوع سيشغله جدًّا لفترة طويلة.

عندما مد كارل يده، شعرت روزه بشيء ما في بطنها.

تشنج آخر؟ رجاء لا!

لم تعد تلاحظ كيف يودعها كارل ويغادر المنزل، انحنت على وحدة الأدراج لتستند عليها، فسقطت مزهرية. **لا ليس مجددًا!** اشتد الذعر وانقبض حلقها مع تدفق الدم الدافئ عبر فخذيها وأسفل ساقيها.

21

جلست هيلين في سيارتها ونظرت إلى فحص الموجات فوق الصوتية الذي وجدته في خزانة الملابس الداخلية الخاصة بآنا، ووجدت اسم الدكتور كونشتانتين راخوفسكي في طرف صورة الفحص، وبجانبه رقم الهاتف.. هل عليها الاتصال؟ وماذا بعد ذلك؟ بالطبع مواصلة التحري على مسئوليتها الخاصة، ليس لديها خيار آخر.

فكرت في فرانك، إلى متى سيظلان متزوجين؟ هل يمكنها إنقاذ الزواج؟ هل تريد ذلك عمومًا؟

ما التأثير الذي تتركه كلمات مثل «ليس لديها أطفال» و«مطلقة» في السيرة الذاتية لمؤلفة كتب متخصصة واختصاصية في علاج الأطفال؟ في الواقع الأمر غير مهم على الإطلاق، فبعد النهاية الكارثية لعلاقتها الغرامية مع بن كولر وطلاقها الوشيك الآن، كان عليها أن تعترف بأنها لا تستطيع أن تستمتع بعلاقة سعيدة، فما الخطأ اللعين الذي ارتكبته حتى ينتهي بها الحال بأن تجد زوجها بين ذراعي امرأة أخرى؟ مستحيل أن يكون السبب فقط هو أن آنا تستخدم المزلقات أو ترتدي سراويل سوداء ضيقة!

التقطت هيلين هاتفها وطلبت الرقم الموجود في فحص الموجات فوق الصوتية، وأوضح لها التسجيل الصوتي أن عيادة د. راخوفسكي تفتح في الساعة 2:45 مساءً. حسنًا، بحلول ذلك الوقت ستكتشف مكان عيادة الطبيب.

كانت عيادة د. راخوفسكي بالأطراف الجنوبية للمدينة، وقد ذكّرت الغرف هيلين بالعيادة الخاصة بطبيبها النسائي؛ أرضيات باركيه من خشب الزان، ونباتات ظل خضراء مورقة، وواجهات نوافذ تلتمع، وصور أطفال

في غرفة الانتظار، ومجلات نسائية على رف المجلات، حتى رائحة النعناع كانت مألوفة، فانقبضت معدتها عند رؤية النساء الحوامل في غرفة الانتظار.

جلست موظفة الاستقبال خلف منصة محاطة بشجيرات صغيرة، وفي الخلف مياه النافورة الحجرية تتدفق، همست السيدة: «هل لديك موعد؟».

هزت هيلين رأسها: «اسمي دكتورة هيلين بيرجر».

كذبت قائلة: «أنا طبيبة نفسية، وأود أن أتحدث معه بصفتنا زملاء في المهنة عن مريض مشترك».

تحدثت السيدة مع رئيسها عبر جهاز الاتصال الداخلي، وبينما كانت هيلين تنتظر فتح باب غرفة الاستشارات، ظلت أفكارها تدور باستمرار حول آنا لينر، فغير مسموح لها بإفشاء أي أسرار! ورغم أنها درست علم النفس، فإنها كانت معالجة «فقط»، وآنا لينر هي «عميلة لديها» وليست «مريضة»؛ لذا ففرصة هيلين ستبدو أكثر جوهرية إذا تحدثت مع زميل في المهنة على انفراد، من طبيب إلى طبيب عن مريض مشترك.

وبعد خمس عشرة دقيقة كانت تجلس في غرفة الدكتور، إنها غرفة اجتماعات راخوفسكي. وداخل الغرفة اصطفت أرفف الكتب حتى السقف ممتلئة بالكتب الاختصاصية، بالإضافة إلى بعض الشهادات المعلقة على الحائط.

كان راخوفسكي سمينًا إلى حدٍّ ما، ومن الصعب تقدير عمره، من المؤكد أن سوالفه العريضة واللحية الرمادية الطويلة، التي أطلقها دون شارب على طراز جماعات الأميش[1]، أضفت عليه سنًّا أكبر ببضع سنوات، قدرت هيلين أنه في الخمسين تقريبًا، وكانت هناك نظارة قراءة نحيلة مثبتة على طرف أنفه، من الواضح أنه يمارس الرياضة بانتظام؛ إذ كانت هناك صور له على مكتبه وهو يبحر ويركب الخيل والدراجات. وفي وعاء الفاكهة استقر

---

(1) هي طائفة مسيحيَّة تجديديَّة العماد تتّبع للكنيسة المنيونيَّة، نشأت في العصور الوسطى.

الجزر والتفاح والملفوف، ربما كان نباتيًّا. وهناك شيء آخر رائع لفت نظرها به، وقد لاحظته أيضًا في طبيبها النسائي، وهو أن د. راخوفسكي كان يمتلك يَدَيْنِ كبيرتين بشكل لا يصدق وأصابع عريضة.

أرخى ساعديه على المكتب: «أخبرتني موظفة الاستقبال أنك تريدين التحدث عن مريض مشترك»، فبدا صوته رنانًا وهادئًا.

جلست هيلين على كرسي الزوار وعقدت ساقيها: «الأمر يتعلق بآنا لينر».

أومأ راخوفسكي برأسه: «لا أقصد أن أكون وقحًا، لكن هل يمكنني رؤية هويتك؟».

- بالطبع.

فتشت هيلين في حقيبة يدها، يمكنها أن تنسى بطاقة العمل التي تثبت أنها معالجة نفسية، فمدت يدها برخصة القيادة نحو راخوفسكي.

- حسنًا، دكتورة هيلين بيرجر، لطيف جدًّا، بماذا تأمرين؟

- في عيادتي في جريسكيرشن، وبصفتي ممثلة لمصحة باومجارتنر هوهه، ومحاضرة في جامعة فيينا..

لقد عملت في الواقع لمدة عامين في مستشفى باومجارتنر هوهه للأمراض النفسية في أثناء فترة تدريبها، ثم ألقت محاضرات في الجامعة، وبالتأكيد لم تسمح لنفسها بأن تغامر بادعاءاتها، وأكملت: «وأنا متخصصة في اضطرابات الشخصية الفصامية وعواقب الاعتداء الجنسي على القاصرين».

حبس الهواء في فمه حتى تكورت وجنتاه وقال: «لقد فاجأتني، كيف يمكنني مساعدتك؟».

أوضحت هيلين: «تتلقى آنا لينر علاجها تحت إشرافي».

قاطعها: «أنا مندهش حقًّا، هل تتناول أية أدوية؟».

هزت هيلين رأسها: «أردت أن أصف لها دواءً نفسيًّا لعلاج الاكتئاب، لكنني خشيت ألا تتعامل مع الدواء بصورة تلائم حملها، فقد تطيح بالطفل، إنها في الخامسة والأربعين من عمرها ويمكنها...».

قاطعها مرة أخرى: «لقد فقدت آنا لينر طفلها.. قبل ثلاثة أشهر».

ماذا؟ كان على هيلين أن تستجمع قواها حتى لا يلاحظ أنها على وشك فقدان أعصابها: «لقد شككت في ذلك.. لكنها لم تخبرني».

قاطعها مرة أخرى: «هل ألمحت إلى أنها قد تكون غير راغبة في وجود الطفل؟».

أصبح الموقف ثقيلًا على قلب هيلين، فإذا لم تكن حذرة، ستقحم نفسها في وضع محرج جدًّا.. فالدكتور راخوفسكي ليس أحمق، كلمة واحدة متهورة منها وسيكتشف أكاذيبها.

- يبدو أن لديها تصورًا منحرفًا عن الحياة الجنسية، وحقيقة أنها صارت حاملًا لا تتناسب مع نظرتها للعالم.

فقال: «لا أعتقد أنها فقدت طفلها عمدًا، إذا كان هذا ما تقصدينه.. فعلى العكس تمامًا كانت بصحة جيدة للغاية، بل تتطلع إلى طفلها، إن الحمل شديد الخطورة في سنها، ورغم ذلك فقدت آنا الطفل فجأة، وهو أمر غير معتاد بالنسبة لحمل في الشهر الثالث».

- ربما بسبب جرعة دواء خاطئة..

أخذ يحدق بها وقال: «لهذا السبب سألتها من قبل إذا كانت تتناول أي أدوية».

توالت أفكار هيلين، جرعة دواء خاطئة! على حد علمها لم تكن آنا تتناول أي أدوية، وفجأة فكرت في الزجاجة التي وجدتها في حاوية فرانك: «هل يمكن أن يكون محلول المضاد الحيوي عالي التركيز هو المسئول عن فقدان الطفل؟».

- محتمل، على الأقل تستطيع آنا الحصول عليه، ولكن كما قلت.. أنا لا أعتقد ذلك، كانت ستصبح أمًّا جيدة.

لقد كان راخوفسكي محقًّا، فبصفتها مساعدة في صيدلية تستطيع الحصول على مضاد حيوي قوي بسهولة إلى حد ما، لكن هيلين اشتبهت في شخص آخر يعرفها جيدًا، أو على الأقل تعتقد أنه يعرفها، هل يمكن لفرانك أن يعطي آنا المحلول لإجهاض الطفل دون علمها؟ هل هو قادر فعلًا على ارتكاب هذه الجريمة المروعة؟ كان فاحش التفكير، ومن ناحية أخرى لم يكن يرغب في إنجاب أطفال، وبالنظر إلى حجم راتبه فإن تحمل النفقات لم يكن يسبب مشكلة، لكن وجود طفل خارج إطار الزواج من شأنه أن يتسبب بفضيحة، كما أن دوره كأب سيقف في طريق حياته المهنية.

لا، نفضت تلك الأفكار السخيفة بعيدًا، لا يقدر فرانك على فعل ذلك، وإلا لأضناه تأنيب الضمير تمامًا، **ولكن ربما لهذا السبب تحديدًا أعطى آنا الخاتم الياقوتي؟** فعملية الشراء قد تمت في السادس من مارس، قبل شهرين ونصف، إذًا فالإطار الزمني صحيح، زوجها.. قاتل أطفال؟ لم تستطع هيلين تصديق ذلك كله، كانت بحاجة إلى الخروج من هنا واستنشاق بعض الهواء النقي.

همهم راخوفسكي: «سيدتي؟ هل أنت بخير؟».

نظرت إليه: «عفوًا؟ هل لي بكأس من الماء؟».

أحضر لها كأسًا وهو يقول: «بالطبع».

تجرعت الماء البارد دفعة واحدة وسألته: «لماذا اندهشت سابقًا من خضوع آنا للعلاج؟».

ابتسم: «لأنها طبيبة نفسية في نهاية الأمر».

لا، ليست طبيبة! إنها مساعدة بصيد... شعرت هيلين بهروب الدم من وجهها، في تلك اللحظة صارت بيضاء بلون الحائط، وكررت: «طبيبة؟».

تمتم راخوفسكي: «لقد درست الطب على حد علمي، وقد اندهشت من أنها تتلقى علاجًا نفسيًّا وتضطر إلى تناول مضادات اكتئاب، بالطبع لقد دمرتها الخسارة، لكنها لا تزال امرأة قوية وواثقة من نفسها ومتوازنة».

مادت الأرض بهيلين، فقد كانت آنا لينر فأرة رمادية غير واضحة المعالم، وخجولة، ومكبوتة جنسيًّا، كما أنها تعاني من مرض السرطان، ودائمًا ما تقف منحنيّة بتواضع، فبنظارتها السميكة ذات الإطار القرني وشعرها الرمادي بدت عجوزًا وضعيفة.

نبشت بحثًا عن جواب: «كيف تصف مظهر آنا؟».

رفع ذراعيه وهو يقول: «آه يا إلهي، لديها شعر أحمر كستنائي قصير، وتسريحة شعر أنيقة، وذات عيون خضراء داكنة، وبشرة سمراء، وجسد رياضي، وهي مثيرة للغاية.. ما الذي تحاولين الوصول إليه؟».

تمتمت هيلين: «لقد قدمت نفسها لي بشكل مختلف».

تقدم راخوفسكي للأمام: «لدي الانطباع نفسه، خصوصًا عندما وصفت آنا في البداية بأنها مريضة تبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، رغم أنني أعلم أن عمرها أربعون عامًا فقط، حتى إن آنا روزه تبدو قريبة الشبه بك قليلًا».

جفلت هيلين: «معذرة، ماذا؟».

كرر: «قلت إنها تبدو حتى ...».

تمتمت: «لا، أعني.. هل قلت آنا روزه؟».

– نعم، هذا هو اسمها الأول الكامل.

22

كوشوتس هي منطقة ريفية بها العديد من المنازل خشبية الأطر المصممة بشكل جميل بمصاريع طوبية اللون وألواح سقف طحلبية، كانت خطوط التلغراف معلقة في شكل أقواس واسعة بين كل منزل وآخر، وكأنها تذوب في شمس الظهيرة وتزداد طولًا بمرور كل عام، يتناسب المبنى ذو الإطار الخشبي الموجود في نهاية الشارع الرئيس مع الصورة التي تظهر بها المنطقة الجنوبية لدريسدن، فهو مبنيّ من عوارض خشبية بنية اللون وطوب طيني.

فتح زميل شاب من الشرطة الجنائية في دريسدن، ذو شعر أحمر ناري ونمش، باب الطابق الثاني من المنزل الخشبي، ووقفت عائلة فولمار على دواسة الأحذية، إذًا هذا هو المكان الذي عاشت فيه «العمة لوره العجوز».

فتح شنايدر بطاقة هويته، وتمتم دون أن ينظر إلى زميله: «محلل قضايا وطبيب نفسي شرعي».

تنحى الضابط جانبًا ونظر إلى بطاقة الهوية وقال: «لقد كنت في انتظارك.. حسنًا إذًا، مارتنشنايدر، لقد سمعت عنك بالفعل».

بدا الأمر مثيرًا للسخرية بعض الشيء.

صحّح له شنايدر بغطرسته المعتادة ودفعه إلى داخل الشقة: «اسمي مارتن س. شنايدر! واخرج من رأسي الآن».

يا إلهي! فضلت زابينه أن تنشق الأرض وتبتلعها، فقد سدد لها الزميل نظرة من شأنها ملء مجلدات كاملة لوصفها فقط، بعدها تبعت شنايدر بحقيبة كتفها، وداخل الغرف سيطرت الرائحة النتنة للموت والفناء، تدلت النباتات من الأصص ذابلة، بالإضافة إلى وحدات أدراج داكنة وضخمة، وأباجورات مزخرفة، وستائر ثقيلة، وسجاد سميك، ولوحات زيتية كئيبة

على الجدران. تبدو الغرف وكأنها آثار مهملة تعود إلى السبعينيات بجمهورية ألمانيا الديمقراطية.

وبعد النظر حوله، أشار شنايدر للضباط ورفع ثلاث أصابع وقال: «أخبرني في ثلاث جمل قصيرة ما الذي حدث هنا؟ قل فقط الأشياء الأكثر أهمية!».

استنشق الزميل بعض الهواء وقال: «لا أستطيع ذلك».

قال شنايدر بهدوء قدر الإمكان: «إذًا تعلم، إنه فن طرح الأشياء المعقدة بطريقة بسيطة.. وعلى العكس يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك، وقتنا قصير؛ لذا دعنا نبدأ!».

تلعثم الصبي ذو الشعر الأحمر قليلًا وهو يشعر بالأسف تجاه زابينه منذ الدقيقة الأولى، حتى أخذ شنايدر الملف من يده وتصفحه بنفسه.

علموا أن فولمار زوج لوره أصيب بنوبة قلبية في هذه الشقة مساء يوم الجمعة السادس من مايو، وهذا بمثابة حكم بالإعدام بالنسبة لرجل يبلغ من العمر 81 عامًا ومصاب بالشلل النصفي بعد سكتتين دماغيتين، كان يجلس على الكرسي الهزاز آنذاك وبدا وكأنه يحاول الاتصال بالنجدة؛ لأن الهاتف كان لا يزال في يده، وفي اليوم نفسه اختفت لوره فولمار دون أن تترك وراءها أثرًا بعد أن شوهدت لآخر مرة وهي تتسوق في منطقة المشاة.

أغلق شنايدر الملف وقال: «ولكن ربما حدث العكس؟»، وأخذ يتأمل وهو يجول في الشقة: «لقد اختفت زوجته، وعندها فقط مات بالسكتة القلبية».

خمنت زابينه ما يقصده من وراء ذلك وقالت: «نحن بحاجة إلى قائمة بالمكالمات الهاتفية».

- بالضبط.

تصفح شنايدر الملف مرة أخرى وقال: «آخر مكالمة على الخط الأرضي للشقة جاءت من هاتف ذي بطاقة دفع مسبق، ولم يرغب زوج لوره في الاتصال بالنجدة عندما توقف قلبه الضعيف، ولكن هناك مكالمة وصلت إليه وكلفته الصدمة حياته».

سأل الرجل ذو الشعر الأحمر: «أي صدمة؟».

أجاب شنايدر: «أن زوجته قد اختطفت، وأمامه ثمانٍ وأربعون ساعة لإنقاذ حياتها.. هل لمس أحد أي شيء في الشقة أو حدث أي تغيير بها منذ ذلك الحين؟».

هز الضابط كتفيه: «لا.. لا يزال المتوفَّى في المشرحة، ولم تظهر زوجته، وتنتظر حكومة المدينة شخصًا ما ليتولى مسئولية مراسم الدفن، ولم تستخدم الشقة منذ ذلك الحين».

دخل شنايدر غرفة النوم، في حين نظرت زابينه في الحمام، كانت تبحث عن شيء غير عادي، وهو الدليل الذي من المؤكد أن «بيتر ذو الرأس الأشعث» قد تركه لضحية مكالمته الهاتفية، وجدت في المطبخ صندوقًا صغيرًا من الورق المقوى بجوار قطاعة الخبز، وفي الداخل وجدت نظارات للقراءة وملعقة قهوة على سطح مخملي أحمر.

صرخت: «شنايدر!».

دخل المحقق المطبخ ورأى الهدية على الفور: «إنه الصندوق نفسه الموجود في كولونيا ولايبتسيج».

أشار للضابط بالقدوم: «تولى أمر رفع بصمات الأصابع عن هذا الصندوق».

ثم مد يده إلى زابينه وفرقع بأصابعه وهو يقول: «الكتاب».

رجل نبيل بكل معنى الكلمة! أخرجت كتاب «بيتر ذو الرأس الأشعث» من حقيبتها وتصفحا القصص معًا، وبالتأكيد بدوا في نظر زميلهم من

دريسدن اثنين من الأغبياء، لكن من الواضح أن شنايدر لم يهتم لذلك على الإطلاق.

اقترب الضابط بفضول مصطنع وقال: «هل هذه هي الخطوط الإرشادية الجديدة لمكتب الشرطة الجنائية الاتحادي؟».

اعتدل شنايدر وقال: «من الآن فصاعدًا لا تحاول أبدًا أن تكون مضحكًا معي، مفهوم؟ ربما تتعلم شيئًا ما»، ثم أظلمت نظراته وقال: «ماذا نقول إذا عُلق مسدس على خشبة المسرح في الفصل الأول من المسرحية؟ هذا صحيح! سيطلق شخص ما الرصاص به لاحقًا! ونحن نقتفي الأثر وفق هذا المبدأ، والآن اهتم بأمر بصمات الأصابع!».

لم تعرف زابينه ما علاقة ذلك بخشبة المسرح ليقارنه به، ربما إدراك أن أدلة مثل هدايا «بيتر ذو الرأس الأشعث» لم تكن لتظهر في مسرح الجريمة دون سبب أو مصادفة.

قبض الضابط على هاتفه، ورأت زابينه ما كان يفكر فيه من خلال تعابير وجهه، على الأقل ظل هذا بمثابة عزاء لها، فشنايدر لم يتعامل معها هي فقط بهذه الطريقة الرخيصة، بل فعل ذلك مع الجميع أيضًا، فتحت صفحة مزدوجة مدون بها القصة التالية، ها هي ذي! أشارت إلى الصور: «نظارات وملعقة!».

سرق الأرنب الأب النظارة وبندقية الصيد من الصياد النائم، وعندما صوب الأرنب في الصورة التالية البندقية نحو الصياد، كان يضع النظارات فوق أنفه، سقط الصياد في البئر بعد ذلك بوقت قصير، في حين ظل الخرنق الصغير يرقص بسعادة حول البئر وهو يحمل ملعقة بكفه، وبعد ذلك احترق؛ لأن القهوة الساخنة سالت فوق أنفه[1].

---

(1) في نهاية حكاية الصياد البري من كتاب "بيتر ذو الرأس الأشعث" تنظر زوجة الصياد من النافذة فترى زوجها قد غرق في البئر، فيسقط فنجان القهوة من يدها ويتقاطر على أنف الأرنب الصغير فيحرقه.

ابتعد شنايدر عن الكتاب ونظر من النافذة: «حكاية الصياد البري إذًا».

كان مركز مدينة دريسدن على بُعد بضعة كيلومترات شمالًا، فقال وهو في غمرة أفكاره: «ها هو الصياد البري أخيرًا يصل.. إلى البئر العميقة وبداخلها يقفز.. وكم كان العناء عضالًا، عندما أطلق الأرنب النار». أشاح ببصره عن المدينة ونظر إلى زابينه: «جثتها ملقاة في بئر». ثم التفت إلى الضابط الذي كان قد أنهى مكالمته الهاتفية للتو: «ما اسمك؟».

- فريك.

فأضاف شنايدر بعد أن واصل فريك التحديق به بتساؤل: «جيد، استمع لي بعناية الآن، وأتمنى يا فريك ألا يكون ما سأقوله فوق قدراتك.. على زملائك البحث عن جثة أنثى في قبور وسراديب الموتى بجميع الكنائس والكاتدرائيات في المدينة.. الآن!».

قال فريك: «نحن نتحلى بالمرونة بالفعل، لكن الأمر يستغرق وقتًا».

أجاب شنايدر: «هل تسمي ضَعف اتخاذ القرارات مرونة؟».

لم تعد زابينه ترغب في الاستماع إلى هذه الإهانات أكثر من ذلك؛ لذا تدخلت: «يجب على زملائك إعطاء الأولوية لتلك الكنائس التي توجد بها بئر في ساحتها».

- ما الفائدة من ذلك؟

شخر شنايدر: «اللعنة! هل نفعل هذا ادعاءً للأهمية!».

سددت إليه زابينه نظرة صارمة وقالت: «أرجوك!».

ثم قالت لفريك: «الآبار مهمة جدًّا».

وأوضح فريك: «بعد تجديد كنيسة السيدة العذراء، ذهبنا في جولة إلى هناك مع طلاب المدرسة، وتوجد هناك بئر مياه قديمة أسفل القبو».

من جانب عينها رأت زابينه شنايدر يسترق السمع، ثم سأل: «هل يعزف عازف الأرغن مقطوعات باخ في أثناء القداس؟».

هز فريك كتفيه: «ربما، أنا لست مهتمًّا بالكنيسة الكاثوليكية».

قاطعه شنايدر في أثناء الحديث: «ولكن ينبغي عليك ذلك.. عندها كنت ستعرف أن هذا المبنى هو كاتدرائية إنجيلية لوثرية».

أمرته زابينه: «تولَّ أمر هذه الكنيسة أولًا.. ويرجى معرفة إذا ما كانت موسيقى باخ تعزف هناك».

حدج فريك شنايدر بنظرات حذرة وقال: «هل لا يزال لديك أسئلة أخرى؟».

أومأ: «هل يوجد فرع من متجر هايتال للكتب في وسط المدينة؟».

أي مدينة تشبه الكائن الحي، لها وجه وقلب وذراعان وساقان، وهذا الشيء يكسبها عبقها الخاص وإيقاعها ورائحتها وروحها الخاصة.

لطالما ربطت زابينه بين دريسدن وأوبرا سمبر، ورأت أن المدينة موطن للعديد من الجوقات وفرق الأوركسترا الشهيرة وعشرات المتاحف، لكن هذه الندرة لم تنصف مدينة دريسدن، فقد بدا جوهر عصر الباروك بمبانيه المرحة والنافورات العديدة والجسور والنصب التذكارية والأبراج والمنحوتات وكأنه خلفية لأسطورة شرقية خيالية، بالإضافة إلى المباني المشيدة على ضفاف نهر إلبه، تلك التي خلقت انطباعًا متوسطيًّا على رياح الربيع الدافئة. كانت زابينه تقضي إجازتها على الأغلب في ركوب الدراجات الجبلية في بيرتشسجادن أو في جناح صغير على بحر الشمال، ورغم أنها سافرت عبر ألمانيا عدة مرات، تظل هناك العديد من المدن الجميلة التي لم تزرها بعد، وقد رغبت في البقاء هنا لعدة أيام، لكن ربما مرة أخرى.

ظلت تعرج خلف شنايدر عبر الساحة أمام كاتدرائية دريسدن بين حشود من السياح، بدت قاعدة الكنيسة وكأنها ثكنة عسكرية ضخمة باللون الأصفر الترابي، ومن منتصفها تعالت القبة الضخمة إلى عنان السماء، تحيط

بها الأبراج والأسقف المدببة والشرفات المغلقة والنوافذ. عبر فريك البوابة للتو وهو يركض نحوهما في الهواء الطلق.

فهمس شنايدر لها: «عندما أراه على تلك الحالة، أتساءل هل لديه الحل أم هو جزء من المشكلة».

نبهته زابينه: «حاول التحكم في نفسك».

توقف الضابط أمامهما وهو يلهث: «موسيقى باخ تعزف هنا بالفعل، ولن تصدقا ذلك، لقد وجدنا هناك جثة في بئر المياه».

نظر شنايدر نحو محققي الشرطة الجنائية الذين توقفوا بجوار كاهن وعدد قليل من الرجال الذين يحملون الكاميرات: «بل أصدق ذلك.. لماذا يقف الصحفيون هنا؟».

نظر فريك حوله بشكل لافت: «بحضور الشرطة! كيف نبقي هذا سرًّا يا ترى؟».

بدا وقع الأمر غريبًا على زابينه، فيبدو أن الأشخاص الذين يبيعون المعلومات للصحافة ليسوا في ميونخ فقط.

سار شنايدر نحو المدخل وهو يقول: «فريك، أنا لا أحب التجمعات البشرية، أبقِ الكاهن والصحفيين بعيدًا عني».

تبعته زابينه وراحت تتهكم على لهجته المتغطرسة بمجرد أن أصبح فريك بعيدًا عن نطاق السمع: «أبقِ الناس بعيدًا عني!».

لم ينظر شنايدر إليها: «أنا أعمل فقط عندما أكون بمنأى عن الأشخاص الكثر، فهم يسحبون الأكسجين مني، وكذا أشعر بالصداع على متن الطائرة وفي الحافلة وداخل الاجتماعات».

كان بالتأكيد يتطلع إلى بئر المياه الضيقة أسفل الكنيسة.

قالت: «شكرًا لك على الانفتاح معي بهذه الطريقة، الآن عرفت أخيرًا سبب تقليص كل المحادثات التي تجريها إلى ثلاث جمل».

لم يرد عليها.

دخلا الكنيسة عبر بوابة صغيرة نسبيًّا، وكانت الكاتدرائية من الداخل عبارة عن قاعة واحدة ضخمة متصلة بالقبة الضخمة والبرج الذي يعلوها، من خلالهما يتسلل ضوء غروب الشمس إلى الداخل، وأخذ الناس يسيرون على مستويات عديدة تمتد إلى أعلى مثل طوابق الفنادق، ويلتقطون صورًا للكنيسة من الداخل، ارتفعت أنابيب الأرغن الفضية كأنها متوجة فوق المذبح الذهبي، برودة الحجارة المنبعثة من المبنى حملت زابينه على الارتجاف، فأمام هذا البناء العملاق بدت كاتدرائية ميونخ وكأنها كنيسة قروية لطيفة.

أشار ضابط شرطة تجاههم، وعندها أسرع في إثره قس قصير وسمين يرتدي رداء القساوسة ورأسه كالضفدع، قال: «هل أنتم السادة الذين أتوا من ميونخ؟».

حتى صوته بدا مثل نقيق الضفادع.

أومأ شنايدر برأسه وأشار لهم القس بصمت أن يتبعوه، فهمس شنايدر في نفسه: «آمل ألا يكون هذا القس قد لمس شيئًا بالأسفل بأصابعه التي تشبه النقانق هذه».

لم تعلق زابينه مرة آخر، تبعوا الرجل على الدرج متجهين إلى أسفل الكنيسة، يبدو الجو أكثر برودة هنا، ويمتد السقف المقبب المنخفض فوق عدة غرف ذات أعمدة وأقواس مصنوعة من الطوب الأصفر، برزت التوابيت الخشبية القديمة من خلال التجاويف الموجودة بالحائط، لا بد أن هذا هو القبو، تطلعت زابينه باحثة عن بئر، لكنها لم تجد.

وأوضح الرجل الكنسي: «مكان الجوقة يقع تحت المذبح مباشرة».

أجاب شنايدر: «شيء مثير للاهتمام».

بلغوا بابًا خشبيًّا مكسورًا، خلفه درج حلزوني ضيق يؤدي إلى الأسفل.

أوضح القس: «عادة ما يكون مدخل القبو القديم مغلقًا».

قال شنايدر: «هذه نفس آثار الإزميل الذي وجدناه في ميونخ»، ثم أخفض رأسه وتبع الرجل.

يناسب طول زابينه إطار الباب تمامًا، لقد صاروا على بعد طابقين تحت الأرض، ولكنك تشعر أنهما عشرون مترًا، وصلوا أخيرًا إلى القبو، هنا يمكن لأي شخص أن يحبس أسيرًا لعدة أشهر دون أن يلاحظ أحد، كانت أسلاك فنيي المباحث ملقاة على الأرض، وقد أضاءت الكشافات الساطعة القبو، كانت رائحته مثل قبو تخزين عَفِن للفطر والفواكه المتعفنة، لكن زابينه عرفت أن رائحة العفن جاءت من شيء آخر.

وبعد انحناءة في نهاية ممر ضيق استطاعوا الوصول إلى بئر مستديرة محاطة بسور حجري، لقد تعفن الهيكل الخشبي أعلاه على مر القرون، وهناك دلو على الأرض وغطاء خشبي مستدير متكئ على الحائط. كان محققو الطب الشرعي من قسم شرطة دريسدن قد أخرجوا للتو جثة امرأة من البئر باستخدام رافعة بحبل.

أشار شنايدر بلفتة مقتضبة لزابينه بألا تقترب أكثر، وشاهدا على بعد مترين كيف يضع الضباط الجثة على الأرض بجوار البئر، يتقاطر الماء من الجثة، وأنهى مصور الشرطة التقاط الصور، ثم بدأ زملاؤه في القياس، لم يسبق لزابينه أن رأت جثة محطمة بهذا الشكل المفزع، وبعد الوميض الثاني عليها، أشاحت ببصرها بعيدًا.

جلس شنايدر القرفصاء لإلقاء نظرة أفضل على المرأة الميتة، فأخرج مسجل الصوت من جيبه ووضعه على فمه وهمس في الميكروفون، في حين وقفت زابينه خلفه مباشرة وسمعت كل كلمة:

- الوجه متورم للغاية، يبدو أنه حُرق بالماء الساخن، وما تبقى منه يتطابق بلا شك مع صورة جواز سفر لوره فولمار، أما الجسمان البارزان من تجاويف العين فربما كانا مقبضَيْ ملعقتين فضيتين، كمم

القاتل فم المرأة، وربط يديها وقدميها، ومن المؤكد نوعًا ما أنه دفعها إلى البئر في لحظة كانت لا تزال فيها على قيد الحياة، يوجد التواء في أحد الكاحلين، بالإضافة إلى كسور ظاهرة في الفخذ وعظم الساق...».

أدهشها مدى بُعد وواقعية الطريقة التي يسجل بها ملاحظاته، وألقت زابينه نظرة سريعة على الجثة التي انتفخت كالبالون، ثم سرعان ما نظرت بعيدًا مرة أخرى.

- ... تورم الكعب ومقدمة القدم بشدة بسبب الماء، ربما ظلت ملقاة في هذه البئر لأكثر من أسبوعين، هناك آثار دماء على الشفاه، يبدو أنها ماتت متأثرة بجروح داخلية، وربما اختنقت بدمها، إنها ميتة منذ ستة أو سبعة أيام على الأكثر.

أنهى شنايدر التسجيل ونهض: «تبدين شاحبة».

هل كانت تلك معجزة؟ كانت معدة زابينه كحجر الرحى داخل بطنها، وجف فمها، وبدت بحاجة ماسة إلى الهواء النقي، لماذا عليها أن تتخيل ما مرت به هذه المرأة، تستلقي وحيدة ومكممة، وتموت شيئًا فشيئًا في هذه الحفرة الباردة الرطبة لعدة أيام؟ قالت بصوت متحشرج: «لا أرى شيئًا كهذا كل يوم».

- ولا أنا أيضًا.

قدم شنايدر بطاقة عمله للزملاء الذين يرتدون أقنعة الوجه والقفازات المطاطية ويفحصون الجثة، ثم قال: «من فضلكم أرسلوا لي تقرير التشريح الأولي بالفاكس في موعد أقصاه بعد غد».

ظنت زابينه أنها أخطأت السمع، لقد قال «من فضلكم» بالفعل. وبينما هما واقفان في ساحة الكاتدرائية، غاصت الشمس خلف أسطح المنازل، فأغمضت زابينه عينيها للحظة وتركت الريح تهب على شعرها ووجهها، لتستنشق الهواء المعطر بالزهور، بالطبع لم يجرف هذا النسيم رائحة الجثث

أو رائحة السراديب الكريهة من ملابسهم، ولا من ذاكرتهم بالتأكيد، لكنه ساعدهم.

وأضافت: «الحرق في الوجه والبئر وأدوات المائدة في العيون بدلًا من النظارات المفقودة.. كلما ارتكب جرائم أكثر ازدادت مبالغته في تصوير القصص».

قال شنايدر: «هذا هو الشيء المخيف في الأمر، ولكن الأكثر فظاعة... لا بد أن «بيتر ذو الرأس الأشعث» كان على علم بهذه البئر، بل جاء هنا مرة أخرى مؤخرًا».

- ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- من الذي وضع ملعقتين في تجويف عيني الجثة؟

نظر إلى أعلى الكاتدرائية، فرأى سِربًا من الطيور يحلق حول الصليب: «علينا أن نجد هذا الكارل بوني».

الجزء 3

الأربعاء 25 مايو.

«لا أستطيع جعل هذا العالم مثاليًّا، لكنني سأرممه بقدر ما أستطيع».

والاس ستيفنز

23

بينما كانت ماكينة القهوة تحضر الإسبريسو، وأخبار الصباح تبث عبر الراديو، أسرعت هيلين عبر المرج المبلل نحو صندوق البريد، لم تنم جيدًا في تلك الليلة أيضًا، نهضت أخيرًا بعد الساعة الخامسة بقليل، وتسللت إلى الطابق السفلي حتى لا توقظ فرانك، ثم أخذت حمامًا ساخنًا.

والآن تقف بجوار طريق الغابة مرتدية بدلتها الرياضية الدافئة وتنظر حولها، كانت جريسكيرشن غارقة في نوم الشفق، وقد وجدت صحيفة الصباح موجودة بالفعل في صندوق الصحف، فأرخت كتفيها بارتياح، ليس ثمة علب أخرى، ولا أصابع مقطوعة مجددًا، وفي غضون ساعات قليلة سيتضح إذا ما كانت آنا لينر ستنجو من لعبة هذا المجنون أم لا.

قفز داستي عاليًا بحماس، فأدخلت يدها في جيب بدلتها الرياضية وأخرجت له بسكويت الكلاب: «ها أنت ذا، أيها الرجل الجشع».

ورغم تقدمه في العمر وتناوله الكثير من طعام الكلاب، ظل داستي كلبًا نحيفًا، لا يزال يطارد الفئران والأرانب باستمرار في الحقول، وفي بعض الأحيان كان يطارد قطط جارتهم في أرضها.

اتجهت هيلين نحو الفناء والصحيفة تحت ذراعها، وأخذ ندى الصباح يتساقط على طاولة الحديقة والكرسي، فأخرجت وسادة من السحارة وجلست عليها. ساد الضباب فوق الحقول، وتصاعدت أنفاسها الدافئة أمام وجهها، كانت ترتعش، لكنها الآن بحاجة إلى الهواء البارد المنعش لتحتفظ بصفاء ذهنها، كان هاتفها على الطاولة.. سوف يتصل بها عما قريب، ارتشفت قهوتها وتصفحت عناوين الصحف، لكنها سرعان ما وضعت الصحيفة جانبًا؛ لأنها لم تستطع التركيز.

في غضون ساعات قليلة سيبدأ الصخب والضجيج في بيتها عندما يظهر مقدمو خدمة الحفلات والطهاة الاستعراضيون والموسيقيون والمصورون، كيف يمكنها قضاء هذا اليوم بجانب فرانك؟ أتُظهر على وجهها خلاف ما تُبطن من سخط؟ هل توهم جميع الضيوف بأنها زوجة مخلصة وسعيدة؟ لم يكن هذا طبعها، ولم تستطع قط أن تجيد التظاهر.

تمدد داستي على العشب على بعد أمتار قليلة منها، وقبض على أوراق العشب الرطبة، فتطاير الجراد للأعلى وطار عبر المرج، وببطء ارتفعت الشمس فوق الجبال، بخلاف صوت الراديو الهادئ لم يكن من الممكن سماع أي صوت بالمنزل عبر باب الفناء المفتوح، ففرانك لا يزال ينام بسلام في السرير.

رن الهاتف بعد الساعة الثامنة بقليل، فجفلت هيلين رغم أنها كانت تترقب ذلك.

متصل غير معروف!

وفجأة شعرت بغصة في حلقها، تدحرج داستي على العشب متجاهلًا صوت الرنين.

سحبت هيلين الهاتف: «مرحبًا؟».

قال الصوت المشوه إلكترونيًّا: «صباح الخير يا دكتورة».

ليس ثمة خير في صباح كهذا...

سأل: «من اختطفت؟ ولماذا؟ لا يزال أمامك ثلاثون دقيقة لمنحي إجابة صحيحة».

- لقد اختطفت روزه.
- أكملي!
- لقد درست الطب وتعمل معالجة نفسية.
- صحيح، ولكن لماذا هي تحت سيطرتي؟

- كانت حاملًا لكنها فقدت طفلها.

- ليس هذا هو السبب.

تسارعت نبضات قلب هيلين: «كانت على علاقة بزوجي».

- لا يهمني ذلك! هل تعرفين الإجابة الصحيحة أم لا؟

تسارع نبض هيلين، ماذا يريد أن يسمع بحق الجحيم؟ ثم انفجرت قبل أن تتمكن من كبح نفسها: لماذا يجب أن أبذل قصارى جهدي من أجل روزه وهي تضاجع زوجي؟ لا يهمني ما يحدث لها!

سيطر الصمت على الطرف الآخر من الخط للحظة، ثم عاد الصوت البغيض مرة أخرى: «ستتحملين ذنب هذه المرأة إن ماتت الآن، تمامًا كما حدث آنذاك... مع الأطفال الذين أصبح موتهم عبئًا على ضميرك».

ذلك اللعين ابن الحرام!

- وداعًا يا دكتورة!

صرخت به: «انتظر!».

رفع داستي بصره بارتباك.

ابق صامتًا!

قالت له: «يمكنني معرفة السبب الحقيقي».

- أمامك ثلاثون دقيقة.

- أمهلني أربعًا وعشرين ساعة أخرى، وسأعرف كل شيء.

- لكن للعبة قواعد أخرى.

توسلت قائلة: «اثنتي عشرة ساعة».

بدا وكأنه يفكر، ثم قال: «لا يزال لدى روزه ثماني أصابع.. يمكنني تأخير وفاتها لمدة أقصاها ثماني ساعات».

شعرت هيلين بالسوء: «حسنًا».

- في كل ساعة تمر عليك، ستفقد روزه إصبعًا أخرى.

- هل هذا يعني أنك ستتصل بي كل ساعة؟

انطلقت عدة أفكار في ذهنها في وقت واحد، لم يكن أمامها خيار آخر، عليها إبلاغ بن كولر بهذه المحادثة، كان عليه التحدث إلى شبكة الاتصالات حتى يتمكنوا من وضع نظام تعقب لتتبع المكالمة.

قال الرجل: «لا، لن تسير الأمور على هذا النحو».

أوه، كم كرهت هذا الصوت المشوه.

وأمر قائلًا: «أوقفي تشغيل هاتفك فورًا بعد هذه المحادثة على أن يتم تنشيط بريدك الصوتي فورًا في كل مرة تتلقين فيها مكالمة، بمجرد معرفة الإجابة الصحيحة، ستضيفين الرسالة النصية إلى بريدك الصوتي، سأتصل بك في المرة الأولى في الساعة 10 صباحًا ثم أعاود الكرة في كل ساعة وأستمع إلى البريد الصوتي».

احتجت قائلة: «لن يكون لدي سوى ثلاثين ثانية لكتابة هذا».

- اختصري.

حدقت بشلل في شاشة الهاتف، أمامها حتى الساعة 5 مساءً، في العاشرة ستفقد آنا لينر إصبعها التالية، يجب عليها إغلاق هاتفها، لكن عليها أولًا إجراء مكالمة مهمة، كانت بحاجة إلى اليقين! لم يُسمح لها بإجراء مكالمات من الخط الأرضي في المنزل؛ لأن فرانك كان بإمكانه سماع المحادثة.

وبسرعة اتصلت برقم بن كولر، لحسن الحظ لم يحاول الخاطف اختبارها في الدقائق القليلة القادمة ليتأكد من أنها قد فعَّلت البريد الصوتي بعد الرنة العاشرة.

تحدث قائلًا: «كولر يتحدث! آه هيلين، ما الأمر؟».

الشكر للرب لأنه لا يزال في المكتب: «صباح الخير بن...».

في تلك اللحظة تدحرجت شاحنتان في الشارع وتوقفتا أمام منزلها، كُتب على جانبهما بأحرف زرقاء «الدوق لتنظيم الحفلات»، أومضت السيارة

الأولى، لكنها ظلت واقفة بتردد على طريق الغابة، وكأن السائق يتساءل عما إذا كان هذا هو العنوان الصحيح، وإذا كان ينبغي عليه أن ينعطف إلى داخل المنزل.

سأل: «هيلين؟ إذا كنت تتصلين بشأن حفل الليلة... فأنا منشغل جدًّا حاليًّا، لكنني سآتي إليك بالتأكيد».

- شكرًا، هذا لطف منك، لكني أتصل لسبب آخر.

وفي اللحظة التالية سمعت صوت إشارة خاصية الانتظار على هاتفها، فبدأ قلبها يرجف، هناك من يحاول الاتصال بها!

قفزت وركضت نحو المرج، وخلف زجاج كابينة الشاحنة الأولى رأت السائق يضع الهاتف على أذنه، نأمل أن يكون هو المتصل.

- أنا أكرر الاتصال بشأن آنا لينر.

لوحت هيلين للسائق، وقد رآها وطلبت منه أن يقود سيارته إلى داخل المنزل.

- لم نعثر عليها بعد.

بن، أنا أعلم!

أنزل السائق هاتفه، فتوقفت إشارة انتظار المكالمات.

قالت هيلين: «اعتقدت أن اسمها آنا لينر، وأنها تعمل في صيدلية، أو على الأقل هذا ما ادعته.. ولكن بالأمس اكتشفت أن اسمها آنا روزه وأنها معالجة نفسية».

تمتم بن: «هذا صحيح، لقد عرفنا ذلك مؤخرًا»، وأضاف: «صحيح أنه لا علاقة لفرقة القتل الجنائي بهذه القضية، لكن بعد حديثنا بالأمس سألت زملائي عن هذه المرأة».

توقفت الشاحنتان خلف بعضهما أمام المرأب، وأشارت هيلين إلى السائق بأن يصُفّ سيارته على مسافة أبعد قليلًا ناحية اليسار حتى تتمكن من الخروج بسيارتها التويوتا.

قفز داستي بسعادة بين السيارات، فأطلقت هيلين صافرة ليسرع كلب جاك راسل إليها، فهمست قائلة: «من الجميل أن تبقى هنا».

- أخبريني ما الذي يحدث معك بالتحديد؟

أجابت بعد قليل: «إنها تحضيرات الحفل.. ماذا تعرف عن المرأة؟».

- اسمها الحقيقي هو آنا روزه لينر، وهي مطلقة منذ عدة سنوات، ومع ذلك ظلت تمارس عملها كطبيبة نفسية بلقب عائلتها قبل الزواج منذ اثني عشر عامًا.

قاطعته هيلين: «انتظر لحظة! لقد تحتم عليها إبلاغ وزارة الصحة وجمعية العلاج النفسي بتغيير اسمها».

أجاب بن: «لم تفعل، ربما لم تغير اسم عيادتها مطلقًا لأسباب أمنية».

فكرت هيلين في لافتة عيادة العلاج النفسي التي ظهرت أمامها في شارع باخ حينما مرت به بالأمس: «هل اسمها قبل الزواج هو هارمان؟».

- أجل، آنا لينر وروزه هارمان هما نفس الشخص.

لقد علمت يا آنا لينر، أيتها العاهرة القذرة!

كانت هيلين تغلي من الغضب، لقد مثلت عليها دور مساعدة الصيدلية المسكينة والمريضة، التي تخضع للعلاج الكيميائي وتضطر إلى ارتداء شعر مستعار، وأخبرتها أنها سبق وأن زارت معالجة بالمعنى تعمل بعيادتها في الشارع نفسه، وهي تتحدث عن نفسها! يا إلهي! أدركت هيلين أخيرًا هذه المسألة المربكة.

سألها بن: «هل هناك أي شيء آخر؟ للأسف ليس لدي الكثير من الوقت، لقد اتصلت بنا الشرطة الجنائية الاتحادية في فيسبادن، وعليّ أن أتجه إلى الاجتماع في القريب العاجل».

ورغم التوتر والفوضى المحيطة بها، كانت سعيدة بسماع صوت بن حتى ولو لفترة قصيرة، صحيح أنها لم تره منذ ثلاث سنوات بل تشعر بالذنب في كل مرة يخطر ببالها، لكنه قدم لها الدعم الذي تحتاجه في هذا الموقف، فبدونه لأصابها الجنون.

قالت: «لا مشكلة، عليّ الذهاب الآن».

أغلق بن الخط وهو يقول: «أراك الليلة».

أغلقت هيلين الهاتف، في حين تقدم السائقان نحوها.

- لقد نقلنا خيمة الحفلة وشحنًّا الكثير من الأشياء الأخرى.

مدت يدها إليهما، ثم أوضحت: سنضع الخيمة هنا في المرج، باتجاه مدخل المنزل، ومسرح الفرقة سينصب في الجزء الخلفي من الخيمة، والمشاعل بين الخيمة والفناء، وسنضع الثلاجات في السقيفة بجوار المرأب، ويمكنك العثور على وصلة التيار في الكابينة، وسنرص المقاعد والكراسي وطاولات البوفيه بطول حدود المنزل بجوار شجيرات التويا.

نقر أحد السائقين على قبعته: «لا مشكلة».

لم يكن لدى هيلين الوقت الكافي للاهتمام بكل شيء، فأين يختبئ فرانك؟

- هل اصطحبت معك الألعاب النارية؟

- بالتأكيد.

- من فضلك حضرها هناك في الحقل المجاور لطريق الغابة.

لكن غطها بقماش مشمع، فأنا أريدها أن تكون مفاجأة للضيوف.

بدأ الرجال يعملون قائلين: «لا مشكلة، كما ترغبين سيدتي».

في تلك اللحظة ظهر فرانك أخيرًا في الفناء، كان يلف نفسه بروب الحمام وبدا منزعجًا قليلًا من الضوضاء، عندما رأى شاحنات التسليم، حدق بعينيه وشق طريقه عبر المرج صارخًا بالرجال: «مهلًا، لا يمكنك التوقف هنا! أنت تسد الطريق على سيارتي!».

قالت لهم هيلين: «لا بأس! فزوجي المشغول دائمًا سيبقى هنا اليوم وسيهتم بكل شيء بنفسه بشكل استثنائي».

نظر الرجال بعضهم إلى البعض واستمروا في العمل.

نظر فرانك إلى هيلين في حَيْرة وقال: «قد أضطر إلى المغادرة اليوم».

فكررت هي: «قد؟ حسنًا أما أنا فيجب أن أذهب الآن، صباح الخير بالمناسبة».

أرادت أن تمر بجانبه إلى داخل المنزل، لكن فرانك أمسك بذراعها: «لحظة واحدة! لقد دخلتُ مكتبي هذا الصباح..».

ثبتت نظرها على يد فرانك بأعين عابسة، ليسحبها بسرعة إلى الخلف.

سأل: «هل لديك تفسير لماذا هناك صدع في الأرضية الباركيه الخاصة بي؟ وما سبب اقتحام درج مكتبي؟».

أجابت: «هل لديك تفسير أين يمكنني إيجاد قميصك الأزرق الذي صنع خصوصًا لك؟ وإلى جانب ذلك فهي ليست الأرضية الباركيه الخاصة بك، إنها الأرضية الموجودة في منزلي».

شعرت هيلين بأن غضب فرانك تبدد، وبدلًا من ذلك تحولت عيناه إلى كتلتين باردتين، كان يشبه الكوبرا التي على وشك العض، **ولكن ليس معي أنا يا صديقي الصغير!**

سألها بهدوء: «هل تتجسسين عليّ؟».

- وهل هناك سبب لهذا؟

تجاهل العمال شجارهما، وفتحوا الأبواب الخلفية للشاحنات وبدأوا في إنزال القماش المشمع وأعمدة الألومنيوم.

جلس داستي يئن بين هيلين وفرانك، ويتبادل النظر بينهما، لم يفهم المسكين سبب تحطم عائلته الصغيرة.

ابتعدت هيلين دون تعليق واتجهت إلى سيارتها، التي أطلقت صافرة قصيرة، وتبعها داستي، فليس من الممكن تركه هنا بينما يقلب العمال المنزل بأكمله رأسًا على عقب، فتحت باب السيارة بالمفتاح الإلكتروني: «هيا، اصعد بالسيارة، اقفز!».

لم تكن بحاجة إلى تكرار كلامها للكلب، فلطالما أحب ركوب السيارات بقدر حبه لبسكويت الكلاب أو مطاردة القطط، وفي أثناء القيادة كان يحب إخراج أنفه من النافذة، وإغلاق عينيه وترك أذنيه ترفرف في مهب الريح.

اقترب فرانك منها ببطء: «إلى أين تذهبين؟».

خلا وجهه من أي تعبيرات، وصار صوته باردًا مثل جبل جليدي، هذا هو ما يشعر به الأشخاص الذين يستجوبهم بصفته المدعي العام.

أوضحت هيلين باقتضاب: «سأعود خلال ساعات قليلة».

- بهذه الملابس؟

ومن سينزعج منها إذا قادت سيارتها إلى فيينا مرتدية أحذية رياضية وبدلة رياضية رمادية؟ هل فرانك؟ هي لا تهتم لأمره قيد أنملة.

- على الأقل احتفظي بهاتفك في حالة احتاج العمال شيئًا منك.

ربطت حزام الأمان وقالت: «للأسف هذا غير ممكن».

- لماذا بحق الجحيم؟

زمجرت وهي تغلق باب السيارة: «لأنني أحاول إنقاذ حياة عاهرتك الصغيرة».

24

تسللت زابينه على أطراف أصابعها من غرفة النوم حتى لا توقظ بنات أختها، لقد مكثت الليل مع مونيكا مرة أخرى، وبينما كانت أختها لا تزال في الحمام، وقفت هي في المطبخ تحضر رقائق الذرة والكعك للأطفال.

كانت رحلة العودة من دريسدن إلى ميونخ الليلة الماضية بمثابة كابوس، استغرقت ست ساعات، قضت إحداها في ازدحام مروري، في حين نام شنايدر بجانبها كالطفل، مستندًا برأسه على زجاج النافذة الجانبية وتحت رأسه وضع وسادة قابلة للنفخ، لم يضع إبر الوخز في ظهر يديه، يبدو أن الاهتزاز الطفيف للسيارة كان بمثابة أرجوحة دفعته للنوم دون أثر للصداع النصفي أو الصداع العنقودي. وبعد أن أوصلته إلى فندق ميركيور، توجهت إلى منزل أختها وتسللت إلى غرفة نوم الفتيات.

في هذه اللحظة كانت كوني، الأصغر سنًّا، تتعثر في طريقها إلى المطبخ بشعر مشعث ونظرات ناعسة، وقد بدت بيجاماتها مجعدة، وكأنها ظلت تتقلب وتتدحرج طوال الليل، كانت تحمل دمية الدب في يدها، والتي بدت منهكة تمامًا مثلها، عندما رأتها كوني اتسعت عيناها: «هل نمت معنا اليوم يا خالتي بينه؟».

- نعم، لكنني أتيت في وقت متأخر الليلة الماضية، وكنت أنت غارقة في أحلامك بالفعل يا حبيبتي.

وضعت زابينه ثلاثة أكواب من الكاكاو على الطاولة، ودخلت كرستين وفيونا وجلستا على كرسييهما، ثم سألتا: «هل ستقضين اليوم معنا؟».

- أود ذلك، لكن لدي عمل.

شعرت زابينه بآلام في معدتها عندما فكرت في المكتب، لقد أرسل لها الزملاء من المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية ثلاث رسائل صوتية على هاتفها، وفي كل مرة يزداد غضبهم أكثر، ستذهب بعد الإفطار مباشرة إلى المكتب الإقليمي في شارع مالينجشتراسه، وستجيب عن سؤالهم: لماذا طلبت من دايدالوس أن يبحث عن مزيد من جرائم القتل التي حدثت في الكنائس؟

ولكن أولًا سيتلو عليها أحدهم سبط لاوي؛ لأنها لم تتصل مرة أخرى بالأمس بعد أن وصلت بسيارتها إلى المنزل من دريسدن ليلًا، ولكن بعد اكتشافها المروع للجثة في سرداب كاتدرائية دريسدن في ذلك المساء، لم تشعر بأنها تطيق سماع ضباط المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية وهم يطلقون عليها صافرات الاستهجان في أثناء قيادتها للسيارة، فمنظر القتلى ظل يلدغ ذهنها مثل القرادة، وبسبب طلب السفر المقدم من الشرطة الجنائية الاتحادية في فيسبادن صار لديها سبب معقول إلى حد ما لعدم حضورها إلى المكتب، لكن مارتن شنايدر لن يقدر على إنقاذها من الاستجواب اليوم أيضًا، لا بد من إنجاز الأمر بنفسها.

التهمت زابينه والفتيات رقائق الذرة والفطائر والميوسلي المقرمش، وبعد الانتهاء بدت الطاولة وكأنها ساحة حرب، جلست مونيكا على الطاولة مرتدية روب الحمام ومنشفة على رأسها، ثم دهنت الزبدة على شريحة من خبز بدقيق الحبة الكاملة، لا تبدو بحالة جيدة، سيكون يومًا صعبًا بالنسبة لها في المتحف، وقد قلقت زابينه على أختها، فعلى عكسها ربما كانت موني تفكر في وفاة والدتها طوال اليوم، إنها بالطبع تفكر مثلها، ولكن بطريقة مختلفة، فالتحقيقات لا تسمح لها بالاسترخاء، وهي تركز أفكارها على هدف محدد، فرغم أن شنايدر كان نذلًا متغطرسًا وتمنت أن يصيبه الطاعون بسبب بعض تعليقاته، يظل العمل معه بمثابة علاج لها.

وبما أن زابينه ليس لديها وقت، تحتم على مونيكا الاتصال بزوجها السابق اليوم، وكان لا يزال يعمل محاميًا لوالدها، فلو توافر بعض الحظ سيطلق سراح الأب من الحجز اليوم.

سألت كرستين: «ماذا ستفعلين الآن؟».

السير إلى كانوسا[1].. أطلق هاتف زابينه صافرة، إنها رسالة نصية ما لبست أن مسحت نصها بسرعة.

- يجب أن أعترف ببعض الأمور لزملائي ورؤسائي...

«لقد رتبت لك موعدًا للذهاب في تحقيقات للشرطة الجنائية الاتحادية اليوم، وستنطلق الرحلة إلى فيينا الساعة 9.30 صباحًا، لقد حجزت لكلينا عبر الإنترنت، سأترك لك بطاقة الطائرة في مكتب معلومات طيران برلين.. احضري عند البوابة في الوقت المحدد -

م.س.ش».

تمتمت وهي تقرأ النص مرة أخرى: «هذا غير ممكن».

أسندت كوني رأسها على يديها ونظرت عبر الطاولة بعيون ناعسة، ثم سألت على طريقة الكبار: «ماذا حدث مرة أخرى؟».

انحنت فيونا الكبرى على الطاولة لإلقاء نظرة على الشاشة، فأغلقت زابينه الهاتف وقالت: «عليّ الذهاب إلى فيينا».

ضيقت مونيكا عينيها ورمقتها بنظرات متفحصة ملؤها الارتياب، وفجأة هللت الفتيات وصرخن: «هناك مهمة مع الكلاب والمروحيات والسترات الواقية من الرصاص؟».

ابتسمت زابينه وهمست: «سأذهب من أجل مهمة سرية للغاية! بأجهزة المراقبة الليلية وكاميرات التصوير الحراري.. هذا هو برنامج المهمة كاملًا».

- هل يمكننا أن نرافقك؟

---

(1) يستخدم هذا التعبير لوصف شخص يذهب إلى الاعتراف بأخطائه أمام سلطة ما.

هزت رأسها بشكل غير مؤكد: «الأمر خطير للغاية هذه المرة، كما أن معي رجل مجنون بجانبي، هو من هولندا واسمه مارتن شنايدر».

ظل فم كوني مفتوحًا.

في الحقيقة كانت زابينه بجواره فعلًا، لكن الفتيات لم يكن بحاجة إلى معرفة ذلك، وكتبت عشرات الأسئلة على وجوه الأطفال، ولكن قبل أن تتمكن أي منهن من فتح فمها، صفقت مونيكا بيديها.

- هيا انهضن! نظفن أسنانكن وارتدِين ملابسكن! سأصطحبكن إلى روضة الأطفال والمدرسة، علينا أن نغادر خلال خمس عشرة دقيقة، فالحافلة لن تنتظر!.

نهضت الفتاتان وركضتا إلى الحمام، في حين بقيت فيونا فقط على الطاولة، سألتها بجدية بعد أن اختفت شقيقتاها: «هل ستذهبين حقًّا إلى فيينا؟ هل للأمر علاقة بوفاة جدتي؟».

نظرت زابينه إلى أختها.

أوضحت مونيكا: «إنها الوحيدة التي تعلم بالأمر.. لقد سمعت مكالمة هاتفية بيني وبين والدها بالأمس عن طريق الصدفة، لكنني أخبرتها ألا تخبر أخواتها في الوقت الحالي».

أومأت زابينه برأسها: «سأكتشف سبب وفاة جدتك، والآن انطلقي إلى الحمام».

قفزت فيونا وقبلت زابينه ومشت، وأزاحت مونيكا المنشفة عن رأسها ثم فركت شعرها حتى جف: «تقفزين من مكانك بمجرد أن يصفق لك الرجل بأصابعه.. هناك بعض الأشياء التي يجب إنجازها هنا بسبب وفاة أمي».

وكأنها لا تعرف ذلك!

نظرت زابينه في الممر للتأكد من أن فيونا لا تتنصت وقالت: «شنايدر أقرب إلى قاتل والدتنا من أي شخص آخر».

أدارت مونيكا عينيها: «آه، تقولين شنايدر مرة أخرى، لقد تحدثت مع جابرييل مطولًا بالأمس عبر الهاتف، وأنا أقول لك: إن لوالدي علاقة بوفاتها».

- هذا هراء.

- تذكري ما حدث قبل عشر سنوات، والحريق الغامض في المدرسة! وكان له يد بالأمر أيضًا، وبعدها وقع الطلاق بين والدينا.

بصقت مونيكا بمرارة وأكملت: «كل ذلك بسببه، تمامًا مثل سنوات حرب الوردتين التي أضنت أمي، بالتأكيد خانها ولم يرغب في تحمل دفع النفقة».

تجنبت زابينه الجدال مع مونيكا بشأن هذا الأمر مرة أخرى، لقد كانت عنيدة جدًّا لدرجة تمنعها من إدراك أن الطلاق يكون دائمًا مسئولية الطرفين، وأن الأم هي المسؤولة بشكل أساسي عن حملة الكراهية ضد والدها، وبعد كل ما عرفته زابينه حتى الآن عليها أن تتأكد أنه لا يمكن أن يكون والدها هو القاتل، وإلا لكان عليه أن يدفع المرأة في بئر دريسدن، ويحرق المعلمة في برج الجرس في لايبتسيج، ويلقي المرأة للكلاب في كولونيا، ووالدها لا يتحلى بهذه الجرأة التي تدفعه لفعل هذه التصرفات، وذلك على عكس القاتل الحقيقي، وقد حدثها شعورها أنه سيضرب قريبًا من جديد.

ربما فعل ذلك حقًّا، وفكرت في تلك الرحلة إلى فيينا. وبعد ساعتين كانت زابينه تجلس بجوار مارتن شنايدر في درجة رجال الأعمال على متن طائرة فلاي نيكي، ومثل الأمس ارتدى سترة داكنة وصدارًا أسود ذا ياقة طويلة، وقد بدا برأسه الأصلع وكأنه حاصد الأرواح، لم ترتد زابينه ملابس متأنقة، فقد ارتدت الجينز وحذاء رياضيًّا وسترة صوفية رمادية، وفي مقصورة

الأمتعة وضعت حقيبة سفرها، التي عبأتها بسرعة بكل الضروريات من شقتها، وأيضًا خطاب الاستعجال من المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية مع الاستدعاء.

بعد الإقلاع مباشرة قُدمت لهما المشروبات، فتناولت زابينه كأسًا من عصير البرتقال، واكتفى شنايدر بكأس مضاعف من الويسكي، بشكل غريزي كانت ترجح تناوله عصير الجزر أو مشروب حليب الصويا؛ لأن الويسكي لا يبدو متناسبًا مع شغفه بالوخز بالإبر، وبوذية الزن، والماريجوانا، لكنها لم تهتم لذلك؛ إنه كبير بما يكفي وله أن يشرب ما يعتقد أنه صحيح.

انطفأت علامة ربط أحزمة الأمان، وكتب شنايدر رسالة على جهاز الآيفون الخاص به.

قاطعته زابينه: «هل حان الوقت أخيرًا لتخبرني بما سنفعله في فيينا؟».

أجاب شنايدر دون أن يرفع بصره: «بالتأكيد لن نذهب لزيارة الباندا في حديقة حيوان شونبرون».

مضحك! استندت زابينه بظهرها على مقعدها عاقدة ذراعيها، لقد أدى التغير في ضغط الهواء بالمقصورة إلى انسداد أذنيها، فوضعت سماعات الرأس، واختارت برنامجًا موسيقيًّا، وأغمضت عينيها، ربما تنجح في عدم التفكير في والديها أو «بيتر ذو الرأس الأشعث» أو زملائها من المكتب الإقليمي لبضع دقائق.

وبعد نصف ساعة أنهى شنايدر مراسلاته، وأخذ يهز زابينه حتى يوقظها، ثم نزع سماعاتها ووضعها على الرف أمامها.

هل لا يزال بكامل قواه العقلية؟

قال وكأن شيئًا لم يحدث: «لقد اكتشفت شيئًا بخصوص كارل بوني».

- أوه، كم هو جميل أن نتحدث مرة أخرى؟

انحنى للخلف وأغلق عينيه للحظة: «هيا، توقفي الآن عن هذا الهراء الأنثوي».

هراء أنثوي! أرادت أن تقول شيئًا مجددًا، لكنه بدا شاحبًا، كان العرق يتصبب على جبهته، وبشرته بلون ألواح المقصورة البيضاء، وقد أرخى ذراعيه على ذراعي المقعد، كما وجدته يضع إبرة الوخز في كلتا يديه، إن سماحهم له بالصعود إلى الطائرة بتلك الإبر يعد معجزة، فقد يقتل الطيار ويسيطر على الطائرة ويقودها إلى مبنى شاهق، ولكن لم تكن هناك حاجة للقلق بشأن ذلك.. فشنايدر لا يملك حتى رخصة قيادة.

سألته: هل تريد مسكنًا للألم؟

تحاشى ردها: «سأشعر بالتحسن بمجرد أن نهبط»، ثم أدار رأسه نحوها وأخفض صوته: ولد كارل في فيينا، والتحق برياض الأطفال هناك، ثم ذهب إلى المدرسة الابتدائية في كولونيا، والمدرسة الثانوية في لايبتسيج، وأكمل تدريبه المهني في ميكانيكا السيارات في دريسدن، كانت والدتك معلمته في كولونيا، وإلفريده نيكيتش معلمته في لايبتسيج، وخلال فترة تدريبه عاش مع العمة لوره في دريسدن.

تجمعت الأشياء معًا لحل اللغز، وبدا الأمر منطقيًّا إلى حد ما، فقالت: «ولكن ما علاقته بالمساعدة القانونية المقتولة في كولونيا؟».

- عاشت عائلة بوني بالقرب من كاتدرائية كولونيا، وقد سكنت فالتراود نيسلبرجر المنزل نفسه، كانت جارة لعائلة بوني، وقد اعتنت بالصبي أحيانًا في حالة غياب الوالدين عن المنزل.

ذكرت زابينه القتلى باقتضاب: معلمتين، وإحدى الجارات، وعمته.

تذكرت وجه الصبي الأشقر في صورة والدتها في الفصل، إذًا فقد قتلها هذا الكارل بوني.

قال شنايدر: «أستطيع أن أرى ما تفكرين فيه الآن.. لكن ما دمنا لا نعرف أي ملابسات للقصة، علينا ألا نقفز إلى الاستنتاجات».

سألت: «هل قتل معلمته في روضة الأطفال في فيينا؟».

هز شنايدر رأسه: «ليس هكذا، ولكنني تمكنت من معرفة مكان إقامته، إنه عاد للعيش في فيينا مرة أخرى منذ وفاة والده قبل أكثر من ثلاث سنوات، ووالدته كذلك، إنها تعيش بمفردها وتمتلك منزلًا صغيرًا في ضواحي المدينة».

عندما سمعت زابينه ذلك، شعرت بخدر غريب في بطنها، وقال: «يجب علينا...».

قاطعها شنايدر: «لقد رتبت لذلك بالفعل.. طلبت من شرطة فيينا وضع السيدة بوني تحت الحماية الشخصية على الفور حتى نتحدث معها».

اشتبهت زابينه في وجود خطأ ما.

- لكننا لم نتمكن من ذلك، لقد اختفت منذ شهرين.

قالت زابينه: «منذ شهرين؟ هل هناك تحريات عن كارل بوني؟».

طقطق شنايدر بأصابعه على جهاز الآيفون الخاص به: «منذ خمس عشرة دقيقة تقريبًا».

هناك شيء واحد واضح: وهو أن القتل مستمر، نهضت زابينه وفتحت مقصورة الأمتعة ثم نبشت في حقيبة سفرها.

شاهدها شنايدر بوجه أغبر وقال لها: «ماذا!.. هل ستهبطين قبلنا؟».

إنها تفضل ذلك؛ لترتاح فقط من تعليقاته الغبية.

أخرجت زابينه كتاب «بيتر ذو الرأس الأشعث» من حقيبتها وجلست: «أريد مناقشة أمر معك.. وهو تتابع جرائم القتل».

فتحت المجلد وقالت: أول ضحية لـ «بيتر ذو الرأس الأشعث» نهشتها الكلاب.. وهذه هي القصة الأولى.. قصة فريدريش الشرير، أما ضحيته الثانية فقد احترقت، وتلك هي القصة الثانية.. قصة باولين الصغيرة وأعواد الثقاب، وقد أودع ضحيته الثالثة البئر، بحسب القصة الرابعة، وهي ضحية الصياد البري. أما أمي وهي الضحية رقم أربعة، فقد غرقت في الحبر.. وتلك هي القصة الثالثة الخاصة بالصبي الأسود.

أدار شنايدر الإبرة ورجف جفنه للحظة: «لقد لاحظت ذلك بالفعل»، ثم غمغم: «فصديقنا الصغير يقتل بتسلسل مختلف عن القصص الموجودة في الكتاب».

- لكن هذا لا يناسب الشخصية السيكوباتية التي تخطط لكل شيء بدقة.

خالفها شنايدر: «بل يناسبها بالتأكيد! لكننا ما زلنا لا نقف على حقيقة كل شيء حتى الآن، فعندما نرى الصورة كاملة فقط، سنرى ما آلت إليه الأمور برمتها».

قلبت زابينه الصفحات لتفتح القصة التالية: «هذا بالضبط ما يخيفني»، ثم سرت القشعريرة بجسدها.

في القصة الخامسة يأخذ «بيتر ذو الرأس الأشعث» دور الخياط، الذي يجري بسرعة إلى الغرفة ليقطع إبهام كونراد الصغير بمقصه الكبير.

وقد وقف هناك دون الإبهامين.. فقد قُطع الاثنان.

فباستخدام أداة قطع مشابهة يمكن ارتكاب كثير من الأشياء الفظيعة.

ماذا على جدول أعماله بعد؟ مات كاسبار جوعًا، ودُفن فيدجيت فيليب حيًّا تحت جبل من الصحون، وسقط هانز جوك في الهواء من الضفة الحجرية إلى النهر، وحملت العاصفة روبرت بعيدًا، تذكرت زابينه تعليق شنايدر في جهاز التسجيل بأن معدل ذكاء القاتل فوق المتوسط. تسع قصص.. تسعة

قتلى، وحتى تلك اللحظة لم يصلا إلى نصف العدد، أو كما قال شنايدر، فهم لا يرون الصورة كاملة بعد.

تحدثت مع شنايدر عن القضية ومضى الوقت بسرعة، وفي أثناء الهبوط رن هاتف شنايدر، وقد رد على المكالمة ببرود أعصاب.

همست زابينه: «هل أنت مجنون؟ أغلق هذا الشيء!».

فلوح بيده لإسكاتها واستمر في الحديث، ثم أغلق الخط وكتب رسالة نصية، بدأ الطيار يهبط أكثر بالطائرة، وقد ربط جميع الركاب أحزمتهم منذ دقائق بالفعل، تسبب الضغط في انسداد أذنَيْ زابينه، وأخيرًا قفزت مضيفة الطيران من مقعدها وهرعت إليهما.

صرخت به: «أغلقه فورًا! غير مسموح باستخدامه إلا في حالات الطوارئ!».

تذمر شنايدر: «وهذه حالة طارئة!»، ثم انتهى من كتابة الرسالة النصية وأزاح الهاتف بعيدًا وقال: «من الأفضل لك أن تجلسي وتربطي حزام الأمان».

وفي اللحظة نفسها لمست العجلات الأرض، فتقهقرت المضيفة إلى الخلف وتمسكت بالمقصورة العلوية، والتفت شنايدر إلى زابينه وكأن شيئًا لم يحدث، ثم أوضح: «كنت أحادث شرطة فيينا.. سوف يصطحبوننا من المطار خلال ساعة، لقد أرسلت رسالة نصية إلى رجل من طرفهم، اسمه بن كولر».

25

لماذا يختطف شخص ما طبيبة نفسية ويعمل على تشويهها ثم يورط شخصا آخر؟ ظل هذا السؤال يدور بخفة الأشباح في رأس هيلين لساعات، فقد بدت لعبة الرجل المجنون وكأنه يحاول اللعب بها وروزه ضد بعضهما بعضًا، فحتى وقت قريب كانت هيلين لا تزال تعتقد أن العلاقة الوحيدة التي تربطها بهذه المرأة هي العلاقة المهنية بين المعالج والعميل، ومن خلال خيانة فرانك الزوجية تدخلت في حياة روزه، التي لعبت دورًا مزدوجًا غامضًا بصورة تفوق رغبتها.

لا بد أن خاطف روزه هارمان يكره الأطباء النفسيين، هذا أمر مؤكد، وإلا فلماذا يريد تشويه امرأة وإلقاء اللوم على المرأة الأخرى؟ في البداية خمنت هيلين أنه قد يكون أحد عملائها، وفي تلك الأثناء صارت متأكدة من أن أحد عملاء د. هارمان هو من وراء ذلك، ومن أجل معرفة الحقيقة، كان عليها اقتحام عيادة روزه هارمان.

أوقفت سيارتها في شارع باخ، حيث كانت بالأمس، ولكن ليس أمام المبنى السكني فائق الحداثة الذي عاشت فيه آنا لينر ويحتوي على مصعد زجاجي ومنطقة صحية، ولكن قبله بعدد قليل من أرقام المنازل، مباشرة أمام اللافتة التي مرت بها بالأمس والتي تشير إلى عيادة هارمان، اختفى المبنى المكون من طابق واحد على شكل كوخ بين منزلين عائليين بحديقتين أماميتين، وهو الموقع المثالي للعيادة في هذه المنطقة النبيلة، كانت هناك حديقة مقابل المبنى، ومحطة للحافلات في آخر الشارع.

أمسكت هيلين داستي من الحبل وسارت عبر الشارع، لقد درست لوحة الباب بعناية.

العلاج بالمعنى وتحليل الوجود
وفقًا لفيكتور إي. فرانكل
عيادة العلاج النفسي

دكتور. روزه هارمان
طبيبة حاصلة على شهادة مزاولة المهنة
17 شارع باخ

كانت هناك قطعة من العلكة ملتصقة فوق درجة الدكتوراه، وتمنت هيلين لو استطاعت التجول حول العيادة ودفع باب الفناء الخلفي، ستكسر الزجاج بحجر وتقتحم العيادة ببساطة؛ لقد بدت يائسة بما فيه الكفاية، لكن المبنى لم يكن يوفر لها أي وسيلة للدخول، فهناك قفل أمان بمفتاح مغناطيسي يغلق الباب الخشبي الضخم، فاستخدمت هيلين ظفرها لإزاحة السدادة المطاطية بين الباب والإطار، لكنها لم تتمكن من رؤية أي شيء، ومع ذلك كانت متأكدة من أنه ليس هناك مزلاج واحد فقط يسد الباب، بل تلتصق أربعة أو ستة مسامير أخرى بالإطار، لن تقدر على فتح هذا الباب.

سبّت وهي تنظر إلى داستي: «اللعنة! لا تقلق يا صغيري، فسيدتك لا تزال بجعبتها خطة بديلة».

كان هاتفها مغلقًا في جيب بدلتها الرياضية، لم تجرؤ على تشغيله لأن المجنون قد يتصل في أي وقت، وأخيرًا أمسكت داستي من حبله القصير وركضت معه في الشارع إلى كابينة هاتف مزدوجة صفراء اللون، كان السلك ممزقًا في أحد الهواتف بالكابينة، لكن الآخر كان يعمل.

اتصلت هيلين برقم مكتب بن كولر، أرادت أن تطلب منه إرسال زميل لفتح عيادة روزه هارمان حتى تتمكن من إلقاء نظرة على المستندات الخاصة بها، لكن موظفة الاستقبال أخبرتها أن لديه عملًا ينجزه، وعليه الذهاب إلى المطار في النهاية، ثم رد عليها البريد الصوتي بعد محاولتها الاتصال على هاتفه.

اللعنة! أجرت مكالمة ثالثة واتصلت بزميله أوليفر براندشتيتر، وأوضحت له أنها تريد إلقاء نظرة على عيادة الطبيبة المفقودة.

همس أوليفر في الهاتف: «هل جننت؟ لا أستطيع أن أفعل ذلك!».

- سأطلب من شخص آخر.

قال بتسامح: «عزيزتي هيلين، لن يساعدك أحد، فالمحاكمة لم يمر عليها سوى ثلاث سنوات فقط، لم ينس أحد ذلك، وبعد اتهاماتك للشرطة والنائب العام، لم يعد لديك أصدقاء في قسم الشرطة»، ثم خفض صوته: «وبالنسبة للكثيرين ستكون هذه فرصة عظيمة للقبض عليك في عملية غير قانونية».

- شكرًا لتذكيري بذلك!

- أريد فقط أن أنقذك من ارتكاب حماقة.

- ألا تستطيع...؟

- سأسعد بمساعدتك في أي وقت، أنت تعلمين ذلك، ولكن ليس في شيء ما زال التحقيق به جاريًا.

اللعنة!

رمت سماعة الهاتف، الوقت ينفد منها، وعليها أن تدخل هذه العيادة، أخذت أفكارها تنفد منها ببطء، ولكن لا يزال هناك خيار واحد، وهي الخطة ج، كانت لا تزال تحتفظ بحلقة مفاتيح فرانك لشقة آنا لينر، والتي حملتها معها الآن.

واصلت السير إلى المجمع السكني الحديث وأخذت المصعد الزجاجي مع داستي إلى الطابق السادس، وفي طريقها إلى شقة آنا لينر، التقت برجل ذي شعر رمادي يرتدي روب الحمام، ومن الواضح أنه يريد الذهاب إلى الساونا الموجودة في المبنى، وقد ردت على تعليقه «غير مسموح بالكلاب هنا!» بابتسامة شفقة.

وجدت في غرفة الانتظار بشقة آنا رفًّا كاملًا من المفاتيح، عُلقت عليه مفاتيح لسيارة ذكية ولمقصورة قبو، وصندوق بريد، بدت بعض المفاتيح وكأنها تخص أمتعة أو أقفال دراجات أو ستائر، وأخيرًا وجدت هيلين ما كانت تبحث عنه، مفتاحًا مغناطيسيًّا EVVA فضيًّا! وقد حفظ الرمز على أربعة أسطح مغناطيسية دائرية.

أخذت المفتاح في جيبها وغادرت المبنى السكني مع داستي، وبعد خمس عشرة دقيقة وصلت هيلين إلى عيادة الدكتورة روزه هارمان، كانت العلكة المثيرة للاشمئزاز لا تزال عالقة بلافتة الباب، ناسب المفتاح المغناطيسي القفل، وأغلقت هيلين الباب خلفها، كان داستي متحمسًا على الأقل مثلها، وقف في غرفة الانتظار وأخذ يشم السجادة والأحذية.

دفعت هيلين الستارة جانبًا ونظرت من النافذة، لم يلاحظ أحد دخولهما، كان موقف السيارات المجاور للعيادة مهجورًا، وهناك سيارة ذكية خضراء تقف بجوار حاوية نفايات الورق، إنها سيارة روزه هارمان! فقد قادتها إلى جريسكيرشن وهي تمثل أنها آنا لينر، الآن تستطيع هيلين أن تتذكر لوحة ترخيص فيينا.. من أنت بحق الجحيم؟

رأت صور روزه لأول مرة على جدران غرفة الانتظار، لقطات صحفية مؤطرة من مؤتمرات واجتماعات وجوائز عدة، بدت روزه تمامًا مثلما وصفها طبيب النساء د. راخوفسكي: طويلة، رياضية، مثيرة، في الأربعين من عمرها تقريبًا، ذات عيون خضراء وشعر أحمر كستنائي قصير ومبهج، لقد

كانت تشع ثقة بالنفس باعثة على الشعور بالحسد، لا عجب أن فرانك وجد هذه المرأة جذابة.

تبادرت إلى ذهنها كلمات طبيب أمراض النساء، عندما قال «حتى إن المرأة تبدو مثلك قليلًا»، لقد كان محقًّا، فبشكل سطحي كانت الاثنتان تبدوان من النوع نفسه من النساء، وقد بدا أن هناك تناقضًا في الأمر بطريقة ما، لكن هذه الحقيقة أعطت هيلين شعورًا بالراحة من ألمها، فإذا كان على فرانك أن يخونها، فعلى الأقل سيفعل ذلك مع امرأة جميلة وليس مع فأر رمادي مثير للشفقة، من الصعب تصديق أن هيلين قللت من شأن دور مساعدة الصيدلية البسيطة التي عاشت حياة وحيدة، فلذلك انعكاس غير حميد عليها كمعالجة نفسية تلقت تدريبها بالفعل على فهم العملاء، لكن حتى المعالجون النفسيون يسيئون الحكم أحيانًا على الناس، كما أن روزه هارمان كانت هي نفسها معالجة ذات خبرة.. ومن الواضح أنها ممثلة جيدة.

كانت هناك لقطة قريبة لروزه خلف المنصة بدت مثيرة للاهتمام بالنسبة لهيلين، أخذت تدرس ملامح وجه هذه المرأة متعددة الأوجه، كانت روزه تشع بالفصاحة والسيادة، ولكن بوجود شعر أشيب مستعار، ونظارات ذات إطار قرني، وما يكفي من بودرة الوجه ووضعية منحنية، ستبدو أكبر سنًّا وسيكون بها تشابه كبير مع آنا لينر عميلة هيلين.

بدأت شرايينها تنبض وهي تحاول تخمين قطع اللغز المفقودة، وكان الشعار الموجود على المنصة يشير إلى اجتماع لوزارة الداخلية، ربما كانت روزه تعد تقارير للمحكمة، وقد عملت مع فرانك في بعض القضايا بصفته مدعيًا عامًّا، يجب أن يكون ذلك هو سبب تعارفهما، فعلى كل التقت هيلين بفرانك أيضًا في أثناء محاكمتها، ربما كان الاثنان على علاقة غرامية منذ سنوات، وحتى لفترة أطول من زواجهما، فمن الصور لم تبدُ روزه من نوع النساء التي تفوت الفرص.

لم يكن بوسع هيلين إلا أن تشرح الأمر برمته على النحو التالي: عندما حملت روزه -سواء تعمدت ذلك أم لا- أرادت الارتباط بفرانك، فرغبت في إزاحة هيلين من طريقها، وبدأت العلاج مع منافستها متنكرة في صورة امرأة خجولة كبيرة في السن من أجل التجسس عليها، أي شخص بارع، لا بد أن يكون لديه الكثير من الأعداء، وبمرور الوقت كان هناك من يقطع إصبع آخر من روزه ساعة بعد الأخرى.

نبح الكلب.

ركعت هيلين ومسدت رقبة الكلب: «لا بأس يا صغيري، سنظل هنا لفترة أطول قليلًا، لقد بدأت تثير الاهتمام».

يؤدي الباب الأيسر إلى غرفة العلاج، وهي غرفة مشرقة بها أريكة وطاولة زجاجية ونافذة كبيرة مطلة على الحديقة، وجدت هناك مسجل صوت ومفكرة أمام الكرسي، والمنبه موجهًا نحو الاتجاه المقابل، بارع! ليجلس كل عميل جديد على الأريكة بشكل غريزي، كان مكتب روزه في الجهة المقابلة، والباب مفتوحًا.. ذكي أيضًا! بحيث يشعر كل عميل أن روزه لا تخفي عنهم أي أسرار، إن هذه المرأة بارعة.

لم تكن هيلين مهتمة بغرفة العلاج، لكن داستي فعل، ركض إلى الداخل، وقفز على الأريكة وتمدد كما لو كان يريد الاستيلاء على المقعد بأكمله، وعلى عكسه شعرت هيلين بعدم الارتياح وهي تفتش في خزانات المطبخ الصغير الغريب، أخيرًا وجدت طبقًا عميقًا، ملأته بالماء ووضعته على السجادة أمام داستي، ثم دخلت المكتب المجاور.

تمتمت وهي تنظر إلى التقويم الموجود على مكتب روزه: «هيا نعثر على خاطفك».

تصفحت التقويم وبحثت خلال الأسابيع القليلة الماضية، وفي المجمل وجدت حوالي عشرين اسمًا كان لديهم موعدًا مع روزه مؤخرًا، في هذه اللحظة لم تعرف هيلين ما الذي تبحث عنه بالضبط، لكن ذلك سيتضح في الدقائق القليلة القادمة، اكتشفت في الخزائن ملفًّا لكل اسم من هذه الأسماء، وألقت نظرة عليه، استبعدت الأطفال والعملاء الإناث منذ البداية. وسرعان ما اكتشفت النظام الذي انتهجته د. روزه هارمان لحفظ ملفاتها، كان صف الرفوف ذو المجلدات الخضراء يحتوي على حالات العملاء الذين يعانون من اضطرابات شخصية شديدة ولا أمل في شفائهم. وكما هو معروف فإن اللون الأخضر يرمز إلى الأمل، وربما كان هذا تلميحًا رمزيًّا من د. هارمان يقول: «لا تفقد الأمل أبدًا، وجرب كل شيء من أجل العملاء». أرادت هيلين إلقاء نظرة على جميع الملفات، وفتحت المجلد الأول الذي يحتوي على اضطرابات الطفولة المبكرة، حدثها شعورها أن تبحث عن رجل يتراوح عمره بين العشرين والثلاثين عامًا يعاني من صدمة في النمو ويحضر جلسات د. هارمان في الأشهر الستة الأخيرة.

تصفحت بسرعة أوراق المرفق الأخضر، كان أولف لانجه في الثانية والأربعين من عمره وقد عانى من مشاكل مع رؤسائه تتعلق بالسلطة بصفته سائق قطار، أما توماس بروبست الموثق القانوني في فيينا فكان يميل إلى إيذاء نفسه، ولم يتمكن المستشار الإداري كريستيان جارك من السيطرة على ميوله الجنسية تجاه لأطفال، إذًا فروزه تعالج هذا النوع من البشر أيضًا! لكن صوتًا داخليًّا قال لها: هؤلاء الرجال متقدمون في العمر جدًّا، وبعد عشرة عملاء آخرين اكتشفت ملفًّا لميكانيكي سيارات يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، فربطت بشكل غريزي اسمه الأخير بالكلمة الفرنسية بون، التي تعني «جيد»، لكن المقارنة لم تكن مناسبة، بل إن هناك تناقضًا إلى حد ما، فما قرأته هيلين في الملاحظات لم يكن يبدو «جيدًا» بأي حال، لم يأت كارل بوني للعلاج لدى الدكتورة هارمان طوعًا، بل حُكم عليه بالسجن لمدة

ثلاث سنوات مع إيقاف التنفيذ بتهمة حيازة الكوكايين والمطاردة والاعتداء الجسدي، لكن المحكمة حكمت له بالعلاج بدلًا من تنفيذ العقوبة، لو كان كارل يتاجر بالكوكايين أيضًا، لما حدث ذلك قط، فهذا الحكم الرحيم كان حظه اللعين، وربما سوء حظ روزه.

أغلقت هيلين الملف، كانت هناك بعض الأدلة على أن كارل بوني هو الوحش الذي اختطف روزه وشوهها، فكراهيته للنساء، وعلاجه اللاإرادي، وسلوك المطاردة الخاص به، يتناسب مع الصورة مثل قطع اللغز.. ولكن بشكل عام لم يكن ذلك أكثر من مجرد تخمين غامض، لا يكفي لكتابة الرسالة النصية في صندوق بريد الهاتف، من حيث المبدأ كان عليها أن تعترف بأنها لا تزال تجهل الكثير كسابق الأمر.

جاءها صوت شخير داستي الناعم من الغرفة المجاورة، فجلست على الأريكة بجوار الكلب وفركت رقبته في أثناء نومه، تدحرج على ظهره ومد أطرافه الأربعة.

بعد فترة وقفت ونظرت إلى غرفة العلاج، مؤلفات متخصصة عن العلاج بالمعنى، وتسجيلات لمايلز ديفيس وديوك إلينجتون، وكثير من الأقراص المضغوطة لموسيقى الجاز وروايات جيل البيت[1]، وعصر العقاقير، كانت من الطراز القديم نوعًا ما، وبدت روزه هارمان مثالًا نموذجيًّا للسبعينيات اللاتي يعشن ضد اتجاهات المجتمع الحديث، كان بإمكان هيلين أن ترى هذه المرأة لطيفة من حيث المبدأ لولا زيفها وخداعها، ففي نظرها بدت مجرد ساحرة متعطشة للعمل، مدمنة ومهووسة جنسيًّا، دمرت حياة الآخرين.

(1) هي حركة أدبية أنتجها مجموعة من الكُتّاب الأمريكيين، الذين أثرت كتاباتهم بالثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تميزوا بالبوهيمية والعفوية، ورغم ذلك بالإبداع أيضًا.

وقبل أن تغادر الغرفة لتواصل التفتيش بالمكتب، وقعت عيناها على وحدة الأدراج، وهناك رأت مظروفًا ممزقًا، لكن الرسالة مفقودة، بل بدا المتسلم مثيرًا للاهتمام، كانت الرسالة موجهة إلى القاضية بيترا لوجريتي، عرفتها هيلين، كانت زوجة فرانك السابقة، وهي مسؤولة عن جرائم الأحداث، وتحت الظرف وجدت نموذجًا قياسيًّا فارغًا للتقييم المستمر للعلاج، وعليه اسم العميل فقط: كارل بوني.. أصبحت السياقات أكثر كثافة.

وعلى الخزانة وجدت أيضًا كأس نبيذ عليه أثر أحمر شفاه وردي، شمته هيلين.. إنه أبيرول، حسنًا، وماذا فهمت من ذلك؟ أرادت روزه هارمان أن تكتب رسالة إلى المحكمة تتضمن رأي خبير أو بيان بشأن علاج كارل بوني.. أيًّا كان، لكن يبدو أن هذه الرسالة لم ترسل قط، ويبدو أن بيترا لوجريتي قد أحالت العميل إلى روزه، ربما عملت روزه مع القاضية لوجريتي من قبل والتقت بزوجها السابق فرانك من خلالها، هناك عدة خيارات، كم أنت صغير أيها العالم!

نبهت نفسها.. **انسِي فرانك الآن، كثفي تركيزك على كارل بوني! فربما ليس هو الشخص الصحيح!**

عادت هيلين إلى المكتب وفتحت ملف كارل مرة أخرى، فوجدت في ورقة التلميحات تاريخ زيارته الأخيرة: الجمعة 20 مايو، تجمد قلب هيلين، من المفترض أن تكون هذه الجلسة قد تمت قبل ثلاثة أيام من اختطاف هارمان، وفي اليوم نفسه كانت متنكرة بزي آنا لينر عندها هناك. قلّبت هيلين في ملاحظات د. روزه، لم تكن هارمان هي المعالجة الأولى التي حاولت العمل مع كارل، لكنها الأكثر نجاحًا حتى الآن، وبحسب تصريحاتها قالت د. هارمان إنها لم تهتم بمعالجة الأعراض فحسب، بل آثرت الأساليب طويلة المدى، لقد أرادت أن تنفذ إلى جوهر اضطرابات الشخصية لدى كارل وتوعيته بالأسباب الحقيقية لسلوكه، إنه طريق محفوف بالمخاطر،

وأظهرت ملاحظات هارمان المكتوبة بخط اليد أن قضية كارل بوني كانت مثيرة للاهتمام بقدر ما هي خطيرة، قد يكون هذا هو سبب وجود ملاحظة تحت عنوان الأساليب، وقد سجلت هارمان الجلسات على شريط!

شعرت هيلين أنها على الطريق الصحيح، في العادة تجرى التسجيلات فقط للجلسات الصعبة أو لتقارير المحكمة الحساسة، بعثرت جميع الأدراج والخزائن، وأخيرًا عثرت على صندوق به أشرطة لجهاز التسجيل الصوتي، اكتشفت أنهم في المجمل تسعة أشرطة تحتوي على تسجيلات للمحادثة التمهيدية والجلسات الثماني.

في الصندوق البلاستيكي نفسه وجدت هناك خمسة أشرطة أخرى مكتوب عليها بخط اليد «مناجاة كارل بوني»، اتجاه الكتابة نحو اليمين. حدقت هيلين في الملصقات، وشعرت برجفة تسري في جسدها، إن هذا توقيع لشخص أعسر، وقد رأته بالفعل على العلب التي أرسلت إليها وبداخلها الأصابع المقطوعة، ضربت بكل التحذيرات عرض الحائط وفتحت هاتفها، الساعة الكاملة التالية لم تبدأ بعد، وسرعان ما كتبت رسالة نصية على هاتفها الشخصي لـ بن كولر «**كارل بوني هو من اختطف روزه هارمان!**».

أغلقت الهاتف مرة أخرى، بمجرد أن يقرأ بن الرسالة سيتعقب المحققون بوني، ولكن لماذا يختطف ويتعمد تشويه معالجته النفسية؟ لا يزال أمامها ما يزيد قليلًا عن ست ساعات لتقف على حقيقة الأمور، ووجدت الإجابة في أشرطة الكاسيت، هل تأخذ الملف والمسجل والأشرطة وتعود إلى المنزل؟ ستضيع بذلك وقتًا ثمينًا، كما أن فرانك لن يتركها تجلس في هدوء، وسيزعجها بتحضيرات حفله، وهذا آخر ما تحتاجه في الوقت الحالي، إنه يعادل حاجتها إلى الإصابة بالمغص المراري.

قررت هيلين البقاء، وسحبت الصندوق من الدرج وذهبت إلى غرفة العلاج، حيث كان داستي ينام بسعادة، جلست هناك على الأريكة ووضعت الشريط الأول في جهاز التسجيل.

«الثلاثاء 28 من ديسمبر، اللقاء الأول مع كارل بوني. الساعة توشك أن تدق الثالثة عصرًا، أتوقع قدومه في أي لحظة، وأتمنى أن يخيب ظني به».

لا مجال للشك! سمعت هيلين صوت عميلتها آنا لينر، وهو الصوت نفسه الذي كان يتوسل من أجل إنقاذ حياتها عبر الهاتف الخاص بخاطفها.

26

ظلت زابينه تراقب صالة الوصول في مطار فيينا وهي تتناول الإسبريسو والكرواسون في أثناء جلوسها بالكافيتريا، كانت البوابة تنفتح تلقائيًّا بشكل مستمر ويتدفق الناس منها نحو التفتيش الجمركي، فمنهم المسافرون الذين يحملون حقائب الظهر، والمديرون الذين يحملون حقائب اليد، والعائلات ذوات البشرة السمراء مرتدين قبعات الشمس والقمصان الملونة، وقد اصطُحب الجميع من المطار تقريبًا. كانت الكلاب هي الأكثر سعادة، تقفز لأعلى ولأسفل من فرط الإثارة، وتهز ذيولها وتحيي صاحبتها أو صاحبها بحماس.

لبث شنايدر وقتًا لينجز شيئًا ما في مكتب الجمارك، بعدئذ دخل هو أيضًا من البوابة يجر خلفه حقيبته السامسونايت الضخمة ذات اللون الأحمر الناري، لقد اكتشف فرعًا لمتجر هايتال للكتب في مبنى المطار، وأشار لزابينه برغبته في الذهاب إلى هناك، ثم انطلق مثل الجمل الذي يقتفي أثر الماء، ومن المفترض أن ينتظر قدوم بن كولر هناك.

التقطت زابينه هاتفها واتصلت بمونيكا أولًا، ثم بالدكتور جاتسي زوج أختها السابق الحبيب، وبعد ذلك حادثت رئيسها كولونوفيتش، كان على علم بالفعل برحلة العمل مع شنايدر، ولم تكن هناك أخبار جيدة بخصوص والدها، لقد أرجأ المكتب الإقليمي للتحقيقات الجنائية إخلاء سبيله من الحجز الاحتياطي حتى تحادث زابينه الضباط، ففتشت عن الخطاب السريع واتصلت بالزميل المسؤول، لكنه قاطعها لأنه أراد رؤيتها شخصيًّا في القسم، ولا سبيل لتغيير ذلك القرار، فأغلقت زابينه الخط. **أيها الأحمق الغبي!** والآن يقع عليها ذنب استمرار احتجاز والدها، الأمر الذي لم يحسن مزاجها نهائيًّا.

وبعد ساعة إلا ربع دفعت زابينه الحساب وذهبت أيضًا إلى المكتبة، فتقدم شنايدر نحوها بين صفوف الرفوف، وسحب الحقيبة الثقيلة بيد واحدة وأمسك كتابًا باليد الأخرى.

سألها: «ألا تقرئين أبدًا؟».

- ليس لدي وقت، الكتب الصوتية في أثناء القيادة هي أكثر ما يناسبني.

بعد أن اجتازا باب المخرج الدوار، وقف شاب في طريق شنايدر وهو يدفع ببطاقة هويته أمام وجهه ويقول: «مراقبة المتجر.. هل يمكنك أن تتبعني إلى المكتب؟».

توقفت نبضات قلب زابينه للحظة، فأول ما فكرت به هو أن شنايدر سرق الكتاب لكن شنايدر ظل هادئًا: «ما الأمر؟».

كرر الرجل: «من فضلك اتبعني إلى المكتب».

فلوح شنايدر بالكتاب في يده: «هل هذا ما يدور حوله الأمر؟».

- هل معك فاتورة بذلك؟

وضع شنايدر الحقيبة ببطء بجانبه، فهذه الحقيبة ذات المقبض القابل للسحب يبلغ طولها حوالي متر ونصف، وأخذت زابينه تقول في نفسها: آه يا إلهي، سرعان ما سنواجه مشهدًا محرجًا آخر مثل مشهد المضيفة على متن الطائرة، ولكن من المدهش أن شنايدر سلم الرجل الكتاب دون تعليق.

ألقت زابينه نظرة على الغلاف، السيرة الذاتية للكاتبة بريجيت شفايجر، كان هناك فاصل كتب ورقي في الثلث الأول من الكتاب، وقد طويت بعض الصفحات من الزوايا، وكان هناك ختم يحمل اسم شنايدر بالداخل، حتى إن زابينه وجدت رقم الإيداع: 398، كما رأت هناك إهداء مكتوبًا بخط اليد في الأسفل.

اعتذر المفتش وسلم الكتاب إلى شنايدر وهو يقول: «من فضلك سامحني».

أخذه دون أن يتفوه بكلمة، ووضعه في الجيب الخارجي للحقيبة، ثم واصلا السير.

سألت زابينه: «هل تقرأ السير الذاتية فقط؟».

- بشكل أساسي، لقد انتحرت شفايجر غرقًا في نهر الدانوب.

قالت زابينه: «مثل فيرجينيا وولف.. هل أنت مفتون بفكرة الانتحار؟».

- في مجال الطب النفسي طالما تحدثت شفايجر عن المسار الأقصر الذي أرادت أن تسلكه، وهي محقة في ذلك، فالانتحار موضوع رائع.

نظر شنايدر حوله، وأخيرًا أومأ برأسه نحو المخرج المؤدي إلى موقف سيارات الأجرة، حيث يقف رجل عريض المنكبين ذو شعر أشقر قصير وسترة واقية سوداء من نوع جاك ولفسكين، ويتلفت حول نفسه. فقال شنايدر: «هذا هو رجلنا، أستطيع أن أشم رائحة المحققين على بعد مائة متر».

سارا معًا نحو الأشقر.

قال شنايدر: «أفترض أنك بن كولر».

استدار الرجل وألقى نظرة تساؤل: «مارتن شنايدر؟».

صحح له: مارتن س. شنايدر، وهذه زميلتي زابينه نيميتس، نحن من الشرطة الجنائية الاتحادية في فيسبادن والشرطة الجنائية بميونخ.

قالت زابينه في ذهنها ساخرة.. زابينه ه. نيميتس.. كم يبدو ذلك غبيًّا!

تصافحا، فتفحصها كولر، واصطدمت نظراته بخصلات شعرها الفضية وثدييها للحظة، ولكنها لم تدم طويلًا جدًّا، لدرجة تشعرها بعدم الراحة. كانت زابينه تأمل بصدق أن يظل شنايدر مهذبًا، فقد عرفت من تجربتها كيف يمكن أن يتفاعل موظفو الخدمة المدنية الحساسون مع زملائهم الأجانب.. وخاصة إذا بدوا متعجرفين، وكان شنايدر يميل إلى ذلك قليلًا.

سأل كولر: «هل تريدون التوجه إلى قسم الشرطة؟».

فرد عليه شنايدر: «وماذا يفترض بنا أن نفعل هناك؟ هل ترغب في دعوتنا على قهوة بالحليب مع كيك الشوكولاتة؟ هيا من فضلك!»، ثم قلد اللهجة الفيينية وقال: «لقد أرسلت لك رسالة نصية من الطائرة حول ما يجب عليك تحضيره».

هزّ كولر كتفيه قائلًا: «البريد الصوتي الموجود على هاتفي القديم ممتلئ تمامًا لسوء الحظ، كما أن بطارية الهاتف عادة ما تكون فارغة؛ لذا عليك أن تتصل بي شئت أم أبيت».

- حسنًا، أقترح عليك أن تحرك مؤخرتك وتقودنا مباشرةً نحو شقة كارل بوني.

أخذت زابينه نفسًا عميقًا، ربما كان هذا من باب اللياقة.

أجاب كولر بهدوء: «لقد قلب الزملاء الشقة رأسًا على عقب منذ ساعتين تقريبًا».

- إذًا دعنا نفتشها مرة أخرى!

- ما السبب؟

أجاب شنايدر: «من باب التفاخر، والآن احمل حقيبتي إلى سيارتك قبل أن نضيع المزيد من الوقت».

كانت زابينه تفضل أن تنشق الأرض وتبتلعها مرة أخرى، فلو بقيت في المنزل وعرضت نفسها لاستجواب زملائها، لكان خيرًا لها من ذلك.

ظل كولر ودودًا، وقال: «بالطبع! معذرة سيدتي»، ثم أخذ حقيبة السفر من زابينه، وحملها على كتفه وسلك طريقه متجاهلًا شنايدر برحابة صدر وهو يقف بالحقيبة السامسونايت الحمراء الضخمة.

هل هذا هو سحر فيينا الشهير؟ ابتسمت زابينه بلطف، ربما كانت هنا في يد أمينة على أي حال.

وبعد حوالي مائة متر وصلا إلى سيارة كولر التي صفّت في منطقة ممنوع الانتظار بها أمام صالة الوصول، لقد وضع بطاقة الشرطة الخاصة به على رف لوحة القيادة، فميزته بصفته رئيس تحقيقات. مزق ورقة المخالفة وهو يهز رأسه، في هذه الأثناء رفع شنايدر أمتعته ووضعها داخل صندوق السيارة الأودي، فملأها بالكامل تقريبًا، ثم فتح مزالج حقيبته وخفف الضغط عن حقيبة جلدية سوداء كانت موضوعة في الأعلى، بها حافظة مسدس جلدية بنية اللون بداخلها مسدس جلوك 17 فضي لامع، بعدها خلع عنه سترته وارتدى الحافظة بكتفه ووضع به خزينة المسدس.

كادت عينا زابينه تخرج من محجريهما، فقد جن الرجل تمامًا! لقد اصطحب سلاحه معه إلى خارج البلاد.

سأله كولر بجدية وهو يحشر حقيبة سفر زابينه في صندوق السيارة: «هل سافرت بمسدس جلوك».

- دائمًا ما أفعل، فأنا أبلغ عن ذلك، ثم ينقل إلى حيث أريد بشكل آمن، وتسلمه لي الجمارك.

- أعرف هذا الإجراء.

فتح كولر باب السيارة لزابينه، فابتسمت وجلست بجوار كرسي السائق، وعلى ذلك كان على شنايدر أن يجلس في الخلف.

قال كولر: «جلوك طراز جميل من الأسلحة».

وافقه شنايدر: «هذا صحيح، رغم أنه تصميم نمساوي».

قلبت زابينه عينيها، يبدو أن هناك حبًّا من النظرة الأولى بين كولر وشنايدر، لكن النمساوي بالتأكيد لم يضع نفسه رهن إشارة شنايدر مثل زميلها زيمون. ركب الرجلان السيارة، وخرج كولر من ساحة انتظار السيارات وضغط على دواسة البنزين.

قال كولر وهو ينظر إلى شنايدر في المرآة الخلفية: «كنت قديمًا أصوب بمسدس عسكري هولندي، لكن تصميم فيلهيلمينا هو نموذج غير جدير بالثقة، فوهته كبيرة، لكنه غير دقيق ورصاصه غير قوي».

بربك يا رجل! فكرت زابينه في أن باقي الرحلة ستسير على نفس المنوال.

لم يرد شنايدر، أخرج كيس التبغ من جيبه ولف سيجارة وهو يقول: «هل تمانع إن لففت سيجارة؟».

أجاب كولر: «لا، تفضل، لكن سيزعجني تدخينك لها».

- هل ترى نفسك السامري الصالح[1]؟

نظرت زابينه من النافذة وحدقت في البرج الذي مرت به السيارة.

- أستطيع أن أشم رائحة الماريجوانا طوال الطريق.

- هل تريد أن تخبرني أنك لم تدخن الماريجوانا قط؟

قال كولر: «ليس في أثناء تأدية الخدمة، إنه يخفف سرعة الوقت ويؤخر رد الفعل».

انحنى شنايدر إلى الأمام بين المقعدين الأماميين وقال: «ومن شأنه أيضًا حجب المؤثرات البيئية، فيدفع التفاصيل الصغيرة بكل جوانبها إلى اتخاذ شكل محدد وواضح ومتضخم، وهذا الشكل كان من الممكن أن نتغاضى عنه لولا ذلك، إنه يكثف التفكير الترابطي».

علق كولر قائلًا: «قد يكون هذا مفيدًا جدًّا للأشخاص الذين لديهم بطء في الاستيعاب».

- كل شخص لديه بطء في الاستيعاب أيها الزميل، الأمر يعتمد فقط على البعد.

---

(1) السامري المقدس هو شخصية تظهر في الكتاب المقدس في إنجيل لوقا، وتدعو قصتها الناس إلى العمل من أجل خير الآخرين، وتؤكد أفعاله أهمية المحبة والتضامن، التي لا تزال رسالة مهمة للعديد من المؤمنين اليوم.

ثم تراجع شنايدر ليجلس في مقعده مرة أخرى وقال: « كما أن تلك المادة مفيدة جدًّا في أثناء الخدمة».

- وبذلك تظل مرغوبًا لدى رؤسائك بالتأكيد.

ابتسم شنايدر بتكاسل: «لم يحبني أي رئيس في الشرطة الجنائية الاتحادية قط، سأعدها مجاملة منك».

التفتت زابينه إلى الرجلين: «هل يمكننا إيقاف سيرك رياض الأطفال هذا، والتحدث مع بعضنا بطريقة جيدة؟».

فصمت الاثنان.

كان يومًا دافئًا وقد أشرقت الشمس فأنارت أفق المدينة الذي يقترب، كانوا على الطريق السريع المؤدي إلى فيينا، وقد حرك كولر النافذة الجانبية لأسفل؛ مما سمح للهواء الدافئ بالتدفق إلى داخل السيارة.

سألت زابينه: «هل عثر زملاؤك على كارل بوني؟».

- المحققون يبحثون عنه، لكن لم يعثر عليه.

مد كولر يده إلى صندوق التابلوه، وارتدى نظارة شمسية نحيلة، ثم أردف: «لم يذهب لمحل عمله منذ شهرين تقريبًا، يعمل في ورشة روبن وأولاده، إنها ورشة مشبوهة لتصليح السيارات، تتعامل مع عربات النفايات، حتى إن روبن العجوز لم يبلغ عن غياب الميكانيكي الذي يعمل معه».

سألت: «هل اختفت والدة كارل في الوقت نفسه؟».

- بعده بيومين، وربما اختبأ كلاهما.

لكن زابينه اشتبهت في شيء مختلف تمامًا.

انحنى شنايدر إلى الأمام مرة أخرى وقال: «غير ممكن، لقد اختُطفت أربع نساء من بيئة كارل بوني خلال الشهرين الماضيين، وقُتلن بعد ذلك بوقت قصير.. معلمتان وجارة وعمته، قد تكون والدته ميتة منذ شهرين ولم نجد جثتها بعد».

سأل كولر: «وماذا تقترح؟».

- أين يعيش؟
- في المنطقة الثانية، في لاساله شتراسه، منطقة قذرة، سنصل إلى هناك خلال عشرين دقيقة.

انحرف كولر بالسيارة عن الطريق السريع وسلك طريقًا مختصرًا، عندما تحول الضوء من الأصفر إلى الأحمر متجاهلًا أبواق السيارات الأخرى، وقاد السيارة نحو منعطف حاد، حتى تخبطت أمتعة شنايدر في صندوق السيارة.

قال شنايدر: دعونا نستغل الوقت، اتصل بالهاتف وأرسل عددًا من فرق البحث؛ لتفتيش سراديب الموتى في كاتدرائية القديس شتيفان وسراديب كنائس فيينا كافة بحثًا عن جثة.

نظر إليه كولر بنظرة متشككة من طرف نظارته الشمسية، ثم التقط هاتفه وهو يقول: «أتمنى أن تكون مخطئًا».

كانت المنطقة الثانية تقع بين نهر الدانوب وقناة الدانوب وتشبه الجزيرة، أطلق سكان فيينا على هذا الجزء من المدينة اسم «بلاد ما بين النهرين»، كما أوضح لهم كولر، أما المناطق الواقعة وراء نهر الدانوب فتسمى «ترانس الدانوب»، لقد بدا أن سكان فيينا لديهم حس دعابة غريب. توجه كولر نحو شارع لاساله شتراسه وأوقف السيارة في الممر الثاني، كانت مسارات الترام القديمة المهجورة مكسوة بالأعشاب الضارة التي شقت لنفسها طريقًا بين حصى الطريق، لقد عاش كارل في مبنى قديم، وقد بدا المنزل المكون من خمسة طوابق بواجهته الرمادية المتهالكة وزجاج النوافذ المحطم جزئيًّا وكأنه أثر قديم من فترة ما بعد الحرب، كانت بعض الشقق فارغة بالتأكيد، هناك مصفف شعر في زاوية المنزل ومحل لبيع الخضراوات بجواره، لا بد أن السماء أمطرت مؤخرًا في فيينا، فقد تكونت برك المياه على الرصيف، وفاحت منها رائحة تشبه فضلات الكلاب والفواكه الفاسدة، سار كولر نحو البوابات الخشبية المزدوجة المفتوحة التي تؤدي إلى قبو المنزل.

لكن شنايدر توقف وأشار دون تعليق إلى شاحنة صدئة متوقفة على بعد عشرة أمتار أمام المدخل، وقد نقش على جدارها الجانبي شعار «روبين & أولاده»، وقال: «ربما يكون كارل قد سرق السيارة»، نظر إلى سطح المنزل وقال: «بالتأكيد هو في الطابق العلوي الآن.. هيا بنا!».

ركضوا من خلال البوابة، وهناك وجدوا طريقًا يؤدي إلى الفناء الداخلي مباشرة، وعلى اليمين يشق درج حلزوني ذو درجات رخامية مائلة طريقه للأعلى.

- الشقة في الدور الأول باب رقم 9.

تبعت زابينه وشنايدر الضابط الفييني، فبحساب الطابق الأرضي والأوسط يكونون بذلك قد بلغوا ثلاثة طوابق، أنموذج فييني! أما المصعد الضخم المصنوع من الفولاذ وبه مقصورة صغيرة بباب حاجز كان خارج الخدمة بحسب توضيحات مدير العقار في لافتة منشورة.

كان قسم الطب الشرعي في فيينا قد فتح شقة كارل، التي يزينها الرقم 9 باللون الأصفر تحت عدسة العين السحرية، بناءً على أوامر شنايدر، وجدوا الختم عالقًا فوق القفل، لكنه ممزق.

فصل شنايدر اللاصق بظفر إصبعه، وهمس: «أعتقد أن زملاءك لم يعودوا لأنهم نسوا شيئًا ما؟».

هزّ كولر رأسه وأخرج مسدسه من جرابه، في هذه اللحظة ارتفع المصعد، فنظرت زابينه إلى الأعلى ورأت امرأة عجوزًا تحمل في يدها حقيبة تسوق فارغة، كان المصعد يعمل رغم وجود اللافتة على الباب.

وبينما كانت المقصورة تهتز عابرة أمامهم، سحب شنايدر سلاحه أيضًا ودفع مقبض الباب بهدوء، إنه غير مقفل! دخل شنايدر، وتبعه كولر، ثم دخلت زابينه أخيرًا.

غرقت غرفة الانتظار في الظلام، وكانت نوافذ الشقة تطل على الفناء المقفر الداخلي، أما ارتفاع الغرف فبلغ حوالي ثلاثة أمتار، وورق الحائط المنقوش عليه ورود صغيرة كان يرجع ضمنيًّا إلى الستينيات، وقد سارت بعض خطوط الكهرباء فوق الطلاء، هناك مصباح كهربائي مكشوف يتدلى من السقف في غرفة الانتظار، أرادت زابينه إشعال الضوء، لكن كولر لوح لها بالابتعاد.

تسللوا بهدوء إلى المطبخ، وبدا مفروشًا بزهد، يحتوي على موقد وطاولة بركن للجلوس، كما فاحت منه رائحة تشبه البول، وبجانب كومة من القصاصات الإسفنجية الملونة على الأرض وجدوا مصباحًا يدويًّا ومبولة سريرية، قطب شنايدر أنفه اشمئزازًا، ثم صعد فوق الحوض وضغط بإصبعه في التربة الرطبة لإناء الزهور الموجود على حافة النافذة، ثم فتح غسالة الصحون، فوجد الأطباق متسخة، لكن بالتأكيد لم يمر عليها شهران وهي بهذه الحالة، قلب كولر علبة الحليب بجوار الحوض وأشار إلى أن تاريخ انتهاء الصلاحية في شهر يونيو، لا يزال كارل بوني يعيش هنا.

ثم سمعوا ضجيجًا من الغرفة المجاورة، كان يشبه صوت نافذة تُفتح.

عبر شنايدر متجاوزًا زابينه ومتجهًا نحو الغرفة المجاورة، وتبعه كولر، ثم دوى صوت شنايدر في جميع أنحاء الغرفة: «ضع يديك خلف رأسك، وركبتيك على الأرض، ولا تتحرك!».

ركضت زابينه خلفهما، فرأت غرفة المعيشة وقد تأثثت بخزانة أدراج وأريكة وطاولة كمبيوتر عليها جهاز كمبيوتر شاشته تومض، في حين وقف أمام النافذة المفتوحة شاب طويل القامة يرتدي سروالًا أزرق اللون وحذاءً ذا مقدمة فولاذية، وقد برزت كتفاه وذراعاه تحت القميص الأبيض الملطخ بالزيت، فقدرت زابينه أن عمر الرجل يبلغ حوالي ثلاثة وعشرين عامًا. في تلك اللحظة ومضت فكرة واحدة في ذهنها: لقد قتلت أمي! أرادت الانقضاض عليه، لكن الرجل كان يحمل مسدسًا في يده، ويوجه فوهته نحو شنايدر.

قال شنايدر: «خذ الأمور ببساطة يا صديقي الصغير، نحن نريد فقط التحدث معك.. والآن ضع السلاح أرضًا!».

لم يتفاعل الرجل، وبجوار النافذة كان هناك سلم حديدي يؤدي إلى السطح.

لم يكن يريد الهروب من فوق السطح، أليس كذلك؟ أم أنه بيّت النية على الدخول إلى الشقة المجاورة عبر حافة السور العريضة؟

قال الرجل بهدوء: «سوف أرتقي هذه النافذة، وإذا أوقفني أحد، فسأطلق النار على هذه الصغيرة.. هذا قراركم الآن»، والآن صارت فوهة المسدس موجهة نحو زابينه.

جف فمها وفي الوقت نفسه تعرقت راحتا يديها، ليس في وسعه المغادرة حتى تحصل على بعض الإجابات منه! لماذا أيها اللعين قتلت أمي؟ ماذا فعلت لك؟ علمتك في المرحلة الابتدائية؟ هل كان هذا خطأها الوحيد؟

دخل كولر إلى خط النار ووقف أمام زابينا وقال: «أنت رهن الاعتقال!».

- أنتم أيها الملاعين...

أُطلقت رصاصة، فأصابت إطار الباب عند مستوى رأس زابينه، فتناثر الخشب والإسمنت على وجهها، فرفعت ذراعيها للأعلى بشكل غريزي، ثم سقطت أرضًا.

أطلق شنايدر الرصاص وأصاب كارل في كتفه اليمنى، فترنح، وانطلقت الرصاصة التالية من مسدسه فأصابت مصباح السقف، وتناثرت شظايا الزجاج والجبس على الأرض، فركض شنايدر نحو كارل، الذي ترنح للخلف وفقد توازنه، فحاول التشبث بإطار النافذة، لكن يده أفلتت في الهواء الطلق، فحاول شنايدر الإمساك ببنطاله للحظة، لكن القماش تمزق وانزلق من بين أصابعه.

ارتفعت صرخة مع صوت ارتطام عنيف، فانحنى شنايدر من النافذة: «اللعنة! لقد ارتطمت رأسه بسلة المهملات، اتصلوا بسيارة إسعاف!».

ركض شنايدر أمام زابينه مغادرًا الشقة.

ونظر كولر من النافذة، ثم اتصل بالرقم 911، وفي هذه الأثناء تبعت زابينه زميلها إلى أسفل الدرج، حتى وصلت لاهثة إلى الفناء الداخلي، بلغت مساحته بضعة أمتار مربعة فقط، وهي مساحة تكفي لعدد قليل من حاويات القمامة والدراجات وعربات الأطفال وصندوق خشبي مغطى بالحصى لفصل الشتاء.

صرخ كولر من النافذة: «هل هو حي؟».

انتزع شنايدر المسدس الصغير من يد كارل وخبأه في حزام بنطاله وقال: «نعم».

وصار كارل بوني راقدًا وحوله بركة من الدماء، استقرت رصاصة شنايدر في كتفه، لكن إصابة الرأس بدت أسوأ بكثير، أخذ الدم يتدفق من الجرح الذي أصيب به في مؤخرة رأسه لدرجة أن شنايدر خلع سترته وطواها وضغط على الجرح بها.

- إنه فاقد للوعي، تعالي إلى هنا وضعي يدك على كتفه!

ترددت زابينه، فلماذا عليها أن تساعد في إنقاذ حياة هذا اللقيط؟ من المفترض أن يفقد حياته! مثل النساء اللائي عذبهن.

- تعالي!

ارتعشت يداها، كانت تفضل إطلاق النار على هذا المسخ في مكانه هذا، لكن إذا مات كارل الآن، فلن تحصل على إجابات لأسئلتها أبدًا.

- هيا!

ركعت بجانب كارل وضغطت براحتَيْ يديها على الجرح موضع الرصاصة، فارتعشت عيون كارل تحت جفونه وكأنه يعاني من أسوأ كابوس في حياته.

لم تر الكابوس بعد، لكنني أضمن لك ذلك!

وبعد دقائق سمعت صافرات الإنذار، وسقط الضوء الأزرق على الفناء الداخلي، ثم ركض نحوهم طبيب واثنان من المسعفين حاملين نقالة عبر المبنى، وفي تلك الأثناء كان هناك عدة أشخاص يحدقون من النوافذ، لكن كولر أبقى المتفرجين تحت سيطرته.

وأوضح شنايدر للطبيب: «إنه مصاب بتهتك في مؤخرة الرأس وكسر في الورك وجرح بطلق ناري في الكتف».

أما الطبيب، وهو رجل في الخمسين من عمره وله لحية رمادية كاملة، فقد دفع شنايدر جانبًا بصورة متهورة وقال: «شكرًا، لكن هذه ليست المرة الأولى التي أفعل فيها هذا».

- بمجرد أن يعود للرجل وعيه، علينا استجوابه.

دمدم الطبيب: «بالتأكيد!»، رغم أنه بدا وهو يقولها وكأنه يقول: **اغرب عن وجهي!**

لقد حقن كارل في أعلى ذراعه، ولما رأى تهتك الرأس، تقلص وجهه، وسرعان ما لفها بضمادة الضغط، ثم رفع المسعفون كارل على النقالة، وفتحوا العجلات لينقلوه إلى سيارة الإسعاف، في حين بقيت بركة من الدماء وسترة شنايدر المتسخة على الحجارة المرصوفة بالحصى.

قال كولر للطبيب: «لقد قبض على الرجل للتو وهو خطير، سأرافقك إلى المستشفى».

وقبل أن يختفي كولر، سلمه شنايدر مسدس كارل، وقال: «إذا استيقظ فاسأله أين أخفى جثة أمه».

أخذ كولر السلاح: «الشرطة الجنائية الاتحادية بفيينا ليست بعيدة عن هنا، إنه في المنطقة التاسعة يوزيف هولاوبيك بلاتس، سنلتقي هناك خلال ساعة»، وتبع الطبيب نحو العربة الخلفية من سيارة الإسعاف، ثم انطلقت صافرة الإنذار وانطلقت السيارة مبتعدة.

لم ينطق شنايدر كلمة واحدة.

مسحت زابينه يديها الملطختين بالدماء في بنطالها الجينز: «أعتقد أن كل شيء قد تم إذًا».

- ربما بالنسبة لك؛ لأن الرجل قد قتل والدتك بصورة مؤكدة نوعًا ما.

ثم هز شنايدر رأسه: «لكن الأمور ليست على ما يرام». أشعل سيجارة ملفوفة يدويًا واستنشق الدخان وعيناه مغمضتان، علقت بقايا التبغ بشفته، فأزاحه بعيدًا.

كان الناس لا يزالون يحدقون إلى أسفل.

تسللت رائحة الماريجوانا إلى زابينه، فشعرت بالسوء.

- ما الذي لا يعجبك فيها؟

صمت شنايدر بعض الوقت، وترك الماريجوانا تعمل، وأخيرًا فتح عينيه: «أستطيع أن أبوح لك الآن بالسبب وراء وضع كارل للمسدس في متناول يده وهو جالس أمام الكمبيوتر؟ ولماذا أراد الهروب عبر نافذة شقته عندما سمع صوت اقتحام عند الباب؟».

فأجابت: «الأمر واضح! لأن رجال المباحث فتشوا شقته ووضعوا ختمًا على الباب، فاضطر إلى تمزيقه». وفكرت زابينه لماذا يفكر شنايدر بهذا التعقيد؟

قال عابسًا: «محتمل، لكن غير مرجح».

اقترحت قائلة: «دعنا نلقي نظرة على القرص الصلب لجهاز الكمبيوتر الخاص به».

هز رأسه كما لو كان اهتمامه بالكمبيوتر يعادل اهتمامه بقداس عيد العنصرة القادم للبابا، وقال: «هل لاحظت المبولة السريرية في المطبخ؟».

قالت: «لقد استخدمت مؤخرًا، فالرائحة لا تطاق».

- وبجانبها قصاصات من القماش القديم وأربطة أسلاك وقطع من الإسفنج المجزأ إلى قطع صغيرة.

لم تكن قد لاحظت أربطة الأسلاك، لكنها لاحظت باقي الأشياء.

- إذا رُبط شخص ما بماسورة أو قضبان، فعادةً ما تلف الأجزاء الحديدية بالإسفنج مسبقًا حتى لا يتمكن الشخص المربوط من إحداث أي ضجيج بعُقَل أصابعه.

سألت زابينه: «والخرق البالية تستخدم لتكميم الفم؟».

سحب شنايدر نفسًا آخر: «محتمل».

بدت الفكرة بعيدة بالنسبة لها: «هل تعتقد أنه يحتفظ بوالدته سجينة في سراديب الموتى بإحدى الكنائس القريبة؟».

هز شنايدر رأسه نافيًا: «إن المبولة السريرية تشير إلى أن ضحيته في مكان قريب جدًّا». ثم أطفأ عقب السيجارة في الأرض: «أيتها السنجابة الصغيرة، دعينا نبحث في الطابق السفلي من المنزل».

27

كان السلم الذي يؤدي إلى الطابق السفلي من المبنى القديم القابع بشارع لاساله شتراسه ضيقًا جدًّا مثل مخرج زنزانة من العصور الوسطى، ورائحته تشبه رائحة البطاطس والجزر العفنين، وقد علقت رائحة الرطوبة في الجدران مثل الطفيليات، أما خط الكهرباء فقد علق على الإسمنت، وعلى مصابيح الإضاءة كمثرية الشكل التصق الماء المتكثف الجاف الناتج عن الحوامل الصدئة، فغمرت المصابيح الممر بوهج بني محمر أمام زابينه، لقد كانت معجزة أن الفيوزات لم تتطاير من الصندوق الكهربائي القديم كالألعاب النارية.

تبعها شنايدر، وعلى بعد حوالي ثلاثة أمتار أسفل الطابق الأوسط وصلا إلى كوخ خشبي بقفل مفتوح، أحدثت مفصلات الباب صوت صرير، وخلفه وجدا ردهة ذات سقف منحنٍ من الطوب اللَّبِن تقودهما نحو الظلام.

حشر شنايدر إصبعه في البناء المتصدع، وقال: «لقد كان هذا المكان مأوى من الغارات الجوية وقت الحرب، هناك عشرات منها في روتردام، يجب أن يدرج أساس المبنى بالإضافة إلى الطابق السفلي كنصب تاريخي.. لكنني أظن أن هناك مئات من هذه المنازل في فيينا».

تذكرت زابينه فجأة رائحة الجثث المنبعثة من بئر كاتدرائية دريسدن، كل شيء بداخلها يقاوم المضي قدمًا، فهي لا ترغب في اكتشاف المزيد من الموتى. تجاوزها شنايدر وتقدم هو في الطريق، فتردد صدى قعقعة نعلَيْ حذائه بشكل مخيف عبر الجدران، وتبعته هي بتردد.

توقف شنايدر أمام باب خشبي، مقصورة القبو لشقة رقم 9، كان هناك ختم عالق على الإطار الخشبي، فمزقه وفتح الباب، ثم وصل إلى الداخل

وأشعل الضوء، ومضت لمبة قذرة بقوة خمسة وعشرين وات في السقف، كان من الصعب الحصول على ضوء أضعف، وقد تراكمت إطارات السيارات والعبوات وأنابيب العوادم ومحركات البنزين القديمة في الغرفة الضيقة.

تمتم شنايدر: «ليس هناك جدوى من ذلك».

نظرت زابينه إلى مقصورات الطابق السفلي المرقمة من 1 إلى 8، وكانت كلها أكبر من الجزء المخصص لكارل بمقدار الضعف، فلماذا يخصص للميكانيكي أصغر مساحة لوضع مخلفاته؟ كما بدت الأجزاء المرقمة من 10 إلى 16 أكبر أيضًا بمقدار الضعف، عبرت زابينه بجوار باب المستودع الضيق الذي يجاور مقصورة كارل، لا يوجد عليه رقم!

قالت: «انظر! يستطيع كارل أن يبني جدارًا فاصلًا ويضيف بابًا إضافيًا هنا».

ألصق شنايدر أذنه على الألواح: «لا يوجد شيء يمكن سماعه.. لكن هل تشمين ذلك؟».

أومأت زابينه برأسها، لقد تسللت رائحة البول النفاذة عبر شقوق الباب، ومن المؤكد أن ذلك ليس بول فئران. هز شنايدر المقبض، فقعقع قفل ثقيل. لم يكن هناك ختم على هذا الإطار، ومعنى ذلك أن المحققين لم يلقوا نظرة خلف الباب الذي لا رقم له، فعاد شنايدر خطوة إلى الخلف، وأرجع يده إلى الخلف ثم ركله، سحق الخشب، لكن الإطار لا يزال عالقًا، فركل الباب مرة أخرى، وكانت الركلة أقوى مما توقعت زابينه، من الواضح أن مطاردة القاتل حفزت الأدرينالين لديه، وفي المحاولة الثالثة تشقق الخشب وانفتح الباب.

فسقط ضوء الممر الشحيح على الغرفة، وتحسس شنايدر مفتاح الإضاءة بالداخل وأشعله، لكن رغم ضغطه على المفتاح، ظل هذا التجويف بالقبو مظلمًا. وفي هذه الأثناء كانت عيون زابينه قد اعتادت على الضوء الخافت، وفي نهاية الغرفة وجدت هناك مرتبة على الأرض وفوقها ميزت معالم إنسان،

شعرت بألم في معدتها، لكن تحتم عليها أن تتغلب على نفسها! دخلت وجلست القرفصاء أمام المرتبة، فانبعثت رائحة نتنة من خليط البراز والبول، وتحسست بأصابعها سطح المرتبة، فشعرت بساقي إنسان باردتين وعاريتين وجافتين.

همست قائلة: «يوجد هنا شخص ما».

قال شنايدر: «لا تلمسي أي شيء! يوجد مصباح يدوي في مطبخ كارل، سأعود حالًا».

همست زابينه لا إراديًا: «انتظر!»، ثم أخرجت هاتفها من جيب بنطالها الجينز وفتحت الشاشة: «أمسك هذا!».

أمسك شنايدر الهاتف، وسلط الضوء على المرتبة، كانت هناك امرأة في الأربعين من عمرها تقريبًا، ذات شعر طويل ومتشابك، وترتدي سروالًا داخليًّا ضيقًا وقميصًا داخليًّا بحمالات رفيعة. وقد اتسخ كلاهما بالعرق وغبار الفحم. لم تتحرك، وهناك شيء داخل فمها لتكميمه. سلط شنايدر الضوء على أطرافها، لقد ربط الرسغين والكاحلين معًا بربطات الأسلاك وربطهما بحوامل مظلتين خرسانيتين ثقيلتين كما اشتبه، كانت المرتكزات الحديدية ملفوفة بالإسفنج، والمرأة مستلقية على المرتبة وكأنها مطروحة فوق مخلعة[1].

فحصت زابينه وريدها بحثًا عن النبض، وكان الأمر لا يصدق: «إنها لا تزال على قيد الحياة».

سلط شنايدر الضوء على وجهها، لكن عينيها ظلتا مغلقتين، لم تظهر أي رد فعل، كان وجهها نحيلًا مثل بقية جسدها، وقد برزت عظام وجنتيها وتشققت شفتاها، بالتأكيد لم تجد ما تأكله منذ أسابيع.

---

(1) من أشهر أدوات التعذيب، ومبدؤها الأساسي هو الضغط على أطراف الشخص حتى تتفكك مفاصله وعضلاته.

سحبت زابينه الكمامة القماشية بعناية من فمها، وشعرت بوجود خرقة أخرى وراء هذه الكمامة، فمررت أطراف أصابعها داخل حلق المرأة وأخرجت القماش الموحل، كان رطبًا ويحمل رائحة القيء الحامضة، إن عدم اختناق المرأة يعد معجزة.

التفتت زابينه إلى شنايدر: «نحن بحاجة إلى سيارة إسعاف».

- احذري!

رأت زابينه بطرف عينيها رأس المرأة يتدلى نحو الأمام، ثم شعرت بلدغ، لقد غرست المرأة أسنانها في يدها بكل قوتها، فصرخت زابينه، راح الألم يسري في جسدها كأنها تُجلد، فتقدم شنايدر إلى جانبها على الفور، وأمسك برأس المرأة ثم دفع إبهامه خلف أذنها، لكن فك المرأة كان مثل الكماشة، وراحت تحفر أسنانها أعمق في لحم زابينه، فسال الدم على معصمها.

وصرخت زابينه: «افعل شيئًا!».

عزز شنايدر ضغطته، ففتحت المرأة فمها ببطء، وسحبت زابينه يدها ليسقط رأس المرأة على الفراش، وتسعل بعدها، ثم ما لبثت الأصوات أن تحولت إلى اختناق، أضاء شنايدر الشاشة على إصابة زابينه، آثار الأسنان شملت ظهر يد زابينه وراحتها، وقد تدفق الدم من الجرح.

قالت: «لا بأس».

فأضاء شنايدر وجهه بالشاشة وقال: «نحن هنا لتحريرك، أنت بأمان».

برزت عيون المرأة من وجهها الهزيل وركزت على شنايدر، ثم استدارت الحدقتان ونظرتا إلى زابينه.

قالت زابينه: «سنحضر طبيبًا ونساعدك».

مد شنايدر يده إلى جيبه الخلفي وأخرج كيسًا جلديًّا صغيرًا وفتحه على ضوء الشاشة، فرأت زابينه مجموعة من الأشياء تضم فاتحة أقفال، ومبردًا

صغيرًا، ومقص أظافر، وسكين جيب: «إنها أفضل من سكين الجيش السويسري».

- لكن لماذا اضطررت إلى كسر الباب؟

- لم أتمكن من استخدام فاتحة أقفال من قبل.

قطع رابطات الأسلاك بالمقص، فتأوهت المرأة من الألم، عندما راحت الحواف البلاستيكية تغرس في لحم مفاصلها المفتوحة.

- سنتخلص منها في الحال. ما اسمك؟

قالت المرأة وهي تئن: «أورزولا..».

- أنت تبلين حسنا يا أورزولا، أنت شجاعة، لحظة واحدة.

انتعشت عندما قطع الحبل الذي يلتف حول كاحلها.

التفت شنايدر إلى زابينه: «لا توجد إشارة هنا». أعطاها الهاتف، وقال: اصعدي إلى الأعلى، واتصلي بالإسعاف، اتصلي برقم الطوارئ الأوروبي المشترك 1-1-2، وستوجهك الشرطة للإسعاف، وعندما تنزلين مرة أخرى، اجلبي معك غطاء وزجاجة ماء.

غادرت زابينه حفرة القبو، وتركت شنايدر في الظلام.

سمعت صوته الهادئ والمتعاطف: «لا تقلقي يا أورزولا، سنساعدك حالًا، أنت بأمان، لا تنزعجي يا أورزولا.. سنفحص أي كسور في العظام أو إصابات داخلية...».

لم تكن زابينه تتوقع منه هذه النبرة، يمكنه حتى أن يكون لطيفًا عندما يريد ذلك.

خرجت إلى الفناء الداخلي، واستنشقت الهواء النقي بشراهة، وقد عاد المتفرجون الفضوليون للاختباء بشققهم مرة أخرى، اتصلت بمركز الطوارئ وطلبت طبيبًا وسيارة إسعاف لامرأة تعاني من الجفاف والهزال، وبعد أن أعطتهم اسمها وعنوانها في فيينا، أغلقت الخط.

وقفت بجوار سلة المهملات وحدقت في بركة الدماء الناجمة عن إصابات كارل بوني، وسترة شنايدر الملطخة التي لا تزال على الأرض، وعندما التقطتها، سقطت محفظته من الجيب الداخلي، وانفتح الجزء الجلدي الداخلي وتناثرت بعض بطاقات العمل. انحنت زابينه وجمعت البطاقات، لقد كانت متطابقة، واسم مارتن سومرست شنايدر يستقر عليها، سومرست؟ اسم أوسط فريد من نوعه، وتحته كتب عنوانه في فيسبادن ورقمًا متسلسلًا. فصلت زابينه البطاقات بعضها عن بعض، فوجدت أرقامًا متسلسلة مثل: 399، 400، 401، وهكذا. بدا سمك الورق رقيقًا جدًّا مقارنة ببطاقات العمل، فقلبتها ووجدت أنها ملصقات ذاتية اللصق لإثبات ملكية الكتب.

أعادت كل شيء بالمحفظة ودسته مرة أخرى داخل السترة بجوار جهاز الآيفون الخاص به، ثم ذهبت إلى شقة كارل للبحث عن غطاء وزجاجة ماء.

استغرقت سيارة الإسعاف ربع ساعة للوصول أمام المبنى القديم في شارع لاساله شتراسه، وخرج الطبيب ذو اللحية الرمادية نفسه، الذي نقل كارل بوني بالسيارة.

سأل بسخرية وهو يقترب من شنايدر: «كيف سأتمكن من الوصول إلى المرضى بدونك؟».

التزم شنايدر الصمت، لكن نظراته عبرت عن كل شيء، وبعد عشر دقائق خرج المسعفون من الطابق السفلي حاملين المرأة على نقالة مزودة بعجلات، وقد غرس الطبيب كانيولًا في ثنية ذراعها، عُلق بها محلول يتدلى من عمود.

وبينما كان المساعدون يحركون النقالة أمام زابينه متجهين إلى سيارة الإسعاف، رأت ملامح وجه المرأة شاحبة وهزيلة بشكل مخيف، منذ متى وأورزولا محبوسة في جحر الفئران هذا؟ خمسة إلى ستة أيام؟ أو حتى لفترة أطول؟

أغلقت الأبواب الخلفية لسيارة الإسعاف وتحرك شنايدر إلى جانب زابينه، وتمتم: «وضع غير معتاد، فحتى الآن كنت أجد دائمًا طبيبًا شرعيًّا يفحص الجثة عندما أصل إلى مسرح الجريمة».

تشجعت زابينه وقالت: «سوف تجتاز ذلك كله بالتأكيد».

مد شنايدر يده نحو يدها وهو ينظر إلى الجرح الناجم عن العضة: «كان على الطبيب أن يعتني بك على الفور».

- لا بأس بذلك، ماذا اكتشفت؟

ترك شنايدر يدها: «اسمها أورزولا تسيتنر، متزوجة وعمرها واحد وأربعون عامًا، إنها لا تعرف من الذي اختطفها ولا تعرف أحدًا اسمه كارل بوني».

- ماذا تعمل؟

- معلمة رياض أطفال.

لم تحتج زابينه إلى التفكير طويلًا: «لقد ارتاد كارل روضة الأطفال في فيينا، وكان عمرها آنذاك اثنين وعشرين عامًا، قد يتناسب ذلك جيدًا».

تحسس شنايدر سرواله باحثًا عن شيء.

سلمته زابينه السترة وقالت: «لقد سقطت محفظتك».

- شكرًا لك!

تسللت يده إلى الثوب الملطخ بالدماء الجافة الآن، ثم سحب التبغ وورق السجائر من الجيب الجانبي.

قالت ببساطة: «أفترض أنك لا تشتري الكتب من هايتال، بل تسرقها».

تأنى شنايدر في منتصف حركته، وفجأة ظهرت ابتسامته الشهيرة الصفراء: «وما الذي يجعلك تظنين ذلك؟».

- أنت تضع الملصق على الصفحة الأولى، وتطوي بعض الصفحات، ثم تكتب إهداءً في الكتاب، وتثنيه مرة أخرى حتى يتشقق الكعب، ثم تضع داخله واحدة من فواصل الكتب.

- أنت مجنونة.

قلدت صوته: «هناك خطأ أيها المراقب بالمتجر».

قال: «هذا الكتاب لي، لقد بدأت في قراءة هذه السيرة الذاتية منذ أسبوعين حتى الآن»، ثم كرر: «أنت مجنونة».

- أعتقد أنك أنت المجنون على الأرجح! لا تخدعني! إذا لم يكن لدي قوة ملاحظة وأستطيع أن أصل الخيوط ببعضها، لكان التحاقي بالشرطة أمرًا صعبًا، فعندما دخلت متجر الكتب في ميونخ، لم يكن معك كتاب، لكنك خرجت بواحد بالفعل، وكذلك في مطار فيينا.

لف سيجارة بهدوء، وقال: «ولماذا أضطر إلى فعل ذلك؟».

- أفترض أنك مهتم بشكل خاص بفروع هايتال، فماذا تعني الأرقام الموجودة على الملصقات؟

- ماذا؟ إنها أرقام ملصقات الملكية.

- لا أستطيع أن أصدق ذلك! هل سرقت أربعمائة كتاب بمرور الوقت؟

فصحح لها: «بل ثلاثمائة وثمانية وتسعين».

بدا الأمر وكأنه اعتراف، وبدا كأنه فخور بذلك.

- هل راتبك ضئيل للغاية لدرجة تضطرك إلى سرقة الكتب؟

- أنت لا تفهمين شيئًا.

غادر الفناء الداخلي وخرج إلى الشارع، حيث أخرج هاتف الآيفون من سترته، وقال: «أمتعتنا داخل سيارة كولر وليس لدينا مفاتيح للسيارة».

وأضافت: «ولا يمكنك التعامل مع فاتحة أقفال».

- صحيح.

نظر شنايدر للأعلى. وكانت السماء لا تزال غائمة، لم ينفذ من أشعة الشمس سوى القليل: «دعينا نذهب إلى مكتب التحقيقات الجنائية في يوزف هولاوبيك بلاتس».

أمال جهاز الآيفون، وكبر حجم خط السير الذي أظهر لهم الطريق عبر فيينا.

تبعته زابينه دون أن تتكلم لبضع دقائق، وصلا إلى شارع متقاطع واتبعا مسار الترام، فمر أمامهم ترام قديم، طار الشرر من الأسلاك العلوية، إذا رأى أبوها ذلك المنظر، لتسارعت نبضات قلبه.

سألته أخيرًا: «وحرف ز في اسمك يعني سومرست إذًا؟».

فأجاب: «لا يوجد زميل واحد يعرف معنى هذا الحرف»، لقد بدا الأمر وكأنه تهديد.

ابتسمت زابينه بسعادة: «لا تقلق، لن أخبر أحدًا بسرنا الصغير هذا.. يا سومرست».

- أطلق والدي هذا الاسم عليّ نسبة إلى ويليام سومرست موم، كان سومرست كاتبًا وعميلًا سريًّا وطبيبًا.

- ولصًّا؟

دلك صدغيه وقال: «اللعنة!».

وفي اللحظة التالية سيطر على نفسه مرة أخرى وقال: «كان والدي يدير مكتبة صغيرة في روتردام، لكن الأمور لم تسر على نحو جيد، فغادرنا هولندا قبل عام من إعادة توحيد ألمانيا، وافتتح أبي مكتبة جديدة في دويسبورغ، تخصصت في بيع دواوين الشعر وشرائط الهدايا والأدب الراقي، وقد راجت تجارتنا حتى افتتح فرع هايتال في الشارع نفسه».

- إنها ليست جريمة.

فزمجر: ليس لديك أي فكرة، فبسذاجتك الريفية البافارية لا يمكنك أن تري ما هو أبعد من حافة دلو الحليب، هايتال شركة لها هدف واحد فقط: **زيادة الأرباح!** فمجلس الإدارة يضغط على منافسه حتى يدمره، وهكذا تضيع الشركات العائلية الصغيرة هباءً، وتنتشر هايتال مثل الأخطبوط في سوق الكتب، لكنك وكتبك الصوتية لا تملكان أدنى فكرة عن ذلك.

سذاجتي البافارية! ودت لو عصرت رقبته، فأجابت بسخرية: «وأنت بأفعالك هذه تكبدهم خسائر فادحة بالطبع! أربعمائة كتاب.. أي خسارة في الإيرادات بمقدار أربعة أو خمسة آلاف يورو فقط، إنه راتب شهرين لأحد الباعة بالمتجر شامل التكاليف الإضافية، هل تعتقد فعلًا أن هذا قد يزعجهم؟».

- إنه أقرب لأن يكون راتب أربعة أشهر، كما أن الأمر يتعلق بالمبدأ، عليّ أن أفعل هذا.

- يجب أن تتلقى العلاج ضد اضطراب الوسواس القهري.

لم يُجب، ولم تتوقع زابينه خلاف ذلك.

نظرت حولها: «كان علينا أن ننعطف عند هذه الزاوية».

سحبت الآيفون من يد شنايدر، ونظرت إلى الخريطة ثم عادت إلى الحديقة التي مرا من أمامها للتو، وفي تلك اللحظة رن الجهاز وظهر اسم بن كولر على الشاشة.

هتف شنايدر خلفها: «ردي عليه».

ففتحت المكالمة.

سأل كولر: «أين أنت الآن؟».

نظرت زابينه من فوق السياج الحديدي، الذي اصطف خلفه صف من الأسيجة النباتية يزيد ارتفاعه عن مترين: «نحن نمر للتو من أمام حديقة أوجارتن».

- في بدايتها؟

ثم راحت توضح له كيف فتشا مقصورة كارل الثانية في الطابق السفلي ووجدا معلمة روضة الأطفال أورزولا تسيتنر مقيدة وتتضور جوعًا على مرتبة، وأنها الآن في طريقها إلى المستشفى.

سأل كولر: «مقصورة قبو ثانية؟».

ربما كانت الفكرة التي تدور في رأسه هي نفسها برأس زابينه.. وهي أنه كان بإمكان ضباط شرطة فيينا العثور على المرأة قبل أربع ساعات لو كانوا أكثر شمولًا في تفتيش المنزل.

وقال أخيرًا: «عمل جيد.. أورزولا تسيتنر تغيبت..»، ثم نقر على لوحة المفاتيح وأكمل: «.. منذ سبعة أيام، ليس لدي وقت للتوضيح أكثر في هذه اللحظة، اتجها إلى جسر السلام على قناة الدانوب، ستحضركما من هناك سيارة خلال عشر دقائق».

- أليس بإمكانك إرسال سيارة لتقودنا إلى القسم مباشرة ...

فقاطعها كولر قائلًا: «لن تذهبا إلى القسم، سيقودكما السائق إلى ميدان مارينبلاتس في المنطقة الأولى».

سألته وهي ترتعد في نفس اللحظة: «هل سنتجول في المدينة؟».

هل اعتادت على لهجة شنايدر الساخرة؟ يجب ألا تسمح لنفسها بالعمل مع هذا الشخص لمدة أطول، وإلا فقدت سذاجتها البافارية وأصبحت مثله.

بدا صوت كولر مكتئبًا: «ليس هناك أي جولات، ستتوجهان فقط نحو كنيسة القديسة مريم، وهي مبنى قديم في وسط المدينة عمره ثمانمائة عام»، تركها كولر ليرد على شخص آخر: «نعم، أنا قادم..»، ثم عاد إلى زابينه: «لسوء الحظ كان شنايدر على حق، لقد اكتشف ضباطنا جثة امرأة في القبو».

28

جلست هيلين على أرضية غرفة العلاج وحدقت في كتابات روزه هارمان المتحلقة حولها.

إن هذه المرأة مجنونة! ففي جلسة نشوة قصيرة جدًّا انتزعت معلومات من كارل، ونكأت الجرح بصورة هجومية جدًّا، ثم في النهاية أخرجته من الجلسة دون أن تعطيه فترة راحة، عندما فكرت في هذه المرأة عديمة الضمير، تذكرت فرانك.. الحفلة!

كانت الساعة الثانية بعد الظهر، ولا يزال يتعين عليها تنظيم الكثير من الأشياء التي لم يكن لدى فرانك أي فكرة عنها، وربما حاول الاتصال بها عشرات المرات، لكن حفلة عيد ميلاده كانت آخر ما يقلقها.

حدقت في شاشة هاتفها المطفأة، لم تكن تعرف ما يكفي للإدلاء بالإجابة الصحيحة عبر البريد الصوتي، فلماذا اختطف كارل بوني معالجته النفسية؟ لا يزال أمامها ما يقرب من ثلاث ساعات، وستجد الإجابة في الشرائط، فقبل أن تخصص وقتًا لسماع مناجاة كارل، أرادت الاستماع إلى تسجيل جلسة علاج مارس الثامنة والأخيرة، فأدخلت الشريط.

عضت هيلين على شفتها بشكل لا إرادي وكورت قبضة يدها، كانت نبرة صوت روزه الاكتئابية واضحة بلا شك، وهذه المرة بدا صوت المعالجة محتاطًا، أقرب لأن يكون خائفًا.

29

قبل شهرين

الجلسة العلاجية الثامنة.

خيم الضباب على الحقول، وتطايرت زخات الأمطار في الهواء، اختبأت الشمس خلف الغيوم، في ظهيرة أحد أيام شهر مارس الباردة، أرادت روزه أن تتوارى تحت غطائها ومعها كتاب جيد، لكن ليس كتابًا عن الحمل أو الاستعداد للولادة أو تربية الأطفال، فقد جمعت كل هذه المطبوعات في صندوق قبل شهر، وأحكمت غلقه، ثم أخفته في أبعد زاوية وأكثرها اختباء بقبو منزلها، وبعد أول مجموعة من نياشين الصليب الأحمر، سيخرج ذلك الصندوق من حياتها ويختفي نهائيًّا وإلى الأبد.. وكذلك فكرة طفلها الذي لم يولد.

لقد بلغ في رحمها ثلاثة أشهر تقريبًا، ثلاثة أشهر! ثم أصابتها التشنجات الشديدة في بطنها وأصيبت بالنزيف، لقد شعرت أنه صبي، لم يفتح عينيه بعد ليرى النور في الخارج، كان من المفترض أن تطلق عليه اسم دانيال، مثل الرائي الإنجيلي الذي نجا في جب الأسود، لكن دانيال تنفس السائل الأمنيوسي لمدة ثلاثة أشهر فقط، وإلا لأصبح سائق سيارة أجرة أو صحفيًّا أو طبيبًا، وربما تزوج، وصار يومًا ما أبًا يقرأ كتب الحمل مع امرأة سعيدة، لن تشهد ذلك أبدًا.

في اليوم التالي أخبرت والد الطفل بذلك، فأخذها بين ذراعيه بحنان، لقد كان مهتمًّا بها، لكنها اعتقدت أنها لامست شعورًا بالارتياح من جانبه، كأن هناك ثقلًا قد أُزيل عن كاهله، ربما كان مجرد سوء ظن مزمن، فعلى الأقل لم يكن وقع الخبر عليه بنفس قوته عليها، ولم يتحدثا عن ذلك مرة أخرى منذ ذلك الحين، راحت تقرأ النصوص والأدبيات الأولى لجاك كيرواك عن الصدمة والذهان وحاولت قمع أي أفكار تتعلق بالطفل.

ولكن ليس ذلك فقط ما أثار انزعاجها، فقد اكتشفت مؤخرًا أن كارل بوني يظل يتسكع بصورة متكررة بالقرب من عيادتها.. حتى في الأيام التي لم يكن لديه جلسة بها، لماذا؟ هل كان يراقبها؟ هل اكتشف سرها الصغير؟ هل استاء من موقف التنويم المغناطيسي؟ بالتأكيد فعل، كان استعداده إلى فرض نفسه على حياة الغرباء متأصلًا به مثل إبرة سامة في جسد عقرب، لا يستطيع أن يغير ذلك، فعليه أن يفرض نفسه على حياة الآخرين ليكتسب المودة بطريقة أو بأخرى. لكن لماذا؟

إذا لم تكن يقِظة معه، فقد يطاردها هي الأخرى، فإما أن تتخلى عن القضية مثل أسلافها الثلاثة، أو تنهي العلاج بنجاح، بل بسرعة! ليس فقط من باب الفضول أو الطموح كما في البداية، بل من باب الحماية الشخصية، فكلما ضيعت ساعات أكثر في تمارين لا طائل من ورائها، تغلغل في حياتها بشكل أعمق، خاصة في هذا الوقت الذي تبدو فيه ضعيفة للغاية، فقد جرها طفلها الميت إلى ركود عاطفي يزداد شيئًا فشيئًا، كان عليها أن تصل إلى نواة مشكلة كارل.. أن تشفيه، ذلك إذا كان شفاء شخص مصاب بصدمة نفسية شيئًا ممكن الحدوث في مثل هذه المهلة القصيرة، لقد خططت بالفعل لذلك في الجلسة الأخيرة، لكنها لم تواصل للنهاية.

ولكن هذه المرة ستفعل ذلك! لقد أقسمت على نفسها بذلك، فحقيقة أن كارل يظل يتسلل حول سيارتها الذكية في ساحة انتظار السيارات ليلًا، جعل تحركها حاسمًا، فخلال الدقائق الخمسين التالية ستظهر مدى شجاعتها.

اشتغل منظم الحرارة الذي ينظم درجة الحرارة في مكتبها على واحد وسبعين درجة، كان هناك صوت غرغرة في المبرد، ارتدت روزه تنورة طويلة كريمية اللون، وفوقها بلوزة وسترة، جلست على كرسيها ووضعت جهاز التسجيل على الطاولة.

قال كارل ملاحظًا: «تبدين مختلفة عن المعتاد، هل أنت على ما يرام؟».

فأجابت: «نعم، كل شيء على ما يرام».

كل شيء على ما يرام! ودت لو فاضت بالدمع بصوت عالٍ، فهي على حافة الاكتئاب.

شغلت جهاز التسجيل: «الجمعة 18 مارس الساعة 4 مساءً، الجلسة الثامنة مع كارل بوني».

توقفت قليلًا ثم قالت: «في آخر مرتين التقينا فيهما تعلمت أساليب التعامل مع عدوانك، فكيف حالك اليوم؟».

كان كارل يرتدي بنطال جينز ملطخًا بالزيت، وقميصًا مضلعًا، وسترة واقية خفيفة.

تقلص وجهه وقال: «ليس ثمة شيء مميز».

- وهل تريد التحدث عن ذلك؟

هز رأسه.

- حسنا، إذًا سأقترح أنا أن نفعل...

فقاطعها قائلًا: «قبل أن نبدأ، أود أن أعطيك شيئًا».

ثم مد يده بجيب سترته، فتسارعت نبضات قلب روزه، لقد ظلت منذ أسابيع تخشى من مثل هذه الأشياء.

وضع على الطاولة دمية صغيرة على شكل نمر مخطط، وهي تقريبًا بحجم الدب بو الذي تضعه على لوحة قيادة سيارتها، وقال: «حتى لا يشعر بو بالوحدة».

لم تمسك بالحيوان، عندها دفعه كارل بالقرب منها، دمية أطفال قطيفة تبتسم لها وتقول، **خذيني! اضغطي علي!** أرادت أن تنفجر باكية في ذلك الوقت.

- أرى أنها علامة على تقديرك لي، لكنني لن أقبل تلك الهدية.

شهق كارل غير مصدق: «لقد اشتريت هذا لك!».

فتنهدت: «تذكر الحدود التي تكلمنا عنها».

- لا يمكن إقناعك؟

هزت رأسها نافية وقالت: «ورغم ذلك كله، شكرًا على هذه اللفتة».

مال بظهره إلى الخلف، وفي تلك اللحظة بدا أكثر إرهاقًا من ذي قبل.

- قلت إنك لا تشعر بحدوث شيء مميز، فهل عادت الكوابيس تراودك مرة أخرى؟

- لا.

- ما الأفكار التي تدور في ذهنك في هذه اللحظة؟

- وماذا تعتقدين؟

- السؤال هو: ما الذي تعتقده أنت؟

فرك كارل عينيه، كانت حوافهما حمراء، كأنه لم ينم جيدًا في الأسابيع القليلة الماضية، كما أن لحيته الخفيفة الشقراء تحولت إلى لحية شعثاء.

أجاب: «أنت معالجتي، فماذا تعتقدين؟».

تنهدت: «حسنًا، أعتقد أن السؤال الذي يدور في ذهنك هو (لماذا هددت والدتك بترك الأسرة؟)».

أومأ ببطء: «لسوء الحظ لا أستطيع أن أسألها عن ذلك بعد الآن».

جلست روزه: «معذرة، ماذا؟».

- لقد أصيبت بجلطة دماغية منذ يومين.

نظرت لفترة وجيزة إلى الدمية على الطاولة، فانتابها شعور باهت بتأنيب الضمير: «أنا آسفة لذلك، كيف حالها؟».

هز كتفيه: «إنها في وحدة العناية المركزة، كل ما نعرفه في هذه اللحظة هو عدم وجود أي استجابة، وستظل مصابة بشلل نصفي، وإذا خرجت من المستشفى مرة أخرى، فستحتاج إلى رعاية تمريضية».

- يا إلهي، أنا آسفة لحدوث ذلك!

رأت روزه الألم على وجه كارل، ومع ذلك ظل شعورها يقول إن هناك خطأ ما، هل كان يكذب؟

- لماذا لم تتصل بي؟ لأجلنا الموعد إلى وقت آخر.
- وماذا سيغير ذلك؟

اعتدل في جلسته للحظة، ومدد ساقيه، وجلس على الجانب الآخر من الأريكة وكأنه يريد أن يبدأ من جديد: «أنا جاهز، ما الذي ستدهشينني به هذه المرة؟».

- هل تقصد أنني خدعتك بإدخالك في جلسة النشوة؟
- وبماذا تصفينها؟ لقد استفززتني واستخدمت التنويم المغناطيسي لسلب معلومات مني.

ورغم غضبه يحضر لها هدية، لكنها لا تستطيع قبول الدمية! من شأن ذلك أن يربك مشاعر كارل أكثر.

وصححت قائلة: «لقد كانت نشوة أو استرخاءً عميقًا، ولكن يمكنك تسميته تنويمًا مغناطيسيًّا إذا أردت ذلك، لكن الحقيقة هي أنك أنت بنفسك من وضعت النقطة المرجعية، وهو عيد ميلادك السابع».

- كنت أتذكره بوصفه يومًا جميلًا... حتى تلك اللحظة.
- لم أدمر تلك الذكرى، فهي لا تزال موجودة، لكنك قمعت التجربة التي حدثت بعد ذلك.. والآن كشف النقاب عنها.
- أود لو تختفي تلك الذكرى مرة أخرى.
- كما ظلت مختفية من قبل؟

لم يُجب.

اقترحت روزه: «ألا ينبغي لنا أن نستفيد من هذه المعلومة من خلال طرح سؤال على أنفسنا».

- لماذا هددتْ والدتي بترك الأسرة؟

هزت روزه رأسها نافية: «نحن نعرف إجابة ذلك بالفعل، لقد هددت بالهروب من والدك إذا صار ابنها ولدًا شقيًّا، أما السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا هو: لماذا خافت جدًّا من أن يصبح ابنها غير مؤدب؟».

رفع كارل ذراعيه وتركهما يسقطان بقوى خائرة: «هذا هراء! لماذا تخاف مني؟».

كانت روزه قد ذهبت إلى المجلس البلدي للهجرة، ومصلحة الأحوال المدنية والمواطنة في فيينا ذلك الصباح، وسألت عن عائلة بوني، لكنها لم تستطع الحصول على هذه البيانات في الواقع، لولا أن القاضية بيترا لوجريتي، التي يدين لها العميل كارل بوني بحياته، كانت تعرف رئيس القسم، ولعدة ساعات اعتقدت روزه أنها تعرف الإجابة عن هذا السؤال، لكن الصعوبة تتمثل في السماح لكارل بالعثور على الإجابة بنفسه.

فصححت له: «أمك لم تكن خائفة منك، بل من فكرة **الطفل السيئ**، هناك فرق».

عبس: «لا أفهم».

وكان أمامها الكثير من العمل الشاق. طوت روزه يديها وأسندت رأسها عليهما، ثم اقترحت: «دعنا ربما نناقش موضوعًا آخر، فأولًا: لقد أخبرتني خلال جلستنا التمهيدية أن اسمك هو كارل بوني وأنك الطفل الوحيد».

أومأ لها.

فسحبت نسخة من فحص طبيب كارل من المجلد، كان النموذج ممتلئًا تلقائيًّا عن طريق برنامج كمبيوتر استنادًا إلى بطاقة كارل الإلكترونية ورقم الضمان الاجتماعي. سلمته الورقة، وقالت: «ألقِ نظرة».

- أنا أعرف هذه النسخة، لقد أعطيتك الأوراق بنفسي.

فقالت: «ألقِ نظرة على معلوماتك الشخصية».

- كارل بوني، ولد في السادس من نوفمبر في فيينا، ويعيش في لاساله شتراسه....

قاطعته قائلة: «غير صحيح، ما اسمك الكامل؟ ما الذي كتب هناك؟».

أخذ نفسًا عميقًا وقال: «كارل ماريا بوني، أجل، لكن هذا ليس اسمي، الجميع ينادونني كارل».

- قد يكون هذا صحيحًا، ولكن اسمك الأوسط هو ماريا.

تخضب وجهه باللون الأحمر: «اسمعي! هذا محرج، ولا أحد يدعوني كارل ماريا».

- ليس عليك أن تشعر بالحرج حيال ذلك، فهناك مشاهير عدة لديهم هذا الاسم الأوسط، مثل كلاوس ماريا برانداور، وإريش ماريا ريمارك، وراينر ماريا ريلكه، ولكن لا تقلق، لن أدعوك به.

فقال ساخرًا: «يا إلهي، شكرًا جزيلًا لك، ثم لماذا تحومين حول هذا الموضوع؟».

- لأنه يبدو مهمًا بالنسبة لي.

لم تصادفه إلا بالأمس عندما كانت تضع المستندات في ملفه في المجلد الأخضر للقضايا الصعبة والمثيرة للاهتمام: «لماذا أعطاك والداك هذا الاسم المركب؟ هل يحمل شخص ما من عائلتك هذا الاسم؟ عرابتك أو جدتك أو أخت أبيك ربما؟».

- إن اسمها لوره، ووالدي هو عرابي.. ولا! ليس ثمة شخص يحمل هذا الاسم بعائلتي.

واقترحت: «غريب، في بعض الأحيان تحمل اسم أخت لك أو أخ كاسم مركب، لكنك قلت إنك طفل وحيد».

- نعم، لقد نشأت دون أي إخوة.

إنه يعرف!

عاد قلب روزه ينبض بشكل أسرع. **أم أنه اكتفى بفكرة غامضة عن الحقيقة وتجاهل الباقي؟** بطريقة ما كان عليها أن تكتشف مقدار ما يعرفه دون أن تشير إلى ذلك.

- ما السبب الذي ربما يكون قد دفع والديك لإطلاق اسم ماريا عليك؟

- كيف من المفترض أن أعرف ذلك؟ ربما بسبب ماري أنطوانيت، لا أعرف!

- لقد قلت إنك نشأت بدون إخوة، لكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك آخرين.

ارتفعت حرارة كارل بشكل واضح، وجذب ياقة القميص المضلع: «أريد تأجيل الجلسة إلى وقت آخر».

ردت روزه على الفور: «فكرة ممتازة، في هذه الأثناء يمكنك الذهاب إلى مجلس البلدية 35 في فيينا والسؤال عما إذا كان هناك أي شخص...».

فصاح فيها: «اللعنة على هذا الهراء، نعم! كانت هناك ماريا ذات يوم، لكنني لم أعرفها قط». مكتبة سُر مَن قرأ

- من كانت هذه؟

- ليس لدي فكرة، لقد ماتت قبل ولادتي.

في سن الخامسة، ربما لم يكن كارل يعرف هذه التفاصيل.

- هل كانت ماريا أختك؟

هز كتفيه: «محتمل، ليس لدي فكرة.. ربما، لم يتحدث أبي وأمي عن ذلك قط».

- وكيف عرفت أمر ماريا؟

فكر مليًّا وقال: «أوه! عندما كنت في العاشرة من عمري، فتشت في وحدة الأدراج الخاصة بوالدتي ووجدت صورة لها».

- كم كان عمرها في الصورة؟

- أربع أو خمس سنوات.
- هل تعرف سبب موتها؟

انتفخت وجنتاه: «كان ذلك قبل ولادتي بفترة طويلة».

قبل ولادته بسنة وثلاثة أشهر، في يوم 6 أغسطس على وجه التحديد.

قالت روزه: «أستطيع أن أتخيل موقفك، وصدقني أعلم أن موقفًا كهذا ليس من السهل استيعابه».

- ما الذي يصعب فهمه بشأن ذلك، فأنا لم أعرفها حتى.
- صحيح، ولكنها شاركتك اسمك الأوسط، وتحملت بغير رغبة منك قدرًا كبيرًا من المسؤولية تجاه فرد ميت من العائلة لم تعرفه قط.

هز رأسه وقال: «كل ذلك فوق طاقتي، ثم إنني هنا لسبب مختلف تمامًا، فما علاقة خراء هذه المدللة الغبية بي، وبمشكلة المخدرات، أو عدوانيتي، أو مطاردتي للنساء؟».

إنها مجموعة علاقات.

لقد اقتربا من الحل بالتأكيد، والآن عاد يعرقل الأمر، بدا الوضع أضخم من العادي، وقد حان الوقت لتقليل السرعة والتعامل مع المشكلة من زاوية مختلفة.

- أنت محق، إذا أردت، يمكننا أن نتحدث عن مشكلة المخدرات الخاصة بك مرة أخرى.

ارتخت كتفاه، فمقارنة بمناقشة تاريخ عائلته، بدا هذا الموضوع موضع ترحيب بالنسبة له.

سألت روزه: «ما العقاقير التي كنت تتعاطاها؟».

- أنت تعرفين ذلك! إكستاسي.

انتظرت لبعض الوقت، ولكنه لم يذكر شيئًا آخر، فقالت: «أهذا كل شيء؟».

أومأ.

- هيا يا رجل، لا يمكن الحكم عليك بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة تعاطي الإكستاسي.

- والكوكايين.

بدا ذلك أشبه بالحقيقة، فحتى الآن لم يتحدثا قط عن المخدرات القوية.

سألت: «والهيروين؟».

- أنا لا أحقن نفسي.

فأجابت: «يمكنك استنشاق الهيروين، أعتقد أنك تعرف ذلك».

تذمر قائلًا: «حسنًا، والهيروين أيضًا».

- عقار إل إس دي؟

هذه المرة هز رأسه: «لم أتطرق إلى هذه الأشياء قط».

أوضحت: «لطالما كانت سمعة عقار إل إس دي سيئة، ولكن في وقت ما استخدم في أبحاث علم النفس المعقدة».

- كفي عن المزاح؟

- في الخمسينيات من القرن الماضي تلقى مدمنو الكحول علاجهم باستخدام عقار إل إس دي.

- إذًا أفضّل أن أكون مدمنًا على الكحول.

ابتسمت بلطف: «لا عليك.. فآنذاك كان يستخدم حتى في الطب النفسي، وقد استخدمه ستانيسلاف جروف في حالات المرض الشديدة بشكل خاص، كما أظهرت نتائج للمرضى الذين عانوا من السرطان أو الصداع العنقودي».

- حسنًا، ربما، ولكن ما علاقة عقار إل إس دي بالعلاج النفسي؟

- إنه يوسع الوعي ويذلل العقبات.

ضحك بصوت عالٍ: «خمسة أكواب من الويسكي لها نفس التأثير، هل ستستخدمين عقار إل إس دي؟».

- كتجارب لأغراض بحثية.

نظرت روزه إلى رف كتبها، حيث توجد روايات لويليام بوروزه وجاك كيرواك وقالت: «ولِمَ لا؟».

- أنت تخدعينني.

كذبت: «مطلقًا».

- اللعنة، لا أستطيع أن أصدق ذلك، هل أنت ساذجة بدرجة تجعلك لا تزالين تعطين لعملائك عقار إل إس دي رغم كل شيء؟

- سأفعل إذا كان من شأن ذلك أن يساعدهم، في الحقيقة نحن نستخدم أدوية نفسية تسمى توركسين، وهي صورة مضاعفة من عقار إل إس دي.

ضاقت عيناه: «هل تمزحين معي، لا يُسمح للمعالجين النفسيين بوصف الأدوية!».

- لكن يسمح للأطباء.. وأنا درست الطب.

قضم كارل أظافره، فعض نفسه، والآن عرفت كيف تصطاده، نظرت إلى الساعة، تبقى أقل من خمس وعشرين دقيقة، غير مسموح لها بإفساد الأمر، فهذا هو الطريق الوحيد المبشر بالنجاح الذي يمكن أن تسلكه معه الآن، فليس ثمة فائدة من تكرار الاسترخاء العميق، ولا المناجاة في المنزل، أو إعادة إنشاء المسرح الداخلي بالأشكال، أو إعطاء شكل للمشاعر، كاستخدامه لشكل الحمامة البيضاء كدلالة على العدوان، لقد استنفدت أساليبها كلها تقريبًا، وقد رفضها كارل جميعًا تقريبًا، تبقي هذا الشيء، ورغم أنه لم يعد له أي علاقة بالعلاج النفسي، فقد أرادت روزه مساعدة كارل بأي ثمن.. لإبعاده عن طريقها في النهاية.

سألها: «ما هو التوركسين؟».

- في الواقع ليس من المفترض أن أتحدث معك عن هذا، خاصة وأن لديك بالفعل خبرة سابقة في تعاطي المخدرات، وهذا هو بالضبط سبب وجودك للعلاج عندي.

- هيا، يمكنني أن أبحث عنه في جوجل إذا لم تخبريني.

- حسنًا، في الأوساط المهنية نسميها حبة الحقيقة، فهو يزيل الانسدادات في الدماغ بحيث يمكنك التحدث بحرية عن أي شيء دون أن تخضع لرقابة عقلك الواعي.

اقترب: «وماذا سيفعل توركسين لي؟».

- سوف يدفعك للتنفيس عن مشاعرك المكبوتة تجاه والدتك وأختك المتوفاة.

- وبماذا سيفيد ذلك؟

- يمكنك أن تقول أي شيء دون أن تشعر بالخجل منه لاحقًا، هذه هي ميزة توركسين، ستترك كل شيء يخرج دون أن تشعر بتأنيب ضمير بعد ذلك، في بعض الأحيان يؤدي هذا إلى حدوث طفرة في العلاج.

- ولماذا لا يستخدم هذا العلاج المعجزة طوال الوقت؟

- التوركسين باهظ الثمن، فتناوله يحدث على أساس طوعي، لا يمكن إجبار أي عميل على ذلك، كما أن معظم الناس لا يعرفون حتى بوجود هذه المادة، لقد أخرجت مني الكلام رغمًا عن أنفي.

- كيف تبدو هذه الحبوب؟

اقترحت عليه: «دعنا نغير الموضوع!».

- كيف تبدو هذه الحبوب؟

- أنت مضطرب، فأنا أفضل عدم إظهارها لك، يجب أن نغير الموضوع إذا أردت، و...

- أوه، هيا.

ثم انتقل إلى حافة الأريكة: «أريني هذا الشيء المعجزة».

- حسنًا، لن تهدأ على أي حال.

نهضت روزه وفتحت خزانة الأدوية المغلقة، ثم سلمت كارل علبة من التوركسين عليها شعار أزرق.

نظر إلى العلبة، عشرة أقراص تحتوي كل منها على 300 ملج، المادة الفعالة: حمض الميثوديوكسيك، يعمل في خلال خمس دقائق، قرص واحد كحد أقصى في الأسبوع.. يمنع تناوله في حالة الحمل!

فتح العبوة وأخرج الشريط، حبوب صغيرة باللون الأزرق الفاتح، وهناك سبع حبات قد استهلكت بالفعل من الشريط.

فناداها قائلًا: «أهلًا يا دكتورة! لقد زودت الكثير من العملاء بالمخدرات».

احتجت قائلة: «التوركسين ليس مخدرًا، وفي بعض الحالات يكون مفيدًا».

فقال لها: «إن النشرة الداخلية مفقودة».

أجابت: «لا يوجد نشرة داخلية، فالتوركسين لا يمكن شراؤه من الصيدلية مثل أكياس الأعشاب المُليّنة».

أخرج كارل أحد الأقراص من الشريط.

- لا ينبغي عليك فعل ذلك!

أرادت روزه الإمساك بالعلبة، لكن كارل سحبها، فقالت: «أعد لي الأقراص على الفور!».

ابتسم كارل بمكر: «أوه، أوه، أوه... لماذا كل هذا الانفعال يا دكتورة؟ فلم أعهدك بهذا الانفعال من قبل».

أدار القرص بين أصابعه وقال: «ما تأثير هذه الحبة عليّ؟».

- لا شيء على الإطلاق، فلديك تجربة مع تعاطي أدوية أقوى من المخدرات، وعقار توركسين لا يؤثر فيك.

- أنت تكذبين!

- لا، سيكون تأثير الأمر عليك يشبه تناول مريض الصداع العنقودي لنصف حبة أسبرين لعلاج الصداع النصفي الذي يعاني منه.

- إذًا لا يمكن أن يحدث شيء...

وضع كارل القرص في فمه وابتلعه برشفة من الماء.

احتدت روزه: «اللعنة! كيف تفكر في ذلك؟ فالقرص الواحد يتكلف خمسين يورو!».

- ضعيها ضمن رسوم المحكمة الخاصة بك.

أغلقت روزه عينيها للحظة وحاولت تهدئة نفسها: «أعد لي العلبة».

فدفعها عبر الطاولة ووضعتها روزه في جيب سترتها.

طالبها: «هيا الآن، اسأليني عن أي شيء!».

حدقت به: «لماذا فعلت ذلك؟».

- لا، ما هذه الجدية!

فكررت: «لماذا فعلت ذلك؟».

- لأثبت لك أنك تكذبين وأن هذه الحبة ستؤثر عليّ، مثلما حدث مع جميع العملاء الآخرين! فأنا تعافيت من المخدرات!

- حسنا، أخبرني شيئًا عن أختك.

- لا أريد ذلك، كما أن تلك العاهرة لم تكن أختي!

- بلى، كانت كذلك، أختك البيولوجية.

- لا، لم أكن أعرفها حتى.

- هل تلوم نفسك على وفاتها؟

صاح: «ماذا؟ لقد ماتت قبل ولادتي!».

كررت روزه: «هل تلوم نفسك على وفاتها؟».

كور قبضة يده: «هراء!».

- هل لديك انطباع بأنه لو لم تمت ماريا، فربما لم تكن لتأتي أنت إلى هذه الحياة؟

بدأت الشرايين السباتية لكارل تنبض بشكل ملحوظ، وقال: «ما الذي يفترض أن تعنيه هذه التخاريف؟».

- ربما أراد والداك طفلًا واحدًا فقط آنذاك، فتحتم أن تموت ماريا لكي تولد أنت.

تقدم كارل إلى الأمام، وقال: «ليس خطئي أن هذه المدللة قد غرقت في البركة!».

ابتلع بقية الماء دفعة واحدة، وبأصابع مرتجفة وضع الكأس على الطاولة.

واصلت روزه التنفس بهدوء ولم تظهر دهشتها، ثم طرحت عمدًا السؤال التالي بهدوء: «لم تتغلب والدتك على وفاة ماريا قط، أليس كذلك؟».

قال بتهكم: «كانت ماريا الصغيرة نقية وبريئة للغاية.. هكذا يتذكرها الجميع، ولو كانت الفتاة الصغيرة لا تزال على قيد الحياة اليوم، فلربما صارت اليوم تضع الحلقان، والوشوم، وتحقن نفسها بالهيروين في فناء خلفي قذر، ولكانت تعرضت لعمليات إجهاض أكثر مما تعرضت له العمة لوره».

فكرت روزه تلقائيًّا في صورة الحمامة البيضاء، التي تعد تجسيدًا لعدوانية كارل، وقالت: «ربما كانت ماريا كائنًا مقدسًا بالنسبة لأمك، فجعلتك تحمل اسمها».

اعترض: «أنا لا أحمل اسمها! لا أحد يدعوني بذلك».

- فبصفتك كارل ماريا بوني هناك جزء من أختك يعيش داخلك.

فصرخ: «لا، اللعنة! أنا فتى! صبي لعين! أنا لست أختي! يمكنك أن تناديني بذلك ألف مرة، لكنني لا أتشارك مع تلك البقرة الغبية في شيء، حتى لو كانت أمي لا تزال تبكي عليها حتى اليوم، أنا ابنها!».

نهضت روزه وسارت خلف الأريكة، ثم وضعت يدها على كتف كارل للحظة، كانت هذه الإيماءة شيئًا خاطئًا تمامًا، لكنها لم تستطع منع نفسها في تلك اللحظة، وللحظة شعرت بأن كارل يميل رأسه ويلمس ذراعها، ربتت على كتفه لفترة وجيزة كما لو كانت تخفف من توتره، ثم جلست على كرسيها.

- اهدأ يا كارل.

نظرت إلى جهاز التسجيل وقالت: «خذ نفسًا عميقًا».

بدأ يبكي: «لا أستطيع.. لا أستطيع.. إنها تلك الحبة اللعينة!».

ناولته منديلًا: «سيختفي تأثيرها فورًا».

كان جهاز التسجيل لا يزال قيد التشغيل، وتحتم عليها التأكد من عدم سماع أي شخص من لجنة الأخلاقيات لهذا المقطع، فهي لا تريد أن ترى أيًا منهم جالسًا في عيادتها، فمن الممكن أن تختفي رخصتها بصفتها معالجة نفسية بالسرعة التي تختفي بها سحابة من الدخان بقوة الرياح.

انتظرت دقيقة حتى يعود كارل للتنفس بشكل طبيعي.

- ماريا تحدت أوامر والدتك، أليس كذلك؟

تنهد قائلًا: «لا أعرف».

وتكهنت روزه قائلة: «لقد كانت شقية، وركضت إلى البركة وغرقت.. إن الخوف الأكبر للوالدين هو فقدان طفلهما»، وهي تعرف ذلك الآن من خلال تجربتها الخاصة، ثم أردفت: «يمكن أن يصبح هذا الخوف قويًا للغاية لدرجة أنهم يفضلون حبس أطفالهم في قفص بدلًا من تعريضهم لخطر الأذى».

مسح كارل الدموع من وجهه: «أعرف ما تحاولين إخباري به، لكن والدتي لم تكن خائفة عليّ، ولكن على العكس تمامًا! لم تكن تهتم عندما يضربني والدي».

هزت روزه رأسها نافية: «كانت والدتك خائفة عليك، حتى إنها هددت بترك العائلة إذا حدث لك أي شيء، كل إنسان يتعامل مع خوفه بشكل مختلف، لقد دفعها خوفها المعجز إلى إقامة علاقات مع رجال آخرين، خوفًا من التعرض للصدمة نفسها مرة أخرى، حتى والدك لم يستطع تغيير ذلك ببدء حياة جديدة في مدينة أخرى، ولا حتى الرجال في فيينا، أو كولونيا، أو لايبتسيج، أو الرب يعلم أين هي الخطيئة في حالة والدتك، فالمشكلة كانت داخلها، لقد سافرت بها إلى كل مدينة جديدة».

- الأشياء كلها متناقضة!

- مُطْلَقًا، لم تتحمل والدتك خسارة طفل آخر، كان خوفها من ذلك عظيمًا لدرجة أنها فضلت ترك الأسرة، لكن والدك أحبها حبًّا مقدسًا..

سأل كارل بسخرية: «فراح يضربني كل يوم؟».

- حتى تظل جيدًا ولا تعصي أوامر والدتك.

في تلك اللحظة كان يقاوم بكل قواه لإدراك تلك السياقات، وسيتطلب الأمر عدة جلسات أخرى إلى أن يدرك كارل أن نوبات غضبه كانت موجهة دون وعي إلى أخته المتوفاة، التي ظل يلومها على تربية والده القاسية، كان يكره النساء.. عمته المتشددة المنافقة وأمه وخاصة أخته، وتسببت عدوانيته حتى الآن في حالتي اعتداء جسدي على شابات طاردهن، من المرجح أن ميله إلى المطاردة جاء من شوقه إلى الشعور بالحماية والاعتراف بوجوده.. إنه عزاء ضعيف عن عذاب طفولته.

قالت روزه: «أظن أن تأثير الحبوب قد تلاشى الآن، وقد انتهى وقتنا، لكنك تستطيع المكوث مدة أطول بكل سرور».

أومأ كارل برأسه وقال: «شكرًا، لكنني أعتقد أنني أستطيع القيادة»، ثم نهض وهو يقول: «لا تعطيني هذا الهراء مرة أخرى!».

قبض على الدمية، ووضعها في جيب سترته، وكأنه يريد معاقبتها بحرمانها من هذا الحب.

- حسنًا، آسفة!

فلا داعي للجدال معه حول فكرة أنه تناول تلك الحبوب دون إرادتها، فقد بدا بحاجة إلى شخص يلومه على فورة انفعالاته.. وفي هذه الحالة سرت روزه بتولي دور كبش الفداء.

اتجه كارل نحو الباب.

- سيد بوني، ليس من المفترض أن ندع الكثير من الوقت يمر على الموعد التالي.

زفر الهواء من رئتيه: «والدتي في وحدة العناية المركزة، ولا أعلم إن كان معي الكثير من الوقت في الأيام القليلة المقبلة».

فاقترحت: «أنا متفهمة.. ماذا عن الجمعة القادمة؟».

- أحتاج إلى بعض الوقت لأمي، سأتصل بك.

- حسنًا، بالطبع.

أزاحت روزه جدول المواعيد جانبًا: «ما حدث ثقيل جدًّا على أن يحدث في جلسة واحدة، فدع المعلومات تترسخ لبضعة أيام، عقلك الباطن يعمل نيابة عنك».

أومأ برأسه ووضع يده على مقبض الباب.

لم يكن كلامها كذبًا بأي حال، فوفاة أخته في بركة لوباو للاستحمام بفيينا، والتي علمت بشأنها من مجلس الهجرة والمواطنة، لم تبدُ حدثًا جديدًا بالنسبة لكارل.. لكنه ظل يكبتها حتى الآن، حتى اندلعت الأزمة في تلك اللحظة وقالها.. ربما للمرة الأولى في حياته، حتى لو لم يكن يريد أن يرى ذلك سببًا لمشاكله.

دست روزه علبة التوركسين في جيب سترتها، لقد نجحت حيلتها باستخدام الدواء الوهمي الرخيص الذي لا يحتوي على أي مكون نشط.

تمنت ألا يعرف أبدًا أنها خدعته.

30

عرَّف الرجل الذي أتى من شرطة فيينا نفسه بأنه أوليفر براندشتيتر، رفيق كولر، ثم اصطحب شنايدر وزابينه في سيارة الدورية واتجهوا نحو ميدان مارينبلاتس في وسط المدينة، وهناك توقف بجوار سيارة الطبيب الشرعي.
خرجت زابينه ونظرت إلى هوية الطب الشرعي المعلقة على الزجاج الأمامي للسيارة، وكانت دكتورة إيرينه نيسينزكي الطبيبة بمستشفى فيينا العام هي من تعتني بالجثة التي بالقبو بنفسها.

غادر شنايدر السيارة وهو يقول: «كم أكره فكرة أن ما أقوله يتحقق، إنه شيء كاللعنة».

وبينما كان براندشتيتر يحمل حقيبة الأدلة الجنائية لزملائه، سار شنايدر نحو كنيسة القديسة مريم، كان للمبنى واجهة مزخرفة باللون الرمادي، والمدخل محاط بستة أعمدة، تعلوها سقيفة مدببة الشكل بها منحوتات في كل زاوية، وفوقها نافذة رفيعة يبلغ ارتفاعها حوالي سبعة أمتار ولها قوس دائري، أما برج الكنيسة فقد ارتفع وحيدًا في السماء، وبعد واجهة الساعة لم يكن هناك سوى السقف المدبب، الذي ذكّر زابينه بقبعة الساحرة ذات الصليب.

وعلى جانبي الشارع رفرفت أشرطة الحواجز الصفراء في مهب الريح، وطوقت الشرطة المنطقة ثم وضعت شارة تحويلة مرورية، وراح بعض الضباط يفتشون في صناديق القمامة في المباني المجاورة. دق جرس البرج في الساعة الثانية بعد الظهر، وفي الوقت نفسه قرقرت معدة زابينه، لكن التفتيش القادم لمسرح الجريمة أنساها الجوع.

هرع كولر لمقابلتهم، ورغم أن الغيوم الداكنة تجمعت فوق الكنيسة، كان يربط سترة واقية سوداء بشكل عرضي حول خصره، ونظارته الشمسية

مدسوسة في شعره القصير، ومثل شنايدر كان يحمل سلاح خدمته في حافظة كتفه، وقد أظهر القميص الأسود المضلع عضلات ذراعيه، كما ظهر وشم من خلال قماشه، لم تكن زابينه من محبي الوشوم، فقد بدا معظمها سخيفًا أو مصنوعًا بشكل سيئ.

سأل شنايدر قبل أن يتمكن كولر من قول أي شيء حتى: «هل عاد كارل لوعيه؟».

- اضطر الأطباء إلى إخضاعه لتخدير عميق.

أدركهما كولر، ومشوا نحو الكنيسة معًا وهو يقول: «لقد تركت أحد رجالي في المستشفى مع أورزولا تسيتنر، وأكد هويتها، لا يزال موظفونا يتحققون مما إذا كانت تعرف كارل بوني، وهو ما نفترض أنه حدث، لقد التحق كارل بروضة الأطفال الكاثوليكية في شارع لويشتراسه، حيث عملت هي، كما أن الإطار الزمني مناسب أيضًا».

وضع نظارته الشمسية في عنق قميصه ومسح على شعره القصير، عندها لاحظت زابينه أن الوشم هو رسم للعنقاء، شارة فيجا، فرقة القوات الخاصة في فيينا.

سألها كولر: «هل هناك خطب ما!».

سألته: «هل كنت ضمن قوات فيجا؟».

سألها باندهاش: «هل تعرفين عن القوات الخاصة؟».

- قبل وقت طويل.

قاطعهما شنايدر: «سأقاطعكما رغمًا عنكما»، ثم قال باختصار: «لكنك قلت إن معلمة رياض الأطفال هذه مفقودة منذ سبعة أيام.. أفترض أن هناك شخصًا مقربًا من أورزولا تسيتنر كان على اتصال بالخاطف؟ اختصر!». ثم رفع ثلاث أصابع وهم يسيرون نحو الكنيسة وقال: «أهم شيء أن تلخص كلامك في ثلاث جمل!».

حدق كولر في وجه شنايدر، وكأنه يريد أن يقدر إلى أي مدى يستطيع إخبارهم عن هذه القضية، وأخيرًا لملم أشتات نفسه وقال: «تلقى زوج تسيتنر مكالمة هاتفية يوم اختفائها، وكانت الرسالة مقتضبة: إذا اكتشف سبب اختطاف زوجته في خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، فستظل على قيد الحياة، وإذا لم يفعل ذلك.. فستموت، وعلى الفور اتصل بالشرطة، لكن الخاطف قطع الاتصال به».

فتدخلت زابينه قائلة: «من الطبيعي أن تكون المرأة قد ماتت منذ فترة طويلة، لكنها لا تزال على قيد الحياة».

وقال شنايدر: «لكن هذا بالضبط ما يناسب المخطط، لقد أراد أن يميتها جوعًا، لكننا سبقناه.. ما الدليل الذي أعطاه الخاطف للسيد تسيتنر؟ هيا أخبرني!».

عبس كولر بحاجبيه وضيق عينيه، وقال: «وعاء حساء بورسلين قديم مطلي، كيف عرفت بشأن ذلك؟».

- وظيفتي هي أن أعرف مثل هذه الأشياء.

ثم ألقى نظرة عابرة على زابينه وقال: «القصة رقم ستة.. قصة حساء كاسبار، الولد الذي لم يرغب في تناول حسائه ومات جوعًا».

وصلا إلى باب الكنيسة، فوضع شنايدر يده على المقبض النحاسي الثقيل، لكن كولر اعترض طريقه، وقال: «استمع لي للحظة»، ثم نقر على صدر شنايدر وأردف: «لقد أديت عملك بصورة جيدة في كل ما سبق، لكن عليّ أن أقف في طريقك هنا، يمكنني إلقاء القبض عليك بتهمة حيازة سلاح، وبتهمة السطو والاعتداء، وعرقلة التحقيق الجاري، لن يسعد رئيسي في العمل مطلقًا بقدوم زميل من ألمانيا إلى فيينا، وإطلاق النار باستخدام مسدس جلوك وركل أبواب القبو، أريد فقط أن أوضح ذلك»، ثم أبعد إصبعه عن صدر شنايدر.

بدا التأثر على شنايدر بصورة طفيفة، وكأنها لم تكن المرة الأولى التي يسمع فيها مثل هذه الاتهامات، وسأل: «ولكن على عكس رئيسك، هل تستطيع التفريق بين المسؤول الجيد والسيئ؟».

أجاب كولر: «أستطيع أن أفعل ذلك، ولهذا السبب سأسمح لك بالدخول إلى هذه الكنيسة لإلقاء نظرة على مسرح الجريمة، وبعدها أخبرني ما الذي يدور هنا».

سددت زابينه نظرة متوسلة لشنايدر وقالت: «عرض عادل».

وأخيرًا أومأ شنايدر: «دعونا نذهب».

فتح كولر البوابة، ودخلوا الكنيسة ثم مروا بسرعة على المذبح، ومن خلفه ارتفع تمثال كبير حتى القبة لكبير الملائكة جبريل، وبجوار خزانة الكنيسة وجدوا هناك ممرًا ضيقًا به درجات حجرية تقود نحو مكان مظلم، وفي أثناء نزولهم تحدثت زابينه عن عمليات الاختطاف والقتل والهدايا والألغاز الهاتفية في كولونيا وميونخ ودريسدن ولايبتسيج، ووصفت مسرح الجريمة وشرحت أسباب الوفاة، ووصفت علاقة الضحايا بقصص كارل بوني و«بيتر ذو الرأس الأشعث».

فك كولر سترة جاك ولفسكين المربوطة على خصره، وارتداها، فقد بدا الجو هنا في الأسفل أكثر برودة منه في الأعلى، حتى إن زابينه كانت ترى تكثف الهواء في أثناء زفيرها، ولحسن الحظ كانت ترتدي سترة حرارية، حتى وإن كانت رائحة الجبس والعفن الفطري تفوح منها، وهي الرائحة نفسها بمنزل كارل المتهدم، لماذا أحضرها كولر إلى هنا؟ بالتأكيد لأن كارل هو المسؤول عن جريمة القتل هذه أيضًا، من الواضح أنه لم يكن مولعًا بالكنائس القديمة فحسب، بل أظهر شغفًا بالمباني المتهدمة أيضًا، كانت خطوط المواسير تمتد بطول السقف فوق الزخارف، وقد برزت المقابس الفارغة من الجدران، لقد أزيلت المصابيح الكهربائية منذ فترة طويلة، ولم يعد هناك أي كهرباء في هذا

القبو، لكن المحققين وفروا أسطوانات الأسلاك والمصابيح، وكان الطريق إلى القبو يمر عبر أوتاد صغيرة عالقة في الأرض مدت إليها الأحبال.

وحذر كولر قائلًا: «استمرا في سيركما على هذا المسلك البري».

عرفت زابينه الإجراء، فقد وضعت الشرطة الجنائية هذه العلامة للمحققين حتى لا يتلفوا أي أثر.

تلفّت شنايدر حوله للحظة ناظرًا إلى زابينه: «هل كل شيء على ما يرام؟».

أومأت برأسها وشددت أحزمة سترتها، وبحركة مقتضبة بيده عدل لها ياقتها، طريقة تقترب للاهتمام، وكأنه قرر أن يضمها تحت جناحه من الآن فصاعدًا، فتذكرت هي أنه رغم ذلك كله سيظل أحمق، حتى لو توقف عن معاملتها كطفلة غير ناضجة.

فكَّر كولر بصوتٍ مرتفع: «إذا كان القاتل يقتبس هذه المشاهد من كتاب «بيتر ذو الرأس الأشعث»، فمن المحتمل أنه استلهم هذا المنظر من قصة فيدجيت فيليب الموجودة هناك».

شعرت زابينه أن أصابعها أصبحت باردة كالثلج: «ماذا فعل بتلك المرأة؟».

- لقد صب عليها الخرسانة وهي على قيد الحياة.

كان الطريق يمر عبر سرداب كنسي يضم توابيت خشبية متعفنة ومكدسة بشكل عشوائي بعضها فوق بعض.

أشار كولر نحو كوة في الحائط وقال: لقد أوضح القسيس في وقت سابق أن توابيت المواطنين الأثرياء والنبلاء تعود إلى عصر الطاعون عام 1680 تقريبًا، عندما أباد المرض سكان فيينا بالكامل تقريبًا.

بنيت جل هذه التجاويف الحجرية من الطوب، وبداخل منفذ ذي قوس دائري رأت هناك عربتَيْ يد ودلاء مياه وألواحًا خشبية وتوابيت، وفوقها

سكاكين لفرد المعجون ومشابك وأوراق متغضنة من أكياس الإسمنت، وخلف كل ذلك تكدست أكوام من الرمال والطوب الأحمر.

أشار كولر نحو المعدات: «إنها بقايا أعمال الترميم قبل عشر سنوات».

نظرت زابينه إلى السقف المتصدع: «يبدو أن العمال لم ينهوا العمل بالقبو آنذاك».

- إذا حدث خلاف ذلك لكان قد انهار منذ فترة طويلة وسقطت معه الكنيسة، فالمبنى يغوص كل عام بمقدار بضعة ملليمترات.

في نهاية الدرج دهليز يؤدي إلى قمرة، كان الباب المعدني مفتوحًا، وقد فتح الضباط سلسلة ثقيلة بقفل، تسللت الأصوات من القبو، وومضت أضواء الفلاش.

توقف شنايدر أمام المدخل وأشار إلى القفل: «إنه نفس القفل الموجود في قبو كارل».

لم يكن هذا الدليل يعني الكثير، ولكن في تلك الأثناء أصبح هناك الكثير ضد كارل بوني، نظرت زابينه إلى الغرفة الواقعة بين كولر وشنايدر، تبلغ مساحة هذا القسم من سراديب الموتى حوالي خمسة عشر مترًا مربعًا، به بلاط من القرميد الأحمر، ولا توجد زخارف بها، وفي المنتصف هناك عمود خرساني يبلغ ارتفاعه حوالي مترين، يبرز منه خرطومان بلاستيكيان، يختفي طرفاهما في دلو معدني، ومن السقف تتدلى بكرة مركبة مصنوعة من الأحبال وقطع الخشب المستديرة، كانت رائحة التحلل النفاذة المعتادة مفقودة، وبدلًا من ذلك احتلت مكانها رائحة كريهة كالبول والبراز والقيء والتعفن.

أضاءت أنوار الكشافات كل تفصيلة في مسرح الجريمة، وهناك حاجز مصنوع من رقائق الألومنيوم يعكس الضوء، وقد ارتدى الرجل الذي يرفع الأدلة الجنائية قفازات مطاطية وأغطية أحذية زرقاء، كان طرف رابطة عنقه عالقًا بين أزرار قميصه المشدود، حيث بدا يعاني من زيادة الوزن بشدة

وينحني بشق الأنفس، وغلف للتو مجرفة بورق الألومنيوم، ووضع عليها رقمًا، ثم وضع علمًا بالمكان الذي وجدت فيه ليميزه، ثم أنهى تصوير المكان ووضع ورق الألومنيوم على جبل من الأكياس التي تراكمت في الزاوية خلفه.

تمتم في جهاز التسجيل: «مجرفة بناء، لا توجد عليها بصمات أصابع.. بقع الصدأ، مقبض هش، المسافة بينها والجثة...»، ثم قرأ العدد من شريط القياس الملقى على الأرض، وأكمل: «متران وأربعون سنتيمترًا. رقم 8».

هتف كولر في الغرفة: «هل يمكننا أن ندخل يا جلودوفاتس؟».

وقف ضابط رفع الأدلة الجنائية بتثاقل: «وكيف من المفترض أن أعمل هنا؟».

ارتج لغده: «إن حركة المرور تكون أقل في شارع تريستر شتراسه خلال ساعة الذروة، لا تلمس أي شيء إن استطعت! وارتدِ هذه!». ثم وضع صرة بلاستيكية زرقاء في يد كولر، فلمحت زابينه ساعة رولكس ذهبية على معصمه.

انتظر كولر حتى مضى الضابط قسرًا من أمامهما، ثم وضع الأكياس البلاستيكية فوق حذائه ومرر الأكياس الأخرى إلى زابينه وشنايدر.

همست زابينه بعد أن ابتعد ضابط الأدلة الجنائية عن نطاق السمع: «هل زميلك يسمى جلودوفاتس؟».

أومأ كولر برأسه: «بومة عابسة، إنه صهر رئيس الشرطة».

الآن اتضح لها الأمر: «هل هذا هو سبب ارتدائه ساعة ذهبية؟».

- هناك أسباب أخرى.

مد كولر يده في جيب بنطاله وأعطى زابينه علبة من كريم المنثول، فوضعت بعضًا منه تحت أنفها.

تحاشاه شنايدر وقال: «أنا أعرف رائحة الجثث».

قال كولر: «الأمر لا يتعلق بالجثة، فالمرأة لم تمت منذ فترة طويلة، فخذ منه!».

وضع شنايدر الكريم تحت أنفه، ثم تبعا كولر إلى القبو.

زل لسان زابينه: «يا إلهي!».

ابتسم كولر بأسى، فرائحة الدلاء المعدنية كانت لا تطاق رغم وضع كريم المنثول.. ورغم أن زابينه نشأت في مزرعة بافارية بين الأبقار والخنازير والدجاج.

سارت بطول المسار المحدد حول العمود متجنبة السلسلة المتدلية من السقف، وقد علق في نهايتها مرآة لم تكن بالتأكيد جزءًا من معدات الطب الشرعي، ووجدت هناك حقيبة طبيب مفتوحة عند قاعدة العمود الخرساني، ثم ظهرت امرأة ترتدي معطفًا أبيض خلف قاعدة العمود، كانت تتفحص الجثة بمشرط ومرآة، ولا يمكن تأجيل هذا العمل بعد الآن، فبمجرد أن أنزل فنيو الشرطة الجنائية الجثة مع الكتلة الخرسانية، لم يعد هناك آثار لغبار الإسمنت إلا بسُمك سنتيمتر واحد.

قدّم كولر المرأة: «إنها الدكتورة إيرينه نيسينزكي».

قالت الطبيبة دون أن تنظر: «أجل».

كانت طويلة القامة، ذات وجه يمتلئ بالنمش، ولها جديلة شعر شقراء طويلة ومفتولة، حدثته بجدية: «لن تنفك عن جر أشخاص جدد إلى هنا.. أشعر أنني في جولة سياحية في شونبرن».

عرَّفها كولر بهما قائلًا: «إنهما زميلان من مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية في فيسبادن والشرطة الجنائية بميونخ».

قالت: «إذا كنت ترى ذلك مناسبًا..»، ثم وضعت مصباحًا صغيرًا بين أسنانها وغمغمت: «.. فربما يعلم رئيسك في العمل أن زوارك يدوسون على كل شيء هنا».

وكان الشيء المثير للدهشة هو أن شنايدر لم يقل كلمة واحدة. صعدت زابينه بجوار الطبيبة الشرعية ومرت ببصرها على الجثة؛ وجه عالق خارج الكتلة الخرسانية بارتفاع الرأس. رقص شعاع المصباح اليدوي على وجه الميتة، كان اللحم حول عظام وجنتيها منتفخًا بالفعل، ومنظر العيون مفزعًا. غصت زابينه وأشاحت ببصرها، فرأت بطرف عينيها شنايدر يدرس كل التفاصيل، وكأنه مفتون بالبراعة اللافتة لـ «بيتر ذو الرأس الأشعث».

وأوضحت الطبيبة الشرعية: «لقد ماتت المرأة منذ حوالي أربع وعشرين ساعة، أو ثلاثين ساعة على الأكثر، لكن الرطوبة هنا تسرع من عملية التحلل».

اقترب شنايدر: «ثلاثين ساعة؟ هل أنت متأكدة ٪100؟».

كانت د.نيسينزكي لا تزال تحمل الكشاف اليدوي بين أسنانها، فوجهت شعاع الضوء نحو الدلاء نصف الممتلئة: «تأكد بنفسك وتدخل، لقد مضت حوالي ثلاثين ساعة على آخر مرة تغوطت فيها».

قال شنايدر: «علينا أن نعرف من هي المرأة».

كولر: «نحن نعلم بالفعل!»، ثم أشار إلى ندبة يبلغ طولها سنتيمترين ونصفًا بين الشفة السفلية للجثة وذقنها، ربما بسبب جرح قديم، قال: «عندما أعلنت عن زيارتك لرؤية كارل بوني هذا الصباح، طلبت ملفه، وعلمنا باختفاء والدته منذ شهرين».

ابتلعت زابينه ريقها: «هل هذه والدته؟».

أومأ كولر برأسه: «كارمن بوني، لقد تمكننا من التعرف عليها بسبب هذه الندبة، وأيضًا وفقًا لسجلات الأسنان، فهي لديها سن صناعية في الفك السفلي يسارًا».

أكدت الطبيبة الشرعية: «أجل!»، ثم أضاءت الكشاف داخل فم المرأة الميتة ودفعت خدها جانبًا بالأدوات الطبية وقالت: «إنها سن ممتازة، ربما من ألمانيا الشرقية».

وعلى حد علم زابينه فقد بدا الدم المتقشر ملتصقًا بتجويف الفم، وبدا اللسان رخوًا.

سألت زابينه: «هل علقت في هذه الكتلة الخرسانية منذ شهرين؟».

«هذا مؤكد أيضًا». وكأنها ستقدم دليلًا على ذلك بتصرفها، وجهت أخصائية علم الأمراض الضوء نحو الجهة الأخرى من الغرفة، حيث اصطفت عدة دلاء، وقالت: «إنها للبراز والبول، ويبدو أنها كانت تحيا على نظام غذائي يتكون معظمه من السوائل، كما كانت تتعاطى أدوية مسهلة»، ثم نظرت إلى يد زابينه وقالت: «عليك أن تعالجي هذه العضة في أسرع وقت ممكن».

- لا بأس.

نظر شنايدر نحو كولر وقال: «كارل بوني هو قاتلنا»، ثم تابع: «ففكرة صب الخرسانة على جسد إنسان حي توافق أساليبه في القتل، لكن التسلسل الزمني لا يتطابق مع القصص الموجودة في الكتاب، فإذا افترضنا أن التجويع المخطط له لمعلمة رياض الأطفال هو تمثيل لقصة حساء كاسبار وأن مقتل والدته هي قصة فيدجيت-فيليب، فهناك قصة مفقودة بينهما.

نعقت زابينه: «مصاص الإبهام؛ لقد منعت الأم ابنها كونراد من مص إبهامه في أثناء غيابها، وإلا سيأتي الخياط بالمقص ويقطع إبهام الصبي وكأنهما من الورق»، فكرت في القصة للحظة، وقالت: «إما أنه قطع ضحيته التالية بمقص بالفعل، أو أنه لا يتبع التسلسل الزمني».

قال شنايدر: «أو أنه لم يكن يريدنا أن نكتشف مقتل والدته بعد؛ لأنه لا يريد إعلامنا بوفاتها إلا في وقت لاحق، على أي حال فتسلسل الوقت ليس متناسبًا..».

تحدثت د.نيسينزكي: «أنتم تطاردون رجلًا مريضًا جدًّا، لكنكم مخطئون في نقطة واحدة، فهذه المرأة -بالمعنى الدقيق للكلمة- لم تقتل».

اقترح شنايدر: «هل حدث لها فشل في الأعضاء؟ أو جفاف؟».

جاءت إجابة نيسينزكي مختصرة: «لقد انتحرت».

رفع شنايدر حاجبه: «داخل هذه الكتلة الخرسانية؟».

فكرت زابينه في كمية الدم الموجودة في حلق المرأة، وقالت: لا يخطر ببالي سوى إمكانية واحدة لتحقيق ذلك، وهي أنها وصلت لحالة يائسة جعلتها تعض لسانها بجهد خارق واختنقت بدمها.

أجابت نيسينزكي: «صحيح.. امرأة عبقرية حقًّا».

سأل شنايدر: «هل كانت طبيبة؟».

أجاب كولر: «كانت ممرضة ومساعدة في الطب الشرعي بالمستشفى العام».

صمتوا للحظة، ثم أطفأت نيسينزكي المصباح اليدوي.

غمغم كولر: «ولماذا تفعل ذلك الآن تحديدًا بعد مرور شهرين؟ فأنا لا أستطيع الصمود ليومين في هذا المبنى دون أن أصاب بالجنون».

فكرت زابينه في سيدة عاجزة عن الحركة تمامًا ومعلق في جسدها قسطرتين، لا بد أنها أصيبت بالجنون، وتأملت ملامح وجه القتيلة في الظلام، نظرت زابينه إلى العيون المحدقة وحاولت تخمين أفكارها الأخيرة، فهمست قائلة: «الأمل يموت في النهاية، لقد سرق ابنها شهرين من حياتها وأراد أن يقتلها ببطء، ربما كان يعطيها شيئًا لتشربه مرة واحدة يوميًّا ويمدها بالطعام بشكل أقل، فالطريقة الوحيدة للتخلص منه ووضع حد لما يفعله بها هي أن تموت، لم يكن أمامها أي بدائل أخرى». أغمضت عينيها للحظة، وتساقطت دموعها، يا له من جنون! لماذا لم تصمد المرأة بضعة أيام أخرى؟

وأشاد شنايدر بها: «أنت جيدة».

نفضت زابينه أفكارها، لم ترغب في أن تبدو جيدة في فهم الأفكار المريضة لرجل مجنون، لكنها أرادت أن تعرف السبب وراء إدخاله خرطومًا في حلق

والدتها، وحقنها بلترين من الحبر، ثم عزف مقطوعة باخ على الأرغن في حين كانت هي عاجزة ومقيدة بالسلاسل، تكافح من أجل التنفس، وتختنق بشدة بسبب السائل الموجود في رئتيها. خطأ أمها الوحيد هو أنها انتقلت إلى كولونيا ودرست لكارل بوني، لماذا لم يستطع هذا اللقيط اختيار أي شخص آخر؟ حارس المبنى أو عاملة التنظيف أو معلم الصالة الرياضية؟ أي نوع من الأشخاص يمكن أن يكون بوني؟

منظر المرأة الميتة جعل الغضب الجامح يسيطر عليها، فلو لم يطلق شنايدر النار عليه بالفعل، لفضلت دفع كارل من النافذة إلى الفناء الداخلي بنفسها، لودت أن تمزق قناع التنفس الذي يوضع على وجهه في المستشفى وتشاهده يموت، كانت يداها ترتعشان. **يا إلهي، تمالكي نفسك!** كورت قبضة يدها وشعرت بالبرد ينخر في عظامها.

تمتمت زابينه: «حضرتك طبيبة نفسية شرعية، أخبريني لماذا يفعل هذا الخنزير المريض هذا؟».

نظر إليها شنايدر بأسى وقال: «الحقيقة هي أننا لا نعرف يقيناً»، ثم نظر إلى العمود الخرساني: «ربما لا يعرف كارل بوني بعد أن والدته انتحرت وأننا عثرنا على جثتها».

- وإذا علم؟

لم تستطع زابينه أن تدرك تسلسل الأفكار، كان كارل يغط في نوم عميق.

اقترح شنايدر: «دعونا نتجه إلى الطابق العلوي، فلدي فكرة، لكنها لن تنجح إلا إذا تصرفنا بسرعة».

31

في أثناء صعودهم الدرج الضيق تحدث شنايدر إلى كولر: «ما آخر موعد لتحرير الطبعة المسائية للصحف؟».

نظر كولر في ساعته: «في خلال ساعة تقريبًا».

- ممتاز.

خطا شنايدر درجتين في خطوة واحدة: «كارمن بوني كانت أرملة، هل لديها أي أقارب بخلاف ابنها؟».

- على حد علمي ليس لديها، فبعد وفاة زوجها ارتبطت برجل أكبر منها بسنوات عدة، لم يكن رسامًا ناجحًا في المطلق، وقد مات منذ ستة أشهر.

تمتم شنايدر: «حقيقة أنها تعيش بمفردها يمكن أن تكون ميزة بالنسبة لنا..».

- ما الذي تخطط له؟

- أسلوب التحقيق الاستباقي.

تجهم كولر بأسى: «ما المعلومات الكاذبة التي تحاول تسريبها للصحافة؟».

- أن كارمن بوني لا تزال على قيد الحياة.

صرخ كولر قائلًا: «ما المغزى من ذلك؟ كما أننا لن ننفذ ذلك أبدًا».

أدخل شنايدر رأسه وانسل عبر الباب المؤدي إلى صحن الكنيسة: «صحيح أن كارل بوني في قبضتنا، لكن انظر إلى مسرح الجريمة، والوقت المستثمر والتنظيم اللوجستي اللازم لجعل كل هذا ممكنًا.. ربما كان لدى كارل شريك».

سأل كولر بسخرية: «وما زال يتجول بحرية ويستمر في القتل؟ اعذرني!».

- هل تريد المخاطرة؟

لم يُجب كولر.

- تذكر! لدينا فجوة في التسلسل الزمني للقصص، كما أن جرائم القتل لا تتوافق مع ترتيب القصص في الكتاب، فحدسي يقول إن الأمر في غير محله، نحن نفتقر إلى الكثير من التفاصيل لفهم الصورة بأكملها.

استطاعت زابينه أن ترى حرفيًّا كيف يعمل دماغ كولر، فقد بدا يكافح من أجل اتخاذ القرار.

قال كولر محذرًا: «إذا أردت أن تبث أخبارًا مغلوطة لجذب شريك محتمل في الجريمة تظنه أنت حرًّا، وتأمل أن يرتكب خطأً، فقد تسير الأمور بشكل خاطئ للغاية».

رفع شنايدر يده: «إن معلمة روضة الأطفال الخاصة بكارل بوني على قيد الحياة بالفعل، لكنه لم يتواصل معها منذ سبعة عشر عامًا.. ليست مثل والدته، فقد خضعت لسلطته لمدة شهرين، فكر في الأمر: بافتراض أن كارمن بوني على قيد الحياة وتخضع لرعاية نفسية، فيمكنها أن تعطينا وصفًا لشريكه».

استحسنت زابينه قول زميلها: «هذا هو القول السديد».

- ليس لديكما أي فكرة عن طبيعة العلاقة بين الشرطة الجنائية والصحافة هنا، لن يتحقق ذلك أبدًا! الصحفيون ليسوا أغبياء، إنهم يشمون رائحة الجرائم! كما أن رئيسي لن يوافق على هذا الإجراء.

احتد شنايدر: «من الذي يقود التحقيق؟ أنت أو أي شخص يجلس خلف مكتب يعتقد أن ضحايا القتل مجرد إحصائية على الورق؟».

- من الأفضل لك أن تغلق فمك الآن!

مروا من خلال بوابة الكنيسة إلى ميدان مارينبلاتس، أظلمت الغيوم السماء، وجاء صوت هدير الرعد من مسافة بعيدة، ومع ذلك بدا كولر

متعرقًا، كان العرق يتصبب على رقبته، فربط السترة الواقية حول خصره وأخذ نفسًا عميقًا، وكأنه يتوقع اقتراب المطر.

وفي تلك اللحظة حضر فريق الأدلة الجنائية وتسللوا عبر حواجز الشرطة. وبمجرد أن أنهت د. نيسينزكي وفريق الطب الشرعي عملهم، هم الرجال بقطع الجثة من الكتلة الخرسانية ونقلها إلى قسم الطب الشرعي، احتشد عشرات الصحفيين خلف حاجز الشرطة، عندما اقترب العمال من الكنيسة وآلات الطحن على أكتافهم، بدأ فلاش الكاميرات يومض.

نظر شنايدر نحو الصحفيين: «ليس لديهم أي فكرة عن حقيقة الأمر حتى الآن، سيؤلفون بعض القصص على أي حال، وستطبع خلال ساعة، هذه هي فرصتنا لدس هذا الخبر لهم».

لم يتفاعل كولر.

- عليك اللعنة! سأذهب إلى هناك بنفسي.

قبضت يد كولر بشكل غريزي على حافظة سلاحه: «إذا فلا بد لي من إلقاء القبض عليك».

قالت زابينه بلطف قدر الإمكان: «من فضلك استمع إلي».

فنظر إليها كولر، قالت: حقيقة انتحار كارمن بوني واكتشافنا لجثتها قبل الأوان لم تكن مخططة بالتأكيد، فإذا كان لدى كارل مساعد بالفعل، ووالدة كارل لا تزال على قيد الحياة وتستطيع الكشف عن هويته، فإن من شأن ذلك أن يلقي به في حلقة مفرغة.

حدجت زابينه شنايدر بنظرة استجداء.

فتحدث الآن بنفس الهدوء الذي تحدثت به: «إن الساديين والمرضى النفسيين هم مخططون ممتازون ويمكنهم التلاعب بالآخرين بشكل مثالي، والأشخاص الذين يتصرفون بطريقة منظمة يريدون تحقيق هدف محدد،

أسوأ ما قد يحدث لهم، هو أن تلعب الصدفة دورها ويحدث عكس ما خططوا».

أبعد كولر يده عن السلاح وقال: «ومن أين نعرف الطريقة التي سيتفاعل بها شريكه في الجريمة؟».

قال شنايدر: «إن أسوأ الأخطاء تُرتكب بهدف التعويض.. سيحاول الشريك إخفاء آثاره، وقد يظهر في المستشفى».

- حتى لو فعلت ذلك وتصرفت دون موافقة رئيسي، فلن تصدق الصحافة، لم يسبق لي الإدلاء بأية معلومات لهذه النسور من قبل قط، فلماذا أضطر إلى فعل ذلك الآن بالذات؟

حدق شنايدر في الصحفيين: «لن يسير الأمر بهذه الطريقة أيضًا.. يتعين على أي زميل فاسد أن يبيع المعلومات سرًّا إلى أحد الصحفيين المتدربين».

ارتفع حاجبا كولر: «قد ينجح ذلك!».

في تلك اللحظة مر من أمامهم اختصاصي رفع الأدلة الجنائية البدين، وقف عند المدخل وأخرج القفازات المطاطية من جيبه بأصابعه وقال: «آمل ألا تكونوا قد تركتم قمامتكم في الطابق السفلي».

قال كولر بصوت مرهف: «جلودوفاتس! هل ترغب في الحصول على ساعة رولكس جديدة؟».

هذه المرة جلس شنايدر في المقعد المجاور للسائق عندما اتجهوا بسيارة كولر إلى قسم الشرطة، ولم تشعر زابينه بالإهانة.. بل على العكس من ذلك، لقد فرحت لأن الاثنين لم يعودا يتقاتلان مثل القطط الضالة، بل صارا يعملان معًا، وقد عرفت من تجربتها مدى صعوبة الانسجام مع شنايدر.

ألقى كولر نظرة عابرة على شنايدر، ومن الواضح أنه لاحظ كيف يضغط بأظافره على ظهر يده، فقال: «آلام؟».

مسح شنايدر العرق من جبهته وقال: «رأسي على وشك الانفجار»، ثم نظر من النافذة وأخذ يدلك مراكز الثقل بالتناوب، وقال: «اعتقدنا سابقًا أن كل شيء بدأ في كولونيا في بداية أبريل بمقتل فالتراود نيسلبرجر.. خطأ! لقد بدأ كارل بوني التخطيط في نهاية شهر مارس واختار والدته لتكون الضحية الأولى، ربما أراد أن يقدمها لنا بصفتها الجثة رقم ستة بعد وفاة معلمته في رياض الأطفال.

انحنت زابينه إلى الأمام وقالت: «في أي يوم تقدم البلاغ عن اختفاء والدته؟».

- من المحتمل أنها اختطفت مساء يوم 20 مارس.

تمتمت: «الرقم 20 مرة أخرى»، كل شيء يتناسب مع المخطط.

استدار شنايدر نحوها وقال: «عمل جيد أيتها السنجابة الصغيرة».

كرر كولر: «سنجابة؟».

قالت زابينه: «انس الأمر». أي أحمق كان شنايدر! فهي تفضل أن تنشق الأرض وتبتلعها.

وأوضح شنايدر: «لقد لاحظت زابينه أن كارل بوني يختطف ضحاياه في اليوم السادس واليوم العشرين من كل شهر، إنها بيانات سحرية؛ حيث ولد كارل في السادس من نوفمبر وتوفي والده في العشرين من ديسمبر».

نظر من النافذة الجانبية مرة أخرى وقال: «الجنون كله بدأ باختطاف كارمن بوني، لكن أسلوب «بيتر ذو الرأس الأشعث» لا يتناسب مع النمط المعتاد...»، بدا شنايدر الآن وكأنه يتحدث إلى نفسه: «يبقي والدته على قيد الحياة في عمود خرساني لفترة طويلة حتى يصيبها بالجنون، لكنه لم يخبر أحدًا بذلك، لا مكالمة ولا لغز ولا تلميح أو هدية، فلماذا حصلت على هذا الوضع الخاص؟

وعرضت زابينه رأيها: «من الواضح أنه لم يرغب في منح والدته فرصة للنجاة».

نظر شنايدر إلى الأمام: «هذه هي النقطة الحاسمة، كيف سيبدو رد فعله إذا حل شخص ما لغزه الهاتفي خلال ثمانٍ وأربعين ساعة؟ هل سيخاطر فعلًا بترك ضحيته على قيد الحياة؟»، ثم التفت إلى كولر: «علينا أن نسلط الضوء على حياة كارل بوني، علاقاته كلها».

دمدم كولر: «هل تعتقد أننا نلهو؟». كان كولر يقود سيارته عبر ساحة يحدها مبنى زجاجي حديث، ثم توجه إلى ساحة انتظار السيارات تحت الأرض، ثم أردف: «في الوقت الحالي هناك خمسة زملاء آخرين بخلافي يعملون على القضية، ربما نجد لدينا بالفعل ملفًّا كاملًا عنه في المكتب».

طهر الطبيب المناوب في القسم جرح العضة في يد زابينه وضمده، وهي الآن تجلس مع شنايدر في مقصف مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية في فيينا، وتأكل من طبق من الألومنيوم لفائف الملفوف المحشو الفاتر الغارق في الصلصة، كما راحت تشرب دايت كولا، وطلبت القهوة العشبية من الآلة لكنها تجاهلتها بسخاء. أحضر لهم كولر أمتعتهم، كانت حقيبة زابينه مستندة على حافة النافذة، وأخذت تنظر من حين لآخر إلى ميدان يوزف هولا وبيك، في حين راحت أفكارها تدور حول أختها ووالديها، كيف حال مونيكا والفتيات؟ وكيف حال والدها؟ لكن هناك شيء واحد أزعجها أكثر؛ فهي حتى الآن لم تحزن على والدتها بحق، لماذا لم تبكِ؟ أليس من المفترض أن يبدو كل شيء بنظرها أسوأ بكثير؟ **ألا تحبين والدتك؟ هل أنت ابنة سيئة؟**

انتشلها صوت لوحة المفاتيح من غمرة أفكارها، كان شنايدر قد فتح حقيبته الحمراء ماركة سامسونايت، وشغل جهاز اللابتوب، ثم غرس ست إبر طويلة في مراكز الثقل على ظهر يده، بدا وكأنه قنفذ بري يكتب على لوحة المفاتيح، لقد طلب أيضًا إبريقًا من شاي الفانيليا، لكنه لم يتلق سوى شاي البابونج، لم يشعر بحاجة إلى تناول أي طعام، وهو الأمر الذي لم يفاجئ زابينه نظرًا لبنيته الهزيلة.

قال شنايدر: «لقد أرسلت إلى مكتب التحقيقات الاتحادي في فيسبادن تقريرًا قصيرًا مفاده أن جرائم القتل الأربع في ألمانيا مرتبطة بالأحداث التي وقعت في النمسا، وقد قبض على مشتبه به ونعمل على حل القضية الآن.. بالمناسبة، سيطلق سراح والدك من الحجز اليوم».

قالت: «شكرًا لك»، ثم حدقت زابينه في هاتفها، فلم تجد رسالة، كان بإمكان صهرها الأسبق أن يتصل بها على الأقل، لكن ربما لم يعلم بعد بأمر الإفراج.

وداخل حقيبة شنايدر المفتوحة رأت بعض الكتب ملقاة فوق بدلته وربطات عنقه، إنها السِّيَر الذاتية ذات الكعوب المطوية، إنها نتاج زياراته الأخيرة لفروع هايتال. لم تعلق على ذلك، ففي أحد الأيام سيقبضون عليه وهو يسرق، ومن ثم ستصبح كراهيته لسلسلة المكتبات أكبر من ذي قبل، كان الرجل مهووسًا وبحاجة ماسة إلى المساعدة، لكنه لم يقبل تلك المساعدة.. بغض النظر عن مقدمها.

وبالإضافة إلى ذلك فهو يحتاج أيضًا إلى مساعدة من نوع مختلف تمامًا، هكذا أدركت مرة أخرى عندما أشعل سيجارة كان قد لفها بنفسه، لقد ملأ المقصف برائحة الماريجوانا الحلوة، لكن زابينه غرقت في تلك اللحظة بأفكارها بدرجة جعلتها لا تنزعج من الرائحة.

ولمدة عشر دقائق تقريبًا ظلا يسمعان صراخًا عاليًا عبر الجدران النحيلة، بعد ذلك بوقت قصير دخل كولر الغرفة وقد بدا مضغوطًا.

كان يحمل ملفًّا في يده: «أتيت للتو...»، ثم توقف فجأة وكأنه صعق، توقف وقطب أنفه وقال: «هل أنت مجنون؟»، ثم ركض في المقصف وفتح النافذة وقال: «أطفئ هذا الشيء، يمكنك تدخين الماريجوانا في غرفتك بالفندق، وليس في مركز الشرطة. اللعنة، لقد صب عليّ رئيسي جام غضبه بسببك!».

أخذ كولر يلوح بالملف لجلب الهواء النقي إلى داخل الغرفة وأكمل: «وإذا أمسك بالطبعة المسائية من الصحيفة، فقد حان دورنا بأي حال».

سحق شنايدر السيجارة ونظر إلى الأعلى بضجر: «هل هذا ملف كارل؟ هل تسمح لي؟».

صرخ كولر: «لا!»، ثم جلس بجوار زابينه ووضع ذراعه على الملف وأردف: «نحن نعلم الآن أن أورزولا تسيتنر كانت في الواقع معلمة روضة الأطفال الخاصة بكارل، أعتقد أننا قطعنا خطوة أخرى إلى الأمام، لكن الجنون لا يتوقف».

أغلق شنايدر جهاز اللابتوب والتفت إليهما: «دعني أخمن الحلقة المفقودة في السلسلة».

- بالضبط، لقد حكم على كارل بوني بالسجن ثلاث سنوات مع إيقاف التنفيذ قبل ستة أشهر بتهمة المطاردة وحيازة الكوكايين والسلوك العدواني تجاه النساء، لكن المحكمة سمحت له بالخضوع للعلاج النفسي، ومعالجته هي د. روزه هارمان.

اقترحت زابينه: «يجب أن نتحدث معها».

تقلص وجه شنايدر كما لو كان لديه بالفعل مزيد من الشكوك.

فقال كولر: «لقد اختطفت من شقتها منذ أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة».

صاح شنايدر: «اللعنة! إذًا فهي على الأرجح لم تعد على قيد الحياة».

- ربما، لكن أحدًا لم يتلق مكالمة هاتفية أو لغزًا أو هدية من الخاطف كما حدث مع أورزولا تسيتنر والضحايا في ألمانيا...

فأوضح شنايدر: «نحن لا نعرف أقل التفاصيل حول الموضوع»، فعض كولر على شفته السفلى.

فحثه شنايدر: «أنت تعرف المزيد!».

وقالت زابينه في نفسها: **هذا ليس كل ما تعرفه!** بدا كولر وكأنه يشعر بقلق بالغ.

تمتم كولر وهو غارق في أفكاره: «قد تكون حبيبتي السابقة متورطة في هذه القضية؛ إنها المعالجة النفسية هيلين بيرجر، كانت تعمل قبل ثلاث سنوات معالجة نفسية جنائية شرعية لمجموعة القتل الجنائي، لقد تواصلت معي مرتين في الأيام القليلة الماضية بخصوص روزه هارمان.

قفز شنايدر: «ولم يدفعك ذلك إلى الإنصات؟».

أجاب كولر بصوت مرتفع أيضًا: «آنذاك لم أكن أعرف شيئًا عن «بيتر ذو الرأس الأشعث»»، ثم ما لبث أن هدأ مرة أخرى في اللحظة التالية: «هيلين هي دليلنا الوحيد حاليًّا على شريك كارل، لكني لا أستطيع الوصول إليها»، ثم ضرب بيده على الملف.

وضع شنايدر جهاز اللابتوب الخاص به في الحقيبة الصلبة وأغلق المزالج: «بدلًا من الجلوس هنا، علينا الذهاب إلى عيادة د. هارمان».

ساروا عبر فيينا مرة أخرى في سيارة بن كولر، جلست زابينه في الخلف. كانت عيادة د. هارمان في زيبنهيرتن، الجزء الجنوبي من المدينة، يجب عليهم أن يدوروا بشكل أفقي في المدينة، متجهين إلى ازدحام السيارات والحافلات وسيارات الأجرة والترام..

ألح شنايدر عليه: «ألا تسير هذه بشكل أسرع؟».

زمجر كولر: «إنها حركة المرور بعد الظهر».

فاقترح عليه شنايدر: «حاول الوصول إلى هيلين بيرجر».

- هاتفها مغلق.

فألح عليه شنايدر قائلًا: «ربما أرسلت لك رسالة نصية.. ولم تصل إليك لأن البريد الصوتي الموجود على هاتفك ممتلئ تمامًا من العصر الحجري».

- أنت مزعج!

أخرج كولر هاتفه، الذي كان قديمًا بالفعل، وفتح القائمة.

- يا رجل، انتبه للطريق!

- نعم، اللعنة، هذه ليست المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك!

نقر كولر بشيء على هاتفه.

فانحنت زابينه نحو الأمام بين المقعدين ورأته وهو يحذف أقدم الرسائل، وبعد لحظة رن صوت رسالة نصية واردة.

فعلق شنايدر بجمود قائلًا: «إنها رسالتي من الطائرة».

ولم يتوقف التصفير حتى بدا كولر وكأنه رجل يتمتع بشعبية كبيرة، إلى أن قال: «تبًّا! هناك رسالة من هيلين وصلت إليّ قبل الساعة الحادية عشرة صباح اليوم.. ثم قرأ: «**كارل بوني هو من اختطف روزه هارمان!**».

ابتسم شنايدر بألم: «المرأة بجعبتها أشياء أكثر منك».

خيم الصمت عليهم لبقية الرحلة، وبعد ساعة إلا ربع انعطفوا إلى شارع ذي أشجار في هذا المكان على أطراف المدينة، لم تعد تظهر أي مبانٍ شاهقة، بل منازل عائلية بحدائق أمامية وصفوف عالية من أشجار الثوجا. توقف كولر أمام إحدى الحدائق، وكانت الغيوم السوداء الخانقة تجثم فوق فيينا مثل غطاء ثقيل، حتى شعرت زابينه بحرارة قائظة، ومثل حيوان محبوس في قفص لا يستطيع الهروب احتبست الحرارة تحت الغيوم العميقة المعلقة.

خرج شنايدر وأشعل لفافة تبغ، كان يتفحص السيارات التي أمام المنزل بنظرات باردة، وكأنه يحفظ لوحات الأرقام في ذهنه، ربما كان فعلًا منعكسًا ولم يستطع تغييره، ثم أشار إلى الكوخ الموجود على الجانب الآخر: «من المحتمل أن تكون هذه هي العيادة».

تبعت زابينه سحابة الماريجوانا عبر الشارع، وتمتم شنايدر: «هارمان تعمل في شارع باخ».

فكرت زابينه على الفور في الموسيقار، فلولا تعليق شنايدر لم تكن لتلقي بالًا لهذا الارتباط.

أغلق كولر السيارة وهو يقول: «وما المميز في ذلك؟».

صاح شنايدر: «باخ!»، وأكمل كأن كولر بطيء الفهم: «كان والد كارل بوني عازف أرغن في الكاتدرائية وقد تخصص في مقطوعات باخ، ثم يتلقى ابنه العلاج لدى معالجة نفسية في شارع باخ».

- يقصد بتلك التسمية الجدول[1] الموجود في الحديقة خلفنا.

سحب شنايدر نفسًا من لفافة التبغ، ورسم ابتسامته الصفراء وقال: «وإذا كان الأمر كذلك، فهل تعتقدين بكل صدق أن كارل كان يفكر في جداول المياه الصغيرة المتسللة بين الشجيرات عندما كان يقف خارج هذا المنزل، وينظر إلى لافتة الباب، ومن ثم يصاب بالذعر من فكرة أن الطبيبة النفسية سوف تدمر ماضيه في الخمسين دقيقة القادمة كما تفعل الجرافات؟»، تفحص القفل وقال: «يوجد ترابيس أمنية متعددة، ربما هذا هو سبب اختطافها من شقتها، كيف سندخل؟».

- إن انتظرنا أمر تفتيش من القاضي، فسنظل هكذا إلى الأبد.

أمسك كولر بحجر من حوض الزهور وألقاه على النافذة وأردف: «لكن إن ظهرت آثار عنف، فمعناها أن هناك خطرًا وشيكًا وسندخل دون أي قرارات».

هكذا إذًا تعمل الشرطة الجنائية في فيينا.

سأل شنايدر ناظرًا إلى الأقفال: «هل يمكنك التعامل مع هذا الشيء؟».

- بالطبع! اقرع الجرس قبل أن تدخل.

وقفت زابينه إلى جانب كولر وقالت: «يمكنك تعليم زميلي كيفية التعامل مع هذا الشيء، حتى لا يضطر إلى ركل الأبواب بعد الآن».

---

(1) جدول مياه بالألمانية Der Bach.

سحب شنايدر نفسًا عميقًا ثم سحق اللفافة أمام البوابة وقال: «أيتها السنجابة! قبل أن أضطر إلى ركل الأبواب أو كسر النوافذ، أتأكد أولًا أنها مفتوحة».

- مضحك جدًّا...

صمت كولر عندما فُتح الباب دون تدخله.

لم يكن الباب مقفلًا، فقبض شنايدر على سلاحه في الحال.

همس كولر وهو يسحب سلاح خدمته أيضًا: «لا داعي للاندفاع».

نفذ صوت مكتوم وعميق من المنزل؛ مما أدى إلى شعور زابينه بالقشعريرة.

32

جلست هيلين على الأريكة، لقد سمعت تسجيل الجلسة الأخيرة لروزه هارمان ومن بعده مناجاة كارل لنفسه، لم يكن المسجل قد انتهى بعد، لكن بكرات الشريط كانت تدور ببطء، لقد شوهت البطارية الضعيفة صوت كارل وحولته إلى تسجيل إذاعي مخيف.

لم تستطع هيلين تصديق ذلك، ما هذا الجنون الذي مارسته المعالجة النفسية مع هذا الشاب! لا يوجد أي دواء اسمه توركسين، إن الإيهام بدواء نفسي التأثير وإعطاءه للعميل يقترب من أن يكون انتحارًا مهنيًّا، لو وقعت هذه الوثائق في يد لجنة الأخلاقيات، لدمر مستقبل هارمان في مجال العلاج النفسي! لماذا تمادت إلى هذا الحد؟ هل من باب الطموح فقط؟ أم خوفًا من أن يهاجمها عميلها إذا لم تتمكن في الوقت المناسب من إنهاء العلاج بنجاح؟

جميع وقائع القضية تؤكد شكوكها بأن كارل هو من اختطف معالجته النفسية، وقد عرفت هيلين أيضًا السبب، رفعت بصرها ناظرة إلى الساعة، سيحين الموعد النهائي لها خلال ثلاثين دقيقة، لا يزال لدى روزه إصبع واحدة إذًا.. شعرت بالسوء من مجرد تخيل الفكرة، ولكن على الأقل لا تزال روزه على قيد الحياة، ذلك إذا التزم كارل بعهده، لقد حان الوقت لتفحص صندوق الهاتف لإنقاذ حياة المرأة على الأقل، حتى لو كانت تكرهها بكل كيانها.

فجأة قفز داستي فزعًا ونظر إلى الباب وأذناه مرفوعتان، وفي اللحظة التالية ارتج زجاج النافذة وتكسر شيء ما على الأرض. قفزت هيلين، وأفكارها تتسابق.

كارل هنا!

كان عليها أن تبحث عن مكان للاختباء أو سلاح! دخلت بسرعة للحمام وفتحت الخزانة، فسقطت تجاهها فرش الشعر وأحمر الشفاه وأكواب العدسات اللاصقة، وبسرعة فتشت عبر الأرفف باحثة عن مقص أو مبرد أظافر، صوت خشخشة القفل جعلها تتأنى.. اللعنة، كان عليها إغلاق الباب وترك المفتاح بالداخل! بعدها ارتج الباب مفتوحًا.

ركض داستي نحو غرفة الانتظار وهو يزمجر.

فصرخت هيلين صرخة مكتومة وهي تقول: «تعال إلى هنا!»، لكن الكلب كان قد ذهب بالفعل.

دخل عدة أشخاص إلى البيت، ثم تحدث صوت مألوف: «داستي! أيها الصعلوك العجوز، ما الذي تفعله هنا؟ أين سيدتك؟».

بن؟ تنفست هيلين بارتياح وأنزلت مبرد الأظافر.

هرع نحو غرفة العلاج وهو ينادي: «هيلين؟»، ثم تبعه رجل طويل القامة ذو رأس أصلع وملامح شاحبة، وبيده مسدس أيضًا.

صرخ بن في زميله عندما لمح هيلين: «أنزل السلاح!».

- هل كل شيء على ما يرام؟

أومأت هيلين وقالت: «هل كسرت زجاج النافذة؟».

- إنه حادث.

كان بن يرتدي سترة سوداء واقية من الرياح، وشعره أشقر للغاية كما كان من قبل، لكنه بدا أقصر. اقترب منها، في حين راح الرجل الأصلع يفتش الغرف الأخرى في العيادة ومعه امرأة شابة رياضية ذات خصلات رمادية فضية في شعرها.

وضع بن السلاح في الحافظة، وأشار نحو مبرد الأظافر وقال: «كوني حذرة، وأبعدي هذا الشيء».

أسقطته هيلين في الحوض وحوّلت أصابعها المرتجفة إلى قبضة وقالت: «ما الذي تفعله هنا؟».

خطا بن خطوة تجاهها وهو يقول: «لقد فقدت أعصابك كليًّا»، وللحظة أعطاها انطباعًا بأنه يريد أن يعانقها، لكنه تردد في اللحظة الأخيرة وقال: «لقد قلقت عليك، وهاتفك مغلق».

فكذبت عليه: «حتى أتمكن من التركيز وأعمل دون تشتيت».

- في مسألة سبب اختطاف روزه هارمان؟

أومأت له، ثم اندفع داستي بين ساقيها وفرك أنفه في ساق بن، وفجأة نظر نحو الباب مزمجرًا.

دخل الرجل الأصلع إلى غرفة العلاج، وتبعته الشابة، وبدون أي مماطلات اقترب من هيلين وقال: «اسمي مارتن س. شنايدر من الشرطة الجنائية الاتحادية فيسبادن، أنا محلل قضايا، وهذه زميلتي زابينه نيميتس، نحن..»، عاد خطوة إلى الخلف وقال: «هل يمكنك ربط هذا الكلب؟».

تحدث الرجل بلكنة هولندية، فجلس داستي أمامه مكشرًا عن أنيابه، وكأنه يريد مهاجمته في أية لحظة.

أمرت هيلين كلبها: «داستي، اخرج!». سكت الكلب، لكنه لم يرفع عينيه عن شنايدر.

أومأت زابينه نيميتس لهيلين إيماءة قصيرة، وكشفت تعابير وجهها عن شعورها بالحرج من سلوك زميلها.

قال شنايدر: «أعلم أنك عملت معالجة نفسية جنائية في الطب الشرعي؛ لذا من فضلك وفري لنفسك ثرثرة علم النفس عديمة الفائدة، واذكري الوقائع فقط! هل اتصل بك الخاطف؟».

ما هذه **الجلافة**! من حسن حظه أنها تركت مبرد الأظافر من يدها...

تمتمت: «نعم».

- متى كانت المرة الأولى؟

- صباح يوم الإثنين، في الفترة بين الثامنة والتاسعة صباحًا».

- قبل ست وخمسين ساعة، إذًا ماتت روزه هارمان بالفعل.

اعترضت هيلين: «لا لم يحدث، لقد تفاوضت معه هذا الصباح على أن يمهلني ثماني ساعات أخرى، وستنتهي المهلة خلال ثلاثين دقيقة، في تمام الساعة الخامسة».

ارتفع حاجبا شنايدر من المفاجأة: «هل يسمح القاتل بالتفاوض معه؟».

كانت هيلين تعلم بشأن حادث الاختطاف فقط، فقالت: «أي قاتل؟».

نظر شنايدر إلى الوثائق والأشرطة المبعثرة على الأرض: «أنت بلا شك امرأة ذكية، هل يمكنك تلخيص الأحداث في ثلاث جمل مفهومة خلال دقيقة واحدة؟

ارتجفت هيلين من الغضب بداخلها، لقد بدت مجاملة شنايدر وكأنها كلمات تهكمية ساخرة، فسألته: «وإن لم أفعل؟».

- فستبددين وقتي.

ثم مدّ ثلاث أصابع وقال: «ثلاث جمل!».

أشارت هيلين أيضًا بإصبعها في وجه شنايدر.. الإصبع الوسطى، فتقبل شنايدر الأمر بهدوء وقال: «أعتقد أنني كنت مخطئًا بشأنك».

- آمل أن يكون لديك معالجة نفسية جيدة.

جاءت زابينه نيميتس بجوارها، ونظرت إليها نظرات معتذرة ومتوسلة في الوقت نفسه: «أرجوك!».

فردت هيلين: «إذًا عليك أولًا أن تشرحي لي ما يحدث هنا، أنا لا أعرف شيئًا عن وجود قاتل، وأمامنا ثلاثون دقيقة لإنقاذ حياة روزه هارمان».

لم تنتظر زابينه نيميتس موافقة زميلها، وبدأت تحكي القصة: «نحن نشتبه في أن كارل بوني هو قاتل متسلسل...».

وفي الدقائق التالية علمت هيلين أن كارل قد اختطف ست نساء في كولونيا وميونخ ولايبتسج ودريسدن وفيينا وقتل خمسًا منهن، وبعد كل عملية اختطاف يتصل بشخص ما من دائرة معارف الضحية، ويرسل دليلًا له، ثم يسمح بمرور ثمانٍ وأربعين ساعة ليحل خلالها هذا الشخص لغز سبب الاختطاف -ما لم يتصل أحد بالشرطة أولًا- ثم بعدها يقتل النساء، وهو تمثيل حر يستند على قصص من كتاب الأطفال «بيتر ذو الرأس الأشعث».

ثم أنهت زابينه تقريرها بأن قالت: «... ودكتور هارمان هي ضحيته السابعة والأخيرة حتى الآن».

«بيتر ذو الرأس الأشعث»! عرفت هيلين الكتاب المصور، لم يُذكر شيء من هذا في الأشرطة، لكن لا بد أنه بسبب تعذيب الأب. **خمس جرائم قتل في مثل هذا الوقت القصير!** إنها بحاجة إلى هضم كل شيء أولًا، هناك عشرات الأسئلة التي تتبادر إلى ذهنها في وقت واحد: «أين وجد كارل الوقت الكافي لتنفيذ جميع جرائم القتل في شهرين فقط؟».

أجاب شنايدر: «لقد ضرب بمهنة ميكانيكي السيارات عرض الحائط».

- ومن أين أتى بالمال لتنفيذ حملة ثأره التي بلغت شهرين؟

بدا تعبير شنايدر متحجرًا: «لا نعرف».

قالت هيلين: «هذه المرة استلهم قصة مص الإبهام، لقد قطع أصابع الدكتورة هارمان، ربما باستخدام مقص ثلْم».

اقترب شنايدر: «واصلي الحكي.. قولي كل ما تعرفينه عنه».

لم تعد نبرة صوته طنانة كالسابق، نظرت هيلين إلى ساعتها، تبقى خمس عشرة دقيقة قبل انتهاء الموعد النهائي، ثم جلست على الأريكة، وقفز داستي عاليًا نحوها.

- حملت والدة كارل للمرة الأولى وهي في عمر السابعة عشرة، وبعد خمس سنوات، في السادس من أغسطس تحديدًا، فقدت طفلتها، لقد خالفت ماريا الصغيرة تعليماتها وركضت نحو بركة السباحة وغرقت بها، لكن والدة كارل لم تتجاوز الأمر قط، وبعد أن افترسها تأنيب الضمير، لجأت إلى علاقات عاطفية عدة، على أمل أن يرفضها زوجها، لكنه لم يفعل ذلك، ثم حملت بكارل، لكنها لم تستطع تحمل الخوف من فقدان هذا الطفل أيضًا، فهددت بترك الأسرة، وعندها عاقب الأب كارل وأجبره على الطاعة المطلقة، لقد بدأت السيرة في فيينا واستمرت في المدن الأخرى.

سأل بن: «لماذا يقتل كارل جميع النساء اللاتي كان على اتصال بهن في أثناء طفولته ومراهقته؟».

بعد الاستماع إلى الأشرطة صارت الإجابة في يدها.

- كانت كراهيته لأخته التي لم يلتقِ بها قط تتمثل فيهن.

- ولماذا يختطف معالجته النفسية؟

الآن فقط أدركت أن كارل بوني لم يهدد بقتل امرأة فحسب، بل كان بالفعل قاتلًا متسلسلًا، وفجأة انفجرت منها الكلمات، وقالت وهي تنتحب: «في الخامسة صباحًا وقف خارج منزلي ودس إصبعها في صندوق البريد الخاص بي، ثم طالبني بمعرفة السبب، لقد أراد أن يقتلها ويلقي باللوم عليّ في ذلك...».

كادت الوحدة تدفعها للجنون، والآن فقط تحرر صدرها مما يجثم عليه، وأخيرًا يمكنها أن تشارك حزنها مع شخص ما وتخبره بما مرت به خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية: «لم أكن أعرف إذا ما...»، تجمعت الدموع في عينيها.

جلس بن على الأريكة بجانبها وأخذها بين ذراعيه وهو يقول: «لا بأس!».

شعرت بدفئه، واستنشقت رائحة جلده، ورائحة عطره، أشعرتها تلك الرائحة المألوفة بالأمان الذي لم يستطع فرانك أن يمنحها إياه، فأغلقت عينيها وتركت نفسها تهوي، وتبكي على كتف بن مثل طفل، وقد سمح لها بذلك وأخذ يمسد على شعرها.

صعد داستي فوقها وأخذ يلمسها بمخالبه ثم لعق وجهها، فدغدغتها شعيرات ذقنه، فأجبرها على الابتسام بلطف في النهاية وقالت: «لا بأس يا صغيري». ابتعدت عن حضن بن ومسدت بيدها خلف أذن داستي.

تنحنح شنايدر. تعليق غبي واحد منه وستبدأ في البكاء مرة أخرى، لكنه بدلًا من ذلك تكلم بنغمة لطيفة: «ليس عليك أن تلومي نفسك، فعلى حد علمنا حتى هذه اللحظة، يقتل كارل بوني ضحيته بمجرد أن يخالف شخص ما قواعده ويبلغ الشرطة».

جففت هيلين الدموع من وجهها، عندها فقط لاحظت أن خدَّي المحققة الشابة قد توهجا، كما تجمعت الدموع في عينيها. يا إلهي، عليها أن تتمالك نفسها وإلا فستجعل كل من في الغرفة يبكي.

قالت وهي تبكي: «لقد اكتشفت الآن فقط سبب الاختطاف، أرادت هارمان أن تصنع لنفسها اسمًا بتحقيق نجاح علاجي سريع، وقد وثق بها كارل، لكنها خانته مرتين: مرة بالتنويم المغناطيسي، ومرة أخرى باستخدام حبة الحقيقة، وهو مثل صبي ساذج سمح لها بأن تخدعه، والآن تحول عالمه العاطفي إلى فوضى لا يمكن السيطرة عليها، ولم تمتد كراهيته إليها فحسب، بل إلى جميع النساء منذ طفولته».

سأل شنايدر: «هل لديك أي فكرة عن سبب اختيار كارل لك بالذات بهذه اللعبة؟».

لأنه اكتشف أن زوجي يمارس الجنس مع معالجته!

أجابت هيلين بعد قليل: «لقد كنت أنا معالجتها النفسية».

لقد أخبرت بن بذلك أيضًا عبر الهاتف، فهي تفضل قطع لسانها قبل أن تفشي المزيد.

التفت شنايدر نحو زميلته: «أيتها السنجابة، هناك خلل في نظريتنا، فتاريخ الاختطاف في اليوم السادس من الشهر ليس له علاقة بعيد ميلاد كارل، بل بوفاة أخته، وفي يوم 20 ديسمبر توفي والده، الأمر كله يتعلق بالموت، يومان من الموت لا يمكن نسيانهما.. يا سنجابة؟».

بدت زابينه نيميتس وكأنها شردت في أفكارها، وتبددت نظرتها في الفراغ، وكانت عيناها ما زالتا حمراوين، قالت: «كان عليّ أن أفكر في والدتي... لقد قيدها كارل بالسلاسل في أرغن الكاتدرائية في ميونخ في الساعة السابعة والنصف مساء الأحد وخنقها بالحبر، ولا بد أنه أسرع بعد ذلك كالشيطان إلى فيينا، لكي يتمكن من قطع إصبع روزه هارمان، الذي تركه في صندوق البريد في الخامسة صباحًا، لا بد أنه اختطفها من شقتها في حوالي الساعة الثالثة والنصف تلك الليلة، إنه يعمل تحت ضغط الوقت!».

سألت هيلين: «هل كانت والدتك إحدى ضحاياه؟ يا إلهي! لم أكن أعرف ذلك، أنا آسفة جدًّا». الآن صارت الأشياء منطقية، لقد فقدت هذه المرأة والدتها منذ ثلاثة أيام، وبينما حزن الآخرون، جاءت هي إلى فيينا لمطاردة شبح سيستمر في القتل إذا لم يوقفه أحد.

وقال شنايدر: «كارل بوني لا يضيع أي وقت، المسافات أصبحت أقصر، ولعبته تقترب من نهايتها».

تصحح له هيلين: «إنها ليست لعبة، بل حملة انتقامية متقنة». نظرت إلى الساعة ثم فتحت الهاتف: «يجب أن أترك له رسالة على بريدي الصوتي وإلا سيقتل روزه هارمان».

ضاقت عيون شنايدر: «لحظة واحدة! هل تعتقدين أنه من الممكن أن يكون لدى كارل بوني شريك؟».

هزت رأسها بالنفي.

- هل أنت متأكدة؟

- قطعًا، لقد أسيء التعامل مع ثقة كارل بوني، وتعرض للخذلان، وهو الآن يحاول استيعاب الألم والتعذيب الذي تعرض له في طفولته بطريقته الخاصة، لن يطلع أي شخص على خططه، فكارل وحيد مثل إنسان يستطيع فقط أن يكون موجودًا، مثل صرخة للمساعدة يرجو بها من أقارب ضحاياه معرفة سبب أفعاله، ربما لا يعرف السبب بنفسه، والإجابة الصحيحة ستسمح له بوقف الانتقام.

اختصر بن: «إذًا ليس ثمة شريك؛ لذا نستطيع أن نوفر على أنفسنا عناء تزييف الأخبار».

صرخت هيلين: «ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟».

فأوضحت زابينه نيميتس: «لقد أطلق الرصاص على كارل بوني واعتقل قبل بضع ساعات، لكنه يغط في نوم عميق ولا نعرف أين يحبس الدكتورة هارمان».

أنزلت هيلين ذراعها بالهاتف وكررت: «اعتقل؟».

لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا! لماذا تكلف نفسها عناء معرفة كل هذا عن كارل بوني إذا كان رجال المباحث قد ألقوا القبض عليه منذ ساعات؟

نظرت إلى الساعة، لقد انتهى الموعد النهائي الخاص بها للتو، إذا ألقي القبض على الوحش..

وهنا جعلها رنين هاتفها تقفز.

متصل غير معروف.

33

ارتعشت هيلين وهي تقول: «إنه هو».

اعترض بن: «لا يمكن أن يكون هو! فكارل يرقد في وحدة العناية المركزة بالمستشفى العام تحت حراسة ثلاثة ضباط».

كررت هيلين: «إنه هو»، لقد شعرت أن دوره قد حان، فبمجرد الرد على المكالمة، ستسمع صوت كارل بوني المشوه، ستسمع نبرته المتعالية والسؤال عما إذا كانت قد عرفت سبب الاختطاف، وهناك شيء آخر تعرفه: لقد قطع كارل بوني الآن أصابع روزه هارمان جميعها.

قبض بن على يديها وقال: «اهدئي، لقد احتجز كارل بوني».

اللعنة! لا، أنت مخطئ! لقد دفعها الرنين إلى الجنون.

تدخل شنايدر قائلًا: «أيًا كان المتصل، اضغطي على مكبر الصوت وردي على المكالمة قبل أن يغلق الخط».

وضعت هيلين الهاتف على الطاولة وأجابت: «مرحبًا؟».

وفي اللحظة التالية ارتعبت، فقد رد عليها الصوت المشوه: «لقد انتهت المهلة الزمنية الإضافية!».

انتصبت أذنا داستي، لكنه لم يصدر صوتًا، ثم وقف بن ومارتن شنايدر وزابينه نيميتس حول الطاولة وأنصتوا، أشار شنايدر بإيماءة دائرية نحو الأذن ثم إلى الأعلى، فقفز بن على الفور وأمسك بهاتفه وغادر الغرفة.

- لماذا رددت على الهاتف؟ أظن أننا اتفقنا على شيء.
- لقد كنت بصدد تفحص البريد الصوتي في تلك اللحظة.

فتذمر قائلًا: «حسنًا، هل تضعينني على مكبر الصوت؟».

كذبت هيلين: «لا، فأنا واقفة في الحمام، إنه صدى صوت».

- وفي أي منزل أنت؟

- في مكتب روزه هارمان.

لم يبدُ عليه التفاجؤ حتى، وأكمل: «من معك؟». كانت يدا هيلين ترتجفان، وقالت: «كلبي فقط»، فهذه المكالمة تبدو مختلفة عمّا سبقها من مكالمات، فهي الآن تعرف أنها تتحدث مع قاتل أنهى حياة خمس نساء، ولن يسمح لها بمراوغته طويلًا، فأضافت هيلين بسرعة: «لقد اكتشفت ما تريد معرفته».

- أمامك دقيقة واحدة.

وبحركة يد لطيفة أشار لها شنايدر بأن تجيب ببطء وألا تفقد أعصابها، ومن طرف عينها رأت بن يقف في الردهة، ويحجب فمه وهو يتمتم في الهاتف، من المحتمل أنه يملي رقم هاتفها، وسيبدأ بتتبع البيانات، وكان عليها أن تكسب الوقت.

أخذت هيلين نفسًا عميقًا وقالت: «لقد اختطفت روزه هارمان، وهي معالجتك النفسية، وقد حكمت لك المحكمة بالعلاج بدلًا من العقاب»، صمتت قليلًا وكان الرجل ينصت، ثم أردفت: «أستطيع أن أفهمك جيدًا، لقد كذبت عليك روزه وخدعتك وخانت ثقتك بها، وأنت تمر الآن بموجة من المشاعر المتناقضة».

أخذ شنايدر مفكرة من على الطاولة وكتب شيئًا ما على قطعة من الورق.

هل هو كارل بوني؟

أومأت هيلين برأسها، لقد فهمت وأكملت حديثها: «كارل بوني، أنا أشعر بما في نفسك، كان على روزه أن تتعامل فقط مع سلوكك العدواني تجاه النساء، لكنها أثارت ماضيك، وتعذيب والدك لك، وعلاقات والدتك العاطفية، وموت أختك..».

قاطعها الرجل: «لم يكن لها الحق في فعل ذلك!».

وأكدت هيلين: «هذا صحيح، خاصة أن روزه نفسها كانت على علاقة برجل متزوج وفقدت طفلًا، كما نعلم نحن الاثنان، أنا أستطيع مساعدتك».

- أنا لا أحتاج إلى مساعدة من المدعين المنغمسين في الخراء كليًّا بدرجة تحتم علينا حبسهم!

أنهى بن مكالمته وعاد إلى الغرفة، وأشار بإبهامه إلى أعلى، فنظر إليه شنايدر نظرة جادة، يبدو أنه فهم أخيرًا أن الرجل الموجود في المستشفى لم يكن كارل بوني.

وبينما كانت هيلين تفكر فيما ستقوله بعد ذلك، كتب شنايدر كلمة أخرى: **قواعد اللعبة.**

فهمت هيلين على الفور: «كارل، لقد اكتشفت سبب اختطافك لروزه، وبسبب تدخلك افتضحت تجاوزات روزه، وقد اكتشفت العلاقة غير الشرعية لها، ستتحمل روزه المسؤولية على المستويين الشخصي والمهني، فتذكر قواعد اللعبة الخاصة بك!».

- ما قواعد اللعبة؟

- لقد حللت اللغز الخاص بك، وقد وعدت بإطلاق سراح روزه، من فضلك خذها إلى أقرب مستشفى! إنها بحاجة إلى رعاية طبية.

خربش شنايدر بقلمه غاضبًا على ورقة جديدة، ووضعها على الطاولة أمام هيلين.

لم يكن في حسبان كارل أن تكشفي أمر كل شيء.. إنه يريد المزيد من رقة الإحساس!!!

جاءها صوته من مكبر الصوت: «أنت على حق، وقد منح ذلك اللعبة قاعدة إضافية لم تكن ضرورية من قبل».

- ما القاعدة الإضافية؟

هز شنايدر رأسه وكأنه يتعامل مع هواة، ثم دفع على عجل قصاصة جديدة من الورق نحوها.

شككي!

يا إلهي كيف لها أن تنسى ذلك! فأضافت بسرعة: «ماذا تقصد بـ «لم تكن ضرورية من قبل»؟ هل لعبت هذه اللعبة من قبل؟».

كانت على وشك الكشف عن أنها على اتصال بالشرطة وأنها تعلم بجرائم القتل.

- من الواضح أنك لا تعرفين كل شيء بعد.

كان هناك رضًا في صوته وأردف: دعينا ننتقل إلى المرحلة التالية من اللعبة، فإذا تمكن الشخص من حل اللغز، فستظل المرأة المخطوفة على قيد الحياة كما وعدت، لكن الشخص الذي حل اللغز سيحل محلها.

اسودت الدنيا في عيني هيلين للحظة، واضطربت معدتها، فدفعها داستي بأنفه.

وضع شنايدر القصاصة التالية على الطاولة.

العبي معه!

هزت هيلين رأسها، تحجرت تعابير وجه شنايدر وهو يشير بإصبعه إلى القصاصة.

سألت هيلين: «ما الذي تنوي فعله بي؟».

- لقد حللت اللغز وأنقذت حياة روزه هارمان، والآن نواصل اللعب.. حياتك في يد شخص آخر.

كانت كلمة «لا!» على طرف لسان هيلين، لكن شنايدر أصر على تنفيذ ما بالقصاصة بشكل قاطع.

- سأعطيك عنوانًا تأتين إليه بسيارتك، تعالي إلى هناك، وسأحرر روزه.

بكت هيلين: «ومن المفترض أن أثق بك؟».

– هل تريدين أن تكوني مسئولة عن وفاة الدكتورة هارمان؟

– أنت تعرف ما فعلته بي تلك المرأة!

– لم تكوني لتكتشفي ذلك لولاي، أعتقد أنك مدينة لي، كما أنني لم أكذب عليك حتى الآن.

– أريد دليلًا على أن روزه لا تزال على قيد الحياة.

لوى شنايدر وجهه بأسى.

قال لها: «سأتصل بالخط الأرضي بعيادة دكتور هارمان خلال ثلاثين دقيقة، وسأعلمك بالمكان الذي يجب أن تذهبي إليه».

انقطع الخط.

صاح شنايدر: «اللعنة! لقد كدت تفسدين كل شيء تقريبًا!».

ظلت هيلين هادئة: «لم أكن لأفعل، هل تعتقد أنه سيشعر بالخيانة إذا لعبت معه دون تردد؟».

– إن الجنون الذي يعيش فيه هو شكل آخر من أشكال الواقع، لم يكن ليلاحظ ذلك.

أرخى شنايدر كتفيه المتوترين.

– هل كان هذا هو الصوت المشوه نفسه الذي سمعته قبل يومين؟

أومأت هيلين.

التفت إلى بن وهو يقول: «على الأقل هناك شيء.. هل يمكننا تركيب جهاز تعقب خلال ثلاثين دقيقة؟».

أجاب بن: «غير ممكن بدون قرار من المحكمة يبرم بالتواصل مع المعالجة.. فليذهب كل ذلك إلى الجحيم، سنفعل ذلك على أي حال».

اتصل بزملائه من مكتب التحقيقات الاتحادي في فيينا وقال: «الأمور واضحة».

وبعد فترة وجيزة رن هاتفه، واستمرت المكالمة لدقيقة واحدة فقط ثم أغلق الخط.

أخبرها بن: «لقد حددنا الآن مصدر المكالمة، إنه هاتف ذو بطاقة دفع مسبق لا يوصلنا إلى أي مكان».

سأل شنايدر: «والموقع؟».

هز بن رأسه: «نحتاج إلى مزيد من الوقت لنكتشف من شركة الاتصالات أبراج الهواتف المحمولة التي سجل الهاتف الدخول إليها، وحتى يحدث ذلك فالرب وحده يعلم أين يكون».

ثبت شنايدر على إلحاحه: «اثبت على طلب تعقب موقع الهاتف رغم ذلك!».

- لن أمنّي نفسي بشيء من هذا، في غضون خمس وعشرين دقيقة سنعرف الموقع الذي سنلتقيه فيه على أي حال، ثم سنذهب إلى هناك و...

وقفت هيلين وقالت: «نحن؟ إذا كنتم تعرفون مكان هذا الرجل، فيمكنكم إذًا الإمساك به، لكنني سأخرج من هنا».

نظر إليها بن بتفهم وقال: «نعم بالطبع، شكرًا لتعاونك معنا في المطلق».

تقدم شنايدر نحوهما وقال: «لا يمكنني إجبارك على التعاون معنا، لن أفعل ذلك أبدًا، لكن ميزتنا هي أن كارل بوني لا يعرف أنك تتعاونين معنا»، ثم ألصق إبهامه وسبابته معًا وأكمل: «نحن قريبون جدًّا من القبض على هذا الرجل، أريدك أن تتظاهري لمدة ساعة واحدة فقط بأنك تلعبين وفق قواعده، حتى نقبض عليه ونطلق سراح روزه هارمان.. هناك مخاطر بالتأكيد، لكن يمكننا القضاء عليها».

حدجت بن بنظرة ارتياب.

رفع كتفيه وقال: «من مصلحتك أن نقبض عليه، فكارل بوني يعرف المكان الذي تعيشين فيه وأنت على قائمة المستهدفين عنده، يمكننا الآن أن نوقفه للأبد بمساعدتك، لكن العملية غير آمنة».

كانت زابينه نيميتس هي الوحيدة ذات الوجه التعس، ويبدو أيضًا أن هيلين تهز رأسها دون وعي.

قالت هيلين: «لا يزال أمامنا بعض الوقت.. سأفكر في الأمر».

وقفت هيلين في المطبخ الصغير بمكتب روزه هارمان، وأخذت تستمع إلى الرجال الذين يتحدثون عبر الهاتف في غرفة العلاج، وتركت شريط أحداث اليومين الماضيين يمر أمام عينيها، في تلك الأثناء كان داستي يرقد متكورًا على نفسه على الأرض، حدقت في شاشة هاتفها فوجدت أن بن حاول الاتصال بها مرتين اليوم بعد الظهيرة، كما حاول فرانك الاتصال بها خمس مرات، ربما ظل يركض هنا وهناك في المنزل مثل جعيدان[1]؛ لأنه اضطر إلى الاهتمام بأمر حفله.. لا تهتمي! فهو لا يستحق ذلك بأي حال!

دخلت زابينه نيميتس المطبخ واستندت على الموقد مقابل هيلين: «أنت لست مضطرة لفعل ذلك».

- أعلم ذلك.

- هل يمكنني أن أسألك عن شيء؟

ثم انتظرت حتى أومأت هيلين برأسها، فقالت: «لماذا قتل كارل بوني والدتي؟».

- وما رأي زميلك عالم النفس الجنائي؟

قطبت زابينه حاجبيها وقالت: «لست متأكدة، قد يكون شنايدر عبقريًا، لكنه يعيش في عالمه الخاص، الذي يتمحور حول ذاته فقط»، بدت غير متحمسة تمامًا.

---

(1) شخصية خيالية ألمانية مشهورة، ظهرت في حكايات الأخوين جريم، وهو مخلوق قزم يحول القش إلى ذهب.

وأوضحت هيلين: «رأيي هو أن ذكاء كارل يتجاوز المعدل المتوسط، ولكنه غير قادر على التعاطف، فهو لا يملك أي شعور بالذنب؛ حيث إنه لا يتعلم من التجربة، ولا يستطيع أن يتخيل نفسه مكان الآخرين، ولا يستطيع الحفاظ على علاقات طويلة الأمد، ويتجاهل جميع الأعراف والقواعد الاجتماعية، أضيفي إلى ذلك عدم قدرته على تحمل الإحباط، فقد ضربه والده عدة مرات حتى الموت تقريبًا؛ ظنًّا منه أن زوجته التي كانت تخونه بانتظام ستترك العائلة بسبب كارل».

ولاحظت الدموع تتشكل في عيني زابينه فقالت: «أعتقد أنه سيكون من الأفضل لو...».

- من فضلك استمري في الحديث..

فكرت هيلين: «حسنًا، تخيلي نظام شخص معتل اجتماعيًّا وضخميه أضعافًا، ستتكوّن لديك فكرة تقريبية عن البيئة والعالم الذي يعيش فيه كارل، إنه يكره المظاهر والعلاقات المنافقة والأشخاص الذين يخونون شركاءهم، فالأكاذيب والزيف تسببا له في حياة طويلة من التعذيب، لقد فتح علاج روزه هارمان صمامًا بداخله.. أفترض أن والدتك كانت إحدى معلمات كارل».

أومأت زابينه برأسها ثم قالت: «أشكرك».

غيرت هيلين الموضوع وقالت: «كيف تتعاملين مع رئيسك في العمل؟».

- شنايدر ليس رئيسي، أنا أعمل في خدمة التحقيقات الجنائية في ميونخ، لقد سمح لي فقط بمساعدته في التحقيق.

- لكن هذا لا يجيب عن سؤالي حول كيفية التعامل معه.

- إنه يعطي انطباعًا من الخارج بأنه أحمق، لكنني أعتقد أن بداخله شخصًا جيدًا، لماذا تسألين؟

قالت هيلين: «كنت أعمل طبيبة نفسية جنائية لدى الشرطة، حتى إن هناك بعض القضايا التي عملت عليها مع بن كولر... لقد وقعت عليّ صنوف من الطيور الغريبة، لكنني لم أقابل قطّ شخصًا ساخرًا من هذا القبيل، يقتنع بأنه هو المقياس لكل الأشياء».

ابتسمت زابينه بمرارة: «لديك مهارات جيدة نوعًا ما في فهم الناس».

أجابت هيلين: «إنها وظيفتي».

ورغم ذلك فشلت مع زوجي وعميلتي.

دخل بن المطبخ: «تبقى عشر دقائق أخرى وسيتصل كارل».

تجاوزته زابينه وهي تقول: «أفضل أن أترككما وحدكما».

لمس بن كتف هيلين وهو يقول: «لا أريدك أن تتصرفي تصرفًا طائشًا».

- هيا يا رجل، لقد عملنا معًا فترة طويلة بما يكفي، هل رأيتني أفقد أعصابي من قبل؟

هز رأسه نافيًا.

- كيف تجري الاستعدادات؟
- وحدة فيجا جاهزة للعمل معنا، وتنتظر إشعارًا بموقع اللقاء، كما سيراقب فريق الشرطة الجنائية الاتحادية جميع طرق الوصول إلى نقطة الالتقاء، لا أشعر بالراحة من فكرة استخدامك طعمًا له، ففرصتنا في القبض عليه دون مساعدتك لا تزال جيدة.
- إذًا فربما تموت روزه هارمان.

في الواقع لم تكن هذه المرأة تهمها كثيرًا، لكن هيلين كانت معالجة، وآنا لينر قد أتت إلى عيادتها بصفتها عميلة، حتى وإن كان ذلك تحت ذرائع كاذبة، ثمة تناقض في الأمر، لكن هيلين شعرت بالمسؤولية تجاه عشيقة زوجها.

فجأة رن هاتف بن القديم، فنظر إلى الشاشة، وقال بعد هنيهة: «إنه زوجك»، ثم رد على المكالمة: «مساء الخير حضرة المدعي العام... لا، أنا آسف لا أستطيع الحضور إلى حفلك.. مهمة عاجلة؟.. زوجتك؟»، ثم نظر نحو هيلين نظرات متسائلة.

فهزت رأسها بالنفي.

- لا أعرف مكانها.. نعم، سأخبرك إذا اكتشفت أي شيء، شكرًا لك، وداعًا، ثم دفع الهاتف بعيدًا.

ظل بن صامتًا، ولم تكن مضطرة إلى شرح أي شيء له، فهو ليس غبيًّا وقد خمن بالتأكيد أن زواجهما على المحك.

قال أخيرًا: «لقد قصصت شعرك، إن تسريحة الشعر هذه تليق بك جدًّا».

- هل أعجبتك؟

- لقد ألقيت نظرة منذ مدة قصيرة على موقع الويب الخاص بك، أردت أن أتأكد من أنك ما زلت تستخدمين رقم هاتفك القديم وتديرين عيادتك الخاصة في جريسكيرشن.

- لا أفضل التغييرات.

- أعرف ذلك، ما زلت أرى على صفحتك تلك الصورة القديمة في جزيرة إيبيزا.

يا إلهي هذه الصورة! لقد التقطها بن لها قبل ست سنوات خلال إحدى الإجازات؛ حيث كانت الرياح تتسلل عبر شعرها الأسود الطويل كقطار سريع.. لقد أشعرها ذلك بدفء بين جوانحها.

قال بن: «ما زلت أحتفظ بتلك الصورة في محفظتي»، ثم ابتسم للحظة، وزم شفتيه وقال: «لماذا لم تحدّثي الصورة طوال هذه المدة الماضية؟».

- إنها جميلة، أنا أحبها.

- لكنها لم تعد جميلة جدًّا.

لكمته في جانبه وهي تقول: «أيها الوغد!» فتأوه باصطناع، وللحظة بدت علاقتهما كما كانت سابقًا، عندما لم تكن قد تزوجت من فرانك بعد.

ثم دخل شنايدر وزابينه المطبخ، فقال شنايدر: «لا أرغب حقًّا في تعكير صفو الشباب، لكن وقت ذكريات الماضي قد انتهى».

يا لمشاغبته!

بدا بن وكأنه يريد خنق شنايدر، وفي تلك اللحظة اهتز هاتف هيلين، فنظرت إلى الشاشة وقالت: «هناك رسالة نصية».

اقترب بن وشنايدر.

فقرأت هيلين: «24 كوبنتسلجاسي، خلال نصف ساعة».

سب شنايدر قائلًا: «هذا الذكي ابن العاهرة! لقد أرسل رسالة نصية بدلًا من الاتصال بالخط الأرضي، أين يقع شارع كوبنتسلجاسي؟».

أوضح بن: «في منطقة نائية في الضواحي الغربية بفيينا، لقد عاشت والدة كارل بوني هناك في منزل صغير بحديقة أمامية»، ثم نظر إلى الساعة وقال: «إذا خرجنا الآن بالسيارة، فيمكننا الوصول إلى دوبلينج خلال ثلاثين دقيقة».

اتصل بمكتبه وقدم وصفًا لكارل بوني وروزه هارمان وأرسل وحدة مراقبة إلى كوبنتسلجاسي، ثم أجرى مكالمة أخرى وهو يقول: «حسنًا»، قال بعد أن وضع الهاتف جانبًا: «سنطوق الطرق المؤدية إلى كوبنتسلجاسي خلال عشر دقائق، ستصل فرقة عمل فيجا إلى هناك خلال خمس وعشرين دقيقة وتنتظر الأمر بالتدخل».

قال شنايدر: «خمس وعشرين دقيقة؟»، ثم نظر إلى الساعة وأردف: «الأمر يتعلق بجرائم قتل ورهائن محتجزة تحت تهديد السلاح، ثم نجد زملاءك يتحركون بهذا الإيقاع البطيء، فلو وضعنا مكانهم حيوان أبسوم لكان أكثر

نشاطًا من ذلك!»، طقطق فقرات رقبته وكأنه يريد تخفيف سخطه، ثم التفت إلى هيلين وقال: «والآن؟».

لم تحب سخرية شنايدر، لكن الأكبر من ذلك هو أنها كرهت فرانك، الذي وضعها في هذا الموقف بسبب علاقته الغرامية، فقالت بصوت خافت: «سأفعل ذلك».

أومأ شنايدر بارتياح: «أنت لست ذكية فحسب، بل شجاعة أيضًا.. شكرًا لكِ».

سألته: «كيف سيسير الوضع؟».

تنهد بن بأسف، ولم يستطع إخفاء مخاوفه عنها: «ستركبين سيارتك وتتجهين إلى العنوان المذكور، وسنتبعك في سِرية، لن تلاحظينا».

فحدجته بنظرة متشككة.

حاول طمأنتها: «زملائي السابقون من فيجا ينتظرونك هناك.. في واقع الأمر لن يصيبك شيء».

عرفت هيلين ما الذي تعنيه كلمة «في واقع الأمر»، وهو أن الوضع قد يخرج عن نطاق السيطرة لعدة أسباب، وهذا الشك بالتحديد هو ما رأته في عيني زابينه.

34

عندما غادر بن وزابينه وشنايدر عيادة الدكتورة روزه هارمان، كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة والنصف بقليل، تبعتهم هيلين وأغلقت بوابة المنزل، واتجه الضباط إلى سيارة العمل الخاصة بـ بن وتوجهت هي نحو سيارتها، ثم ركض داستي خلفها، كان المطر يتطاير في الهواء، وقد أظلمت السماء بالفعل بسبب الغيوم العاصفة، فقالت في نفسها إن هذه هي نهاية شهر مايو.

فتحت الباب ونظرت نحو سيارة بن، التي تقف على بعد ثلاثين مترًا تقريبًا خلف سيارتها، ثم دمدم داستي، فقالت: «لا تقلق يا صغيري، إنهم يعرفون ما يفعلونه».

ظل داستي يزمجر رغم ذلك كله، أما هي فقد قالت له ذلك لتشجع نفسها، دخلت السيارة بسرعة وأدارت المحرك، فانطلقت الموسيقى من الراديو على الفور، ووقف داستي على الرصيف وكشر عن أنيابه.

صرخت هيلين وهي تضع حزام الأمان: «تحرك! هيا، ادخل معي!»، ثم دقت بيدها على المقعد بجانبها، وأخيرًا قفز داستي على المقعد وهو لا يزال ينبح، وبعد أمر حاد آخر منها تكور على نفسه على مضض في مقعد، لكنّ شفتيه ظلتا مرفوعتين وأذنيه ظلتا مفلطحتين، ما خطب هذا الكلب؟

وبمجرد أن أغلقت الباب، سمعت صوتًا في المقعد الخلفي، فزمجر داستي مرة أخرى ثم شعرت بنصل السكين الحاد بين ضلوعها، رفعت ذراعيها بشكل تلقائي، فقد قيدها حزام الأمان، وبدأ قلبها يخفق بشدة، نظرت في مرآة الرؤية الخلفية، فوجدت أن بن والآخرين قد ركبوا السيارة بالفعل، ثم حجب عنها هذا الشخص -الذي يجلس بالمقعد الخلفي ويرتدي قبعة- الرؤية.

قال الرجل: «يبلغ طول النصل اثني عشر سنتيمترًا، سيخترق رئتيك مثل الزبدة، وفي أقل من دقيقة ستختنقين بدمائك في تلك السيارة؛ لذا أضيئي إشارة الانعطاف وانطلقي ببطء!»، كان صوته واضحًا وودودًا.

نبح داستي.

- توقف!

ارتعش صوت هيلين، فقد شعرت بأنفاس الرجل، ورأت في المرآة الخلفية أن غطاء رأسه كان خلف مسند رأسها مباشرةً، لم يكن مضطرًّا إلى التخفي، فمن موقع بن وشنايدر كان من المستحيل ملاحظة وجود أي شخص آخر في السيارة معها.

حدقت في بوق السيارة، هل عليها المخاطرة بذلك؟ نظرت لفترة وجيزة في مرآة الرؤية الخلفية، كانت عيون الرجل مثبتة عليها.

- لا تفكري في ذلك حتى!

تمتمت هيلين: «أنت كارل بوني، أليس كذلك؟»، لكن كان بإمكانها أن توفر على نفسها هذا السؤال، فقد عرفت صوت كارل ولهجة ألمانيا الشرقية من أشرطة روزه هارمان.

صرخ فيها بصوت خفيض: «انطلقي!».

أضاءت هيلين مؤشر الانعطاف، وانحرفت بالسيارة من ساحة الانتظار، في حين ظل داستي ينبح، فربتت عليه بيدها وهي تقول: «لا بأس يا صغيري».

- أعيدي يديك إلى المقود!

واتضح لها الآن سبب عدم كشف الرجل عن هويته في البداية، فلو فعل لانحرفت بمقود السيارة من الخوف، وفي المرآة الخلفية رأت أبواب سيارة بن مغلقة، لكن السيارة لم تتحرك بعد، اللعنة، لماذا لا يتقدمون؟

- انظري إلى الأمام!

نظرت إلى الأمام مباشرة، لكنها حدقت في المرآة الجانبية، فوجدت الأبواب تفتح، وبن يخرج من السيارة، ويلوح لها.

قال الرجل لها: «انظري أمامك!»، ثم اخترق طرف السكين بدلة هيلين الرياضية ووخزها بين ضلوعها.

- أغلقي الراديو!

أغلقت هيلين الجهاز، حتى ساد الصمت في السيارة باستثناء صوت أنفاس الرجل ودمدمة داستي. وجهها أولًا إلى اليمين نحو درب كيتسرجاسي، ثم إلى اليسار باتجاه شارع تريزتر شتراسه، وقد أفسحت المنطقة الريفية المجال لمراكز التسوق والمباني السكنية الرمادية، وصلا إلى تقاطع مزدحم حيث ينطلق الترام، وتصطف الشاحنات على الطريق الفرعي.

أمرها الرجل: «أبطئي السرعة!».

تحولت إشارة المرور إلى اللون الأحمر وتوقفت هيلين، دفع الرجل نفسه إلى الأمام بين المقعدين وغرس السكين في جانبها، ولأول مرة ترى عينيه بوضوح، كان لزرقة عينيه القاتمة ولرموشه الطويلة الملتفة تأثير منوم، عمره ثلاثة وعشرون عامًا تقريبًا، وله وجه نحيل ومستدير وشعر أشقر يكاد يكون ذهبيًّا، نبح داستي عندما أمسكه من طوقه وأجبره على النزول أسفل المقعد.

توسلت هيلين قائلة: «من فضلك لا تؤذِ الكلب».

فتح الرجل الباب ودفع داستي بقدمه، فأمسك الكلب ببنطاله، لكن الرجل دفعه إلى الخارج ثم أغلق الباب بقوة وجلس في المقعد المجاور لها.

- لا، من فضلك لا تفعل ذلك!

أرادت هيلين الخروج، لكن الرجل وضع يده على زر تثبيت حزام الأمان، وفي الوقت نفسه غرس نصل السكين أعمق في ضلوعها.

- لقد خنتِني، وإن لم تفعلي ما آمرك، فسأطعنك.

وقف داستي بجانب السيارة، لم تره، لكنها سمعته يئن ويخدش بالباب بمخالبه.

انفجرت هيلين في البكاء: «من فضلك لا تفعل ذلك، لا تترك الكلب في الخارج بمفرده».

كانت إشارة المرور لا تزال حمراء.

فتح النافذة قليلًا وقال: «أعطني هاتفك!.. هيا!».

يمكنها سماع أنين داستي بصوت أعلى الآن، أعطته الهاتف فألقى به خارجًا من خلال فتحة النافذة، ومسحت هيلين الدموع من عينيها، ألا يلاحظ أحد من المارة ما يحدث؟ مع رؤية ضبابية رأت في مرآة الرؤية الخلفية أنه لا توجد سيارة تتبعها.

ترى أين هما؟

تحولت إشارة المرور من الأصفر إلى الأخضر.

«انطلقي!» غُرِس طرف السكين في لحمها، فصرخت هيلين، ثم شغلت المحرك وانطلقت، وسرعان ما تجاوزهم الترام، في المرآة الجانبية رأت داستي يركض خلف السيارة بجوار الترام، يا إلهي! فالكلب يركض في تقاطع طرق دون تفكير.

- أسرعي!

الآن جاءت المرحلة الخضراء، وبعد عدة تقاطعات جلس داستي على جانب الطريق عند إشارة المرور، فانفطر قلب هيلين عندما رأت كلبها يقف وحيدًا عند التقاطع، وعيناه تلاحقان السيارة، وبأصابع مرتعشة شغلت نظام الملاحة.

- أخبرتك أن تبقي يدك على المقود!

قالت وهي تبكي: «أحتاج إلى الجي بي إس، فأنا لا أعرف كيف نصل إلى درب كوبنتسلجاسي».

أوقف الرجل تشغيل الجهاز، في حين تناثرت قطرات المطر الأولى على الزجاج.

- هل تظنين حقًّا أننا سنذهب إلى كوبنتسلجاسي؟

35

اتجهت زابينه نحو بن كولر، الذي كان يعبث بالأسلاك أمام غطاء المحرك المفتوح، وبانزعاج تابعت سيارة هيلين بيرجر وهي تتضاءل شيئًا فشيئًا: «ما الذي حدث بالسيارة؟».

ترجل شنايدر ببطء من السيارة وقال: «ماذا تريان؟ هل تريدان سماع رأيي؟».

سب كولر: «تبًّا لك، لا!».

ظل شنايدر هادئًا وقال: «من حق أي شخص سماع رأيي، إنها...».

مسح كولر يديه الملطختين بالزيت في سرواله وقال: «اخرس!».

حتى في لحظة كهذه يبدو شنايدر متعجرفًا، وشعرت زابينه أنها توشك أن تنفجر: «نحن نقف هنا مثل كومة من البلهاء».

اقترب شنايدر وقال: «فبينما نحن ننتظر مكالمته في المنزل، كان هذا اللقيط هنا يختال بنفسه».

وقال كولر: «لابد أنه فتح باب السيارة وغطاء المحرك من الداخل بفاتحة أقفال، ثم انتزع مرحّل تشغيل المضخة من صندوق الفيوزات».

سألت زابينه: «هل يمكنك إصلاحه؟».

- إن كان معنا مرحّل غيره.

حثه شنايدر: «عليك إرسال من يلاحق سيارة بيرجر».

اختفت المصابيح الخلفية للسيارة في نهاية الطريق وسط ظلام الجو العاصف الذي يلوح في الأفق.

همست زابينه: «هناك خطأ ما، فبيرجر لم تتوقف».

- أعلم ذلك، تبًّا.. لم يكن عليّ السماح لها بالقيادة!

أغلق كولر غطاء المحرك واتصل بزملائه على هاتفه: «أحتاج إلى دورية شرطة مدنية لملاحقة سيارة تويوتا زرقاء صغيرة تحمل لوحة ترخيص تابعة لمنطقة فيينا، من ناصية شارع باخ إلى طريق كيتسرجاسي، ربما في اتجاه تريستر شتراسه... لا، الآن فورًا!». استراح قليلًا وقال: «من المفترض أن تقلنا سيارة أخرى من هنا، 17 شارع باخ في الساعة الخامسة مساء»، ثم صمت لبعض الوقت واستمع.

وعلى مد البصر ظهر البرق في السماء، وبعد ذلك بوقت قصير هز الرعد، وسقطت بضع قطرات ثقيلة في الشارع، ما لبثت أن تبخرت على الأسفلت في الحال بسبب الحرارة الرطبة، كانت سترة زابينه مبللة بالعرق، متى سيبدأ هطول الأمطار في النهاية؟

تمتم كولر في الهاتف أخيرًا قبل أن يضعه جانبًا: «شكرًا!»، ثم جلس على غطاء محرك السيارة وحدق في الطريق، لقد كانوا حقًّا مجموعة من البلهاء.

ذهب شنايدر إلى جانبه وأشعل سيجارة: «ماذا هناك؟».

- قبل شهرين فقط كان كارل لا يزال يعمل في ورشة تصليح السيارات، وتفحص زملائي الورشة بدقة، فوجدوا أن المالك العجوز روبن لا يتاجر فقط في السيارات الخردة، ولكن أيضًا في الكوكايين، فهو يجلب البضائع من جمهورية التشيك ويوزعها على الملاهي الليلية في وسط المدينة، ويتولى كارل مهمة توزيعها، كان الأمر بسيطًا جدًّا: إما أن يخضع له أو يفقد وظيفته، وعندما قبض على كارل في أثناء مداهمة للشرطة، أُجبر على العلاج.

سألت زابينه: «وكيف تساعدنا تلك المعلومات فيما هو آت؟».

أحكم كولر قبضتيه وقال: «استقال كارل من عمله منذ شهرين، لكنه قبل أن يفعل ذلك ألقى مخزون الكوكايين الخاص بروبن في المرحاض وسرق الخزينة».

نفث شنايدر سحابة من الدخان وقال: «وبهذا استطاع تمويل رحلاته إلى ميونخ وكولونيا ولايبتسيج ودريسدن».

ميونخ!

ابتعدت زابينه عنها، فالمدينة تبعد عنها بمقدار عشرة آلاف كيلومتر! ولعدة أيام ظل اكتشاف جثة يتبعه اكتشاف أخرى، وكل مسرح جريمة أكثر غرابة من سابقه، المرأة المغطاة بالخرسانة التي اختنقت من لسانها، والمرأة التي كادت تتضور جوعًا في القبو، والجثة في بئر المياه في كاتدرائية دريسدن... وأمها التي غرقت بلترين من الحبر عن طريق وضع أنبوب في رئتيها.

بالنسبة لشنايدر والجميع بدت وفاة والدتها مجرد حلقة واحدة ضمن سلسلة طويلة من الجرائم العنيفة، لكن زابينه فقدت جزءًا من حياتها، فلن يعود أي شيء كما كان في السابق، لن تستطيع تبادل كلمة واحدة مع والدتها مرة أخرى، وتجمعت الدموع في عينيها، فحاولت إجبار نفسها على التفكير في شيء لطيف، ولكن كل ما استطاعت التفكير فيه هو عيد ميلادها القادم، والذي ستطغى عليه ذكرى جنازة والدتها، ثم تذكرت الطرد الموجود في ورق التغليف الأزرق ذي القوس الأصفر والبطاقة الموجهة إليها التي وجدتها في خزانة والدتها، ماذا أرادت الأم أن تعطيها؟ إنه كتاب سميك مصور.

نظر كولر إلى ساعته: «ستصل السيارة البديلة خلال خمس دقائق»، قفز من فوق غطاء المحرك وسار في الشارع.

نظر شنايدر إلى زابينه وقال: «فيم تفكرين؟».

تمتمت: «الكتب».

- ربما لا تستطيعين إخراج قصة هايتال من رأسك.

- ماذا؟ لا، أنا...

- لو أنك تعلمين فقط كيف تدار تلك المؤسسة، فسوف تفهمينني.

لا بد أن هذا الأحمق المغرور سيظل يعتقد أنه محور الكون، في هذه الأثناء كان كولر بعيدًا عن مرمى سمعهما.

تابع شنايدر: «تضع مؤسسة هايتال تجار التجزئة تحت ضغط كبير؛ للتوقف عن التوريد للمكتبات الصغيرة، ثم تقدم هايتال عرض شراء لإغلاق المكان، وإن لم يحدث ذلك، فالبلطجة هي ما تلي تلك المقاطعة، حيث يتم تأجير العاطلين عن العمل للتسكع في متاجر بيع الكتب، فتتدهور صورة المكان، ويبتعد العملاء الدائمون».

لم ترغب زابينه في سماع كل هذا الهراء، لكن لم تستطع إيقاف شنايدر.

- بعدها يتملقون إلى مجلس المدينة، فيطلب تجديد وصلات الصرف الصحي والأسلاك الكهربائية الخاصة بمتجر الكتب، وتأتي الكهرباء الاحتياطية من مولد الديزل، وينصب موقع بناء أمام الباب، ثم بعد مرور أسبوع ينقل العمال إلى موقع بناء آخر، لكن المولد المهتز والألواح الخشبية الممتدة فوق الحفرة الموجودة في الطريق تظل قائمة، وبعد شهرين تصبح مؤسسة العائلة منهكة ماديًّا.

تمتمت زابينه: «أنت نفسك لا تستطيع تصديق ذلك».

ليس ثمة شيء أو شخص يستطيع مساعدة شنايدر، لم يكن الرجل يائسًا فحسب، بل كان مصابًا بجنون العظمة أيضًا، ثم واصلت الكلام: «يجب أن تتوقف فقط عن قراءة السير الذاتية للأشخاص الذين اختاروا الانتحار».

تمتم قائلًا: «من السهل قول ذلك؛ لأن أباك لم يشنق نفسه».

شعرت زابينه بمرارة في فمها وقالت: «أنا آسفة».

مرت حافلة، وتبعها عدد قليل من السيارات، ولم يتوقف أي منها، كان كولر لا يزال بعيدًا عن مرمى السمع، ويتحدث عبر الهاتف.. هبت رائحة حلوة على زابينه فقالت: «هل هذا هو سبب تدخينك الماريجوانا؟».

- أفعل هذا لكي أنسى ألمًا آخر.

التفتت إليه، فبدا بائسًا: «تقصد الصداع العنقودي؟».

لوى فمه بازدراء والسيجارة معلقة في زاوية فمه، ثم نقر على جهاز الآيفون الخاص به وقال: «لقد توفيت شريكة حياتي منذ سنوات عديدة بسبب نقص المناعة».

يا إلهي! متى تصل السيارة البديلة أخيرًا؟

قاطعته قائلة: «اسمع، أنا آسفة حقًّا بشأن ذلك كله، لكنني لست معالجتك النفسية، لست مضطرًّا إلى إخباري بذلك».

هز كتفيه، وأمال جهاز الآيفون، ثم نقر على الشاشة وهو يقول: «إنه ليس سرًّا، فزملائي في فيسبادن يعرفون ذلك».

بالكاد استطاعت تصديق فكرة أن شنايدر يخبرها بكل التفاصيل الحميمية، فهل كان بحاجة إلى شخص ما للتحدث معه عندما يفسد عملية كهذه؟

- تجدينني مملًّا، أليس كذلك؟

لم ترد على ذلك، ثم قالت: «ماذا تفعل الآن؟».

أخذت أصابعه تطير فوق لوحة المفاتيح وقال: «أتصفح موقع هيلين بيرجر الإلكتروني.. صورة جميلة - التقطت في جزيرة إيبيزا».

رائع! بينما ينغمس المحققون في البحث عن بيرجر، يظل هو ينظر إلى الصور الموجودة على موقعها على الإنترنت.

وارى كولر هاتفه جانبًا، وركض نحوهما وهو يصرخ: «هناك أخبار! الرجل الذي أطلقت عليه النار في شقة كارل بوني يخضع لعملية جراحية طارئة وهو الآن في غرفة العناية المركزة، لقد تم تحديد هويته، اسمه إدوارد فيلتشينج، وهو في عمر كارل، ويعمل في ورشة روبن لتصليح السيارات، والشاحنة التي رأيناها عند باب كارل تخصه».

اعتدل شنايدر: «شريك كارل؟».

هزّ كولر رأسه: «الأمر يدور حول مسألة أخرى، لقد هرب كارل بأموال مخدرات روبن عندما سرقها من الخزينة في يومه الأخير في العمل، خمسة وثلاثين ألف يورو! وقد اقتحم فيلتشينج شقة كارل باحثًا عن المال عندما فاجأناه».

واستنتجت زابينه: «لهذا السبب أراد الهروب عبر النافذة وواجهنا بسلاحه».

سحق شنايدر لفافة التبغ على الأرض: «إذًا كانت صديقتك عالمة النفس الجنائية على حق عندما قالت: كارل هو المنفذ الوحيد لهذه الجرائم، ولا يزال هنا في مكان ما، أعتقد أن سيارتنا قد حضرت».

أسرعت سيارة أودي سوداء وتوقفت أمام عيادة هارمان، وبدا الرجل ذو الشعر البني الذي يجلس خلف المقود في عمر كولر تقريبًا، كانت عيناه داكنتين وثاقبتين مثل الصقر، لوح لهما، وبينما كان كولر يجلس في المقعد المجاور له، همس الرجل له بشيء ما: «أسرع، لدي أشياء لإنجازها أكثر أهمية من أن أكون سائقك».

ركب شنايدر وزابينه.

قدّم كولر شريكه: «هذا هو زميلي أوليفر براندشتيتر، مثير كالعادة!».

قالت زابينه: «نحن نعرف بعضنا بالفعل».

استدار براندشتيتر وأومأ لها: «لقد اصطحبتها إلى كنيسة القديسة مريم، كانت جولة صغيرة لطيفة»، ثم غمز لزابينه وكأنهما صديقان منذ عقود. وعندما سلّم كولر النسخة المسائية من الصحيفة، تحول صوته إلى الجدية مرة أخرى، وقال: «من المفترض أن يسلمها الرئيس لك بنفسه، لم أره غاضبًا هكذا من قبل».

كان العنوان الرئيسي: **انقاذ امرأة داخل عمود خرساني وهي على قيد الحياة**

مرر كولر الورق إلى الخلف دون تعليق، وأظهرت إحدى الصور كنيسة القديسة مريم من الخارج، وأظهرت الصورة الثانية والدة بوني وهي ترتدي زي الممرضة.

- لقد خلقنا من هذا الخبر الكاذب وحشًا لا يمكننا السيطرة عليه.

قالت زابينه في نفسها: وليس هذا فقط، فكارل الآن يفرض سيطرته على امرأتين.

قال براندشتيتر: «لقد خدعَنا هذا الكارل بوني!».

أمر كولر زميله: «اضغط على دواسة البنزين، واتجه الآن إلى كوبنتسلجاسي في دوبلينج بأقصى سرعة ممكنة».

أدار براندشتيتر السيارة، وبعد ذلك بوقت قصير كانت زابينه تتشبث بمقعدها، فقد أسرعت السيارة الأودي بطول شارع باخ.

صاح شنايدر: «توقف!».

ضغط براندشتيتر على المكابح، فطرح جسد زابينه إلى الأمام.

قال شنايدر: «لن نجد أي شيء في منزل كارمن بوني».

زمجر كولر وقال: «واصل السير! لماذا أستمع إليك بعد الآن؟».

- لأنني على حق.

اعترض كولر قائلًا: «منزل والدته هو المكان الوحيد الذي يمكن أن يختبئ فيه كارل».

واصل براندشتيتر القيادة.

انحشر شنايدر بين المقعدين الأماميين وقال: «تبًّا لك، فكر في الأمر! كان كارل بوني يعلم أن هيلين بيرجر على تواصل معنا، لقد عبث بسيارتنا ومن المحتمل أنه أخضع هيلين لسيطرته، ربما كان جالسًا بالفعل في المقعد الخلفي لسيارتها، إنه ميكانيكي، وما حدث أمر يسير بالنسبة له، كما أنه اقترح موقع اللقاء في كوبنتسلجاسي، إنه يقودنا إلى المسار الخاطئ، اتصل بفريق المراقبة

أو مدير عمليات وحدة فيجا، أراهن براتب شهر أنه لن يظهر هناك هو أو هيلين بيرجر أبدًا».

التفت كولر إلى شريكه وقال: «قف».

توقف براندشتيتر أمام محطة الحافلات، كانت قطرات المطر القليلة لا تزال تتساقط، وكأن العاصفة تنتظر مواجهة حاسمة، احتشد المارة في موقف الحافلات ينظرون إلى السيارة بفضول، فاستدار كولر وقال: «وإلى أين سنتجه؟».

- علينا أن نكتشف ذلك يا زميلي، هل كان لدى والدة كارل منزل آخر لا نعرف عنه شيئًا؟

هزّ كولر رأسه.

تذكرت زابينه: «لكنها كان لديها شريك حياة، هذا الرسام الفاشل الأكبر منها سنًّا».

أضاف شنايدر: «وقد مات قبل ستة أشهر.. إذا لم يكن لديه أطفال، فمن المحتمل أن ترثه كارمن بوني، هل كان لديه أستوديو أو معرض أو شقة أو منزل؟».

قال كولر متذمرًا: «هل يمتلك رجل فاشل شيئًا من هذا القبيل؟»، ورغم ذلك ظل ممسكًا بهاتفه، وبينما كان يهاتف القسم، سقط ظل ضخم على السيارة من الخلف، لقد زحفت حافلة حتى لامستهم تعرض التصادم، أطلق السائق بوق سيارته ولوح لهم بيديه في حين وقف المارة في موقف الحافلات يبتسمون ابتسامات عريضة.

ظل براندشتيتر هادئًا تمامًا وهو يقول: «إذا اقترب أكثر فسيجلس معنا في سيارتنا».

استمع كولر للهاتف وأخيرًا أزاحه بعيدًا وقال: «توفي هيتسنهامر في الثامنة والسبعين من العمر، لقد كنت على حق، كان يمتلك شقة، لكن ابنته باعتها بعد وفاته مباشرة، أما كارمن فقد ورثت شقته في علية مبنى قديم، كان يستخدمه كأستوديو»، ثم التفت إلى شريكه وقال: «المنطقة العشرون، 18 ترايزنجاسي، هل تعرف أين؟».

أدار براندشتيتر السيارة مصدرًا صوت صرير وقال: «حتى وإن لم أكن أعرفه... إنها منطقة ملوثة بالقرب من نفق القطار السريع».

36

عندما فتحت هيلين عينيها أدركت أنها مستلقية، كانت رقبتها تؤلمها، كما ذكرها الطعم الحامض في فمها بالقيء، حاولت الاعتدال في جلستها، لكن الألم في جمجمتها كان ينبض بقوة من أقل حركة لها، مما أدى إلى سقوطها.

أضاء المكان وميض من البرق، وفي الوقت نفسه كان الرعد يهدر من مكان قريب، وبسبب هذا التوتر في الجو انتصب الشعر الناعم على ساعديها، أدارت رأسها بقدر ما تستطيع، فرأت ملاءات بيضاء متدلية من السقف من حولها، من الواضح أنها مستلقية على طاولة عمل، كانت تشم رائحة الخشب القديم والأحزمة الجلدية، فعندما حاولت تحرير معصميها، قطعت الأحزمة لحمها.

ثم تذكرت.. بعد أن ترك كارل بوني داستي في الطريق، وألقى بهاتفها خارج السيارة، قادا السيارة لمدة نصف ساعة تقريبًا، وبوجود طرف سكين بين ضلوعها، لم تجرؤ حتى على الحركة أو التنفس بعمق، ظلت تفكر في داستي وفقدت قدرتها نهائيًّا على تحديد الاتجاهات، لقد توقفا في منطقة متهالكة في فيينا تغطيها الغيوم السوداء، وللغرابة تذكرت تفصيلًا غير ذي صلة على الإطلاق: فصوت الرعد من بعيد ينذر بهطول أمطار غزيرة.. **داستي**، آمل أن يجد مأوى في مكان ما، **من فضلك لا تدعه يركض أمام السيارات أو يصطدم بالترام**، وعند الإشارة الحمراء شعرت بلسعة في رقبتها وسقط رأسها على المقود.

كم من الوقت مضى على ذلك؟ إلى أي مدى جرها كارل، ولماذا لم يره أحد ويحضر لتقديم المساعدة؟

وفي هذه الأثناء بدأت العاصفة الرعدية، شعرت غريزيًّا أنها داخل قبو، فليس ثمة أضواء متسللة من الشوارع، سقط عليها ضوء البرق من خلال كوة صغيرة، وألقى ظلالًا غريبة على ملاءات الأسرّة، وعند الومضة التالية أدارت رأسها إلى الناحية الأخرى، وعلى طاولة جانبية رأت هناك طبقًا يحتوي على أدوات تعذيب قديمة الطراز؛ مشابك للفم، وأدوات طبيب الأسنان، ولولب الإبهام، ومنشار للعظام، وعدد لا يحصى من المشارط والسكاكين والمقصات، لكن أكثر ما أخافها هو المقص الوردي ذو اللولب والشفرة المنحنية التي تشبه منقار الببغاء، فدارت أفكارها بجنون.

– سكين، شوكة، مقص، ضوء، إنها ليست للأطفال الصغار.

ارتعدت.

أزاحت الملاءات جانبًا، فرأت كارل بوني يتوجه إلى طاولة العمل، شخصية هزيلة بأذرع طويلة وأصابع رفيعة، كان لا يزال يرتدي السترة السوداء ذات القبعة: «هل أخذت كفايتك من النوم؟ إذًا يمكننا أن نبدأ».

مد يده إلى المقص الوردي ووضع إبهامها بين شفراته.

ترنح قلب هيلين، وحاولت المقاومة وهي تنعق بصوت كالغربان: «انتظر!».

فدفع رأسها نحو المقعد وقال: «ولماذا أنتظر؟ لقد كذبت ولم تتبعي القواعد».

أرادت أن تصرخ فيه وتقول: **لكنني حللت لغزك يا بن الحرام يا لعين،** لكن من شأن ذلك أن يغضب كارل أكثر، شددت على نفسها بأن تحتفظ بهدوئها وحدثت نفسها قائلة: **لقد قرأت سجلات روزه هارمان، وتعرفين ما فعلته به، واستمعت إلى أشرطة الجلسات وأشرطة مناجاة كارل..** ورغم ذلك كله لم يكن كتابًا مفتوحًا بالنسبة لها، بل كان هشًّا ومعقدًا للغاية لدرجة أن كلمة واحدة خاطئة منها يمكن أن تصير قاتلة.

- لقد طرحت عليّ لغزًا، فانشغلت بك، أستطيع أن أفهمك.. وأنا أعرف من أنت.

علق مصباح الكيروسين على خطاف السقف وقال: «إذًا؟.. انقطع التيار الكهربائي، ولسوء الحظ علينا أن نعمل بهذه الطريقة اليوم»، ثم نزع الغطاء عن رأسه وقال: «من أنا؟».

كان شعره الأشقر المبلل من المطر ملتصقًا بجبهته وملتفًا عند صدغيه، العيون الزرقاء ذات الرموش الطويلة، وتلك النظرة المكثفة! مختل عقليًّا في صورة ملاك.

زاد من ضغط المقص: «ومن أنا؟».

- «بيتر ذو الرأس الأشعث».

لم يظهر أي رد فعل على وجهه، ولكن الضغط على نصلَي المقص قد خف: «من؟ هل تعتقدين أنني مجنون؟».

ابتلعت هيلين ريقها، ما الذي يمكنها تقديمه مقابل كوب من الماء حتى تتخلص من الطعم اللاذع في فمها، وتتمكن من التفكير بوضوح، لم تكن هذه المحادثة مع كارل لتشكل مشكلة في غرفة العلاج، ولكن عقلها هنا يتسارع بجنون.

- لديك ذكريات رهيبة بسبب طرق التربية العنيفة في طفولتك، فالندوب ليست في روحك فحسب، بل تتضح على جسدك أيضًا، ولن تتمكن أبدًا من نسيان هذه الذكريات، لكن يمكنك معالجتها.

فكرت هيلين في قائمة جرائم القتل التي عددتها زابينه نيميتس وقالت: «لذلك فأنت تؤدي دور «بيتر ذو الرأس الأشعث»، فهو يساعدك على التخلص من قصص الأطفال العنيفة في رأسك».

- هراء!

عرفت هيلين أنها على الطريق الصحيح فأكملت: «فأنت تجسد القصص، وتعيد تمثيل المشاهد، وتنقل مأساة ذكرياتك إلى الآخرين، وقد سار الأمر بشكل جيد».

همس قائلًا: «لبعض الوقت على الأقل».

- هذا طبيعي، أستطيع أن أفهمك.

زاد الضغط بشكل لا إرادي: «يمكنك فقط أن تثرثري بهراء!».

قالت بصوت متحشرج: «هل يمكنني أن أقول شيئًا؟ عادة ما يكون العنف نتيجة لمشاعر مكبوتة، لكن ما حدث معك هو العكس تمامًا، لقد وضعتك الدكتورة هارمان من خلال العلاج في حالة تشبه انفجار غطاء طنجرة ضغط»، انتظرت هيلين حتى استقرت المعلومة واتضحت رؤية كارل مرة أخرى: «فالعنف الذي تمارسه على ضحاياك هو نتيجة لهذه المشاعر الفوضوية الجامحة.. ذكريات طفولتك المكبوتة».

- هذا ليس ذنبي!

- أعرف ذلك يا كارل!

حاولت هيلين أن تبتسم، لكنها لم تستطع، لقد ترك داستي وحده، كانت تفضل أن تغرس مشرطًا في صدره لكنها قالت: «أربكت دكتور هارمان مشاعرك بسبب العلاج المكثف الذي أجرته في مدة قصيرة جدًّا...».

وخلقت منك وحشًا.

ثم أكملت: «ولإصلاح هذا، اخترتني لمشاركتك اللعبة».

- لا، لقد اخترتك لأن روزه تضاجع زوجك.

أغلقت هيلين عينيها للحظة وفكرت في فرانك، ذلك الوغد! سيلعب الآن دور الرجل النبيل في الحفل وهو لا يعرف أين هي الآن، هل كلف نفسه حتى عناء التفكير فيها؟ بخلاف كونها لم تؤدِ دورها بصفتها مضيفة للحفل!

قالت: «صحيح، لقد غدرت بي روزه وخدعتني كما فعلت معك تمامًا، ولكن هناك سبب آخر، لقد اختارني عقلك الباطن لأحل لغزك لأنك في أعماقك تبحث عن الخلاص، وتريد الحصول على المساعدة الصحيحة».

- وهل تعتقدين من كل عقلك أنك تستطيعين تقديمها لي؟
- الكلمة المفتاحية هي الانتقام، أليس كذلك؟

أبعد كارل المقص الوردي، فاجتمع نصلاه معًا، ثم حشر طرفه في الخشب المجاور لرأس هيلين.

- أنت مقتنع بأن انتقامك من النساء اللواتي مررن بك في مسيرتك بالحياة، سيؤدي إلى تطهير روحك.

فسألها: «وما الذي أقنعك بذلك؟».

- انتقامك حافز، من خلاله فُتحت عينِي على زوجي.. فالكذب والخداع ليسا صفة النساء فقط، بل الرجال أيضًا! زوجي على علاقة بشخص آخر، وانتقامك يقودني إلى الانفصال عن زوجي...

وبدء حياة جديدة.. إذا سمح لي كارل أن أعيش.

فاعترض على كلامها قائلًا: «أنا لست محبًّا للانتقام».

- هذا ليس انتقامًا نابعًا من جشع أو حسد، فقد يكون في الانتقام شعور بالخلاص للضحية.

بذكر كلمة «الضحية» دق جرس ما في عقل كارل، واختفت نظرته، وقال: «في بعض الأيام أشعر أنني في سجن، وأن عيني لا ترى إلا آلاف القضبان، التي لا يوجد أي عالم خلفها، وأحيانًا تنقشع تلك القضبان للحظة، كما تكشف القطة الستار عن حدقتَيْ عينيها، وعندها أرى ما يكمن وراء ذلك كله». صمت كارل وحدق في ضوء مصباح الكيروسين، ألقى وميض البرق ظلالًا على الملاءات، يبدو أن كارل لم يلحظ صوت الرعد.

بسماع كلماته الأخيرة لم تستطع هيلين إلا أن تفكر في قصيدة لراينر ماريا ريلكه، لم يكن كارل يشترك مع الشاعر في الشق الثاني لاسمه المركب فحسب، بل ربما شعرا بالشعور نفسه حتى وإن كان الشعور نابعًا من تجارب حياتية مختلفة لكنها صادمة.

همس قائلًا: «نعم، أنا ضحية.. لا بد لي من فعل ذلك».

سحب طرف المقص، الذي بدا كمنقار الببغاء، من الخشب.

- كارل، كن عاقلًا، فحتى لو لم نكن في كوبنتسلجاسي، فستجد الشرطة هذا القبو.

لم يبدُ الانزعاج على كارل، لكن أينما كان مكانهما، في منزل والدته أو منزل آخر، فسيجده بن والمحققون من ألمانيا، عليها فقط كسب الوقت.

انحنى كارل ببصره عليها: «افقدي الأمل! نحن لسنا في قبو»، ثم أطفأ ضوء مصباح الكيروسين.

وبشكل غريزي نظرت إلى الأعلى، كان خطاف المصباح عالقًا في الخشب، الآن فقط رأت العوارض الممتدة تحت السقف.. فإلى أين أحضرها بحق الجحيم؟ جعلها صوت الضوضاء القوية ترتعد، فهذه المرة لم يكن الضجيج دوي رعد بل اصطدامًا، وكأن العاصفة قد دفعت بابًا خشبيًّا ضخمًا عن إطاره، لكن الصوت لم يأتها من الخارج... بل من الأسفل، اندفع الباب مرة أخرى، واندفع صدى الصوت بشكل أجوف عبر الدرج الذي يقع أسفلها بعدة طوابق.

إنه يحتجزني في العلية!

قال لها: «سأعود فورًا، وحينها تبدأ القصة»، ثم وضع كارل قطعة قماش في فمها واختفى خلف الملاءة، وفُتح باب وأُغلق.. فاختفت طقطقة خطواته نحو الأسفل.

لقد اصطحب المقص معه لسوء الحظ.

37

بدا المبنى القديم في ترايزنجاسي وكأنه خندق إسمنتي حصين من فترة ما بين الحربين العالميتين، وهذا المبنى المتعرج بشرفاته المغلقة ومنحنياته وأفنيته الداخلية يضم خمسين شقة تقريبًا، وقد غطت الجدران خطوطًا سوداء نتيجة لتدفق مياه الأمطار من المزاريب الصدئة على مر السنين، كانت النوافذ معلقة بشكل مائل في أطرها، والطلاء الأبيض قد تقشر منذ أمد، لكن بجوار كل نافذة تقريبًا هناك واحد من أطباق الأقمار الصناعية يبرز في الفناء، ربما كانت مشاهدة التليفزيون هي أهم تسلية لهؤلاء السكان.

وقفت زابينه في الفناء الثاني، وعلى مقعد خشبي رأت طبقين مرسومًا عليهما شكل كرة قدم، ومع بداية هطول الأمطار زادت رائحة العفن وبول الكلاب، كانت الرائحة تشبه تلك التي أمام نفق القطار السريع، حيث أوقف براندشتيتر سيارة الشرطة، لقد انتظر شريك كولر هناك وأرسل موقعه إلى المقر عبر الجهاز اللاسلكي.

تساءلت زابينه عن سبب احتفاظ كارمن بوني بأستوديو شريكها في هذه المنطقة القذرة، ويمكننا صرف النظر عن فكرة الاستثمار، فالأرجح هو أن العقار لا يمكن بيعه، فلو كانت حبال الغسيل هي وحدها المفقودة، لكان من الممكن أن يكون هذا المبنى المتهدم جزءًا من فناء خلفي متهالك في نابولي.

دخل شنايدر وكولر الفناء، وفي اللحظة التالية بدأ هطول الأمطار الذي طال انتظاره، فلجأوا إلى سقيفة المنزل رقم س18، كان الباب مفتوحًا، لكن الرياح دفعته فأُغلق مرة أخرى خلف زابينه، وبعد بضع ثوانٍ اندفعت المياه عبر الشق الموجود في الباب وشكلت بركة في الدهليز، ما لبثت أن انحدرت نحو الطابق السفلي عبر الدرج الهش.

أسرع كولر إلى القبو وهو يقول: «هيا بنا!».

تبعته زابينه وشنايدر، كانت القبة مصنوعة من الحجر الصلد، والهواء الرطب عالقًا في حوض الغسيل؛ مما أدى إلى تلألؤ العرق فورًا على رأس شنايدر الأصلع. فتش كولر كل غرفة كالمجنون، لكن لم يكن في الجوار سوى دراجات هوائية وطاولة عليها عدة منافض سجائر ودلاء ممتلئة لتجميع مياه الأمطار.

قال كولر لاهثًا: «لا يوجد شيء هنا، فلنصعد إلى الطابق العلوي، فالأستوديو الخاص بأنطوان هيتسنهامر يقع في الطابق الأخير».

شعرت زابينه وكأنها جسم غريب عن المبنى، فبالمقارنة مع هذا المكان القذر، سنجد أن المنزل الذي يضم شقة كارل بمثابة فيلا فاخرة. لم يكن هناك سوى شقتين في الطابق الخامس، وعلى أحد البابين يستقر اسم هيلجا جروفول، أما المرحاض فيقع في الممر، وبجوار باب هيتسنهامر برزت نباتات متسلقة جافة من عتبة النافذة، ومع وجود أنابيب المياه تشكل تعايشًا غريبًا بين الصدأ والجير وأوراق الشجر.. سحب شنايدر سلاح خدمته في حين وقف كولر يفتح القفل باستخدام فاتحة أقفال.

همست زابينه: «ومن أين نعرف أن كارمن لم تبع أو تؤجر المكان؟».

جهز شنايدر سلاح جلوك الخاص به: «وهل علينا الاهتمام بذلك؟».

تمتم كولر: «ومن سيشتري شقة هنا؟».

كان على حق، ربما لا أحد، أصدر الباب الخشبي صريرًا عند الاحتكاك بمفصلاته، تتكون الشقة من غرفتين وغرفة نوم ومطبخ صغير ومغسلة، ربما استخدم هيتسنهامر الغرف للأستوديو بسبب النوافذ العالية والأسقف المنحدرة، لكن الستائر القماشية الآن أظلمت الشقة، فاحت رائحة الزيت والتِّنر في المكان، وكانت الأرضية الباركيه متموجة مثل سجادة مطروحة أرضًا، وداخل خزانة المدخل لم يظهر سوى خطاطيف معاطف فارغة،

وليس ثمة أحد بالغرف الأخرى أيضًا، كانت حوامل اللوحات متكئة على الجدران، أما الخِرق وسكاكين الرسم ولوحات الألوان والفرش الجافة ملقاة على الأرض، يبدو أنه لم يتغير شيء هنا منذ وفاة هيتسنهامر.

رفع كولر الستارة وفتح النافذة، فبدت السماء فوق فيينا سوداء كالليل، ودوى الرعد على مقربة منهم، ففرقعت قطرات المطر على حافة النافذة مثل الألعاب النارية، وقد دفع هطول الأمطار الهواء البارد إلى داخل الغرفة.. قال كولر: «ليس هناك جدوى من ذلك».

خرج شنايدر من غرفة النوم ومعه كتاب، وقال: «ليس تمامًا»، ثم أزاح الفُرَش وأنابيب الألوان والأشرطة اللاصقة من على طاولة عمل منخفضة ووضع مكانها بعناية مجلدًا نحيلًا من الورق المقوى، رسمت الصور الهزلية وكتبت القصص المضحكة يدويًا بالخط الألماني القديم على الورق المقوى الأصفر، وفي الأسفل نستطيع قراءة عبارة: **ومعها 15 لوحة ملونة بشكل جميل للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 3-6 سنوات**. أظهر الغلاف نسخة معدلة ذات مظهر قديم من «بيتر ذو الرأس الأشعث»، بشعر جامح وأظافر طويلة ومنحنية، ومع ذلك لم يكن اسم «بيتر ذو الرأس الأشعث» موجودًا في أي مكان، كما ذكر اسم المؤلف: رايماريش كيندرليب

جلس شنايدر على الأريكة الممزقة وفتح الكتاب، فطقطق ورق الرق المجعد وقال: «وجدته تحت غطاء السرير».

وجلست زابينه بجانبه تحكي القصة المصورة الأولى، حلقة فيليب المتململ، لكن برسومات قديمة ذات مظهر أخرق: «هل سرق هاينرش هوفمان فكرة «بيتر ذو الرأس الأشعث» من هذا الكتاب؟».

- نشر هوفمان الطبعة الأولى عام 1845 تحت اسم مستعار في دار نشر زخاري لوفينتال.

لا بد أنها حدجته بنظرة متفاجئة جدًّا؛ لأنه تنهد بانفعال: «عندما لفتت انتباهي إلى الكتاب، انشغلت بالبحث عنه»، ثم أشار شنايدر إلى بيانات النشر وأكمل: «طبعت هذه الصيغة بتوزيع ألف وخمسمائة نسخة، فأن نجد نسخة كهذه يعد أمرًا غير معقول، وخاصة في هذا الكوخ».

- لماذا كتب تحت اسم مستعار؟

رفع شنايدر حاجبه الأيسر وقال: «ربما لم يستطع التوفيق بينها وبين وظيفته، فقد كان طبيبًا نفسيًّا للأطفال وطبيبًا في مشرحة فرانكفورت، وفي وقت لاحق أصبح مديرًا لمصحة المجانين والصرع، لقد ألف ورسم الكتاب في الأصل لابنه، أراد أن يقدم شيئًا مناسبًا لعيد الميلاد».

تصفحت زابينه الكتاب وقالت: «رُتبت القصص بشكل مختلف عما هو عليه في الإصدار الحالي، والذي يمكن شراؤه من أي مكتبة هذه الأيام. **إنه بترتيب جرائم القتل**».

بعد قصة مص الإبهام أتت قصتان أخريان: هانز جوك في الهواء، وروبرت الطائر، فلو أن كارل قد نشأ مع هذا الكتاب، فربما لا يعرف مصطلح «بيتر ذو الرأس الأشعث»، بدت الصور المرسومة أكثر فظاعة من النسخة الشائعة التي عرفتها زابينه في طفولتها، **ما هذا الجنون؟!** ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا الكتاب من تأليف طبيب نفسي للأطفال.

وتساءلت: «لماذا افتتن كارل بهذه القصص وليس بقصص ماكس وموريتس مثلًا؟».

أجاب شنايدر: «عليك صياغة السؤال بشكل مختلف.. وهو: لماذا يتقمص كارل دور الطفل القذر الأشعث؟ وهذا يمنحك رؤية عميقة.. انظري...»، ثم سحب قطعة من الورق من بين الصفحات مكتوب عليها أربع فقرات بكتابة يغلب عليها الاصفرار.

حل الظلام، وتجلى القمر المنير

وعلى المرج الأخضر تراكم الجليد
سارت العربة بسرعة البرق
عند الزاوية تتهادى ببطء
وبالداخل كان الناس يقفون
وفي حديث صامت منغمسون
عندما راح الأرنب المقتول
يركض بسرعة عبر الحقول
وبالخلف كانت العمة العجوز
عمرها فقط سبع عشرة سنة
في صندوق باللون الكحلي
لكنه بالأسود مطلي
وفي الأعلى يجلس صبي أشقر
كان ذا شعر فاحم أسود
لكن بمرور السنين
إلى الأبيض تحول

قطب شنايدر جبينه، واستطاعت زابينه أن ترى من تعابير وجهه أن تروس عقله تحاول يائسة البحث عن حل: كتاب «بيتر ذو الرأس الأشعث» يدور حول معاقبة الأطفال المشاغبين، إنهم يغرقون أو يحترقون أو يتضورون جوعًا أو يتعرضون للعض، ما علاقة هذه القصيدة بذلك؟».

أجابت زابينه: «لا شيء على الإطلاق! هذه أبيات مقفاة يرددها الأطفال منذ عقود».

يبدو أن شنايدر لم يقتنع بإجابتها، وأغلق الكتاب عندما اقترب منهم كولر.

- لقد وجدت هذا في المطبخ الصغير.

كان على قلمه جهاز بحجم العملة المعدنية مزود بلاصق فيلكرو، ثم تركه ينزلق على طاولة القهوة.

نظر شنايدر إلى ذلك الشيء دون أن يلمسه: «إنه جهاز تشويه الصوت الذي يلتصق بالحنجرة، وبهذا تمكن كارل خلال مكالماته الهاتفية من تقمص هوية شخصية مختلفة عنه، ومن المفترض أن تطبق انتقامه».

لوح كولر بيده متجاهلًا أفكار شنايدر، وكأنه غير مهتم بهذا الهراء النفسي، ثم قال: «هذا يعني أن كارل كان هنا عندما تحدث إلى هيلين عبر الهاتف منذ أكثر من ساعة، أخبرته بموقعها فراوغها لمدة نصف ساعة، وخلال تلك المدة قاد سيارته متجها نحو عيادة روزه، ثم عبث بسيارتنا وربما بكل السيارات الأخرى أمام المنزل باستثناء السيارة التويوتا الخاصة بهيلين، عندها فقط أرسل لها الرسالة النصية»، ضغط بقوة على فكيه وكأنه يحاول سحق رصاصة.

فقاطعه شنايدر قائلًا: «قد يكون الأمر بهذه الطريقة، ولكن هناك مشكلتان خفيّتان.. إذا كان هنا بالفعل وهذا هو مخبؤه السري، فيجب أن تكون هيلين بيرجر هنا أيضًا، لكنها ليست هنا»، ثم مد إصبعين من أصابعه وأردف: «فأين هو الآن؟ وإلى أين أخذ هيلين بيرجر؟ وعلى أي حال، فهما ليسا هنا».

قال كولر: «بئسًا!» ثم اتجه نحو النافذة واتصل بمدير عمليات فيجا، الذي وقف فريقه ينتظر أمام منزل كارمن بوني في كوبنتسلجاسي، ثم أزاح الهاتف بعيدًا بإحباط وقال: «ليس ثمة شيء هناك أيضًا، كاميرات التصوير الحراري لا تعطي أي نتائج، لقد استخف بنا»، ثم أغلق النافذة، فتوقف في لحظة قرع قطرات المطر على إطار النافذة: «دعونا نخرج من هنا، نحن...».

احتدت زابينه بصوت خافت: «اصمت!».

ثبت كولر في مكانه، وحدجها شنايدر بنظرات متسائلة.

فهمست: «ألا يمكنك سماع ذلك؟».

نظر شنايدر للأعلى، فتسلل من السقف صوت دقات هادئة ومملة.

قال كولر: «هناك شخص ما في العلية»، ثم ركض عبر الغرف متفحصًا السقف، لكنه لم يتمكن من العثور على أي مدخل.

سألها شنايدر: «هل لديك أية أفكار؟».

نظرت زابينه إلى باب هيلجا جروفول وقالت: «لا بد أن السلم هناك».

وفي الوقت نفسه حدق الاثنان إلى المرحاض المشترك في الممر، وصل شنايدر إلى هناك أولًا وفتح الباب، فوجد مرحاضًا بخزان طرد من السيراميك، وحوض لغسل اليدين، وخزانة حائط مفتوحة بداخلها ورق حمام، ولم يكن هناك أي شيء آخر يمكن رؤيته.

برز مصباح كهربائي مكشوف من الحائط بجوار مفتاح كهربائي، ومن السقف يمكن رؤية معالم فتحة للسقف، صعد شنايدر فوق غطاء المرحاض، وجذب المقبض بأصابعه، ثم فتح كوة، فوجد سلمًا من ثلاثة أجزاء مطويًا للأسفل، أمسك سلاح الخدمة في يده، وصعد الدرج.

لوحت زابينه للمحقق ليخرج من الشقة ونادته: «كولر!»، ثم تبعت شنايدر.

كانت العلية مرتفعة جدًّا بحيث تمكنك من الوقوف منتصبًا، وقد استغرق الأمر من زابينه بضع ثوانٍ حتى تتكيف عيناها مع الظلام، تسلل الضوء من خلال الزجاج المعتم، وقد امتدت العلية فوق مساحة المنزل بأكمله، وهناك عدة حواجز من الفلين التي يبلغ ارتفاعها حوالي متر ونصف تقسم الغرفة إلى عدة مقصورات، وكانت العوازل الفلينية وحزم الصوف الزجاجي متناثرة في المكان، يبدو أن التطوير المخطط له لم يتحقق قط، وفي الزاوية الموجودة أسفل أستوديو هيتسنهامر وجدوا حبال غسيل معلقة، تتدلى منها أغطية أسرّة بيضاء، وبعضها معلق على العوارض الخشبية للسقف

المائل، حيث بدا التصميم كالمكعب. لقد أنشأ شخص ما منطقة معزولة مثل المستشفيات، وخلف الملاءات أضيء مصباح، فتشكل على القماش ظل لسرير عليه شخص.

سلم شنايدر زابينه سلاح جلوك وقال: «أمني العلية!»، ثم اتجه نحو الملاءات وسحبها جانبًا.

نظرت زابينه حولها، ثم صوبت بصرها على أقرب جدار فليني، ليس ثمة أثر لكارل بوني.. وفي تلك اللحظة كان كولر يدس رأسه عبر فتحة الأرضية.

فصاح شنايدر: «نحن بحاجة إلى سيارة إسعاف!».

التقط كولر هاتفه وهو يقول في أثناء اتصاله «كيف حالها؟» ثم قال: «إنها قادمة».

شعرت زابينه بتقلصات في معدتها، فنظرت حولها مرة أخرى في كل الاتجاهات، ثم ركضت نحو الكوة، كانت المرأة الجالسة على النوابض الحديدية للسرير القابل للطي واعية، وراحت تدير رأسها بعيدًا في خوف وهي مقيدة ومكممة.

قال شنايدر: «لقد طلبت منك تأمين الغرفة.. لا تعصي أوامري مرة أخرى!».

تجاهلت زابينه اتهامه، كانت المرأة بحاجة إلى رعاية طبية عاجلة، ورأت مقص تشذيب سياج بمقبض طويل معلقًا على خطاف في الخشب.

همست زابينه وهي تنظر إلى كولر الذي كان يقف على الدرج ويتحدث عبر الهاتف.

- أرى ذلك بنفسي.

فقدت المرأة تسع أصابع، كانت مقطوعة بداية من المفصل الذي يلي عظم مشط الكف، ثم ألقت زابينه نظرة على الدلو تحت السرير، لقد فقدت المرأة

الكثير من الدماء، التي تقاطرت على الأحزمة الجلدية إلى الأرض، وكونت هناك بالفعل بركة سوداء جافة.

انسلت زابينه من سترتها الحرارية وقميصها الأسود، وشقتهما إلى قسمين؛ لتوقف النزيف من يد المرأة، نظر شنايدر لفترة وجيزة إلى حمالة صدرها السوداء، ثم سحب لفة القماش التي تكمم فم المرأة.

وهمس قائلًا: «لا بأس، أنت بأمان».

- «أرجوك! اتركني وشأني.. فأنا لا أعرف»، كانت لا تزال تشيح بوجهها، ثم انفجرت في البكاء وأردفت: «أنا لا أعرف ما الذي يعنيه ذلك».

ضغطت زابينه بالقماش على جروحها: «ما الذي لا تعرفينه؟».

كانت رؤية المرأة غائمة عندما أدارت رأسها، فحدقت في السقف كالمنومة مغناطيسيًّا، ثم همست بشفتيها: «حل الظلام، وتجلى القمر المنير...».

38

كانت الأحزمة الجلدية اللعينة عصية على الفك... وكلما حاولت هيلين دفع راحة يديها من خلالها، تعرقت أكثر وانكمش الجلد مثل النباتات آكلة اللحوم، لقد التهب جلدها بالفعل، وآلمتها كل حركة، كما تشنجت عضلاتها؛ لأن ذراعيها كانتا مثبتتين وملتويتين بجوانب طاولة العمل، وتسلل العرق أسفل سوالفها.

ودت لو أنها بصقت كرة القماش التي تكممها، لكنها حُشرت بعمق جدًّا في حلقها لدرجة أن معدتها ظلت تنقبض بسبب رد الفعل البلعومي.

توقف اصطدام الباب في الطابق السفلي، وسمعت خطوات كارل عبر الدرج مرة أخرى، فُتح الباب وألقى وميض البرق بظلاله القوية على الملاءة، سحب كارل القماش بعيدًا وتمم على ثبات الكمامة والحزام.

مرر يده بخفة على معصميها الخشنين بلطف: «أنت تضيفين لنفسك ألمًا لا داعي له فحسب»، ثم أمال رأسه وابتسم لها وقال: «قالت الأم لكونراد: سأخرج وأنت ستبقى هنا»، وفجأة بدا صوته مشرقًا وناعمًا كصوت فتاة، وأكمل: «كن أنيقًا ومرتبًا ومطيعًا، حتى أعود إلى المنزل من جديد. وقبل كل شيء يا كونراد، اسمع! توقف عن مص إبهامك، وإلا فسيأتي الخياط وهو يحمل المقص بسرعة، وسيقطع إبهاميك كأنه يقص ورقة».

أظلمت عيناه وقال: «هل كنت مرتبة ومطيعة؟».

ودت لو أجابت، لكن كل ما استطاعت فعله هو أن تئن.

أزال الكمامة عن فمها وقال: «هل كنت مهذبة؟».

سعلت وقالت: «لقد قلت إنني سأحل محل روزه هارمان وعلى أحدهم أن يأتي لإنقاذي».

- كان ذلك قبل أن تكذبي عليّ.

خمنت أن هذه المرة لن يكون هناك لعبة، ولا هدية، ولا مكالمة هاتفية، ولا لغز، ولا حتى موعد نهائي يصل لأربع وعشرين ساعة، لكن لا تزال لديها فرصة، فقالت: «لماذا غيرت صوتك بالهاتف؟».

لم يُجب، نظر بتبلد نحو المقص الوردي في يده.

فهمست: «أين مشوش الصوت الخاص بك؟».

- لست بحاجة إليه بعد الآن، فإحضاره الآن أمر خطير للغاية، وإذا كان زملاؤك أذكياء، فمن المفترض أن يكونوا قد وجدوه منذ فترة طويلة.

لا توجد لعبة! ولذلك فكسب الوقت أمر مهم للغاية.

- أين أنا؟

- في مكان تبحث فيه الشرطة عن قاتل.

قاتل!

- كارل، أنت لست قاتلًا، أستطيع علاجك، سنجد حلًّا.

- وما الهدف من ذلك؟

- القضاء على شبح طفولتك.

لم يبدُ عليه التأثر، وشحذ نصل المقص بحجر، فدفع هذا الصوت الثابت هيلين إلى الجنون.

واعترف قائلًا: «يا إلهي، يمكنك مساعدتي على التخلص من مخاوفي».

أدار ظهره لها وهو يفرز الأدوات في الوعاء، وفجأة، ودون سابق إنذار دار حولها وأمسك بإبهامها الأيسر بين شفرات القطع وضغط.

جذبت هيلين نفسها من القيود وهي تصرخ: «لا!».

رأت وجهه المتوتر، برزت عظام وجنتيه وهو يضغط على طرفَي المقص، وانتقل الألم من خلال ذراع هيلين لينبه دماغها، ثم التقت شفرات القطع معًا مرة أخرى وسقط شيء ما على الأرض.

كان الألم لا يطاق، وناحت وهي تقول: «أريد أن أساعدك!».

أجاب بمحبة: «لكنك تفعلين ذلك»، ثم تغيرت نبرة صوته. «فإما أن أزدهر بما أفعل، أو أهلك».

سقطت هيلين مرة أخرى على طاولة العمل، وأغمضت عينيها وهي تصر على أسنانها، ليس هناك أي معنى من التحدث معه.

عليك أن تصمدي!

وبشكل غريزي كورت قبضة يدها اليسرى لتقليل النزيف، محاولة سخيفة، لكن هذا هو كل ما يمكنها فعله.. شعرت أن إبهامها مفقود.

إبهامك هو أقل مشاكلك! سوف يشوهك أولًا ثم يقتلك! تماسكي! اكسبي الوقت!

حاولت هيلين أن تتنفس بهدوء، لكن قول ذلك أسهل من فعله، فقد بدا جسدها كله متوترًا.

- «بخ! انفتح الباب وبسرعة، دخل الخياط إلى الغرفة، وهو يقفز نحو الصبي، الذي يظل يمص إبهامه».

شد إبهامها الآخر ووضعه بين نصلي المقص، لم تهتز هيلين حتى، سيقطع الآن إصبعها الثانية.. ظلت عيناها مغلقتين، وهي تتنفس بعمق وهدوء.

اصمدي!

ضغط كارل على المقص وكأنه يريد أن يختبر رد فعلها، ثم أحنى رأسه نحوها لتشعر بأنفاسه على خدها، وهمس: «مؤلم! والآن بالمقص، يُقطع الإبهام ويُقص يُقص! بالمقص الحاد الكبير، يزداد كونراد في العويل».

لكن هيلين لم تصرخ، والفضل يعود لفرانك على كل ذلك! فزوجها النظيف اضطر إلى ممارسة الجنس مع شخص آخر، فوقع الاختيار على امرأة مجنونة متعطشة للعمل، أخضعت صبيًّا تعرض للإيذاء لعلاج مكثف

وأثارت فضوله من خلال قيادتها لسيارتها متجهة نحو هيلين بنظارات وشعر مستعار، وبذلك قادت المرأة المجنونة كارل إلى منزلها مباشرة.

قال كارل: «ويقص يقص».

لم يظهر أي رد فعل.

أزاح المقص جانبًا وقال: «لا يزال لدينا الوقت».

سمعته وهو يجر الكرسي ويجلس بجانبها، وبينما كان يشحذ شفرات القطع بالحجر، تحدث بصوت منخفض، لم يقطعه سوى دوي الرعد.

- تعرف والداي على بعضهما في المستشفى، كان أبي عازف أرغن في الكاتدرائية، وفي أثناء إحدى رحلاته ذهب ليعزف بصفته ضيفًا في كاتدرائية القديس ستيفن في فيينا.

اخرس! أنا لا أهتم لذلك! لكن هيلين لم تقل كلمة واحدة، وطالما تحدث فلن يزيد من آلامها، **اعثروا على تلك العلية فقط!** وشردت في أفكارها، واصل كارل الحديث، وبدا صوته بعيدًا.

دفعها وقال: «هل تسمعينني؟».

فتحت عينيها للحظة كرد فعل، لكنها أغلقتهما على الفور مرة أخرى حتى لا تضطر إلى رؤية وجهه.

- في نهاية القداس في كاتدرائية القديس ستيفن في فيينا انفك تمثال للسيدة العذراء مريم من الحائط، واصطدم بالأرغن، فأصيبت ذراع أبي، كما سبب ذلك الحادث كسرًا مضاعفًا في عظم الزند والكعبرة. كانت والدتي ممرضة صغيرة جدًّا تحت التدريب، فاعتنت به وتزوجا، ولم يعد إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية، إنما عاشا في فيينا، وُلدت **تلك** العاهرة أولًا، ثم ولدت أنا بعد خمس سنوات.

دفعت أصوات شحذ المقص هيلين إلى الجنون.

- لو لم يكسر تمثال السيدة العذراء ذراع أبي، لاختلف كل شيء، ولما جئت أنا إلى هنا ولا أنت أيضًا. أليس هذا مثيرًا للسخرية؟ تدخلت السيدة العذراء مريم بنفسها في الأحداث، ورتبت ذلك كله. لكن لماذا؟ لتعذيبي مدى الحياة؟

وبدقة جنونية شحذ شفرات المقص حتى التمعت.

- ربما كان كل ذلك من تخطيطها؟ لقد كانت عذراء، بالطبع لن تستسيغ الخيانة، لقد فتحت دكتور هارمان عيني، إن لم تخن أمي والدي، لصرنا عائلة متناغمة، لكنها كذبت عليه وخدعته، مثل كل النساء الأخريات، والخيانة تقودني إلى الجنون! سأفعل بالنساء ما فعله بي أبي بسبب أمي.

- لا يمكنك معاقبة جميع النساء!

- بالتأكيد...

سمعته يأخذ الحجر بيده الأخرى ويستمر في الشحذ.

حك ... حك ...

أصبحت نظراته غائمة: «جارتنا في كولونيا كانت على علاقة غرامية مع مديرها، وهو محام متزوج، سمعته والدتي عندما أتى لزيارتها، حتى إنها عرفت زوجته، لكنها لم تخبرها بأي شيء، لا بد أنني أسديتُ معروفًا للزوجة عندما نهشت كلاب البيتبول رقبة تلك العاهرة».

حك ... حك ...

- رأيت معلمتي في المدرسة الثانوية في لايبتسيج مع مدرس الجمباز، فبينما يأمروننا بالجري في حلقات، يختفي الاثنان في غرفة خلع الملابس.

حك ... حك ...

- وعزيزتي العمة لوره.. أتذكر الدرس جيدًا... كانت تضربني على مؤخرة رأسي بملعقة خشبية في حضور أبي، إذا لم أتل الصلوات في

أثناء تناولي اللقيمات، هل ترين ذلك شيئًا حسنًا؟ ومع ذلك تجهض هي طفلين من علاقة غير شرعية.

حك ... حك ...

- ومن المؤكد أن معلمتي في رياض الأطفال كانت لها علاقة غرامية أيضًا، بل إن ذلك مؤكد حتى، فقد اعتادت على ارتداء التنانير القصيرة دائمًا، وتلطيخ نفسها بأحمر الشفاه الأحمر بكثافة، ودائمًا ما تجلس واضعة ساقيها فوق بعضهما هكذا..

حك ... حك ...

ثم قال: «أوه نعم، وميونخ»، ضحك بهدوء وأكمل: «كم صعب عليّ جدًّا العثور على معلمتي بالمدرسة الابتدائية في كولونيا، تلك المرأة الصغيرة الناعمة، من كان يصدق ذلك؟ لكنها أيضًا كانت على علاقة غرامية بشخص... أحيانًا أعتقد أن العالم كله يزني».

أنصتت هيلين رغم أن جذع إبهامها كان ينبض بجنون، والجرح يخفق دون توقف، والدم يسيل على معصمها، حاولت ألا تظهر ذلك، لقد أتت زابينه نيميتس من ميونخ - إنه يتحدث عن والدتها.

حك ... حك ...

- لقد احترقت المدرسة لذلك السبب أيضًا، أخبرتني بذلك قبل وفاتها.

حك.. حك...

- ألاحظ اهتمامك بتلك الحالة من ردة فعلك.

فتحت عينيها وحدقت في ضوء مصباح الكيروسين، كان فمها جافًّا، باعدت بين شفتيها: «لقد خانني زوجي، أستطيع أن أتخيل شعورك».

- «ليس بوسعك حتى أن تشعري بما أشعر به من ألم»، توقف عن الشحذ، والآن يمكنها أن تشم رائحة الحجر الذي أصبح ساخنًا بسبب الاحتكاك: «هيلين، كفي عن تصنع التفهم.. أستطيع أن

أدعوك هيلين، أليس كذلك؟ أنت متواطئة مع الشرطة الجنائية وقد خنتني، هل كان إخبار الصحافة بأن والدتي لا تزال على قيد الحياة عندما عُثر عليها من وحي أفكارك؟».

- ما الذي تتحدث عنه؟

- هيلين! لقد ماتت دون شك، قطعت المرأة لسانها! هل تظنينني غبيًّا؟ ماذا قصدت بهذه الكذبة؟

ظلت هيلين صامتة، لقد كرهت نفسها كثيرًا! لماذا فتحت فمها من الأساس؟

وقف كارل ووضع إبهامها بين نصلي المقص، كان المعدن دافئًا، ويكاد يكون متوهجًا.

توسلت له: «لا، من فضلك لا تفعل..».

فقلدها ساخرًا: «لا، من فضلك لا تفعل. سأخبرك بلغز، وإن لم تتمكني من حله، فسأقطع إبهامك. ما الذي يعنيه هذا الكلام؟.. (حل الظلام، وتجلى القمر المنير...)».

39

قبل خمسة أيام

جلسة العلاج النفسي الأخيرة

رافقت روزه عميلتها إلى الباب وودعتها، ومن الحديقة المقابلة فاحت رائحة الربيع الرائعة، سارت المرأة الشابة التي تعاني من فقدان الشهية إلى ساحة انتظار السيارات، وأغلقت روزه باب مكتبها.

كانت هذه هي العميلة الأخيرة في هذا اليوم، ونظرت روزه إلى ساعة الحائط، إنه يوم الجمعة، بعد الواحدة بقليل، وقد كانت الأيام القليلة الماضية مجهدة، لكنها الآن ستبدأ عطلة نهاية أسبوع مريحة؛ فأولًا ستزور صديقتها المفضلة، وستقضي فترة ما بعد الظهيرة في المنتجع الذي يقع بالمجمع السكني الذي تعيش فيه؛ ستتلقى علاج الأيورفيدا[1]، وتشرب الكايبيرينيا في حانة الساونا، ثم تقلم أظافرها، وتصفف شعرها، وفي المساء ستتناول عشاءها على ضوء الشموع في فندق ماريوت معه.

أدارت مشغل الأقراص المضغوطة، فتسللت أصوات الساكسفون الهادئة من مكبرات الصوت، تمايلت بجسدها مع الموسيقى وهي تعد لنفسها كوبًا من كوكتيل أبيرول شبريتسر، ولكن ليس كالذي يقدم في المطاعم الرخيصة، إنه مخلوط بالنبيذ الأبيض الفاخر ومكعبات الثلج، وبينما هي ترتشف من الكوب، رن جرس الباب، فنظرت بشكل لا إرادي حول غرفة العلاج.. لم تنس العميلة أي شيء.

---

(1) هو النظام الطبِّي التقليدي في الهند، الذي نشأ منذ أكثر من 4000 سنة، وهو يقوم على نظرية ترى أنَّ المرض ينتج عن اختِلال التوازن في قوة حياة الجسم.

اتجهت روزه إلى الردهة، لم تجد هناك معطفًا أو قبعة معلقة على مشجب المعاطف أيضًا.

فتحت الباب.

- عندما يلتقي عالمان نفسيان، يقول كل منهما للآخر: كيف حالي؟

انحنى كارل على إطار الباب، ولم يبتسم على نكتته، بدت تعابير وجهه في منتهى الجدية، دفع قطعة من العلكة في فمه، وإصبعه لا تزال على الجرس.

قالت روزه: «أنت سكران».

أغلق كارل عينيه ومط أنفه وقال: «وأنت أيضًا! أووه، سيدتي الطبيبة تشرب الخمر».

كان يرتدي بنطالًا من الجينز وسترة جلدية لطيفة، لاحظت أن أظافره وأطراف أصابعه ليست ملطخة بالزيت كالعادة.

حذرته بشكل رسمي: «سيد بوني.. ليس لدينا موعد اليوم».

رفع يده عن الجرس وتفحصها بلا خجل، حدق فيها من بنطالها الجينز الضيق إلى بلوزتها ثم وشاحها البني المحبوك الذي ارتدته فوق كتفيها، وأخيرًا توقفت نظراته عند قلادتها الخشبية التي غطت فتحة صدرها بشكل جزئي.

وتابعت روزه: «لقد حاولت الاتصال بك منذ آخر لقاء لنا قبل شهرين.. لكنك لا ترد على الهاتف، ولا ترد على بريدك الصوتي، وحتى رسائلي النصية لا ترد عليها».

- وها أنا ذا.

- أرى ذلك. رائع! حتى رب العمل الذي تعمل لديه لا يعرف مكانك.

رفع حاجبيه: «هل اتصلت بروبن؟».

- بالمناسبة، رئيسك لا يتحدث عنك بصورة جيدة.

- قد يؤذيني هذا الرجل العجوز، لقد استقلت منذ شهرين، وغضب جدًّا لذلك، كان عليك رؤية وجهه.

تعابير وجه كارل لا تزال جدية، وعندئذ بصق في حوض الزهور بجوار الباب.

توالت أفكار روزه، من المؤكد أن روبن يعلم بفرض المحكمة حكم العلاج بدلًا من العقوبة على الميكانيكي الذي يعمل لديه، لكن الغريب أنه لم يبلغ المحكمة بتغيب كارل، وإلا لكانت القاضية لوجريتي قد اتصلت بها، ولكن لا يزال ذلك شيئًا ممكنًا، فإذا اكتُشِف أن كارل عاطل عن العمل منذ شهرين ولا يلتزم بمواعيد علاجه، فسترغب المحكمة بلا شك في استجوابه والمطالبة بالاطلاع على ملفاته، عندها ستضطر إلى تزييف المستندات، حتى لا يعرف أحد أنها خدعت كارل بدواء وهمي، نظرت روزه حولها، فوجدت أن عميلتها التي تعاني من اضطراب في الطعام قد قادت السيارة بالفعل، لم يكن ثمة أحد في ساحة انتظار السيارات، كما أنها لم تر شاحنة كارل المتهالكة الخاصة بورشة روبن هناك.

- هل أتيت إلى هنا سيرًا على الأقدام؟

- بل بسيارتي الجديدة.

ثم ضغط على مفتاح التحكم عن بُعد مرتين متتاليتين، فومضت أضواء سيارة فورد فييستا ذات البابين بلونها الأزرق الداكن.

لاحظت روزه أظافر كارل المضوغة، كان الجلد ممزقًا في الأماكن التي يلتصق فيها الدم الجاف بمهاد الظفر... ليست علامة جيدة.

- لقد أوشكت على كتابة بيان للمحكمة لأنك لا تذعن لتنفيذ واجباتك، ولا تلتزم بالمواعيد، وأنا أعد ذلك بمثابة إنهاء للعلاج.

كانت قد كتبت التقرير بالفعل إلى بيترا لوجريتي لكنها لم ترسله بعد؛ لأنها تمنت أن يتواصل معها كارل بعد كل شيء، إذا لم يكن الأمر كذلك، فسيطلبونه بموجب مذكرة اعتقال، ومن المرجح أن تقرر المحكمة أنه سيتعين عليه قضاء عقوبة السجن لمدة ثلاث سنوات.. ولحسن الحظ أنه ظهر الآن، ولكن في وقت غير مناسب.

اقترح عليها: «إذًا علينا تعويض الجلسة في أسرع وقت ممكن».

- قرار جيد، ولكن ليس الآن.

فقال لها: «لا؟ ثم تساءل: «ألا تهتمين حتى بمدى سوء حالتي خلال الشهرين الماضيين؟ أم تفضل سيدتي الطبيبة أن تعرف ذلك من الجرائد؟»».

تنحت جانبًا وقالت: «ادخل».

قال: «أوه، شكرًا جزيلًا لك»، ثم لصق العلكة على درجة الدكتوراه المطبوعة على لافتة باب منزلها ودخل إلى الردهة وهو يقول: «وشكرًا لك، لا أرغب في تناول النبيذ».

ارتمى على الأريكة في غرفة العلاج وكأنه في منزله، وقال: «ما هذا الهراء الذي تستمعين إليه؟».

أغلقت روزه مشغل الأقراص المضغوطة وجلست، ثم اقترحت عليه: «دعنا نرتب موعدين جديدين».

- ليس ضروريًّا.

فكررت: «ليس ضروريًّا؟ ولماذا؟».

ابتسم وقال: «من المفترض أنك تعرفين السبب، ماذا يمكن أن يكون؟».

شعرت أنه يسخر منها، كما أنها لا ترغب في تبادل الأدوار مع عميل مخمور.

سأل: «هل يمكن أن يكون السبب هو سخريتك مني؟».

شعرت روزه بالغثيان.

وتابع: «هل يمكن أن يكون السبب هو خيانتك لي، وخيانة ثقتي بك؟».

لفحت رأس روزه موجة من الحرارة وقالت بهدوء: «تقصد التوركسين».

- نعم صحيح. التوركسين، الذي تتكلف الحبة الواحدة منه خمسين يورو على الأقل، يا له من دواء نفسي باهظ الثمن!، ثم قلد لهجتها قائلًا: «يستخدم فقط على مرضى من نوع خاص».

- أنا آسفة.

قفز من على الأريكة وقال: «ماذا؟ لقد خدعتني، واحتلت عليّ، هل لديك أي فكرة عن مدى الغباء الذي شعرت به عندما اكتشفت أن هذا الدواء اللعين ليس له وجود؟ إلى أي مدى بدوت لك أبله عندما جعلتني أبكي وأتحدث عن أختي؟ لقد ملأ كارل ماريا عيادتك نواحًا!».

وضعت روزه يديها على فخذيها، تعرقت راحتا يديها، فقد كان كارل بمثابة قنبلة موقوتة، ولا بد أن كراهيته للنساء كانت كبيرة بقدر لا يمكن قياسه، وخاصة كراهيته لأخته وأمه، والآن أقحمت نفسها في هذه الكراهية بسبب حبة الحقيقة.

همس قائلًا: «لست خائفة، أليس كذلك؟».

لم تُجب روزه، شعرت وكأن هناك يدًا غير مرئية تطبق على حَلْقها، لم تستطع حتى البلع.

طمأنها قائلًا: «لا داعي للخوف يا روزه، لقد وجدت طريقة لمعالجة نتائج الجلسات الأخيرة بطريقتي الخاصة».

- جميل.

- نعم، إنها طريقة لطيفة، لقد أعجبتني أيضًا»، وراح يمضغ أظافره مرة أخرى.

كان عليها أن تحاول السيطرة على توتره، لكنها في تلك اللحظة كانت أكثر توترًا منه، فقد جف فمها.. يا إلهي، يمكنها أن تتحمل تناول شراب قوي.

- ألا تريدين أن تعرفي كيف نجحت في ذلك؟

قالت بصوت متحشرج: «بالطبع، من فضلك أخبرني».

- لقد كنت مخطئة، فوالدي ليس ساديًّا.

وأكدت هي: «لا، لم يكن كذلك».

- لم يكن يرغب في حرقي بالمكواة في جميع أنحاء جسدي، لكنْ كلانا يعرف سبب تصرفه على أي حال، لقد كان مريضًا، والدتي هي من دفعته لذلك بعد أن مارست الجنس مع كل رجل في المدينة لتنسى ابنتها، تلك العاهرة الصغيرة الغبية، وقد هددت بترك والدي إذا صرت شقيًّا.. وهكذا سار الأمر، أليس كذلك؟

- والدتك...

فصرخ: «لكنني كنت مهذبًا، ومع ذلك ظل يخنقني كل أسبوع تقريبًا بكيس بلاستيكي، عازف الأرغن العظيم في الكاتدرائية، ذلك المخلص المتواضع الموقر، قدوة المجتمع الكنسي، الذي قدسه الجميع بسبب عزفه السماوي على الأرغن، ذلك الوغد المتعصب لعب معي لعبة مختلفة، كان يطلب مني حل الألغاز، وهي مهام لم أتمكن من حلها في الوقت المحدد، لقد كنت صغيرًا جدًّا على ذلك!».

تشكلت الدموع في أطراف عينيه، لم يتحدث عن ذلك من قبل، لم تستطع روزه أيضًا أن تتذكر أي ذكر للألغاز في الأشرطة التي سجلها كارل لها.

سألته: «أي ألغاز هذه؟».

مسح الدموع من عينيه، فأشرقت حدقة عينه وقال: «ألعاب مبنية على الأسئلة... من الذي لحن أهم خمس قداسات رعوية؟ كم عدد الإيقاعات

الموجودة في أنشودة باخ لعيد الميلاد؟ ما التسلسل الصحيح لأي طقس ديني؟ وبينما يعزف والدي، كان لدي الوقت للعثور على الإجابة، ولكن هل لدى طفل في العاشرة فرصة لاكتشاف شيء كهذا في أربعين دقيقة؟ كان الجهل عنده بمثابة خبث، لا أزال أسمع أسئلته الاستقصائية ومهامه غير القابلة للحل أحيانًا، بالإضافة إلى اللوم، والاتهامات، والتعذيب النفسي!.. (حل الظلام، وتجلى القمر المنير...)» ضغط بيديه على أذنيه.

تذكرت روزه أن كارل تحدث في الأشرطة عن قصيدة معينة ظل والده يرددها وهو يعاقبه.

- ما الذي تتناوله هذه القصيدة؟

- هناك عشرات القوافي.

أغمض عينيه وعندئذ تهاوى صوته في نغمة رتيبة: «عندما تأكلون حساءكم، ولا تنسون خبزكم، عندما تبقون هادئين مع أشيائكم دون ضجيج، عندما في الشوارع تتنزهون، وتَدَعُون لأمكم زمام الأمور...».

قاطعته: «كارل!».

فتح عينيه: «حتى يومنا هذا لم أفهم معنى القصيدة.. (حل الظلام...) اللعنة، أريد أن أوقف العالم عن الدوران».

ذكرته: «كارل! لقد قلت إنك وجدت طريقة للتعامل مع الصدمة، حدثني بشأنها».

تسللت الابتسامة إلى شفتيه، وقد ابتسمت عيناه أيضًا هذه المرة، وفجأة ظهر تعبير سعيد على وجهه: « كنت في دريسدن عند قبر والدي، وجلست عند سفح لوح الرخام وتحدثت معه، أخبرته أنني أعرف لماذا فعل ذلك بي، والآن أدركت ما كان يريد أن يخبرني به وهو على فراش الموت... وقد سامحته».

شدت روزه على يده، وقالت: «هذا لطيف»، كانت أصابع كارل باردة، وابتسم، فتركت يده بسرعة وقالت: «من فضلك سامحني لخيانة ثقتك بي».

- أنا آسف أيضًا، لكنني لا أستطيع أن أسامحك... فأنت امرأة!

دب الذعر في روزه مرة أخرى، وما غرضه من زيارتها إذًا؟ وراحت يداها ترتعشان.

وقف كارل واتجه إلى الباب، وقبل أن يغادر غرفة العلاج، نظر حوله في الغرفة كما لو كان يريد أن يودع جزءًا من حياته، فسقطت عيناه على الخزانة.

التقرير! راحت نبضات قلبها تتسارع.

سألته بسرعة لصرف انتباهه: «ماذا ستفعل الآن؟»، لكنه كان قد رأى المظروف بالفعل فالتقطه، وأداره بين أصابعه وقرأ اسم المتسلم: «هل هذا هو التقرير المقدم إلى المحكمة، الذي قلت إنك لم تكتبيه بعد؟».

- لم أرغب في إرساله إلا بعد التحدث إليك.

- روزه، أنت تكذبين عليّ مجددًا، لن تتعلمي أبدًا!

لم تظهر عليه خيبة الأمل حتى، وكأنه لا يتوقع منها أقل من ذلك.

فتح كارل الظرف، وأخرج الرسالة ثم وضعها في الجيب الداخلي لسترته: «أوه نعم، لقد سألتني عن مخططاتي، سأذهب إلى ميونخ اليوم، سأزور واحدة من معارفي القدامى، قد استغرق الأمر وقتًا طويلًا لتحديد مكانها؛ لأنها كانت تعيش في كولونيا، وأنا سعيد الآن لأنني سأراها مرة أخرى، أنا متأكد من أنها تتذكرني».

رافقته روزه إلى الباب، فخرج لكنه عاد إليها وقال: «عندما أعود، سنحدد الموعد الأخير، حسنًا؟».

قالت: «اتفقنا»، ثم ابتلعت ريقها وقالت: «أتمنى أن تحظى بالكثير من المرح في ألمانيا».

- أوه، سأفعل ذلك.

تبعته روزه ببصرها وهو يتجه نحو السيارة، فأطلقت أنفاسها المحبوسة، وارتخت كتفاها، فقد كان حدوث أي شيء في الدقائق القليلة الماضية أمرًا واردًا، شعرت بركبتيها لا تقويان على حملها، فأغلقت الباب وعادت إلى غرفة العلاج، وبأصابع مرتجفة مدت يدها إلى الكأس وأفرغت مشروب الأبيرول شبريتس في جرعة واحدة، ثم نظرت من النافذة، في الواقع لقد ركب كارل سيارة فورد فييستا الزرقاء، وانعطف بها في ساحة انتظار السيارات وابتعد.

قالت: «يا إلهي!»، ثم خلطت كوبًا آخر، لكن هذه المرة دون تخفيفه بمكعبات ثلج، وأفرغته في جرعة واحدة.

استغرق الأمر من روزه خمس عشرة دقيقة لتهدئة أعصابها عن طريق التحديق في الساعة فقط، كان عليها إبلاغ المحكمة بزيارة كارل، فكلما عجلت بذلك، كان أفضل لها، فإن افتضحت طرق علاجها، فمعناه أنها ستفتضح هي أيضًا، لكن على الأقل هذا أفضل من أن يطاردها رجل مجنون.

نظرت إلى الساعة، لقد دقت الثانية والنصف بالفعل، وعليها أن تزور صديقتها المفضلة.. أفضل صديقة لها! يا لها من نكتة! تلك التورية الغبية التي اعتادت عليها خلال الأشهر القليلة الماضية.

وفي الحمام المجاور لغرفة العلاج مسحت مظلل العيون وأحمر الشفاه عن وجهها، وأخرجت عدساتها اللاصقة ووضعتها في علبتها، ثم أخفت بودرة الوجه اسمرار بشرتها الذي اكتسبته من مقصورة التشمس الاصطناعي، وسحبت من خزانة الحمام النظارات السميكة ذات الإطار القرني التي ربما صنعت قبل عشرين عامًا، ثم نظرت روزه إلى نفسها في المرآة وتركت زوايا فمها تترهل.

زمجرت بصوت عميق: «أنت تبدين قبيحة جدًّا أيتها الفتاة العجوز!».

ثم خلعت ملابسها وارتدت بنطالًا رماديًّا، وسترة داكنة ذات ياقة مدورة، وحذاء مسطحًا باليًا.

وعندما عادت إلى الحمام خلعت الشعر المستعار الرمادي عن الحامل، ثم أخذت تروض شعرها الأحمر المصفف بدقة باستخدام جل الشعر، وبعدها وضعت فوقه شعر والدتها المستعار الذي اعتادت على ارتدائه في السبعينيات من عمرها.

- هذا يجعلك تبدين بحق صيدلانية أكبر بعشر سنوات؛ فقيرة، وحزينة، ومصابة بالسرطان.

خرجت من المنزل متجهة نحو سيارتها وهي تحمل حقيبة يد بنية بين ذراعيها.

كانت عيادة هذه البقرة الغبية على بعد حوالي عشرين دقيقة بالسيارة، وقد أخبرتها بأنها ستصل في الوقت المحدد، ما الذي سيتحدثان بشأنه هذه المرة؟ عن علاقتها غير السعيدة برجل متزوج؟ وبماذا ستنصحها تلك الغبية الفلاحة التي تعيش في جريسكيرشن هذه المرة؟ لكن تلك المعالجة بدت أكثر احترافية مما تخيلت روزه، فالحيل النفسية التي مارستها روزه لم يكشف سوى القليل عنها، لكن هذه المرة ربما تستطيع روزه أن تعلم شيئًا جديدًا، فكل امرأة تتحدث عن نفسها دون وعي تقدم نصيحة لامرأة أخرى، ولم يختلف الأمر معها.

هناك وقت بالتأكيد قبل موعد العشاء مع فرانك للأيورفيدا، وتقليم الأظافر وتصفيف الشعر. فهذه المرة يمكنه البقاء حتى الساعة 11:30 مساءً، وسيقودان السيارة إلى منزلها بعد الانتهاء من فندق الماريوت، لقد أحبها عندما أدارت أسطوانة الجاز القديمة الخاصة بها على القرص الدوار في حين جلس هو يقضم أذنها بخفة وهي تتلو عليه قصائد ويليام بوروزه، لقد أحبته عندما همس في أذنها وقال إنها تتحدث مثل الراهبة وتقبل مثل الشيطان، هذا الرجل لا يستحق أي امرأة أخرى غيرها.

وركزت روزه بنظاراتها ذات الإطار القرني الضعيف جدًّا بشدة حتى لا تتسبب في وقوع حادث لدرجة أنها لم تلاحظ سيارة فورد فييستا ذات بابين ولون أزرق داكن وهي تتبعها.

40

هطلت الأمطار كالسيول على المدينة، وقد وقفت زابينه في ممر المبنى القديم، كانت سترتها الحرارية مبللة بالكامل، وقد أعطاها زميل من الشرطة الجنائية بفيينا سترة مطر ذات خطوط صفراء عاكسة.

أُغلقت الأبواب الخلفية لسيارة الإسعاف، ودون إضاعة أي وقت هرعت سيارة الإسعاف بعيدًا بأضواء ساطعة وهي تطلق صافرات الإنذار، فتفجرت نوافير المياه من البرك الصغيرة الموجودة على جانبي السيارة، وبينما كانت السيارة تسرع عبر النفق السفلي لمترو الأنفاق، ترددت أصداء صافرات الإنذار في الجدران، وبعد ثوانٍ رأت زابينه الضوء الأزرق ينعكس على جدران المنازل وبرك المطر.

حدقت في الجهة الأخرى من الشارع، في الرقم 18، ظل مارتن شنايدر وبن كولر وأوليفر براندشتيتر يتجادلون مع بعض الضباط الآخرين هناك لمدة خمس عشرة دقيقة، كانت المجموعة تقف أمام مدخل البيت وهي محاطة بسيارات الشرطة، ورغم المطر تعالت الأصوات بصورة لا يمكن تجاهلها، كانوا رجالًا فقط، ولهذا السبب انسحبت، فبوسعها الاستغناء عن المشاكسة وسلوك البلطجة وتوجيه الاتهامات، وكان من بين الضباط وحش كبير يرتدي بدلة باللون الرملي ونظارات وذو شعر أشيب، ربما هو رئيس كولر.. مشاعرها تغلي.

لم تكن زابينه مهتمة بما يناقشه الرجال، فرأسها منشغل بمشاكل أخرى في هذه اللحظة، كانت حقيبتها في مقصف مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية، ولم يكن لديها أي فكرة عن المكان الذي من المفترض أن تبيت فيه هي وشنايدر، كاد شحن بطارية هاتفها يفرغ، وربما لن يكفي إلا لمحادثة قصيرة مع أختها،

وقاتل أمها لا يزال طليقًا، ولا يزال الزملاء من المكتب الإقليمي في ميونخ -وهم ليس لديهم أي فكرة عما حدث في فيينا خلال الاثنتي عشرة ساعة الماضية- ينتظرون زيارتها، من المؤكد أن الرجل الذي يرتدي البدلة الرملية ذات السترة الداخلية سيتواصل مع الشرطة في ميونخ، وبعد هذا الأداء الرائع، الذي فقدوا فيه هيلين بيرجر، صارت وظيفتها في الخدمة الجنائية الدائمة على المحك، كما يمكنها نسيان الحصول على تدريب في الشرطة الجنائية الاتحادية، بدا الطقس السيئ مناسبًا لحالتها تمامًا.

تسلل إليها صوت شنايدر، كان يتحدث بهدوء ولكن بلهجة حادة، صمت الرجال الآخرون على الفور، ثم انفصل عن المجموعة وأتى إليها ومياه الأمطار تهطل على رأسه الأصلع، وفي ضوء البرق الذي كان يومض عبر أسطح المنازل كل دقيقة بدا وجهه مغبرًا.

- هل تريدين أن تأتي معي تحت السقيفة؟

قالت له: «شكرًا لك»، فمسح شنايدر الماء عن وجهه وقال: «كفة الميزان ليست في صالحنا يا سنجابة، إنهم لا يهتمون بأننا أنقذنا ضحية أخرى لكارل، هيلين بيرجر مفقودة، وهذا خطئي! وليس لدي أي فكرة عن المكان الذي يمكن أن يأخذها فيه هذا النذل».

- كيف حال روزه هارمان؟

- «قطع لها كارل تسع أصابع، سبع منها وجدت في الدلو، ولا يعتقد طبيب الطوارئ أن الجراحين يمكنهم إنقاذ أي منها، كما تعاني من الغرغرينا وتسمم الدم، بل ربما يتعين عليهم...» قطع حديثَ شنايدر رنينُ جهاز الآيفون الخاص به، فأجاب فورًا واستمع لفترة من الوقت: «أي نظام مراقبة هوائي؟» ثم سأل أخيرًا: «آه.. والشيء الآخر؟.. جيد، شكرًا لك».

لم تفهم زابينه كلمة واحدة، وبينما هو يدس الهاتف، كان كولر يركض نحوهما.

- شنايدر، أنا آسف، يجب أن أسحب منك سلاحك وجواز سفرك وبطاقة هويتك حتى يتم توضيح الأمر، بعدها سأرافقكما إلى القسم، سنكتب تقريرًا في ذلك.

ضيق شنايدر عينيه وقال: «أنت تمزح بالتأكيد، وهذا إذا استطعت أن تلمسني..».

قال كولر: «هذا ليس قراري! لقد تدخلت في تحقيق جارٍ والآن فقدنا شاهدًا».

شخر شنايدر وقال: «تحقيق جارٍ؟ لقد سار الأمر على هذا النحو عندما وصلنا إلى فيينا»، ثم أشار باستخفاف نحو مجموعة الرجال: «وماذا يفعل هؤلاء للعثور على هيلين بيرجر؟».

ابتسم كولر بمرارة: «هناك مسألة شخصية بين هيلين ورئيس قسم الشرطة، والعثور عليها ليس من أولوياته».

- إذا وثقت بي، فسنجدها.

قال كولر: «أثق بك؟»، ثم ضمّ شفتيه ضاغطًا عليهما وقال: «صدقني أنا أود ذلك، لكنني لا أستطيع»، ثم أزاح الماء عن وجهه وأردف: «انتهى الأمر بالنسبة لك، دعنا نذهب».

ظل شنايدر واقفًا وقال: «انسَ حماقة البيروقراطية للحظة واستمع فقط ببساطة، لقد رتبت لتتبع هاتف كارل بوني».

اتسعت عينا كولر، وفي اللحظة التالية هز رأسه وقال: «هذا مستحيل».

- حسنًا، أعلم أن شركة الاتصالات الخاصة بكم لا تسلم أي قائمة بالمكالمات الهاتفية للشرطة حتى لو تدخل المدعي العام، كما يتعين

على زملائك الانتظار حتى تسوي شركة الاتصالات الفاتورة ربع السنوية، لكننا نعمل بشكل مختلف».

– نحن؟ هل يخترق متخصصو تكنولوجيا المعلومات من مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية بفيسبادن شركة الاتصالات؟

– ليس هكذا، لكن جهاز الاستخبارات الاتحادي يستطيع اختراق البرامج كلها.

– ومن أين حصلت على رقم هاتف كارل؟

– من تتبع البيانات، لقد اتصل بهيلين بيرجر في الساعة 5:01 مساءً.

– ومن أين حصلت على رقم هاتف هيلين؟

أطاح شنادير ذراعيه في الهواء وهو يقول: «آه يا يسوع!» ثم ربت على جيب سترته حيث يضع جهاز الآيفون وقال: «لا يمكنك إغفال رقم الهاتف الموجود على موقع هيلين الإلكتروني ضمن أيقونة (جهات الاتصال)».

والآن أدركت زابينه، لم يكن وجود شنايدر عديم الجدوى طوال الوقت.

– ومتى دبرت ذلك كله؟

– أمام عيادة هارمان، عندما جلسنا ننتظر السيارة البديلة.

– إذا أخبرت مديري بذلك، فسوف يقطع رأسي.

شخر شنايدر: «اللعنة! إذا أخبرت رئيسك بذلك، فأنا من سيقطع رأسك! هل أنت مهتم بما اكتشفته أم أنك تريدني أن أواصل إلقاء محاضراتي حول البيروقراطية؟».

تردد كولر، وفي تلك اللحظة سقط عليهم شعاع مصباح يدوي من الجانب الآخر من الشارع، لقد تفرق الجمع ببطء، وجاء أوليفر براندشتيتر إليهم.

صاح الرجل ذو البدلة الرملية: «كولر، براندشتيتر! تعاليا إلى القسم!.. الآن!».

تذمر براندشتيتر عندما وصل إليهم وقال: «فليذهب إلى الجحيم».

نظرت زابينه إلى تقاسيم وجه كولر، كأن عظام وجنتيه قد طحنت.. ماذا سيقرر؟

رد على ندائه وقال: «نعم، فورًا»، ثم قال بهدوء لشنايدر: «حسنًا، ابدأ الشرح».

- نحن بحاجة إلى خريطة لمدينة فيينا.

- حسنًا، تعال معي.

ركضوا نحو السيارة الأودي السوداء التي لا تزال تقف أمام النفق، وبينما تفرق الضباط في كل اتجاه، دخلوا هم، وسأل براندشتيتر: «ما الذي تخطط له؟».

سأل كولر: «ماذا؟ هل لديك خريطة في صندوق التابلوه الخاص بك؟».

هز براندشتيتر رأسه غير مصدق: «ومن الذي لا يزال يستخدم هذه الخرائط اليوم؟ ربما جدتك..»، ثم شغل نظام الملاحة وقال: «هذا أفضل بكثير».

انحنى شنايدر إلى الأمام وقال: «وأخيرًا شخص يشاركني التفكير!».

- تم تسجيل دخول هاتف كارل إلى شبكة الهاتف في هذه اللحظة.

حدّق كولر في شاشة الملاحة وهو يشعر بالإحباط: «يوجد في فيينا 1500 شبكة للهاتف، وتتضاعف عدد المحطات تقريبًا، نحن بحاجة إلى سجل إرسال مع جميع المواقع».

أجاب شنايدر بهدوء: «المحطة موجودة في زينسنجاسي.. لقد تم تسجيل اتصال هاتف كارل بهوائي يشير إلى الجنوب بقطاع يبلغ مائة وعشرين درجة.. يتراوح مداها بمقدار ستين مترًا تقريبًا».

لم يكن هناك ما يجب شرحه لبراندشتيتر، لقد استخدم نظام الملاحة وأحضر خريطة للمنطقة على الشاشة، بدت صفوف المنازل النحيلة وكأنها أقراص عسل، وكانت هناك مساحات خضراء بينهما.

انحنت زابينه أيضًا إلى الأمام وحللت أسماء المباني: «كلية الطب الشرعي بجامعة الطب، وحرم جامعة فيينا و... برج المجانين؟».. ومن داخل الفناء الداخلي لهذا المبنى الدائري الشاهق يبرز هذا البرج.

أوضح كولر: «برج المجانين كان في السابق مستشفى للأمراض النفسية، وهو الآن مجرد متحف لعلم الأمراض»، ثم التفت إليهم وقال «هذا هو الموقع القديم لمستشفى فيينا العام، سيحتاج أيامًا لتفتيشه».

- يمكن لزملائك أيضًا استهداف هاتف هيلين، أليس كذلك؟

أجاب شنايدر: «لقد فعلوا ذلك بالفعل، لكن تسجيل الدخول يتبع هوائي بمنطقة مختلفة، ربما كان كارل يجلس بالفعل في سيارة هيلين عندما ابتعدت عن عيادة هارمان، وألقت هاتفها خارج السيارة في شارع تريستر، حيث لا يزال ملقى حتى الآن».

قال كولر: «اللعنة»، ثم نقر على نظام الملاحة وكبر الصورة.

سأل براندشتيتر: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

- على الأقل ليس إلى القسم.

- إذا اكتشف الرئيس ذلك، فسوف تنفجر شرايينه...».

صرخ كولر وشنايدر في صوت واحد: «نحن نعلم ذلك!».

تذمر براندشتيتر: «حسنًا، فقط تحليا بالهدوء.. إذا كنت ستورطني بهذا الأمر، فعلى الأقل أريد أن أعرف ما الذي يدور هنا».

أجاب كولر: «ما زلنا نعمل على الأمر»، وبجمل قصيرة شرح لزميله ما يعرفه حتى الآن، لكن نظرات براندشتيتر ظلت متشككة.

قال كولر: «لقد فقدت هيلين مرة قبل ثلاث سنوات عندما اضطرت إلى مواجهة اتهامات المدعي العام والمحكمة والشرطة»، زفر كولر وقال: «لن أرتكب نفس الخطأ مرة أخرى.. هل أنت معي أم لا؟».

وضع براندشتيتر سبابته على صدر كولر وقال: «اسمع يا صديقي، لم أكن لأتخلى عن هيلين في وقت كهذا، كما فعلت أنت سابقًا، بالطبع أنا معك».

خيم الصمت للحظة.

فقالت زابينه فجأة: «كانت والدة كارل بوني ممرضة».

صاح كولر: «ومساعدة في قسم أمراض النساء في معهد جامعة فيينا.. هذا كل شيء».

أثنى شنايدر عليهما: «بلاء حسن! لقد أخذ هيلين إلى أحد مباني قسم الأمراض في المستشفى العام القديم»، ثم نقر على كتف براندشتيتر وقال: «هيا يا رجل، ماذا تنتظر؟».

41

عصرت هيلين عينيها، لم ترد أن تسمع هذا الجنون أطول من ذلك، فهذا اللحن الذي يغنيه كارل بإلحاح كان يندفع إلى رأس هيلين بعنف.

- «حل الظلام وتجلى القمر المنير، وعلى المرج الأخضر تراكم الجليد،
سارت العربة بسرعة البرق عند الزاوية تهادت ببطء».

إنه يروي قصيدة من أربعة مقاطع عن العمة العجوز في تابوتها وصبي بشعر أبيض كالثلج.

قال في النهاية: «ما معنى ذلك؟».

وهي ليس لديها أية إجابة، ولا ترغب في الرد.

- ما المغزى من هذه الكلمات؟

- هل هذه واحدة من الألغاز التي كان أبوك..

صرخ فيها: «لن يفرق معي ذلك نهائيًّا، ما معناها بحق الجحيم؟».

- لا أعلم.

أحكم الضغط على المقص وهو يقول: «أنت بلا فائدة تمامًا»، ثم راح يلهث فجأة وهو يقول: «أرجوك!.. ساعديني! ما معنى هذه القصيدة؟». ترنح صوته وصارت نبراته متوسلة.

انفجرت هيلين: «إنها ليست سوى قصيدة هجائية يرددها الأطفال على مدى عقود، عرفتها في شبابي، إنها قديمة جدًّا وربما تعود إلى عصر جوته».

صاح فيها: «والمعنى؟».

- إنها تلاعب بالألفاظ، ليس لها معنى!

ضغط على المقص وهو يقول: «لا بد أن يكون لها معنى!».

صرخت هيلين: «إنها مفارقة، والقصيدة تعيش بالمفارقات الواضحة».

- ما الفائدة من هذه المفارقات؟
- ليس للمفارقة معنى!

يا إلهي، ماذا الذي يريد أن يسمعه؟ أردفت هيلين: «إنها صيغة تبنى على اختيار كلمتين متضادتين ومتناقضتين.. مثل الصبي الكبير...».

فأضاف ببطء: «... أو هي علاقة الحب والكراهية»، غامت رؤيته وأردف: «أكدت روزه هارمان حب والدتي لي رغم أنها كانت تكرهني حد الموت...»، ثم توقف وفجأة نظر إليها بعينين صافيتين: «لقد حللت اللغز، ووصلت إلى هدفي»، ثم ابتسم لها فجأة، ونظر إلى النصل وقال مقتبسًا من القصيدة: «صمت الكلام، وهرب الابتسام؛ لأن هذا هو المكان الذي يسعد فيه الموت بمساعدة الحياة».

ظلت هيلين صامتة، لم يكن لديها أي فكرة عما يتحدث عنه.

- أردت أن تعرفي أين أنت يا هيلين.. كان جيوفاني مورجاني هو مؤسس علم الأمراض الحديث.

علم الأمراض؟

- لقد حللت اللغز بنفسي، لكنك ما زلت لا تعرفين المعنى: ثم ابتسم وأعاد الكمامة إلى فمها، لكن بصورة أعمق من أي وقت مضى، وقال: «أنا آسف، لكنك لم تتمكني من حل اللغز».

قبض كارل على المقص وقطع إبهام هيلين الثاني.

42

وباللون الرمادي الباهت، حجرًا فوق حجر، ارتفع مبنى مكتب الطب الشرعي كالوحش، وهطلت مياه الأمطار فوق المزاريب، كما تدفقت في مسارات صعبة عبر تقاطعات النوافذ الصغيرة، ومع هذه العاصفة الرعدية كانت حركة المرور يسيرة في الزاوية بين شارعي شبيتالجاسي وزينسنجاسي، لا بد أن البرق قد ضرب مكانًا ما؛ لأن الإضاءة على هذا الجانب من الشارع بدت معطلة وعلى بعد بنايات قليلة كان هناك انقطاع عام للتيار الكهربائي.

وتحت سقف مكتب الطب الشرعي نقش على السور شعار لاتيني طويل مكتوب بأحرف كبيرة، وعندما التمع البرق عبر السماء، تمكنت زابينه من نطق كلمتين.. دراسات التشريح، ثم غطى الظلام على ما تبقى من الشعار.

ركض براندشتيتر نحوهم وهو يظلل عينيه بيده من المطر، وباليد الأخرى يحمل مصباحين يدويين.

صرخ كولر بصوت عالٍ: «من أين نبدأ؟».

قال شنايدر: «يمكننا إهمال الحرم الجامعي.. سيظل معنا مكتب الطب الشرعي أو برج المجانين».

أمسك كولر بذراع شنايدر: «بِمَ يحدثك شعورك؟».

- أخبرني بالمزيد عن برج المجانين، لكن باختصار وفي صلب الموضوع.

ثم رفع شنايدر ثلاث أصابع.

فقال كولر: «أنا لا أعرف أكثر مما تعرفه أنت عنه».

تحدث براندشتيتر: «في القرن السابع عشر كان البرج هو أول مصحة لنحو مائتي شخص مصاب بمرض عقلي.. واليوم هو متحف تشريحي مرضي للتشوهات مع معروضات مثيرة للدهشة، فأخت زوجتي تنظف خزائن العرض، إنه يقع تحت بند حماية الآثار، وهو مملوك لجامعة فيينا».

همس شنايدر: «إنه في برج المجانين».

سأله كولر: «إلى أي درجة تصل نسبة تأكدك؟».

- بنسبة تسعين بالمائة، ويمكن أيضًا أن يكون هذا المبنى الدائري -بوصفه نصبًا محميًّا- يوفر له الحماية اللازمة! أو هكذا يظن هو، كما أن البرج يقع في مكان بعيد وغير ملاصق لأي مبانٍ أخرى، والأكثر من ذلك أن المتحف مغلق في هذا الوقت وهو لا يشعر بأي إزعاج».

- وإذا كنت مخطئًا...

اقترحت زابينه: «عليك أن تطلب تعزيزات».

- لكي يحملونا من هنا ويعرضونا على القسم؟!

ثم التقط كولر هاتفه، وبدلًا من إبلاغ الشرطة الجنائية الاتحادية في فيينا بموقعهم، اتصل بمدير عمليات فيجا.

ما فهمته زابينه من كلام كولر هو أن الرجال بصدد ترك موقعهم أمام منزل كارمن بوني، وبعد أن شرح كولر الوضع لزميله السابق، أرسله إلى مبنى مكتب الطب الشرعي لتفتيشه من القبو إلى العلية بحثًا عن هيلين وكارل بوني، ثم توقف في منتصف الجملة وقال: «مرحبًا.. مرحبًا؟».

خبأ كولر الهاتف وقال: «شحن البطارية بالكاد يكفي، سيعتني الأولاد بالأمر.. دعونا نلقي نظرة على البرج».

تشكل برج المجانين من مرج صار موحلًا بسبب وابل من الأمطار، كانت مباني الجامعة القديمة تنتشر في كل مكان، وهناك مسار ضيق ذو ألواح حجرية يؤدي إلى المدخل، وبالجوار تجمعت مياه الأمطار في أخاديد

عميقة؛ هناك سيارة مرت من هنا مؤخرًا! تابع كولر مسارات أطر السيارة باستخدام مصباحه اليدوي حتى سقط الضوء على سيارة تويوتا قديمة متوقفة بجوار البرج، إنهما هنا بحق، ركض نحو المبنى، ثم تبعته زابينه وشنايدر وبراندشتيتر.

إذا وقفت أمامه مباشرة سيبدو المبنى لك وكأنه قلعة من العصور الوسطى، أشاحت ضربات البرق المتتالية الظلام عن الجدران، كان المبنى الدائري الذي يشبه الحصن، والمشيد من الطوب الخام دون خلطه بالجص، يتكون من خمسة طوابق ونوافذه مفتوحة، أما الصف السفلي من النوافذ فكان مزودًا بحواجز شبكية.. نجحوا في الدخول إلى المبنى الدائري من خلال الممر، وكان الفناء صغيرًا، ومن هنا برز ارتفاع البرج.. يا له من بناء مجنون!

أوضح براندشتيتر: «كان هذا البناء الدائري قديمًا سكنًا للممرضات ومكان إقامة لخدمة الأطباء.. سننظر أنا وبن هناك»، ثم سلم شنايدر مصباحًا وقال: «اعتنيا أنتما بأمر البرج»، وفي اللحظة التالية اختفى الاثنان.

أعطى شنايدر المصباح لزابينه، حتى يتسنى له سحب السلاح بنفسه، وقال: «أضيئي لي الطريق».

ركضا تحت المطر إلى مدخل البرج، وكان القوس الدائري قائمًا على قاعدة جدار ضخمة، وفوق البوابة الخشبية الضخمة يتأرجح مصباح بعنف بسبب تقلبات التيار الكهربي، وبتلك الموهبة التي يمتلكها شنايدر في فتح الأبواب، لن يتمكنا أبدًا من عبور تلك البوابة.

سلطت زابينه الضوء نحو القفل، ولحسن الحظ كان مكسورًا، بدت آثار ضرب الإزميل حديثة وقد أثرت على الخشب والبناء، فانفتح الباب قليلًا بسبب الرياح، وأدى ذلك إلى اصطدامه بالإطار مجددًا، يستطيع كارل

بوني استخدام فاتحة الأقفال الخاصة به لفتح السيارات دون استخدام القوة، ولكن لا يمكنه فتح أبواب المنازل بالسهولة نفسها.

صرخ وسط العاصفة بصوت مكتوم: «إنه هنا!»، لكن كلماته غرقت وسط هبات الرياح ودوي الرعد.

اختفى كولر وبراندشتيتر طويلًا في القاعة المستديرة، وحدق شنايدر في سلاحه، لكن زابينه جعلته يعدل عن الفكرة: «إذا أطلقت الرصاص ستحضر كولر إلى هنا، لكنك ستنبه كارل أيضًا!».

- هذا صحيح.. دعينا نمضي قدمًا.

ثم دفع الباب فاتحًا إياه.

ومض ضوء خافت من مصباح طوارئ في البرج، كان كافيًا لرؤية السهم الذي يشير إلى المخرج، أما بقية الجدران فوقعت في الظل، ومن أحد الأركان تسلل صوت مولد كهربائي بطرقات منتظمة.

سحب شنايدر المصباح اليدوي من يدها وربطه بالمسدس، فجعله بمثابة منظار لسلاحه، ثم همس قائلًا: «اخلعي سترة المطر، إنها تضيء كالأرجوحات.»

خلعت سترة المطر وألقتها على الأرض، فذابت في الظلام بسترتها الحرارية الرمادية.

قال: «أدخلي يدك في جيبي الجانبي، وحاولي الاتصال بكولر بالآيفون، ينبغي أن يأتي هو وبراندشتيتر».

وجدت رقم كولر ضمن المكالمات، ولكن بعد نغمة الاتصال الأولى أتاها البريد الصوتي، فقالت: «بطاريته فارغة».

سب شنايدر: «ابن العاهرة هذا يعيش في العصر الحجري! حسنًا، سأعتني بكارل، وأنت ستصلين بهيلين إلى بر الأمان»، ثم أومأ برأسه نحو

السلم الحلزوني الضيق، وسلك طريقه وبيده مسدسه الجلوك في استعداد للهجوم.

كلما عبرت زابينه بابًا، ضغطت مقبضه إلى الأسفل، وقد كانت مغلقة جميعًا، وليس ثمة آثار عنف على أطرها، وبما أن هذا البرج لا يضم قبوًا، فبالتأكيد سيكون كارل في الأعلى.

انعكس مصباح شنايدر اليدوي على الخزانات الزجاجية، فانتفض قلب زابينه أكثر من مرة عندما رأت شخصًا بجانبها، لكنها كانت مجرد هياكل عظمية مشوهة لأطفال وشباب، وبمجرد أن تسلل وميض البرق من النوافذ الضيقة، رأت الرسومات والصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود في خزائن العرض الزجاجية، إنه لمن المريع أن يعيش شخص ما سجينًا في ذلك البرج! وبينما كان الرعد يدوي، تخيلت أنها تسمع صرخات المرضى العقليين الذين قيدوا في أسرّتهم بأحزمة جلدية وعولجوا بالماء والكهرباء منذ مائة عام.

كلما صعدوا، ضاق السلم الحلزوني أكثر، لقد غاصت درجات السلم الرخامية على مر السنين، وبرزت من الجدار بزاوية مائلة، وصارت ناعمة للغاية لدرجة تحتم عليك الحذر من الانزلاق، كما أصبحت الممرات الموجودة في الطوابق أضيق، وفي الطابق التالي تناثرت شظايا خزانة عرض زجاجية على الأرض، فأشار شنايدر إلى زابينه بعدم الدخول، كانت الرفوف الخشبية فارغة باستثناء الأدوات العتيقة اللامعة الخاصة بطبيب الأسنان، وكل ما هو مفقود هنا كان كارل هو من استولى عليه.

في الطابق التالي نظر شنايدر من النافذة، لقد كانا بمستوى ارتفاع السقف الخشبي للقاعة المستديرة؛ لذلك فقد وصلا إلى الطابق الأخير، نظرت زابينه إلى السقف، كان البناء الخشبي ممتدًا على عوارض السقف الخشبية فوق رأسها.

وعلى الجانب الآخر رأت ضوء الكشافات يومض عبر النوافذ، لن يجد كولر وبراندشتيتر أي شيء هناك، فكارل في هذا البرج، وكانت لا تزال تحمل هاتف شنايدر، فاتصلت برقم كولر مرة أخرى، لكن دون جدوى، أدخلت الآيفون في جيبها، وبينما هي غارقة في أفكارها، وضعت يدها على أقرب مقبض وقفزت للخلف عندما تأرجح الباب إلى الداخل.

وجّه شنايدر سلاحه على الفور نحو الشق الذي فتح من الباب، لكن لم يحدث شيء، كان المفتاح بالخارج، ولم يصدر أي صوت من الغرفة، وقد انتبه شنايدر بحضور ذهني يضمن عدم سقوط شعاع المصباح في الغرفة، وبنظرة أشار لزابينه أن تلتزم الصمت، ووقف متجذرًا في المكان أمام الباب.

ماذا ينتظر؟

في تلك اللحظة ندمت لأنها تركت سلاح خدمتها في ميونخ، لم تكن حتى ترتدي سترة واقية من الرصاص وشعرت بأنها دون حماية مثل دجاجة في طبق التقديم.

ماذا ينتظر بحق الجحيم؟

ومض البرق، وبعده مباشرة دوى الرعد وهز أرضية البرج، شعرت زابينه بالقشعريرة تسري في ذراعيها، وفي اللحظة نفسها فتح شنايدر الباب ودخل الغرفة، فتبعته آليًّا، كانت الغرفة ضيقة وطويلة، دار المصباح اليدوي باتجاه عقارب الساعة في كل الزوايا، فقد أضاء شنايدر الغرفة بشكل حلزوني، وقد وجد بالداخل كراسي وخزائن وطاولات بالإضافة إلى ملصقات إعلانية على الجدران.

أمرها: «انظري في الخزانة واحرسي الباب!»، ثم ركض إلى الطرف الآخر حيث كانت هناك ملاءة بيضاء تتدلى من السقف.

كانت الخزائن فارغة ولم يكن ثمة أحد في الردهة، فنظرت إلى شنايدر، فرأته وقد خلع الملاءة، فتدلى مصباح الكيروسين المنطفئ من السقف، وتحته كانت هناك طاولة عمل خشبية وعليها أحزمة جلدية فضفاضة، فاقتربت.

نظر شنايدر للأعلى لفترة وجيزة وسألها: «هل من أحد في الردهة؟».

هزت رأسها، وأدوات الجراحة العتيقة موضوعة في وعاء من الصفيح على طاولة جانبية، وضع شنايدر يده على مصباح الكيروسين وقال: «إنه لا يزال دافئًا... احذري!».

تمهلت زابينه، فرأت بركتين من الدماء الطازجة تتلألآن تحت الطاولة.

- يا إلهي...

وجّه شنايدر مصباحه عليهما فوجد إبهامين مقطوعين يطفوان، ركع وغمس إصبعه في الدم، ثم همس قائلًا: «لقد مرت خمس دقائق على الأكثر».

في تلك اللحظة أُغلق الباب خلفهما، وجلجل المفتاح في القفل من الخارج، ثم اندفع المزلاج نحو الجدار مرتين.

43

طرفت زابينه بعينها نحو شنايدر، أرادت أن تصفع نفسها: «لقد أفسدت الأمر، أنا آسفة.. أنا شريكة عمل سيئة لك».

ركض شنايدر نحو الباب شاهرًا سلاحه، وقال: «تذكري شيئًا واحدًا: ليس هناك شركاء سيئون، ولكن فقط شركاء عديمو الخبرة! ربما قتلك كارل في الخارج.. قفي خلفي!».

أطلق النار على القفل ثلاث مرات، فانفتح الباب، كان الممر غارقًا في الظلمة، فأضاء شنايدر الجدران، ثم اتكأ على إطار الباب وأنزل شعاع الضوء إلى الممر الضيق.

- لقد ركض إلى الطابق السفلي.

أشار شنايدر نحو جيب بنطالها حيث يختبئ الآيفون الخاص به، وقال: «أبلغي الشرطة الجنائية الاتحادية بفيينا، نحتاج إلى حواجز طرق على نطاق كيلومتر واحد من هذا المبنى، بالإضافة إلى سيارة إسعاف في حالة وجدنا هيلين بيرجر على قيد الحياة، أنا ذاهب إلى الطابق السفلي.

بدأ يتحرك لكن زابينه أوقفته: «انتظر!».

لم تكن تعرف سبب تصرفها ذلك، لكن شعورها الغريزي حدثها أن شنايدر اتخذ القرار الخاطئ، وكشفت نظراته المتسائلة عن نفاد صبره.

فاقتبست عبارته وقالت: «إذا عُلق مسدس على خشبة المسرح في الفصل الأول من المسرحية، إذًا فسيطلق شخص ما الرصاص به لاحقًا!».

نظر إليها شنايدر وكأنها جُنّت تمامًا.

فهمست: «الكتاب.. بعد مصاص الإبهام، لم يتبق سوى قصتين من قصص «بيتر ذو الرأس الأشعث»، وهما هانز جوك في الهواء، وروبرت الطائر».

نظر شنايدر تلقائيًّا نحو السقف الخشبي: «هل تعنين أنه في الطابق العلوي؟ على السطح؟».

- لقد اتبع تعليمات الإخراج في هذا الكتاب بدقة لمدة شهرين، لماذا يغير ذلك الآن؟

- ذكية أيتها السنجابة.

ثم ترك شعاع الضوء يتوجه نحو السقف، وتوقف مؤقتًا عند لافتة بجوار المساقط.

الدخول فقط للأشخاص المصرح لهم!

كان مثبت المزلاج مكسورًا من العارضة الخشبية، وبجوار الفتحة وجد سلّمًا معلقًا على الحائط، فخبأ شنايدر السلاح في حافظته، ووضع المصباح بين أسنانه، ثم صعد الدرجات، فُتحت الكوة بسهولة، واختفى الجزء العلوي من جسده في الظلام، ثم صعدت زابينه خلفه ودخلت غرفة العلية الضيقة، كانت العوارض الخشبية وآلات التفريز وورق القطران المقوى والمسامير متناثرة حولها، كما أن رائحتها تشبه نشارة الخشب الرطبة، وفي منتصفها وجدت هناك سلمًا حلزونيًّا يؤدي إلى الأعلى، لقد ذكرها بدرج برج الكنيسة، فأسرع شنايدر إلى الأمام حذرًا لكي لا يجلجل الصفيح المعدني بنعل حذائه.

عندما سمعت زابينه طلقتين مكتومتين، سقطت على الأرض لا إراديًّا، وتكوم شنايدر على نفسه أمامها.

وبسرعة سحب سلاحه والتفت نحوها: «هل أنت بخير؟»، فأومأت بالإيجاب.

فقال: «صُوِّبت الطلقات من الخارج»، وأشار إلى نهاية الدرج، كان هناك باب مقاوم للحريق، ثم أكمل: «استمري!».

زحف إلى الطابق العلوي وفحص الباب، فانبعجت الصفيحة المعدنية في نعله في موضعين، ومعنى ذلك أن القفل كُسر بإزميل هنا أيضًا، وخلف الباب كانت العاصفة تزأر، والمطر يهطل بلا انقطاع على الصفيح المعدني، ووميض ضوء البرق يمكن رؤيته من خلال الشقوق في السقف الخشبي، وبعد ذلك بوقت قصير هز الرعد العلية، وفتح شنايدر الباب، فجلدتهم مياه الأمطار من خلال الكوة، سيطر الليل الحالك على الجو بالخارج، وفي اللحظة التالية أُغلق الباب بقوة ودُفِع شنايدر إلى الخلف.

فألقى شنايدر نفسه على الباب وهو يقول: «إنه في الخارج!».

كما دفعت زابينه نفسها ضد الباب أيضًا، وبمجرد أن انفتحت الكوة، دفع شنايدر طرف سلاحه وضغط على الزناد، فآلمت فرقعة الطلقة آذان زابينه، ورأت في ضوء الطلقة شخصًا يترنح للخلف ويختفي في الظلام، دفع شنايدر الباب فاتحًا إياه، ولكن كلما فتحه أكثر، ارتفع صوت تأوهات المرأة.

فهتف: «هيلين؟».

فردت عليه بأنين خانق، وكانت المرأة خلف الباب، فدفع شنايدر الباب المقاوم للحريق ليفتحه كاملًا، وفي الوقت نفسه كانت المعالجة تصرخ من الألم.

أمر شنايدر زابينه: «اعتني بهيلين!».

دخلت زابينه تحت السقف المسطح، وبسبب العاصفة لم يكن هناك شيء مرئي تقريبًا، وقد تبدد ضوء مصباح شنايدر اليدوي في الظلام بعد بضعة أمتار فقط، اتجهت نحو الجزء الخلفي من الباب، فأفزعتها رؤية هيلين في وهج البرق، كان صدرها ووجهها ملتصقين بالباب، وذراعاها مرفوعتين، تقف دون حذاء، وترتدي بنطالًا رياضيًّا وسترة فقط، أدارت رأسها بقدر ما

تستطيع، فرأت شعرها الرطب يتدلى على وجهها، والكمامة في فمها، حررتها زابينه من كرة القماش التي تكممها، فشهقت هيلين بشراهة لاستنشاق الهواء، كان معصماها وكاحلاها مربوطين برابط الأسلاك، كما أن إبهاميها مفقودان، وقد غسل المطر الدم ليسيل على ذراعيها، لكن الأسوأ من ذلك هو الدعامات الحديدية التي خرجت من ظهر يديها.

وفي ومضة البرق التالية لاحظت زابينه مسدس المسامير على الأرض وبجواره لفة من المسامير التي يبلغ طولها تسعة سنتيمترات، لقد ثبت كارل يدي هيلين بمسدس المسامير بالباب، ولكيلا تعصف الريح بالباب بعد الآن وتتسبب في ألم غير إنساني لهيلين، دفعت زابينه حاجز الباب نحو الأرض.

وهتفت تحت المطر الغزير: «أنت بأمان».. **يا لها من كذبة مثيرة للشفقة!**

ابتسمت هيلين بشكل مؤلم وقالت: «عندما رآكما كارل من النافذة وأنتما قادمان نحو البرج ومعكما مصباح يدوي، قادني إلى الأعلى».

بعد أن سحب شنايدر سلاحه، عاد من الظلام ووقف الآن وظهره للمرأتين، كما لو كان يريد حمايتهما.

- أين هو الآن؟

أدارت هيلين رأسها نحو السقف المسطح وقالت: في مكان ما هنا... لا أستطيع الوقوف لفترة أطول.

أطفأ شنايدر المصباح وقال: «زميلتي ستعتني بك، وسأحضر أنا هذا الرجل»، وفي اللحظة التالية اختفى في الظلام.

شعرت زابينه بجراح هيلين، كانت كلتا راحتيها ملتصقتين بالباب، وقد ربط الرسغين معًا، وهناك مسمار عالق في الجزء الخلفي من كل يد، لا بد أن المسامير توغلت في الباب المعدني بعمق حوالي سنتيمتر واحد، فقالت زابينه: «سأعود حالًا... سأنزل وأحضر بعض الكماشات وأخرجك من هنا».

صرخت هيلين بصورة هيستيري: «لا! لا تتركيني وحدي!».

- حسنًا!

بقيت زابينه، لكن بدون سلاح أو أدوات أو مجموعة إسعافات أولية، لم يكن بوسعها فعل الكثير من أجل هيلين، فأخرجت هاتف الآيفون من جيبها، واتصلت برقم الطوارئ الأوروبي، واستدعت طبيبًا وسيارة إسعاف، وبينما هي تغلق الخط، سمعت خطًى على السلم الحلزوني، وشعاع من الضوء يومض من خلال المدخل، وبعد ذلك بوقت قصير، ظهر كولر بالخارج.

فصرخت زابينه: «تعال إلى هنا!».

فجاء عند الباب ورأى المرأتين: «يا إلهي، هيلين!»، ثم خلع سترته الواقية على الفور ولفها حول الجزء العلوي من جسد هيلين وقال: سمعنا طلقات نارية فهرولنا، أوليفر هنا يحرس المدخل.

بكت هيلين: «بن! لا بد أن تجد داستي، إنه عند تقاطع شارعي كيتسرجاسي وتريسترجاسي».

قال لها: «لا تقلقي، سوف نجده»، ثم نظر إلى زابينه وقال: «سأعتني بها».

أمسكت زابينه بمسدس المسامير بشكل غريزي وركضت عبر السطح تحت المطر.

44

بدت أسطح المنازل في فيينا كالأشباح، فقد ارتفعت الأسطح الخشبية الحمراء في ظل العاصفة وسط بحر من المطر وكأنها عوارض سفن عالقة.

قذفت الرياح القطرات بشكل أفقي إلى حد ما على السطح، فلدغت خدي زابينه مثل الإبر، وفي غضون ثوانٍ تشبعت سترتها الحرارية بالماء لدرجة أنها أثقلتها، والأكثر من ذلك أنها لم تكن ترى أي شيء، فمصباح شنايدر مطفأ ولم يكن لديها أي فكرة عن مكانه.

قف ساكنًا...

تعالت الأصوات أكثر، وعلى حافة السطح في مكان منحدر حيث المزاريب وقف كارل بوني، كان يرتدي سترة داكنة، وقد جذبت الرياح غطاء رأسه وبعثرت شعره، ووقف شنايدر أمامه على بعد ثلاثة أمتار موجهًا سلاح الجلوك نحوه بكلتا يديه، اتخذ كارل خطوات صغيرة بمحاذاة المزاريب.

فصاح شنايدر: «لا تتحرك!».

تجاهل كارل الأمر واستمر في التحرك، ومع الوميض التالي أدركت زابينه السبب، فعلى بعد حوالي مترين امتدت سلالم مخرج الحريق فوق السطح، ورغم أن السلاح كان موجهًا نحوه، أراد الهرب.

اقتربت من كارل من الجانب الآخر ورفعت مسدس المسامير الثقيل وقالت: «توقف يا بن العاهرة يا لعين!»، فأدار كارل رأسه نحوها، ورأت بطرف عينيها أن شنايدر لا يتحرك، أبقى بصره على كارل دون أن يرفع عينيه عنه.

صاح كارل ساخرًا: «من لدينا هنا؟».

- هل يعني اسم حنا نيميتس أي شيء بالنسبة لك؟

فصاح: «أوه نعم! هل أنت واحدة من مدلالاتها؟»، ضاقت عيناه وقال: «أنت التي كنتِ تجلسين على أكتاف والدك وبيدك البوظة؟ هل قضيت إجازة جميلة على البحر؟».

لا يزال هذا النذل يتذكر الصور المعلقة على خزانة ملابس والدتها، كان مسدس المسامير ثقيلًا جدًّا، وشعرت زابينه بألم في كتفها، لكنها أبقت الفوهة موجهة نحو رأس كارل، يمكنها أن تضغط على الزناد الآن، ربما كان المسار متجهًا لأسفل، لكن عندها سيصيبه على الأقل في الحنجرة أو الصدر.

قال كارل: «يا لها من عائلة! والدتك تستحق ما نالته، لسوء الحظ لم يدم الأمر طويلًا».

فقط استمر في الحديث أيها الأحمق! ثبت إصبع زابينه حول الزناد، وشعرت بالمقاومة، ستتقهقر للخلف قليلًا وعندها سينطلق المسمار في مساره مثل القذيفة.

جاء شنايدر إلى جانبها وقال بلطف: «زابينه! إنه في مرمى سلاحي، ضعي هذا الجهاز بعيدًا الآن!».

اتخذ كارل خطوة أخرى أقرب إلى مخرج الحريق، فصوبت زابينه الجهاز نحو الأعلى قليلًا ثم ضغطت على الزناد، ليطير المسمار مصحوبًا بصوت هسهسة من الفوهة ويصيب كارل في أذنه، ترنح ووضع يده على خده كرد فعل.

صرخت: «قلت توقف!».

أصر شنايدر: «يا سنجابة، أنزلي هذا!».

- لا!

فهي لم تخض الكثير من المخاطر، ولم تخرق الكثير من اللوائح، ولم تسافر بعيدًا، لكي تشاهد في النهاية قاتل والدتها وهو يهرب من مخرج الحريق؛

وذلك فقط لأن شنايدر ليس لديه الشجاعة ليضغط على الزناد، لم تستطع أن تترك كارل يفلت من العقاب بعد أن تسبب في الكثير من الألم للنساء كلهن.

قال شنايدر: «كما تريدين».

دوى الرعد الرهيب عبر أسطح المنازل، ورأت بطرف عينيها شنايدر وهو يشهر سلاحه ويقول: «إذا كان عليك فعل ذلك، فافعليه بسلاح الخدمة الخاص بي».

هل اقترح ذلك فعلًا؟ قبضت على سلاح جلوك وأنزلت مسدس المسامير في الوقت نفسه، عندما سقطت الأداة على الأرض، أعادت كارل إلى مرمى المسدس، واتخذت خطوتين تجاهه، بالكاد يفصلهما عن بعضهما متران، وصار المشهد الخلفي والأمامي في منظار المسدس بين عينيه.

دارت عيون كارل حولها بشكل محموم وقال: «ماذا أسمي هذا؟».

شعرت بشنايدر خلفها مباشرة، وهمس قائلًا: «أنا أفهمك، نحن متشابهان، أنت تريدين الانتقام لمقتل والدتك».

رددت زابينه محدثة نفسها: «اهدئي!»، كان عليها الحفاظ على صفاء ذهنها، فقد قيَّد ذلك النذل أمها بالسلاسل في أرغن الكاتدرائية وأدخل أنبوبًا في رئتيها! وهكذا غرقت بشكل بائس في لترين من الحبر!

اتخذت خطوة إلى الأمام، وإصبعها مشدودة حول الزناد، لقد سلب كثيرًا من النساء حياتهن، وصب على جسد والدته عمودًا خرسانيًّا وهي على قيد الحياة، احتجزها هناك لمدة شهرين! هذا المجنون لا يستحق سوى الموت.

همس شنايدر: «اضغطي على الزناد وإلا سأفعل أنا».

- هدوء!

نعم يمكنها فعل ذلك!

ولكن فقط اخرس! أنا أفعل ذلك لأنني أريد ذلك!

لكن شنايدر لم يصمت: «نحن متشابهان أكثر مما تظنين، أنت أيضًا تريدين مطاردة القاتل، فماذا تنتظرين؟ أطلقي الرصاص!».

كان الجلوك ثقيلًا في يدها، لماذا لا تستطيع الضغط على الزناد؟ فالأمر بسيط جدًّا، لقد أطلقت آلاف الرصاصات من سلاح الشرطة الخاص بها في ميدان الرماية، والآن لا تستطيع الضغط على الزناد.. اللعنة، ما الذي يجري معها؟

حثها شنايدر: «افعليها!».

فجأة تراقصت أشعة كشافات عدة وسط المطر، ومن مكان ما تسلل صوت بعيد عبر مكبر الصوت، فأنزلت زابينه السلاح، وفي اللحظة نفسها أمسكها شنايدر، لقد انتهى الأمر، وسُلِّم كارل، ومع ذلك رأت نظرته المنتصرة في الأضواء الكاشفة، فرد ذراعيه وتراجع ببطء إلى الخلف.

فكرت في نفسها: **روبرت الطائر**، ثم اندفعت نحو الأمام في اللحظة نفسها، فانكسر المزراب تحت قدمي كارل، لكن جسده لم يهتز حتى، ومثل اللوح سقط جامدًا إلى الخلف في الأعماق، فاقتربت منه وأمسكت بسترته وسرواله، وهتفت: «لا!».

أنشبت مخالب أصابعها في قماش سترته الرطبة، فانزلق حذاء الجري الخاص بها عبر الأرض الرطبة إلى حافة البرج، وعلى ضوء البرق نظرت في عيون كارل، يا له من لون أزرق قوي! تسللت نظراته إليها وكأنه نفذ إلى أعماق روحها، ثم فتح فمه، لم تسمع له صوتًا، رأت حركة شفتيه فقط.

ماريا.

ثم سقط، كان عليها أن تتركه يسقط، وإلا لجرها معه إلى الأسفل، وقفت على المزراب وذراعاها ترفرفان، دوى صوت الرعد، وبنظرات متجهة نحو السماء وذراعين مبسوطتين في الهواء سقط كارل إلى الأسفل.. لا يزال

متصلبًا، لم ينكمش على نفسه، ذابت ملامح جسده وتشكلت في صورة صليب ما لبث أن اختفى في الظلام.

تقدم شنايدر إلى جوارها، ثم طوق خصرها وسحبها للخلف، وهو يقول: «قُضي الأمر!».

وعلى ضوء البرق رأت كارل مستلقيًا بلا حراك وبدا صغيرًا جدًّا في الوحل، التفتت إلى شنايدر فضمها بين ذراعيه، تدفقت الدموع على وجهها، كانت تبكي بشدة لدرجة أنها لم تستطع التنفس.

عانقها شنايدر، فحتى هذه اللحظة كانت تقمع حزنها على وفاة والدتها، لكنها الآن فقط تستطيع أن تبكي بحرية.. تبكي، وتبكي، وتبكي ...

لم تعرف كم مرّ من الوقت وهي تقف تحت المطر مع شنايدر، لكن لا بد أنها كانت لحظات أبدية، عندما رفعت رأسها رأت أضواء زرقاء تأتي من عدة سيارات شرطة على بعد مسافة، وفي تلك الأثناء كان ضباط وحدة فيجا قد وصلوا وحاصروا البرج، بالتأكيد سمعوا طلقات الرصاص أيضًا، رفع العديد من الرجال، الذين يرتدون خوذات واقية وزيًّا أسود، جسد كارل على نقالة.

قال شنايدر: «هل أنت بخير؟» وانتظر حتى أومأت له، فقال: «جيد، يجب أن أذهب الآن!»، وتركها على حافة البرج.

اقشعرت زابينه، كان عليها أن تتصل بوالدها لتخبره أنه قد نجا من الأمر، عندما نظرت إلى الأسفل، اجتاحتها برودة لطيفة، شعرت بلحظة من الوضوح التام، فأحداث هذا العالم مجنونة وغير منطقية على الإطلاق، لقد خاطرت بحياتها المهنية لترافق زميلًا لها إلى فيينا، وهي لا تطيقه حتى، وبدلًا من أن تحزن على والدتها، ألقت بنفسها لاصطياد قاتلها، وعندما صار أخيرًا في مرمى مسدسها، لم تتمكن من الضغط على الزناد.. بدا الأمر غير واقعي،

لقد أرادت إنقاذ حياة الرجل الذي قتل والدتها، والآن تشعر بالحزن عليه بقدر حزنها على والدتها.

حدقت في المطر الذي راح يهطل في خطوط مستقيمة في الظلام، وفجأة فهمت معنى هذه التناقضات كلها، فالعالم مكان غريب يمتلئ بالتناقضات التي لا يمكنك الالتفاف حولها ببساطة، ولهذا بالضبط تأخذ الأشياء مساراتها.

تمامًا مثلما جاء في هذه القصيدة المجنونة.

«حل الظلام، وتجلى القمر المنير، وعلى المرج الأخضر تراكم الجليد، سارت العربة بسرعة البرق، عند الزاوية تهادت ببطء».

الخاتمة

يبدو مطعم «موتو على النهر» وكأنه سفينة فاخرة انسيابية، يقع على قناة الدانوب في فيينا، ولا بد من حجز الطاولة فيه قبل الموعد بأسبوعين، وبمقتضى ذلك بدت الأجواء أرستقراطية مع ضوء الشموع وموسيقى البيانو الهادئة.

وقد تمتعت هيلين بإطلالة رائعة على النهر وجسر السويد، فمنذ مقابلتها مع كارل لم تخرج، واليوم غامرت بالخروج بين الناس مرة أخرى لأول مرة، كانت ترتدي فستان كوكتيل باللون الأزرق وعليه دثار، وقد ربطت يدها اليسرى بضمادات بسيطة فقط، أما اليد اليمنى فلفتها بضمادة شاش سميكة فوق جبيرة، وفي انعكاس النافذة بدت وكأنها ترتدي قفازات بيضاء، لم يستطع الجراحون في مستشفى فيينا العام سوى إنقاذ إبهامها الأيمن، وقد أزيلت الغرز بالأمس، لكن لم يُسمح لها بالتحميل على إصبعها لمدة ستة أسابيع أخرى حتى يتم شفاء العظم، كانت تعلم أن العلاج الحركي الذي سيعقب ذلك سيكون مؤلمًا.

جلس بن كولر قبالتها مرتديًا بدلة رسمية أنيقة، وكعادته دائمًا ما يبدو رائعًا، قطع بن التورتلوني في طبقها إلى نصفين، فبدون إبهامها ومع شعور الخدر في يدها كانت شبه عاجزة.

ارتشف الشراب الخاص به وانحنى نحوها عبر الطاولة: «نُشرت مقالة عنك في مجلة ««NEWS أمس».

تنهدت: «أعرف».

- لقد قرأها جميع الزملاء في القسم على حد علمي، حتى صديقك القديم، رئيس الشرطة.. أرسل له أوليفر المقالة في مظروف بريدي داخلي.

ضحكت: «حقًّا؟»، ثم فكرت في الاتهامات التي وجهت لها في قضية فينكلر، وكيف حاولت الشرطة تشويه سمعتها وإلقاء اللوم عليها في محاولة الاعتقال الفاشلة.

انحنى بن إلى الخلف وقال: «لقد حللت لغز الخاطف، وأنقذت روزه هارمان، واكتشفت هوية «بيتر ذو الرأس الأشعث» الحقيقية، وهذا كله يبرز نجاحك بصفتك محللة ومعالجة نفسية سابقًا».

ظلت هيلين صامتة، وفي سبيل ذلك عرفت بصورة مؤلمة حقيقة زوجها المثالي فرانك، المدعي العام الفصيح، فيدها اليسرى المشوهة والندوب الموجودة على ظهر كلتا يديها ستذكرها لبقية حياتها بالأحداث التي وقعت قبل أسبوعين، لكن وضع روزه هارمان كان أسوأ؛ فقد اضطر الأطباء إلى بتر يدها من المفصل، ولم يبق في يدها الأخرى سوى إصبع واحدة، وبعد أسبوعين في وحدة العناية المركزة راحت تتلقى جلسات التأهيل النفسي مع فترة نقاهتها اللاحقة. عرفت هيلين أنها لن ترى آنا لينر مرة أخرى، ربما لن تعرف أبدًا إذا ما كان فرانك قد زار حبيبته أم لا، وربما عاد يبحث بالفعل عن بديل.

عندما نقلت إلى المستشفى أتى فرانك لزيارتها.. مرة واحدة فقط! أراد أن يعانقها، لكنها صفعت يده بعيدًا، وأمهلته ثلاثة أيام لمغادرة منزلها، وفي أثناء وجودها بالمستشفى تقدمت بطلب للطلاق، ثم استعانت بـ بن في مسألة أخرى أرهقتها لعدة أيام.

وخلال محادثة بين روزه وبن والطبيب النفسي وبعض المحققين اكتشفوا أن فرانك كان يقدم لحبيبته مشروبات الليمون العضوية في أثناء حملها، إلا أنه تدخل في إعدادها، كان فرانك قد حقن أغطية الزجاجات بمحلول مضاد حيوي عالي التركيز، ولم يستغرق الأمر أكثر من خمس كؤوس في خلال ثلاثة أيام حتى حدث نزيف وتشنج في بطن روزه، ربما كان بإمكان هيلين أن تغفر لزوجها الخيانة، ولكن لن تسامحه على الإطلاق على قتله لطفل لم يولد بعد،

ولا تزال العواقب القانونية معلقة، ولكنه سيفقد وظيفته كمدع عام بصورة شبه مؤكدة.

نبهها: «هيلين؟».

رفعت بصرها.

- أقول لك إن زوجك لم يعد يقود سيارة اللامبورجيني إلى المكتب.

صححت كلامه في سرها: **زوجي السابق**.. ثم قالت: «أعلم ذلك، سأبيع السيارة بمزاد علني، والعائد سيذهب إلى دار للأيتام».

ابتسم: «هل تمزحين؟».

هزت رأسها وقالت: «دعنا نتحدث عن شيء آخر، حسنًا؟».

قال: «حسنًا»، ثم أخذ قطعة من اللحم البقري من طبقه وألقاها تحت الطاولة.

«توقف!»، هتفت بصوت خفيض وهي تحدق في النادل: «توقف!»، هل هذا شيء معقول؟

- لم أفعل أي شيء.. فقط أقدم رشوة للكلب.

سمعت داستي وهو يلتقط اللحم من تحت الطاولة، فبعد أن نقلت هيلين بعيدًا في سيارة الإسعاف، ذهب بن على الفور للبحث عن داستي، وأخيرًا وجده في ملجأ الحيوانات، ففي أثناء العاصفة التقطه الأطفال من الشارع وهو يرتعد تمامًا، كان مبللًا ومتسخًا، فأحضروه إلى هناك.

مسح بن يديه بالمنديل وأخرج حزمة من جيبه: «بالمناسبة، لقد تلقيت هذا من فيسبادن»، ثم فتح الحزمة وأخرج جهاز آيفون جديدًا ومزودًا ببطارية إضافية، وكان الغطاء الواقي مخططًا باللون الأحمر والأبيض والأزرق، أي بألوان العلم الهولندي: «أتدرين؟ شنايدر ليس رجلًا سيئًا».

- على الأقل لديه زميلة لطيفة.

- إنها ليست زميلته.

ابتسمت هيلين: «ومن يدري؟».

قال كولر: «نعم، من يدري»، وفجأة مد يده عبر الطاولة وأمسك معصمها بحنان.

يا إلهي، ما الذي يحدث الآن؟

- من فضلك سامحيني على سلوكي قبل ثلاث سنوات.
- لقد كنت حقيرًا!
- أنا آسف.

ندمت على ما قالته فورًا وقالت: «أفكر في فلو كثيرًا، أعلم أن فقد ابن شعور كالجحيم، لكنني أردت أن أعبر معك هذا الجحيم».

ابتلع وقال: «أنا أفتقده كثيرًا، وما زلت أعيش في جحيم.. لكن لا يزال بإمكاننا تجاوز ذلك معًا».

اتسعت عيناها، كان هذا العرض بمثابة مفاجأة، لقد بدأت بالعيش بمفردها مع داستي في المنزل الواقع في جريسكيرشن منذ أسبوع فقط، قالت: «أنا...نعم، بالضبط...».

اقترح: «فكري في الأمر بهدوء».

لقد فعلت ذلك منذ وقت طويل!

***

أعدت مونيكا كوبين من الكاكاو الساخن وجلست على أريكة غرفة المعيشة بجوار زابينه وقالت: «لم تروِ لي كيف استطعت العثور على قاتل والدتك».

كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا، وقد نامت كرستين وكوني وفيونا منذ فترة طويلة في سريرهن المزدوج الكبير، وربما رحن يحلمن بمهمة جديدة بطائرات الهليكوبتر والكلاب البوليسية ومعداتهن الخاصة، رفعت زابينه ساقيها إلى أعلى، وتكورت على نفسها في نهاية الأريكة، ثم ارتشفت من

الوعاء وقالت: «من خلال صور الفصل الموجودة بعلية أمي»، ثم أخبرت أختها بالقصة كاملة.

قالت مونيكا متأملة: «صور أمي في الفصل إذًا!.. بالمناسبة، ساعدني والدي في إخلاء الشقة، تولى الأعمال الرسمية واعتنى بالأطفال».

عرفت زابينه أن جابرييل، زوج مونيكا السابق، لن يقدم لها الكثير من المساعدة، ولهذا السبب كانت سعيدة عندما حجز والدها غرفة بفندق في ميونخ الأسبوع الماضي، وبينما كان هو ومونيكا ينظمان جنازة الأم، كانت زابينه على وشك أن تفصل من عملها؛ فقد ظلت عالقة في فيينا لمدة ثلاثة أيام أخرى، وأجرت محادثات عديدة مع ضابط مكتب التحقيقات الاتحادي في فيينا، ثم استجوبها المدعي العام فورمان ومكتب التحقيقات الاتحادي في ميونخ، في حقيقة الأمر انتهى الموضوع برمته بالنسبة لها دون آثار بالغة؛ لأنه لم يكن هناك شكّ ملموس ضدها، ورغم أنها عثرت على كارل بوني وطاردته، لم تتوقع أي ثناء، فيمكنها أن تحسب نفسها في عداد المحظوظين؛ لأنها تمكنت من الاحتفاظ بوظيفتها في الخدمة الجنائية الدائمة».

قالت: «آه.. بالمناسبة»، ثم نبشت مونيكا في درج المجلات الملحق بطاولة القهوة وأخرجت طردًا بشرائط صفراء وورق تغليف أزرق، وقالت: «لقد وجدنا هذه في شقة أمي، إنها هدية لك من أمي، فغدًا هو عيد ميلادك.. كل عام وأنت بخير»، ثم قبلت أختها.

ضمت زابينه الطرد إلى صدرها وقالت: «شكرًا لك! هل ما زلت تكرهين أبي؟».

دمعت عيون مونيكا: «هل تعرفين حقًّا كيف اندلع الحريق في مدرسة كولونيا الابتدائية قبل عشر سنوات؟».

هزت زابينه رأسها بذهول، لم تكن هذه طريقة موني في العادة لتغيير المواضيع.

فمدت مونيكا ساقيها الطويلتين على الأريكة وقالت: «لقد حكى لي أبي، كان قد وعد أمي بالفعل بأنه لن يتحدث عن الأمر أبدًا، ولكن بعد وفاتها سقط هذا الوعد»، ثم تركت الكاكاو يدور في الفنجان وقالت: «في إحدى المساءات زار والدتي في المدرسة، كان يعلم أنها تصحح الواجبات الدراسية.. حسنًا، وبعد ذلك فاجأها في مكتب المدير ومعها معلمة أخرى، فتشاجرا.. وقد انهارت شموع تلك الأجواء الرومانسية في أثناء الاشتباك واندلع الحريق، في تلك الليلة عاد والدانا إلى المنزل مسودين بالسخام، وتم التستر على الحريق باعتباره حادثًا.. أنت تعرفين باقي القصة».

لقد كانت زابينه تشك دائمًا في شيء مماثل، **ولكن معها معلمة؟**

قالت زابينه: «وأنت ظننت أن والدك كان على علاقة غرامية».

تنهدت مونيكا: «في الواقع كان الأمر على العكس من ذلك، وقد تجاهلتُه طوال هذه السنوات وحجبتُ عنه حفيداته»، ثم مسحت دمعة من عينيها وقالت: «لن يسامحني على هذا أبدًا».

عانقت زابينه أختها: «لكنه فعل ذلك بالفعل».

والآن انخرطت مونيكا في البكاء دون حسيب ولا رقيب، ثم قالت: «لقد دعوته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع المقبل معنا»، وتنهدت بنشيج: «وقد ألمح لي بأنه قد ينتقل إلى ميونخ ليقضي معنا أغلب الوقت».

ابتسمت زابينه: «أرأيت؟».

عرفت زابينه ذلك بالفعل، وقد تحدثت بالأمس مع والدها حول هذا الموضوع، فأخبرها بأنه يستطيع أيضًا أن يمارس هوايته المتمثلة في ترميم القطارات القديمة هنا.

رن هاتف زابينه، **ألم يتأخر الوقت جدًّا على إرسال رسالة نصية؟** فتحت الرسالة.

- ماذا بها؟

أظهرت لها زابينه الرسالة.

هل يمكنك القدوم إلى دريسدن غدًا؟ سأنتظرك عند المدخل الرئيس لمقبرة هايد البلدية الساعة 10:45 صباحًا. احضري في الموعد - م.س.ش.

ملحوظة: عيد ميلاد سعيد

كان شنايدر مجنونًا! لا تزال زابينه تتذكر بوضوح رد فعل مونيكا الأخير عندما أرسل لها شنايدر رسالة نصية لتذهب إلى مطار ميونخ وتسافر معه إلى فيينا.. قالت لها حينها «هل أنت رهن إشارته؟» نعم، لقد كانت كذلك.

لكن هذه المرة لم تقل موني شيئًا من هذا القبيل، وبدلًا من ذلك داعبت خد زابينه وقالت: «هيا نذهب إلى السرير، عليك أن تخرجي مبكرًا في الغد».

في اليوم التالي قبل الساعة الحادية عشرة بقليل أوقفت زابينه سيارتها في ساحة انتظار الزوار أمام المدخل الرئيس لمقبرة دريسدن، فوجدت هناك سيارة شرطة تتوقف بجوار البوابة، ثم رأت من مسافة بعيدة هيئة مارتن شنايدر الهزيلة وهو يرتدي حلة داكنة بجوار البوابة الحديدية، كان يتحدث إلى ضابط شرطة شاب يبدو أنه أحضره إلى هنا، انعكست أشعة الشمس على رأسه الأصلع، وعندما رأى زابينه وضع نظارته الشمسية على حاجبيه.

ودمدم: «لقد تأخرت!».

- لم أسرع في القيادة هذه المرة مثلما فعلت آنذاك عندما سافرنا إلى دريسدن معًا.

نظر إليها متفحصًا لفترة وجيزة، ثم ألقى نظرة مستنكرة على بلوزتها وحذائها وسروالها الكتاني الصيفي.

قالت مبررة: «كما أنني تجولت في فرع هايتال بوسط مدينة دريسدن.. لدي هدية لك».

كانت تعلم أنه لا يوجد شيء يمكن أن يخرج شنايدر عن طوره بسهوله، لكنه لم يتوقع ذلك بالتأكيد، ودون كلمة واحدة قبل سيرة فيكتور إي فرانكل.. كان عنوانها: «ما زلت أقول نعم للحياة»، كان كعب المجلد النحيل منثنيًا كما طويت بعض صفحاته، وحملت صفحته الأولى أيضًا إهداء.

لمارتن.

- هل سرقت الكتاب؟

- بالطبع.. وهل تقبل غير ذلك؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة وقال: «شكرًا لك»، كلمة نادرًا ما سمعتها من فمه حتى الآن.

قالت: «أرى أنك بخير»، كان وجهه ينضح بالحيوية، ولم يعد الوشم -الذي هو بحجم نقطتين- على ظهر يديه يؤلمه من أثر الوخز بالإبر.

قال لها: «تعالي معي»، ثم عبر من خلال البوابة، فتبعته في طريق ذي أشجار، وعلى جانبيه عشرات الصفوف من المقابر.

- بعد أن ألقي القبض على أي قاتل، أشعر دائمًا أنني بحالة جيدة لمدة أسبوع أو أسبوعين، لا يوجد صداع عنقودي، أو شعور بالضيق، إذًا فأنا بحاجة إلى قضية جديدة.

نظر إليها جانبًا وقال: «هل قلقت عليّ؟».

لن تعترف بذلك أمامه أبدًا.. وهنا خطرت برأسها قصة كانت قد قرأتها سابقًا في دليل هايتال.

سألته: «هل تعرف قصة راهبي الزن؟».

وبدون انتظار إجابة بدأت في الحديث: «في إحدى الأمسيات جلس راهبان معًا وتحدثا عن الروحين اللتين تعيشان داخل الناس وتتقاتلان معًا، فواحدة مغرورة وأنانية وغيورة ومتعطشة للانتقام والكبرياء الزائف، والأخرى قوية وكريمة وتستطيع أن تغفر».

فكر شنايدر لبعض الوقت وقال أخيرًا: «هذا كل شيء؟».

- نعم.
- وأي روح تفوز؟
- تفوز التي تغذيها أنت.

عبس شنايدر: «حسنًا، أيتها السنجابة البارعة، أنا أعرف ما الذي ترمين إليه، أرادت روزه هارمان التجسس على هيلين بيرجر؛ لتنتقم منها وهي زوجة عشيقها، لكن هذا الانتقام دمرها هي.

تصفح الكتاب شارد الذهن وقال: «انتقامي من هايتال قد يؤدي أيضًا إلى تدميري، أليس هذا ما ترمين إليه؟».

- ربما.
- هل هذا هو سبب عدم ضغطك على الزناد على السطح عندما أعطيتك الفرصة؟

لقد تعاملت مع هذا السؤال بالتفصيل خلال الأسابيع القليلة الماضية، وأخيرًا اهتديت إلى إجابة: «كما تعلم، أنا لست مثلك.. فالانتقام لم يسمم قلبي».

انعطف إلى شارع جانبي وهو يبتسم: «هذا جميل».

كررت: «جميل؟.. أنت من يقول ذلك من بين الناس جميعًا بعد أن شجعتني على إطلاق النار على كارل؟».

- الآن سأخبرك أنا بقصة، لم أكن لأهتم في تلك الليلة سواء أطلقت النار على كارل أم لا.

ماذا؟ إنه يمزح معها!.. فقالت: «ولماذا أعطيتني سلاحك؟».

- كنت أعلم أنك لن تضغطي على الزناد، لكن كان عليّ أن أتأكد.

تزايدت نبضات قلبها: «هل أردت أن تختبرني؟ لماذا بحق الجحيم؟ هل أنا أحد مشروعات دراساتك النفسية؟».

وضع يده على كتفها وقال: «اهدئي! فلدي أسبابي.. لأنني أحمل هدية لك أيضًا».

لا بد أنها نظرت إليه في تلك اللحظة بغباء شديد وحيرة؛ لأنه ابتسم وقال: «لقد نبشت عن آخر طلب لك بالتقدم لوظيفة في الشرطة الجنائية الاتحادية».

تشنجت بطن زابينه.

- لقد تحدثت إلى رئيس الشرطة الجنائية الاتحادية، إنه لا يرفع مؤخرته عن الكرسي، ولا يحبني بشكل خاص، لكنه لا يزال مدينًا لي بمعروف.. لدينا أكاديمية للشباب الموهوبين للغاية، وقد رشحتك».

قالت: «هذا ليس صحيحًا.. ولكن لماذا..؟».

صرخ شنايدر: «لماذا؟ ألا تفهمين؟.. فبدونك لم أكن لأتمكن من حل القضية في هذه المدة وأنقذ حياة ثلاثة أشخاص!».

ربما ماتت روزه هارمان وهيلين بيرجر ومعلمة الأطفال بروضة كارل أورزولا تسيتنر.

- لهذا السبب رشحتني للعمل بالشرطة الجنائية الاتحادية؟

- هناك عدة أسباب وجيهة أخرى، لا تريدين سماعهم جميعًا الآن، أليس كذلك؟

رفعت ثلاث أصابع دون تعليق.

ابتسم وقال: «اللعنة!.. لأنك لم تطلقي النار على كارل بوني بدم بارد وأردت أن تعيقي سقوطه من فوق السطح، كما أن مشاعر الانتقام لا تحركك، فأنت تؤدين عملك بصلابة، ولم تدمرك مهنتك بعد كما حدث مع الآخرين، توقف قليلًا وقال: «إن الشرطة الجنائية الاتحادية تحتاج إلى شباب مثلك».

أوف! كان عليها أن تهضم ذلك أولًا.

سألته بعد فترة: «إلى أين نذهب؟».

انعطف نحو طريق جانبي وقال: «إلى قبر والد كارل بوني.. إنه هناك»، وبعد بضع خطوات توقف وقال: «وهنا علينا أن نحل اللغز الأخير».

برز قبر جديد نسبيًّا من الأرض، وكتب على الرخام **يوزف بوني**، لقد توفي قبل ثلاث سنوات، وأظهرت الصورة عازف أرغن في الكاتدرائية وهو يعزف على مفاتيح الأرغن في أثناء القداس. حاولت زابينه تفسير تعبيرات الوجه الجادة واليائسة لهذا الرجل، الذي جعل من ابنه قاتل بسبب أساليب تربيته.

وأشار شنايدر إلى مصباح القبر: «ألم يلفت انتباهك شيء؟».

وخلف الكوب الأحمر للشمعة المحترقة وجدت هناك ورقة مطوية داخل غلاف شفاف، رفعت زابينه الكوب وأخرجت الغلاف، كتب على الورقة ملحوظة قصيرة بخط اليد:

عزيزي أبي،

إذا خمنت هوية الشخص الذي اختطفته، سيعيش، إن لم يكن الأمر كذلك، فسوف يموت.

طوت الورقة وقالت: «لغز غير قابل للحل».

قال: «على الأقل بالنسبة لشخص ميت منذ ثلاث سنوات»، ثم وضع شنايدر إحدى قدميه على الإطار الحجري للقبر وقال: «عندما ينتهي قسم الطب الشرعي في فيينا من تشريح جثة كارل ووالدته، ستنقل جثتاهما إلى دريسدن، ثم يجتمعان في مقبرة العائلة معًا».

سألت زابينه: «كيف اكتشفت هذه الرسالة؟».

- سأصير محققًا سيئًا إذا لم أتبع الخيوط كلها.

فاقتبست قوله: «لا يوجد محققون سيئون، بل فقط محققون عديمو الخبرة»، ثم قالت: «لست رجلًا سيئًا في الواقع، أتعلم ذلك؟».

قال شنايدر: «أعلم، ولكن إذا أخبرت أحدًا بذلك، سأطردك من الأكاديمية بنفسي»، ثم ابتسم للحظة وقال: «بالمناسبة، وجدنا في شقة كارل دلائل تخص القصة قبل الأخيرة من كتاب «بيتر ذو الرأس الأشعث»، قصة هانز جوك في الهواء، ووفقًا لملاحظات كارل، فقد خطط لاختطاف زوجة معلمه السابق في دريسدن، إنها امرأة ضارية، لا تزال تسيء معاملة جميع المتدربين في ورشة تصليح السيارات، لقد أراد كارل أن يغرقها في أحد فروع نهر إلبه، وقد ضبطت أوزانًا من الرصاص وكتيبات أحواض السمك بالفعل في سيارته، لكنه لم يتمكن من إتمام القصة الأخيرة على نحو جيد، وانتهى الأمر بانتحاره».

- لذلك فنحن في الواقع أنقذنا حياة أربعة أشخاص.

أومأ شنايدر وقال: «عمل جيد»، ثم مد يده لها قال: «يجب أن أتجه إلى المطار، وأعود إلى فيسبادن، أشكرك على حضورك وعلى الكتاب أيتها السنجابة».

- حسنًا فعلت يا سومرست.

ابتسم وهو يتجه نحو المخرج، وأعادت زابينه الرسالة إلى المصباح مرة أخرى، وشاهدت شنايدر يغادر، ثم سارت أيضًا ببطء نحو المخرج، وبعد بضعة أمتار أخرجت الفاتورة النقدية من فرع هايتال في دريسدن من جيب بنطالها وألقتها في سلة المهملات.

كانت سيارة الشرطة لا تزال متوقفة أمام المدخل، رأت زابينه من بعيد شنايدر وهو يتحدث إلى الضابط، بعدها ركب سيارة BMW من جهة كرسي السائق! وبعد ثوانٍ انطلق بالسيارة بعيدًا. اقتربت زابينه من ضابط الشرطة وقالت له: «من فضلك اعذرني، هل قاد الرجل السيارة بنفسه؟».

- أجل، قال إن عليه الذهاب إلى المطار.

- هل أحضرته إلى هنا؟

هز الشرطي رأسه نافيًا: «أنا أنتظر زملائي من الطب الشرعي هنا، يجب أن أقودهم إلى القبر. لماذا تسألين؟».

شاهدت زابينه بذهول سيارة BMW وهي تختفي بين السيارات الأخرى وسط حركة المرور في منتصف النهار، هل يعقل ذلك؟

– من المفترض أنه لا يملك رخصة قيادة.

رد الزميل: «رجل غريب، أليس كذلك؟».

أجابت: «بالمناسبة! هل سألك عن فرع هايتال؟».

عبس الضابط وقال: «ماذا؟ لا، لقد طلب مني أعواد ثقاب للتو، هذا الرجل هو مارتن شنايدر من روتردام، أليس كذلك؟».

هزت زابينه رأسها، وصححت له: «مارتن س. شنايدر».

وفي أثناء تجولها عبر ساحة انتظار السيارات متجهة إلى سيارتها، فكرت في عرض شنايدر، من المستحيل أن تنتقل إلى فيسبادن لمدة عامين أو أكثر، كيف من المفترض أن ترعى مونيكا الفتيات الثلاث بمفردها؟ لكنها تذكرت بعد ذلك أن والدها جاء إلى ميونخ لمساعدة مونيكا، ربما يجب أن يسير كل شيء على هذا النحو، فكرت في مرشح المباحث إريك دورفر، صديق طفولتها، الذي ستلتقي به مرة أخرى في فيسبادن، ولأنه أعطاها رمز الوصول الخاص به إلى دايدالوس، كانت مدينة له بشدة.

وداخل السيارة طوت حاجب الشمس، كان ذلك قبل الظهر بقليل، ولم تجد هناك سحابة واحدة تحجب السماء، بدت مدينة دريسدن القديمة مكانًا جميلًا، ربما تسمح لنفسها بالبقاء هنا لبضع ساعات أخرى قبل العودة إلى ميونخ، فلديها متسع من الوقت في يوم العطلة هذا، بالإضافة إلى أنه يوم ميلادها.

التقطت هدية والدتها التي ألقيت على المقعد المجاور، والآن حان الوقت أخيرًا لفتحه، لقد سحبت القوس ومزقت الورقة، وكان في حجرها كتاب مصور عن الأساليب التي يتبعها مكتب التحقيقات الاتحادي في تصنيف مرتكبي الجرائم، وفي الصفحة الأولى كان هناك إهداء من والدتها.

عيد ميلاد سعيد، أتمنى أن تتحقق أمنيتك.

وحدثت زابينه نفسها: أوه، كان بإمكانك إخباري بذلك بنفسك...

تمت

كلمة شكر

تأتي كل كلمة شكر في نهاية رحلة طويلة كنت ستشرد فيها بلا شك لولا وجود أشخاص رائعين أظهروا لك نقاط ضعف الرواية، وفي حالتي كان هؤلاء المشكورون هم: جينتر زودا، وهايدماري جروبر، وفيرونيكا جراجر، ويورجن بيشلر، وروبرت فرويهوفر، وليو شاباور، وبيتر هيس، وجابي فيلهالم، وميشائيل آدم، وماجدالينا آدم.. أشكركم على قراءة المخطوط بعناية شديدة، وعلى انتقاداتكم التي لا هوادة فيها.

فكرة تضمين العلاج النفسي في هذه القصة المثيرة، واختيار المعالجة لتكون بطلة العمل، استوحيتها من خلال مسرحية إيكوس لبول شافير؛ ولذلك فإن أغلب الاستقصاءات تتعلق بمؤامرة العلاج النفسي. أود أن أشكر مونيكا كوربر، وأنجيلا كونتس، وأولريكه هادرار، ود. باربرا جروير فالينتا على المناقشات التمهيدية المفتوحة التي أدخلتني في عالم العلاج النفسي، شكرًا جزيلًا لإعطائي نظرة على عملكم العظيم. وبالنسبة للأسئلة التفصيلية حول العلاج النفسي أود بشكل خاص أن أشكر السيدة أوتا فيبر جرونر على شرحها التفصيلي والسيدة إيفا جروبر على أفكارها العديدة وعلى تدقيق المخطوط عدة مرات رغم ازدحام جدول أعمالها.

وبالنسبة للإجابات الطبية عن أسئلتي دائمة الإزعاج أود أن أشكر الدكتورة بيتينا دراير ود. كريستيان فورجيتر، كما أتاح لي فولفجانج باسيت الوقت لطرح الأسئلة المتعلقة بالكنيسة، والسيد فاجنر من منتدى جمعية الاتصالات المتنقلة للرد على الأسئلة الفنية، والمدعي العام في برلين فرانك هيلر، وضابط شرطة بيرندورف روبرت فرويهوفر، ويان جوجه من الشرطة

الجنائية في برلين لطرح أسئلة الشرطة الجنائية.. شكرًا لكم على الوقت الذي سمحتم به.

كلب جاك راسل داستي موجود بالواقع، ظل ينتظر وقتًا طويلًا حتى حصل أخيرًا على دور في رواية، كما أن برج المجانين يقع أيضًا في فيينا، وسراديب الموتى في كنيسة القديس ميشائيل في فيينا كانت بمثابة نموذج لكنيسة القديسة مريم الخيالية، تمكنت من التعرف على كلا الموقعين في أثناء القراءة.

بعض الاقتباسات التي جرت على لسان شخصيتي مارتن شنايدر -أرجو المعذرة: مارتن س. شنايدر- تأتي من جان سيبيليوس، وديتمار كرامر، وجان بول، ومارك توين، وميشائيل ماري يونج، وماري فون إبنر إيشنباخ، بالإضافة إلى العبقري هاري روفولت. أنا آسف، لقد سرقت هذه الأقوال المأثورة دون خجل؛ لأنها جيدة جدًّا بحيث لا يمكنني إلا أن أستخدمها في رواية.

وكما فعلت من قبل في رواية «صيف الانتقام»، أتوجه بالشكر الخاص إلى رومان هوكه ود. أوفي نيومار من وكالة الأدب الدولية AVA على ثقتهما ودعمهما الرائع.

أنا مقتنع -على حد تعبير ويليام فوكنر- بأن الكتابة لا تتعلق بالشهرة وبالتأكيد ليست بالربح، بل بخلق شيء من مادة العقل البشري لم يكن موجودًا من قبل؛ ولذلك أود أن أشكر إريس جريدلر من نادي بيرتسلمان، التي -إن جاز التعبير- اكتشفتني وطورت معي المادة اللازمة لهذه القصة المثيرة، لقد أظهرت لي نقاط الضعف في سبع مسودات تفصيلية إجمالًا حتى وصلنا أخيرًا إلى هذه الحبكة.. أشكرك على صبرك غير المعقول، وآمل أن يكون الأمر قد استحق كل هذا العناء.

آخر موعد للقتل

"حبكة جروبر تستحوذ عليك من الصفحة الأولى إلى الأخيرة".

- Amazon

"مع 'آخر موعد للقتل' كتب أندرياس جروبر رواية مثيرة تجذب الانتباه بشخصيات مثيرة للاهتمام وجو مظلم ومسار أحداث مشوق".

- Media-Mania

"رحلة مظلمة ومثيرة إلى عقل قاتل متسلسل".

- Publishers Weekly

"إذا عرفت سبب اختطافي لهذه المرأة في غضون ٤٨ ساعة، فستبقى على قيد الحياة. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فسوف تموت!".

بهذه الرسالة تبدأ لعبة القاتل المتسلسل المنحرفة. يقوم بتجويع ضحاياه، أو إغراقهم بالحبر، أو تغليفهم أحياء بالخرسانة. تبحث مفوضة ميونيخ، سابين نيميز، بشدة عن تفسير ودافع. فقط عندما تستدعي زميلًا هولنديًا هو المحقق مارتن شنايدر، يكتشفون نمطًا واحدًا على الأقل وهو "كتاب أطفال قديم بمثابة مصدر إلهام قاسٍ لمرتكب الجريمة"، والذي لا يزال يحتوي على العديد من الأفكار.

أندرياس جروبر

وُلد في فيينا عام ١٩٦٨، ودرس في جامعة فيينا للاقتصاد والأعمال. كتب العديد من القصص والروايات الناجحة في أدب الجريمة، وقد حازت على جوائز كثيرة وتُرجمت إلى عدة لغات. رُشِّح لجائزة فريدريش غلاوزر لخيال الجريمة، ورُشِّح مرتين لجائزة ليو بيروتز لخيال الجريمة لمدينة فيينا. حاز على العديد من جوائز فنسنت والخيال الألماني.

غلاف: عبد الرحمن خلف







bayt.alkotob.publishing@gmail.com
www.thebookhome.com
baytalkotob.publishing
bayt.alkotob.publishing